



رقم الايداع في المكتبة الوطنية - بغداد
(٦٩١) لسنة ١٩٨٨

دار الحرية للطباعة - بغداد
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دراسات في تاريخ العراق ومضاميره

الحرية والحياة المدنية

الجزء الثاني

نُجبة من أساتذة التاريخ

بغداد - ١٩٨٨

الحرية والحياة المدنية

الفصل الاول

نمو المدن وتوزيعها في العراق في العهود الاسلامية الزاهرة

**الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي**

مدن الادارة القديمة :

كان العراق عندما اتم العرب القضاء على الساسانيين وضموا الى دولتهم الواسعة ، مقسما الى اثني عشر اسقانا او كورة يضم كل منها عددا من الاقسام الفرعية ، تسمى الطساسيج ، ويبلغ مجموعها ستون طسوجا . وكان هذا التقسيم غرضه تأمين تنظيم جباية الخراج وقد ظلت هذه التقسيمات قائمة حتى القرن الرابع الهجري^(١) .

ولابد ان مراكز الاستانات كان في كل منها وال يشرف على جباية الخراج في منطقته ، وعلى سك النقود فيه ، وقد ذكرت المصادر العربية اسماء ولاية بعض هذه المراكز ، كما وصلتنا مسكوكات كتب عليها مكان سكها في حلوان ، وكسكر ، ووصلتنا دراهم كتب عليها مكان سكها في طساسيج ومنها ميسان ، ودست ميسان ، والفرات ، وابرقباز ، وكلها من طساسيج كور دجلة في جنوبي العراق ، ومسكوكات في البهقباذ الاوسط ، والبهقباذ الاسفل والمدينة العتيقة^(٢) ، وكلها في العراق الاوسط .

وذكرت المصادر اسماء ولاية بعض هذه الاقسام ومراكزها ، فذكر ابن خردادبه ان البهقباذ الاوسط يشمل باروسما ونهر الملك ، مما يدل على ان باروسما التي يتردد ذكرها في الاخبار كانت مركز البهقباذ الاوسط . وذكر اليعقوبي ان دير العاقول مدينة النهروان الاوسط^(٣) ، وان جرجر مدينة النهروان الاسفل^(٤) ، ولعله قصد بذلك ان كلا من دير العاقول وجرجر ايا كانت مركزا لاستان ، ولا توجد معلومات عن اسماء بقية مراكز هذه الاقسام الادارية او مدى اهميتها .

ولا بد ان اختيار اماكن لاقامة الولاة والعمال كان يراعى فيه احوال معينة ، وان اقامة الوالي يكسب المكان اهمية خاصة ويوصف احيانا بانه « منبر » غير انه لا توجد في تشريعات الدولة احكام تحديد اصناف مراكز التجمع البشري والتمييز بينها او تحديد حقوقها وامتيازاتها . وقد استعمل الكتّاب تعبيرات متعددة لوصف مراكز التجمع مثل البلدة ، والحاضرة ، والمدينة ، ولكن هذه الاستعمالات كانت كيفية ولا تقوم على تدقيق قانوني ، غير ان تدهور الاحوال العمرانية وركود الاحوال الاقتصادية في العراق قبل مجيء الجيوش العربية كانت من عوامل تقلص الحياة المدنية وقلة المدن ، وغلبة الريف والقرى في العراق .

أثر العرب في التطور وازدهار المدن :

ولما اتم العرب ضم العراق الى دولتهم الواسعة حدثت تطورات واسعة على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية ، فقد اصبح ضمن دولة لها سلطة مركزية واحدة تهيمن على أقاليم وارااضي كثيرة ، وبذلك وحدتها ، وأزالت الحواجز التي كانت تفصل اجزاء ما وثبتت الامن والسلم والاستقرار ، ويسّرت حرية العمل والتنقل والتجارة ، ووفرت مجالات الازدهار لابناء الشعب دون حصر الاهتمام بطبقة محدودة مستغلة ، وبذلك تنامي انتعاش في الصناعة ونتاج السلع الاستهلاكية الشعبية ، ونشطت التجارة ونقل السلع بين مراكزها في داخل العراق ، بالاضافة الى ما كان يردّه او يمر به من تجارات اقاليم المشرق وبلاد المحيط الهندي ، كما ازداد توثق العلاقة مع جزيرة العرب وأهلها الذين حدثت في احوالهم تطورات واسعة ، وزاد قدوم البدو الى حواضر العراق لبيع الفائض من منتوجات مواشهم او لاختذ الميرة ، وكذلك تصدر ما ينتج في اقاليمها وخاصة اليمن والبحرين وعمان من منسوجات ورماح وسيوف ومعادن .

قد تهدده ، هذه المراكز كانت حلوات ، وماسبندان ، وقرقيسيا ، والموصل ،
والسلم ، وتأمين الحياة المطمئنة التي تؤدي الى الاستقرار والازدهار وكان
الوالي العربي رمز السلطة وممثلها تسانده قوة عسكرية تؤمن الاستقرار
وحماية الحدود وتوسيع الدولة . وتطلب هذا اتخاذ مراكز ادارية خاصة
بالاضافة الى الكوفة والبصرة اللتين كانت كل منهما المركز الرئيسي لادارة
العراق والاقاليم التابعة له في الادارة .

تطلب الحفاظ على الامن اتخاذ مراكز ثانوية تقيم فيها حاميات من المقاتلة
العرب في المناطق المهددة لاجل القيام بعمل سريع للقضاء على الاخطار التي قد
تهدد الامن والاستقرار ، وقد اتخذ سعد بن ابي وقاص اربعة مراكز في اطراف
العراق تقيم في كل منها قوة من المقاتلة العرب لحماية العراق من الاخطار التي
قد تهدده، هذه المراكز كانت في حلوان ، وماسبندان ، وقرقيسيا ، والموصل ،
والمركزان الاولان يقعان في الاطراف الشرقية من العراق ، وقد اعدا لصد أي هجوم
فارسي محتمل ، اما الموصل وقرقيسيا فكانتا في الاطراف الشمالية . وكان
على الحاميات فيهما صد اي خطر رومي يقدم من تلك الاطراف . غير انه
بالقضاء على دولة الفرس بعد معركة نهاوند ، واقضاء الروم عن الاطراف
الشمالية بعد ان ضم العرب الجزيرة الفراتية انتفت الحاجة الى ابقاء هذه
الحاميات في تلك المراكز .

وبعد انتصار العرب في معركة نهاوند اتخذ سعد دستبى قاعدية
عسكرية امامية بوجه الديلم ، وجعل عليها اربعة قواد هم عصمة بن عبدالله
الضبي ومهلل بن زيد الطائي ، وسماك بن عبيد العبيسي ، وسماك بن
مخرمة الاسدي ، وسماك بن خرشة الانصاري^(٤) .

ثم اقيمت حاميات عسكرية في عدد من المراكز التي لمواقعها اهمية
عسكرية ازاء حركات الثوار والمتمردين . ومن اهم هذه المراكز المدائن التي
اتخذها سعد بن ابي وقاص مقرا له ولجنده الى ان انشئت

الكوفة فانتقلوا عنها ، ولكن ابيح لمن اراد البقاء فيها ، فبقي فيها عدد من الافناء واكثرهم من عبس^(٥)، وظل يقيم في المدائن طوال العهد الاموي رجال من اهل الكوفة ويوتات الناس وبها مقاتلة لاتسعا عدة ان كان بأرض موخي (شرقي دجلة) او بارض الانبار^(٦) . وكانت الحامية فيها في سنة ٧٦ هـ الف فارس اخذ منهم عدي بن عميرة خمسمائة لقتال الخوارج^(٧) الفراتية وجعلتا تابعتين لوالي الشام .

وفي زمن خلافة عثمان بن عفان الحقت الموصل وقرقيسيا بالجزيرة الفراتية وجعلتا تابعتين لوالي الشام سنة .

ومن الاماكن التي كانت توضع فيها قوات عسكرية الراذان ، وكانت مسلحتها ثابتة ، يؤخذ افرادها من مقاتلة الكوفة^(٨) ، وذكر من هؤلاء المقاتلة ابراهيم النجفي^(٩) .

وفي زمن خلافة الامام علي كانت من الانبار مسلحة تبلغ خمسمائة رجل عليهم اشرس بن حسان البكري^(١٠) كما كانت لهشام بن عبد الملك وغيره من الخلفاء الامويين ببغداد خمسمائة فارس رابطة يغيرون على الخوارج اذا خرجوا من ناحيتهم قبل ان يضعف امرهم .

لا ريب في ان هذه الحاميات العسكرية كانت تقام في اماكن معمورة ، وكانت اقامتها تزيد من اعمار ورخاء المكان الذي تقيم فيه ، لان المقاتلة العرب كانوا ياخذون العطاء ، فكانت عندهم قوة شرائية لاقتناء حاجاتهم من الاسلحة والالبسة والمأكول ، الامر الذي يولد نشاطا اقتصاديا ، وقد يساعد على انماء هذه المراكز دون ان تجتث تنظيماتها السابقة التي لانعلم عن تفاصيلها .

الامصار الجديدة : واسط وبغداد وسامراء :-

وفي سنة ٨٠ شيد الحجاج مركزا ثالثا قرب كسكر وسماه « واسطا » ، لوقوعه في مسافة متوسطة بين الكوفة والبصرة ، وكان الغرض الاول من انشائها ايجاد مركز للمقاتلة العرب ممن يعتمد عليهم بعد ان كشفت الحوادث

ان كلا من البصرة والكوفة اصبحت مركز نشاط مناوئء للدولة ، وقامت فيها ثورات هددت الامن والسلم ، وقد وضع الحجاج لواسط تنظيمات تشبه ما في الكوفة والبصرة ، وكان لها وال خاص ، وعندما كانت تجمع ولاية العراق في شخص واحد ، كان هذا الوالي يعين واليا على واسط وعلى احد المصريين عندما لا يقيم فيه ، كما اصبحت واسط المركز الوحيد لسك الدرهم بين سنتي ١٠٤-١٢٨ هـ ، واحتفظت بسمتها العسكرية امدا غير قصير ثم تحولت بالتدريج الى مركز للحركة الفكرية .

ولما ولي العباسيون الخلافة ، اتخذوا مقرهم في العراق ، وقضوا السنوات العشر الاولى ينقلون مركزهم من الكوفة الى الهاشمية التي شيدها بلصق الكوفة ، ثم تحولوا الى الانبار ، وعادوا بعدها الى الكوفة ، ولم يطل مقامهم فيها ، فقد شيدها مدينتهم الجديدة « دار السلام » وهي بغداد ، على دجلة في منطقة كانت فيها المزارع والقرى والاديرة ، وجعلوها مدينة للخليفة واسرته وحاشيته وحرسه وجيشه ، ومركز ادارة العراق والدولة ، وسرعان ما نمت فاصبحت اعظم مراكز الدولة في الحياة الاقتصادية والفكرية، وادى قيامها الى تناقص الاهمية الادارية لكل من الامصار ادارة الدولة ، وادى قيامها الى تناقص الاهمية الادارية لكل من الامصار الثلاثة الاولى وهي الكوفة والبصرة وواسط التي اصبح لكل منها وال يشرف على ادارة المدينة وما حولها فحسب، ولكنها احتفظت بحياة فكرية مزدهرة ونشطت دراسة جوانب غير قليلة من المعرفة .

ولما ولي المعتصم الخلافة شيد سامراء ونقل اليها مركز الخلافة ، وانتقل معه الوزراء ورؤوس الدواوين وجيشه ، والحقت بها بعض الاراضي من الموصل ، غير ان بغداد احتفظت بمسكاتها الاقتصادية والفكرية كأكبر مركز في العالم الاسلامي ، وما لبث الخلفاء ان عادوا اليها بعد ثمانين سنة ، فقتضت سامراء ، وتابعت بغداد نشاطها ، وظلت محتفظة بمسكاتها مركزا

للخلافة العباسية ومرجعا لاقاليم الدولة الاسلامية ، الى ان استولى عليها
المغول سنة ٦٥٦ هـ وازالوا الخلافة العباسية .

مدن الادارة المدنية :

لاريب في أن تأسيس كل من واسط ، وبغداد وسامراء رافقه تعديل في
التقسيمات الادارية للعراق ، ولم يعد بالامكان السير حرفيا على المبدأ
القديم وهو ان كل مصر مسؤول عن ادارة البلاد التي فتحتها مقاتلة ذلك
المصر ، وهو مبدأ يؤول تطبيقه الى ان يصبح والي الكوفة مسؤولا عن
ادارة العراق واقاليم شمالي الهضبة الايرانية ، ووالي البصرة مسؤولا عن
ادارة كور دجلة والاحواز واقاليم جنوبي الهضبة الايرانية .

اشارت بعض المصادر الجغرافية الى طبيعة بعض المعالم العمرانية
فاليحقوبي مثلا وهو ممن يحرص على وصف المعالم الحضرية ذكر عن دير
العاقول وجرجايا بان كلا منهما مدينة طسوج بعينه ، اي ان المدينة هي
مركز اداري ، وذكر ان قصر ابن هيرة « مدينة عامرة جليلة ينزلها العمال
والولاة» (١١) وجبل (١٢) ، والمبارك ، وحلوان (١٣) ، وذكر ان جسر النهر وان
« بلد جليل قديم» (١٤) .

اما الاصطخري فذكر ان « الجامعان منبر صغير حوالها رستاق
عامر» (١٥) ولم يصف غيرها بانه « منبر » غير انه ذكر عددا من معالم العراق
وصف كلا منها مدينة : فذكر البصرة ، والابلة وعبادان ، والمفتح ، والمذار ،
وواسط ، والكوفة ، والحيرة ، وصرصر ، والنهر وان ، والمدائن ، والدسكرة
وتكريت ، وعكبرا ، والبردان ، والنعمانية ، ودير العاقول ، وجبل ،
وجرجايا ، وفهم الصلح ، وفهر سابس ثم قال « وسائر ما ذكرنا على شط
دجلة من المدن فهي متقاربة في الكبر ليس بها مدينة كبيرة ، وهي مشتبكة
العمارة ، وكذلك لكل مدينة من ذلك كورة» (١٦) وتظهر جملة الاخيرة ان

كلا من هذه المواضع كان مركز كورة أي مركزا اداريا ، ولكنه لم يذكر اسم اي من هذه الكور ، كما ان كلامه يدل على ان المدن متباينة في الحجم ولا ريب في ان عدم ذكره الطساسيج واي من الاستانات القديمة يدل على انها كانت قد زالت في زمنه •

اما المقدسي فانه ذكر للعراق ثمانية معالم سمي كل منها « قصبة » وذكر لكل منها عدة توابع سمي كلا منها « مدينة » •

للبصرة : الابله ، نهر الذير ، مطارا ، مذار ، نهرزيان ، بدران ، بيان ، نهر الامير ، نهر القديم ، عبادان ، ابو الخصيب ، نهر دبا ، المطوعة ، القندل ، المفتح ، الجعفرية •

وللكوفة : حمام عمر ، الجامعين ، سورا ، النيل ، القادسية عين التمر •

ولبغداد : بردان ، النهروان ، كارة ، الدسكرة ، طراستان ، هارونية ، جلولا ، باجسري ، باقية (بعقوبا) بوهرز ، كلواذي ، درزيجان ، المدائن ، اسبابر ، كيل ، سيب ، دير العاقول ، النعمانية ، جبل ، عبرتا ، بابل ، قصر هبيرة ، عبدس نهرابا •

ولواسط : فم الصلح ، نهر سابس ، درمكان ، باذين ، قراقبة ، سيادة ، السكر ، قرقوب ، الطيب ، لهبان ، البسامية ، اودسه •
وناحية البطائح مدينتها الصليق ، ولها جامدة ، هرار ، الحدادية ، الزبيدية •

ولحلوان : خائقين ، زبوجان ، المرج ، شلاشان ، الجامد الحر ، السيروان ، بندنيجان •

ولسامرا : الكرخ ، عكبرا ، الور ، الجامعين ، بت ، راذانان ، قصر
الجص ، جوى ، ايوانا ، بريقا ، سنديه ، راققروبه ، دمما ، الانبار ،
هيت ، تكريت ، السن (١٧) .

ان القصبات التي ذكرها كانت ، فيما عدا حلوان والبطائح ، منذ
القديم مراكز ادارة عسكرية ومقام خلفاء او كبار ولاية . اما المدن التي
ذكرها ويبلغ عددها قرابة التسعين فمنها عدد لم يرد ذكره في أي مصدر اخر
غير انه في كلامه عن العراق وصف عددا من هذه المدن التي ذكرها من حيث
سعتها وعمرانها وسوقها وجامعها ، ومزارعها والصناعات في بعضها . كما
افرد فقرة عما اشتهرت به بعض المدن من الصناعات ، ومن الواضح ان هذه
الصناعات مما يفيض عن حاجة البلد ويصدر الى غيره ، مما يدل على ان
كثيرا منها كان اهلها يعملون في الصناعة والتجارة .

ولا بد ان ما ذكره يصف تقسيمات للادارة المدنية ، وليس لجباية
الخراج الذي استهدفته التقسيمات القديمة ولا بد ان كلا من القصبات
الرئيسية والمدن التي تتبعها كان لها تنظيم اداري قد يشمل الولاية والجباة ،
وربما القضاة ، ولكن المصادر لم تقدم تفاصيل عن كل ذلك ، كما انها لم تذكر
الاساس الذي قام عليه التقسيم ، غير انه يدل تقارب مواقع كثير من هذه
الاماكن على انها كانت مراكز حضرية ، وان كانت تتباين في السعة ومدى
النشاط الاقتصادي والاجتماعي .

ومنذ القرن السادس الهجري تتردد في المصادر تقسيمات جديدة في
العراق تشمل تكريت ، ودجيل ، ونهر عيسى ، ونهر الملك ، وقوسان ،
والحلة ، اضافة الى واسط والبصرة ، ولكل من هذه الاقسام صدر ومشرف
وناظر وقاض وشحنة .

وقوام المدن على نشاط الصناعة والتجارة التي نمت بعد مجيء العرب
بفضل الموارد الكبيرة التي كانت توزع على السكان فتزيد من قابليتهم على

الشراء خاصة ان الدولة لم تضع قيودا على ممارستها ، ووفرت للصانع والعمل حرية التنقل والعمل، وابتاحت لهم متابعة تقاليدهم الخاصة في الصناعة^(١٨) .

هاجر عدد غير قليل من العمال والصناع ورجال الاعمال والتجار الى الامصار الجديدة التي انشأها العرب ، وهي الكوفة والبصرة ثم واسط وبغداد وسامراء ، فسدوا بهجرتهم كثيرا من حاجات هذه الامصار في العمل والصناعة ، وكان لهم اثر غير قليل في تطور سماتها العسكرية وتحوله تدريجيا الى سمات بورجوازية^(١٩) .

تنامي المراكز الحضرية والمدن :

غير ان عددا اكبر منهم فضل المقام في موطنه القديم والعمل فيه وتصدير الفائض من منتوجه الى هذه الامصار وغيرها ، وبذلك تنامي انتعاش يصعب رصد خطواته ، لان المصادر اقتصرت على ذكر اسماء المواضع دون وصفها ، كما ان العرب لم يضعوا شروطا ومواصفات لكل من التعابير الحضرية ، عدا مراكز الادارة التي صنفوها تبعا لعمالها الاداري وليس لنوع الحياة فيها . بل حتى جغرافيي القرن الرابع الهجري الذين عنوا بذكر المدن ووصفها لم يرددوا في وصف مدن العراق التعابير التي رددوها في وصف المعالم الحضرية في الحجاز او في اقاليم المشرق .

ازدهار التجارة واثره :

وبالاضافة الى نمو الصناعة واثناج السلع الاستهلاكية « الشعبية » فقد نمت التجارة وقل السلع ، وافاد العراق من هذا النمو فوائد واسعة ، وكانت بعض هذه السلع تورد الى العراق لتستهلك فيه ، وبعضها تمر بالعراق الى الاقاليم الاخرى ، فكان كثير من منتوجات بلاد المحيط الهندي تمر عبر العراق الى بلاد الشام ، كما ان منتوجات اقاليم المشرق بما في ذلك منسوجات خراسان القطنية ، ومنسوجات الأحواز الحريرية ، ومنسوجات الاطراف الشمالية من هضبة ايران تصدر الى العراق ، أو تمر به الى بلاد الجزيرة .

ثم ان انتشار الامن والاستقرار في شبه جزيرة العرب وازدياد علاقة
اهلها بالعراق اسهم في انماء تجارته مع اقاليمها ، اذ لابد ان قدوم اعراب
الجزيرة اليه ازداد الفائض من منتوجات مواشيهم من صوف وشعر
ولبن ودهن وجلود او لاخذ الميرة من التمور والحبوب ، كما
أزدداد استيراد ما تنتجه اليمن من منسوجات وجلود وسيوف ومعادن ،
وكذلك مع البحرين وعمان مما يحتاج اليه اهل العراق .

وكانت معظم المنتوجات المستوردة للاستهلاك المباشر ، غير ان بعضها
يكون مواد أولية لصناعات تقوم في العراق ، وبذلك زاد نمو الصناعة بما
توافر لها من مواد أولية .

ساعد نشاط التجارة على انماء المراكز الحضرية في المحطات الرئيسة
على الطرق التي تسلكها التجارات ، والمسالك النهرية لهذه الطرق هي
دجلة والجهات العليا من نهر الفرات ، اما المسالك البرية فاكثرها تسير
موازية للأنهار ، لذا ان اغلب هذه المحطات تقع على ضفاف الأنهار ،
خاصة دجلة والفرات ، وبمسافات متقاربة بينها مما يناسب حاجة القوافل .

وعنيت الدولة بالطرق الرئيسة التي تصل بغداد ، فعيّنت واليا من كبار
القادة والاداريين على كل من « طريق الموصل » و « طريق الفرات » الذي
يمتد الى الجزيرة وبلاد الشام ، و « طريق الحج » الذي تسير عليه قوافل
الحجاج الى الحجاز ، و « طريق خراسان » الذي يسير شرقا الى الهضبة
الايرانية ، وكان تحت تصرف كل من هؤلاء الولاة قوات عسكرية تصد من
يحاول العبث بالامن والاعتداء على القوافل . ولا بد ان استتباب الامن
اسهم في نمو محطات القوافل ، ولا نبالغ في القول بان هذه المحطات اصبحت
اهم مدن العراق بعد المراكز الاربعة الكبرى بغداد والبصرة والكوفة

وواسط ، ومما يظهر اثر التجارة في نمو هذه المحطات هو انها لم تكن مراكز ادارية • وقليل منها كان مركز صناعات مختصة للتصدير •

تنظيم المدن :

نمت هذه المراكز واستقرت وتطورت الحياة الحضرية فيها بعد ان اصبح العراق ضمن الدولة الاسلامية ورافق هذا التطور استقرار الدولة الاسلامية وانتشار الاسلام في العراق ، ولا بد ان هذه الاحوال اثرت في توجيه تنمية هذه المدن بما ينسجم مع الاتجاهات العامة للتنظيمات الاسلامية ، ولذلك يصح القول بانه كان ينطبق عليها كثير مما عرف من الخصائص العامة للمدن الاسلامية ، علما بانه لم تعرف في العراق مدينة تقطنها جالية اجنبية تكون كل سكانها وتكيف تنظيم المدينة التي يسكنونها على وفق اتجاهاتهم •

ذكر عدد من المفكرين المسلمين الشروط الواجب توافرها لتأسيس المدينة ونموها ، وابرز هذه الشروط توافر الماء ، وملائمة المناخ ووجود السوق • غير انهم لم يذكروا المبادئ التي على اساسها تتحدد المدن وتتميز عن مراكز التجمعات البشرية الاخرى كالبلدة والقرية والسوق ، وذكر بعض الفقهاء ان من شروط الامصار اقامة صلاة الجمعة فيها ، ولكنهم اختلفوا في هذه الشروط ، فذكر بعضهم وجوب وجود وال فيها ، وذكر بعضهم الحد الأدنى لعدد سكانه ، واختلفوا في هذا العدد حتى وصل عند بعضهم الاربعين رجلا « كافيا » لاقامة صلاة الجمعة^(٢٠) •

ولا بد ان اختيار الدولة اماكن لاقامة الولاية والعمال كان يراعى فيه توافر احوال معينة، والراجح ان اقامة الوالي يكسب المكان اهمية كأن يوصف بانه « فيه منبر » او غير ذلك •

لم تضع الدولة في تشريعاتها احكاما « لتحديد اصناف مراكز التجمع البشري والتميز بينها ، او تحديد حقوقها وامتيازات بعض • لذلك كان استعمال الكتاب تعبيرات كالقصة او المدينة ، او البلدة او الحاضر » وصفا « لمراكز التجمع انما هو استعمال كيفي غير قائم على تدقيق قانوني •

غير ان الاحوال العامة التي سادت في الدولة كان لها اثر على اوضاع المدن وتنظيمها • واول مظاهر هذه الاحوال هو ان جميع البلاد اصبحت ضمن دولة اسلامية واحدة على رأسها خليفة واحد ، ومن ابرز واجباتها نشر السلم والاستقرار وحفظ الامن ، وان تكون كلمة الله هي العليا في جميع البلاد ، ويتوفر للسكان حرية العمل والتنقل واتخاذ التنظيمات التي يرونها مؤمنة لمصالحهم ، على ان لا يكون في ذلك تحد لمكانة الاسلام او مناقض لاسس مبادئه واخلاقاته ، ولا يهدد الامن •

وكان لهذه الاحوال تأثير على تخطيط المدن ، فمسؤولية الدولة في نشر الامن والاستقرار تطلب ان تخلو هذه المدن من اقامة الجند الا من المراكز التي يقيم فيها الخليفة او تكون مهددة من الغزو الاجنبي ، والواقع ان الحاميات العسكرية التي وزعها الامويون في عدد من المراكز في العراق لم يعد لها ذكر في زمن العباسيين الذين وضعوا مسؤولية حفظ الامن في المدن على « صاحب المعونة » وفقدت الكوفة والبصرة سماتها العسكرية التي فرضتها اقامة المقاتلة فيها ، وبذلك سادت في المدن مظاهر الحياة « المدنية » التي فيها كثير من الاختلاف عن الحياة « العسكرية » •

وبالنظر لاستتباب الامن فقد انتفت الحاجة الى اقامة الاسوار الحصينة حول المدن، بل حتى بغداد التي وضع لها ابو جعفر المنصور عندما اسسها سورا « حصينا » حول المدينة المدورة ما لبثت ان توسعت وازدحم السكان حولها.

ولم يكن حول منازلهم في الارياض اسوار * ولم يذكر عناية العباسيين لمدن العراق ، سوى تسويرهم البصرة والكوفة في زمن ابي جعفر (٢١) *

وفيما عدا الامصار الثلاثة الاولى : الكوفة والبصرة وبواسط ، ومركزي الخلافة في بغداد وسامراء ، لم تفرض الدولة تحديدا « على توسع المدن او شكلا » خاصا « يتخذ تنظيمها ، فكان التوسع والتقليص يجري تبعا للتطورات العامة ، وليس على احكام مفروضة *

وكان في كل مدينة جامع رئيس واحد لاقامة الجمعة ، وفي موقع متوسط من المدينة ، ويتجه بناؤه نحو القبلة ، وله مظاهر معمارية يخرج وصفها عن نطاق دراستنا ، وتختلف الجوامع بحجمها وطرزها المعمارية *

اما مقام الولاية في المراكز الادارية ، فكان في زمن الخلفاء الراشدين والامويين قرب الجامع ، ولم تذكر المصادر مواقع مقامهم في العصر العباسي ، علما بان كتب البلدان التي عنت بوصف المدن اشارت الى ان كثيرا من مدن اقاليم المشرق في كل منها يقيم فيها الوالي ، وحولها ربض غير مسور تكون فيه مساكن الناس والاسواق والجوامع ، غير انها لم تذكر وجود مثل ذلك في مدن العراق ، مما يدل على ان هذه المدن لم يكن فيها هذان القسمان المتمايزان (القلعة والربض) *

وبالقرب من الجامع تقع الاسواق ، واكثرها دكاكين في دروب يختلف طولها ، والغالب ان اصحاب كل حرفة تكون دكاكينهم متقاربة في درب واحد ، والغالب ان تكون حول الجامع دكاكين تبيع ما يتصل بالمتدنيين واهل العلم من شموع وكاغد واحذية ، ومن ورائها اسواق لمبيعات الاثاث والاقمشة والملبوسات وبعض المصنوعات ، اما اسواق المنتوجات الغذائية والاشخاب فتكون عادة قرب شواطئ الانهار *

يكون اصحاب السوق الواحد علاقات بينهم يقويها تقارب مواضع العمل والمصالح المشتركة ، وقد ينظمون انفسهم باصناف لكل منها رئيس يختارونه ، ويشرف على العلاقات بينهم ، ويعمل على حل الخلافات التي قد تظهر في معاملاتهم . ولا تتدخل الدولة في هذه التنظيمات ، ولكنها تعين « محتسبا » او « عاملا على السوق » يراقب اصحاب السوق لمنعهم من غش سلعهم او مخالفتهم المبادئ الاخلاقية العامة في معاملاتهم .

وتكون مساكن الناس وبيوتهم حول الجامع والاسواق ، ممتدة في طرق ودروب متفرعة وكثير منها ضيقة ملتوية ، واكثر البيوت صغيرة في كل منها غرف قليلة ، اما الاغنياء والوجهاء فتكون بيوتهم واسعة فيها غرف كثيرة ، وقد تكون في داخلها حدائق والغالب ان تكون بين اهل المحلة روابط مشتركة ، كأن يكونوا في الاصل من عشيرة واحدة ، او يعتنقوا دينا او مذهبا واحدا ، وتقام في بعض هذه المحلات المساجد يصلي فيها اهل المحلة ، وقد يقيمون بعض مراسيم الاجتماع كالزيجات والمآتم كما تقام في محلات اهل الاديان الاخرى الكنائس وابنية العبادة .

ويشترك الاهلون في القيام ببعض الخدمات العامة كالانارة واطفاء الحرائق ، وقد يوقعون املاكا يصرف ريعها على المعوزين والمحتاجين .

وكثيرا مايكون السكان علاقات متداخلة بعضهم مع بعض، ويظهر فيهم من يخص بالاحترام والمكانة المرموقة من الوجهاء والعلماء ، وتكون مكانتهم تبعا لشخصياتهم وسلوكهم ، وليس لاي منهم مكانة وراثية او امتيازات قانونية ، فالشعب في نظر الحكومة واحد ، وافراده في نظر القانون متساوون ولهم حرية التصرف بما لا يخل بالامن او الاداب العامة ، وهم ينظمون حياتهم ويسيرونها على وفق عادات وتقاليدها تتطور ببطء وتحفظ للمدينة مكانتها ، ومن حيث العموم تفخر المدن بما تنجبه من العلماء ، او ما تنتجه من السلع المتميزة .

غير ان المدينة تتميز عن الريف بان اراضيها تكون ملكا لاصحابها ،
وفيه عدد محدود من الموظفين وابرزهم القضاة والشرط والمحتسبون وجباة
بعض الضرائب ، وتنحصر اختصاصات عملهم على المدينة وحدها . والرابطة
الاساسية المميزة لها هي الوالي الذي تعينه السلطة المركزية ، والجامع الذي
تقام فيه صلاة الجمعة بالاضافة الى الصلوات الاخرى .

الهوامش :

- ١- الممالك لابن خرداذبة ٧-١٠ ، الخراج وضعه الكتاب لقدامة بن جعفر .
- ٢- انظر : كتالوج النقود العربية ، لولكر (بالانكليزية) ، وكذلك الجداول الملحق بكتاب (النقود الاسلامية) لزامباور (بالالمانية) .
- ٣- الطبري ١/٢٤٩٧ .
- ٤- الطبري ١/٢٦٤٩ .
- ٥- الطبري ١/٢٤٨٧ .
- ٦- الطبري ٢/٩٨٠ .
- ٧- الطبري ٢/٨٩٩ .
- ٨- الاغانى ٢٠/٦٥ .
- ٩- الطبقات لابن سعد ٦/١٩٥ .
- ١٠- الطبري ١/٢٤٤٥ .
- ١١- البلدان ٢٤١ .
- ١٢- البلدان ٢٤١ .
- ١٣- البلدان ٢٧٠ .
- ١٤- البلدان ٢٦٩ .
- ١٥- المسالك ٨٦ .
- ١٦- المسالك ٨٧ .
- ١٧- احسن التقاسيم ٥٣-٥٤ ، ١١٣-١١٤ .
- ١٨- انظر طبقات ابن سعد ٦/٢١ ، اخبار القضاة لوكيع ٢/٢٥١ ، ٣٧٢ صحيح البخاري : بيوع ٢٥ .
- ١٩- انظر تفاصيل أوفى في كتابنا « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » .
- ٢٠- انظر في ذلك السعادة والاسعاد لأبي الحسن العامري ٣٦٥ مما ليس في تسهيل النظر للمواردى ، سلوك الممالك لابن أبي الربيع ، ٧٧ فما بعد ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧ (٤٩ ، ٥٠) .
- ٢١- انظر عن تحديد سور البصرة كتابنا ، خطط البصرة ومنطقتها .

الفصل الثاني

الامصار العربية في العراق

الكوفة والبصرة في العهود الاسلامية الاولى

**الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي**

مدن شبه جزيرة العرب عند ظهور الاسلام :

تذكر المصادر اسماء اماكن كثيرة في شبه جزيرة العرب عند ظهور الاسلام وتشير الى خصائص بعض هذه الاماكن من حيث السعة او عدد السكان واعمالهم وقلمهم، غير ان المعلومات التي وردت عنها هي من حيث العموم مقتضبة فيها عدا ما يتصل بمكة والمدينة وكلاهما يقع في اقليم الحجاز ولهما علاقة وثقى بالرسول (ص) والاسلام في مطلع ظهوره ، فقد ولد الرسول (ص) من اسرة قرشية ، وعاش في مكة مدة اكثر من خمسين سنة نزل عليه الوحي طوال العشر السنوات الاخيرة منها ، وكان من اهلها معظم الصحابة الاولين، غير ان معظم اهل مكة قاوموا الدعوة الاسلامية عند ظهورها ، وتابعوا مقاومتها الى ان فتح الرسول (ص) مكة في السنة الثامنة ، ثم أخلص اهل مكة في التمسك بالاسلام والحفاظ على دولته ، اما اهل المدينة فقد بدأوا الاتصال بالرسول واعتناق الاسلام منذ السنة الثامنة للبعثة ، فلما هاجر الى المدينة ايده اهلها العرب واسهموا في تثبيت الدولة والدفاع عنها والتمسك بالاسلام ، وظلت للمدينة منذ هجرة الرسول (ص) اليها مركز الدولة الاسلامية ومقام الرسول (ص) ثم الخلفاء الراشدين الثلاثة كما بقيت من ابرز مراكز الحركة الفكرية في الاسلام .

مكة والمدينة :

تميزت مكة بانها كانت في منطقة شحيحة المياه ، قليلة الزرع « واد غير ذي زرع » غير انه كان فيها بيت الله بناه ابراهيم جد العرب فكان يحج اليه الناس من كل فج عميق، وكانت حرما آمنا يأوي اليه المنشدون للسلم والطمأنينة ، كما كانت تقع على طريق القوافل وخاصة بين اليمن وبلاد الشام

ومصر : بالاضافة الى صلاتها التجارية مع الحبشة والعراق وبعض اقاليم شبه جزيرة العرب ، ودفعت هذه الاحوال الى نشاط التجارة واسهام اهلها فيها والى نشوء نظم ادارية وسياسية تتعلق بالمصالح العامة فمن ذلك مؤسسات تتعلق بامور الحج والاهتمام بمؤسساته والحجاج كالسدانة وعمارة البيت والسقاية والافاضة ، والرفادة ومؤسسات تتعلق بالامن العام كالرئاسة والاعنة ودار الندوة ، وكانت نظمها تسري على عدد من القرى المجاورة لها « حاضري المسجد الحرام » ، فهي دولة مدنية مستقلة في ادارة شؤونها وتقرير مصالحها الخاصة ، وان كان امتداد سلطانها محدود المكان .

اما المدينة فكانت تقع في منطقة مستوية واسعة تحيطها بعض المرتفعات ، وارضها بركانية خصبة تتوافر فيها المياه الباطنية والابار والمياه في الوديان العديدة التي تخترق ارضها ، ولذلك ازدهرت فيها الزراعة وخاصة النخيل والشعير وبعض الخضر ، غير ان موقعها النائي عن مسالك القوافل جعل اهلها عند ظهور الاسلام لايسهمون في التجارة ، ثم ان اهل المدينة كانت تسودهم النظم القبلية ولها تأثيرات متداخلة من تزواج واتصالات سلمية، وتكتلات وحروب عدائية ولم يكن فيها قبل الهجرة مركز ديني عام أو مؤسسات ادارية وسياسية تهم المدينة وسكانها كافة .

الرسول (ص) والحياة الحضرية والتنظيم المدني :

وبعد ان هاجر الرسول (ص) الى المدينة واستقر فيها واتخذها قاعدة للاسلام ودولته عمل على نشر السلم والامن ، وجمع السكان برابطة عقائدية واجتماعية موحدة منبعثة من تعاليم الاسلام الذي امتدت رسالته الى التوحيد العقائدي ، وتوجيه السلوك الفردي والاجتماعي وجهة جديدة في ظل نظام يسوده الامن والسلم ويجمع للتوجه الى غاية واحدة ، اي انه اقام دولة تعنى بالعقائد والسلوك الفردي والاجتماعي ، ويتبع اهلها سلطة

مركزية عليا قائمة على اوامر الله تعالى المثبتة للمصالح العامة النافعة للمجتمع، وبذلك تأسست دولة المصالح العامة واوامر الله ، وقد اكدت هذه الدولة الجديدة على مبادئ عميقة لا تتطلب تنظيمات معقدة ، فاكدت على السلطة المركزية ووجوب طاعتها والرجوع اليها في الخلافات المهددة التي قد تظهر بين افرادها او الجماعات التي فيها ، فالمحور الاساس هو السلطة المركزية والقضاء العام ورمزه المسجد (الجامع) ومكانة الرسول (ص) ، دون الحاجة الى مؤسسات معقدة كالشرط والسجون والدواوين ، والتأكيد على العقائد والسلوك والتصرف الحسن والكلم الطيب دون الابنية الضخمة او الزخارف الحسية والمزركشات ♦

حارب الاسلام ما يناقض عقائده ومثله الاخلاقية والسلوكية ، وايد ما يتفق معها او ما يناقضها ♦ فهدفه تنقية و « تخليص » العقائد والاخلاق ودفعها لانماء المجتمع السليم ولذلك ابقى عناصر « الخير و الصلاح » في مثلهم القديمة ، ورعى مكانة الرجال اذا ما تابعوا العمل في بناء المجتمع على وفق المبادئ الجديدة « خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام » ، وهكذا حث الاسلام على التطور السلمي للمجتمع بتقديره المثل العليا السليمة من شجاعة وصدق ووفاء وتعاون وتقدير للكلمة الطيبة ، والاسلوب البليغ ، ومما زاد في قوة التفاعل بين الاساليب العربية في الحياة والمثل الاسلامية ان انتشار الاسلام في زمن الرسول (ص) كان بالدرجة الاولى بين العرب غير ان مدى تشبعهم بالمثل العربية غير واحد ، فبعضهم وخاصة الاولين والذين كانوا ملازمين للرسول (ص) او قرييين منه ، كانوا اكثر تشبعا اما الذين اسلموا في الاواخر سنوات حياة الرسول (ص) ولم يكونوا مقيمين بالقرب منه فقد كانوا اقل تشبعا في مبادئه التي يعتمد كثير منها على القناعة الباطنية وتحوير العقلية واسلوب التفكير ومواضيعه دون مجرد الاقتصار على مظاهر السلوك الخارجية ولكن ينبغي عدم المبالغة في

مدى هذا التعارض خاصة وان كلا المبدأين قائم على اساس متشابه من اللغة العربية والتقاليد السليمة للمجتمع ، فكان المجال واسعا لتوسع روح الاسلام باعتبارها رابطة اعم وهي تتفق مع كثير مما يؤمن بقيمته العرب .

وابرز مظاهر الاسلام انه حضري ، أي متصل بحياة الحضارة والمدن ، فهو يدرك ظلمها ، ويعالج حياتها ، ويبحث عليها فنظرتة شاملة ، وروابطه واسعة ، ومثله حضرية ، وهو بهذا يختلف عن البداوة ، ومن مظاهر ذلك قلة الايات التي تذكر البدو ، فهي لا تتجاوز الست ايات اغلبها في معرض الذم لخصائصهم ، ومثل هذه المظاهر تجعل الاسلام اكثر انسجاما مع مثل اهل الحضرة ونظمهم ، والواقع ان حركات الانشقاق والردة التي استمرت اثر وفاته (ص) كان اكثر القائمين بها من البدو، ورضي الرسول (ص) باعتناق البدو الاسلام وقبول مثله العليا ، وعمل على ان يكيف حياتهم بما يجعلهم بالتدريج متشبعين بروح الاسلام ومثله القرية الى الحضارة وتثبيت دولة الاسلام في الجزيرة ، مكانة الحضرة .

وعندما تم القضاء على حركات الردة وتثبيت الاسلام ودولته في كل شبه الجزيرة واستقرت مكانة السلطة المركزية العليا (الخلافة) في النفوس، اصبحت الجزيرة موحدة سياسيا في ظل دولة واحدة تؤمن بمبادئ اساسية واحدة وتعمل بتوجيهات هي اقرب الى روح الحضارة ، ويهيمن على توجيهها المركزي الخليفة ومن جوله من الصحابة وكلهم ممن تشرب الحياة الحضارية وادراك اهميتها بالصورة التي صقلها الاسلام .

وبعد ان قضى ابو بكر على حركات الردة ووجد شبه الجزيرة العربية واهلها في ظل دولة لها سلطة مركزية عليا تستمد قوتها من تعاليم القرآن الكريم الذي يحث على الوحدة وطاعة اولي الامر وجه الجيوش الى اطراف الجزيرة لتقوم بتوسيع الدولة التي كلمة الله هي العليا فيها ، وقد منع المرتدين من الاشتراك في هذه الجيوش ، ولما كان معظمهم من البدو ، فلم يكن

العنصر البدوي ، كبيرا ولكنه لم يكن معدوما كليا ، لان عددا غير قليل من البدو لم يكن قد ارتد ، وعندما ولي عمر بن الخطاب الخلافة سمح لكل أهل الجزيرة الانضمام الى الجيوش الاسلامية فكثر عدد الجيش وازدادت نسبة البدو فيه وخاصة في الجيوش التي توجهت الى جهة العراق التي اولها الخليفة عمر بن الخطاب اهمية كبيرة ، وعززها بارساليات متتابعة حتى صار عدد المقاتلين فيها لا يقل عن ارسلى الى جهة بلاد الشام .

غير ان عمر بن الخطاب حرص على رعاية العنصر الحضري وتعزيز مكائته فكان يولي « اهل المدن » القيادة ، ويتحاشى تولية « اهل الدير » على « اهل المدر » ومن الواضح ان عمله هذا ينسجم مع روح الاسلام الحضري ومع الاتجاه العام للصحابه الذين حوله في المدينة يولونه المشورة في توجيه الدولة .

تأسيس الامصار وتطور تنظيمها

الحاجة الى قواعد مستقرة :

لم يكن الغرض من ايجاد الخلفاء الجيوش التوسع والقيام بمجرد غزو مؤقت من اجل الحصول على غنائم مادية مؤقتة، وانما كان الهدف القيام بفتح منظم غرضه توسيع الدولة واستقرار حكم الاسلام ، ولتحقيق هذا الغرض تم اختيار المسالك التي تحقق ذلك ، فلم توجه الجيوش الاسلامية للاستيلاء على اغنى البقاع ، وانما لمقابلة القوى التي تعترض هذه الجيوش وتمنعها من تحقيق اهدافها . ومع ان المطلوب الاول من الجيوش الاسلامية هو الحركة ، الا ان هذه الحركة نحو اهداف واضحة ، فهي ذات اتجاهات ثابتة يقتضيها الفتح ، يعكس ما يتطلبه الغزو من حركة مؤقتة للاتجاهات ، وبما دامت المسالك واضحة والهدف ثابتا فلا بد من اتخاذ قواعد ثابتة لهذه الجيوش . وقد تم اتخاذ هذه القواعد حوالي سنة ١٦ هـ في السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب ، وفي مختلف الجبهات ، اي في وقت مبكر من الفتح ، وهو يكشف التصميم الاساس في استهداف العمليات العسكرية الفتح المنظم عن طريق القضاء على القوات التي تقف بوجه التقدم الاسلامي .

تعريف « المصير » وخصائصه :

وقد اختير لهذه القواعد اسم « مصر » وجمعها « الامصار » وهي كلمة عربية اصيلة كان يقصد بها « الحدود » ، ولم تستعمل قبل ذلك للدلالة على شكل معين من اشكال التجمعات البشرية ، وقد عرف العرب هذه الكلمة ووردت في القرآن الكريم لتطلق على الاقليم المشهور ، دون ان تكون لذلك صلة بالحدود ، او بالمعنى الذي اتخذته بعد انشائها .

ويروى ان عمر بن الخطاب عندما قرر اتخاذ هذه القواعد قال « مصروها » ، وقال « لا تتخذوا بيني وبينكم ماء » ، أي انه اشترط ان تتخذ هذه القواعد على الاطراف الشمالية من شبه جزيرة العرب ، لما في ذلك من اهمية . كما اشترط ان يكون مناخها جافا يلائم الابل ، والامصار لا تقتصر على قوات عسكرية صغيرة تقوم بعمل « السواتر » في مراقبة تحرك العدو والتصدي لتقدمه ، واعاقته ريثما تتجمع القوة الكبرى ، وانما هي قواعد استقرار رئيسة يقيم فيها العدد الاكبر من المقاتلة مع عيالاتهم لمدة دائمية ، ويجدون فيها ما يحتاجون اليه من السلع ، ويسود فيها تنظيم واسع يجمع بين السمة العسكرية والمدنية .

واتخاذ هذه الامصار في اطراف الجزيرة لايغنى ان الخليفة عمر بن الخطاب كانت طموحاته في توسيع الدولة محدودة ، او انه كان يقصد من اقامتها تدبيرا وقتيا ، فان كل المؤشرات تدل على ان هدف عمر كان استمرار التوسع وتيسير ذلك باتخاذ قواعد اكثر ملائمة للوضع الجديد من مجرد الاكتفاء بالمدينة مقر الخلافة . انه تعبير عن تيسير اشراك اهل الجزيرة كلهم في الفتوح ، فتتخذ قواعد قريبة الى ديارهم .

ان تأكيد عمر بن الخطاب ان تكون هذه القواعد متصلة بشبه جزيرة العرب دون ان يفصلها حاجز مائي معرقل يعبر عن اعتقاده باهمية سكان جزيرة العرب وكونهم عماد الدولة وركيزتها ، وهي تنسجم مع ما اورده الرواة عن توصيته من يلي الامور بعده بالعرب خيرا « فانهم مادة الاسلام » « يمدون اخوانهم » ، فجزيرة العرب هي المستودع الاكبر للعرب الذين تقوم عليهم الدولة ، فمنهم الجيش ومنهم امداداته ، ولذلك حرص على ان تكون لهم مكانة متميزة ، فمنع استرقاق العرب ، وحرر المسترقين منهم ، ودفع فدية تحريرهم ، وامر بحسن معاملتهم وعدم الشدة عليهم او تحجيرهم ، كما انه لم يشجع زواج العرب بالاعجميات ، وامر بابطال الزيجات التسي

حدثت مع نساء المدن المفتوحة ، ولا ريب في انه فعل ذلك لان الاحوال في هذا الزمن المبكر كانت تقضي ان يكون للعرب المكانة المتميزة ، اذ كان الاسلام لا يزال مقصورا على اهل شبه جزيرة العرب ، والتأييد الذي لقيته الفتح جاء بالدرجة الاولى من العرب الذين كانت ديارهم في اطراف الجزيرة وقد مالوا عند تقدم الجيوش الاسلامية الى تلك الجيوش وايدوها وناصروها دون جيوش الدول التي هيمنت على ديارهم . فاقامة هذه الامصار في اطراف الدولة يجلب عرب الجزيرة الى المناطق التي سيتوسع فيها العرب ، ويوثق الصلة بالعشائر العربية التي ديارها قريبة منها وميولها مع العرب ، والواقع ان اخبار المعارك تظهر ان غالبية هذه القبائل قانلت مع الجيوش الاسلامية، او كانت ميالة للعرب .

اهمية الامصار الجديدة :

كانت كل من هذه الامصار مركز امير الجيش المقيم فيها والذي كان عليه توسيع حدود الدولة في منطقة مصر ، وحفظ الامن والسلم في تلك المنطقة ، وتبع هذا القيام بمهام ادارية فيها اضافة الى تأمين السلم ، والمسؤولية الادارية للامصار تمتد لتشمل ما يتعلق بالمقاتلة العرب وكذلك الاقاليم التي حررها المقاتلة ، وبهذا لم تعد المسؤوليات الادارية مقصورة على مصر وحدها ، وانما امتدت الى ماوراءه من الاراضي والبلاد وقد بقيت السلطة العليا في الادارة للخليفة ، فهو المرجع الاعلى والمسؤول الاكبر ، وهو الذي يعين ولاية الامصار ويراقبهم ويعزلهم، ويصدر الاوامر الواجبة الطاعة، وبذلك كان المنسق الاعلى للادارة الاسلامية ، والمصدر الاول لتوحيد النظم التي تسود الدولة ، ولكن اصبحت لولاية الامصار مجالات واسعة في تطبيق الانظمة والممارسة الفعلية ، وبذلك كانت سلطاتهم الفعلية واسعة قد لا تقل عن سلطة الخليفة ، وخاصة في ما يتعلق بالاقاليم التابعة في ادارتها للمصر ، وزاد الصلة بين الخليفة واهل مصر الذي يقيم فيه ويتصل بأهله

وبمشاكلهم وافكارهم ، وتناقض اطلاعه على اهل الاقاليم الذين اصبح الولاة اكثر صلة بهم من الخليفة .

تم اختيار الامصار في العراق وبلاد الشام في رقعة بعيدة عن مراكز الادارة القديمة ، وتطلب هذا احداث تبدلات في التنظيم الاداري ، اذ كان لابد من نقل المراكز الرئيسية لبعض الدواوين ، وخاصة ما يتعلق بجباية الخراج والمالية الى هذه الامصار والمعروف ان العاملين القدماء في الدواوين ظلوا في عملهم، ولكن نقلهم الى المراكز العربية الجديدة من شأنه ان يؤثر في توجيههم، فمن ذلك انهم ياخذون عددا من مستخدميهم من اهل مصر ، وهم يخضعون لاشراف الولاة العرب ، كما ان قريتهم من العرب في الامصار يزيد من اطلاع العرب على شؤون الادارة المالية .

ان اقامة الامصار هو تعبير عن الاهمية الواقعية للاقاليم والعرب المقيمين فيها في تكوين الدولة وتشييدها وتنظيمها ، والواقع ان الحوادث في المدينة اصبحت مقصورة بالدرجة الاولى على انتخاب الخليفة او وفاته ومقتله والمناقشات التي يقوم بها اما الاغلبية المطلقة للحوادث المهمة واخبارها فقد اصبحت ترد من هذه الامصار ، حتى يمكن القول بان تاريخ الاسلام بحوادثه وتسجيلاته هو تاريخ هذه الامصار واسهامات العرب المقيمين فيها .

اسس اختيار الموقع :

تذكر المصادر عن عمر بن الخطاب انه وضع شرطين للمكان المختار للمصر هي ان يكون مناخها جافا صحراويا « العرب لا يصلح لها الا ما يصلح للابل » ، وان لا يفصلها عن الجزيرة العربية حاجز مائي ويمكن ان نضيف الى ذلك شرطا ضميا هو ان يكون الموقع جديدا ، اي ان يكون عربيا اسلاميا خالصا .

ان الشرط المناخي ذو اهمية للسكان ، فقد عانى المهاجرون عندما نزلوا المدينة من وخامة هوائها الناجم من كثرة المياه الضحلة فيها ، وظلت

المناطق الوخسة الهواء في الحجاز ، واشهرها خيبر والجحفة مما تكره الإقامة فيه . والواقع ان المناخ الرطب يفشي امراضا تؤثر على صحة الناس وكفاءتهم ومن ذلك الملاريا وبعض الامراض الصدرية وقد فضل موقع البصرة والكوفة على عدد من المواقع الاخرى الرطبة ، غير ان كلامها انشئ في مواقع ليست بعيدة عن الاراضي الرطبة في الجهات الجنوبية من الكوفة . وعدم فصل الامصار بحاجز مائي عن شبه جزيرة العرب غرضه توثيق الصلة بينهما ، ولا بد ان الهدف الرئيس هو عسكري دفاعي لامكان امداد اهلها وسحبهم ، ولكن له نتائج اخرى هو تيسير انماء العرب والثقافة العربية امام واقع البلاد المفتوحة عدديا وحضاريا .

الكوفة والبصرة :

أمر عمر بائشاء ستة امصار في الدولة ، منها اثنان في العراق هما الكوفة والبصرة ، وقد احتفظت كل منهما بموقعها الذي شيدت فيه منذ اول مرة ، ولم تتبدل رقعتهما وان كانت قد تعرضت الى توسع وتقلص على مر الايام .

غير ان كلا منها شيد بلبصق مركز حضاري قديم احتفظ بوجوده بعد تشييد المصر الجديد ، فالكوفة كانت ملاصقة للحيرة ، والبصرة كانت قريبة من الابلّة ، لا تزيد المسافة بينها على عشرة اميال .

وقد احتفظت المراكز القديمة بوجودها ، فلم تزل او تنقرض ، والراجح ان اهلها احتفظوا بتنظيماتهم واساليب حياتهم القديمة ، فالبصرة نمت لتكون مركزا عسكريا وثقافيا في العلوم اللغوية والدينية ، اما الابلّة فظلت مركز التجارة البحرية ولم يعرف عنها اسهام ذو قيمة في الميادين التي تميزت بها البصرة ، ولم يعرف عن اهل الحيرة اسهامهم في العلوم التي تميزت بها الكوفة ، او انهم تركوا اساليب حياتهم القديمة .

ولا بد ان لغة كل من اهل الحيرة والابلّة كانت عربية لانها في منطقة عربية ، واذا كانت معلوماتنا عن الابلّة صحيحة ، فان معلوماتنا عن الحيرة

اوسع ، فسكانها عرب ، ينتسبون الى عشائر عربية ، وكان ملوكها المناذرة. قبل الاسلام ذوي صلات واسعة باهل الجزيرة ويؤمهم شعراء الجزيرة ويعنون بالشعر العربي وكان هذا من عوامل نمو الشعر في الكوفة بعد الاسلام ، وانما ازدهر الشعر فيها استمرارا للتراث الذي كان قائما في شبه جزيرة العرب ، وهو لم يقتصر على الكوفة ، وانما امتد ايضا الى البصرة التي ليس للحيرة تأثير فيها .

التأسيس والتطور :

انشئت كل من البصرة والكوفة في الحد بين صحراء شبه جزيرة العرب ، ومناطق الريف والزراعة في العراق ، وكان لابد ان تحدث علاقات سكانية واقتصادية وحضارية بينهما ، فكان اهل المصرين يعتمدون في معيشتهم على المنتجات الزراعية التي يعمل فيها اهل الريف في غذائهم وكثير من اللوازم الضرورية لمعيشتهم ، كما ان عددا من اهل الامصار امتلك اراض في الريف وهاجر عدد من اهل الريف الى هذه الامصار واستقروا فيها ، وكانوا يعملون في كثير مما يحتاج اليه المصر من حرف وبعض الصناعات . غير انه ينبغي عدم المبالغة في سرعة ومقدار الامتزاج ، فان العرب كانت لهم الغالبية العددية ، والمهاجرون اليها من غير العرب عددهم قليل وثقافتهم محدودة وكانوا آخذين من العرب اكثر من معطين .

انشئت الامصار لتكون قواعد لاستقرار المقاتلة العرب وعيالاتهم ، فالسمة العسكرية هي التي تميز اهلها ، وحاجاتهم هي التي تحظى بالافضلية ، اللباس والسكن والسلاح ، والمثل العسكرية هي الاظهر : تقدير القتال والشجاعة والاعتزاز بالدولة بالصورة التي يدعو اليها الاسلام .

غير ان السكان لم يكونوا في قالب حضاري واحد ، فمنذ اول انشائها كان فيها من هم متشبعون بروح البداوة ، ومن هم من اهل المدر ، اي الفلاحون ورجال الاعمال والتجار ، وفيهم المعنيون بالجيش والقتال ، والمعنيون بالفكر والاداب .

وبمر الايام حدثت تطورات في الحياة العامة في كل من الكوفة والبصرة :

١ - تناقص الاسهام العسكري في الحركات الحربية في كثير من الاماكن بعد توسع الدولة : فتناقص دور اهل الكوفة منذ زمن عثمان بن عفان ، وتناقص دور اهل البصرة منذ زمن معاوية حين نقلت جالية من المقاتلة الى خراسان والقي عليها واجب حفظ الامن وتوسيع حدود الدولة في اواسط اسيا .

٢ - تناقص الدافع للقتال بعد ان تكونت الدولة واستقرت وثبتت كلمة الله العليا ، واصبح تثبيت العقيدة يتطلب استعمال الفكر دون الحماية .

٣ - ضعف التدريب العسكري عند الناشئة بازدياد انفسار الناس وخاصة الجيل الجديد بالحياة المدنية وقد يكون المنصب العسكري وراثيا ، فيسجل الولد في العطاء الذي دخل فيه والده والذي هو مظهر العمل العسكري ، غير ان التدريب العسكري ليس وراثيا دائما ، فقد ينفر الابن من الجندية ويتحاشى العمل فيها ، حتى لو سجل في العطاء ، علما باناه لا توجد اشارة الى تدريب عسكري تفرضه الدولة على الناشئة ، او ساحات للتدريب . والواقع ان الاولين تدربوا في الجزيرة وصحاريها للقيام بخدمة ضرورية ، لمجتمعهم ، ونقلوا ذريتهم الى الامصار عند تاسيسها ، اما بعد الاستقرار فان الدربة العسكرية تضاءلت ونقص كثير من اصحابها بوفااتهم او استشهادهم ، او بانضمامهم الى الثوار الذين تدل حركاتهم على تدريبهم ، ولجأت الدولة الى الافادة من القادمين الجدد من الصحراء لتسجيلهم في العطاء واستخدامهم في القتال .

اقتصرت تدخل الوالي في تاسيس المدينة على اختيار الرقعة التي تشيد عليها ، وربما المركز الرئيس ايضا وقام افراد من المقاتلة اختارهم الوالي بالاعمال المحدودة التي تولتها الدولة ، وهي تحديد المسجد الجامع ، والسكك والدروب ، وتخصيص القطاعات للعشائر ، والعرب الذين ذكر قيامهم بهذا العمل هم من اهل الحجاز ، واكثرهم من البدو ، وليسوا من الصحابة

الاولين ، ولم ترد معلومات عن خبراتهم الاولى ، ولا يوجد دليل على اتصالهم بالحضارات الخارجية ، او خبراتهم عنها ، او انهم كانوا من اهل المدن في الحجاز ، فخبراتهم فطرية اصيلة ، وليست تقليدا مكتسبا ، واهتمامهم بتوفير الاستقرار للناس وتأمين تسهيل حياتهم دون تأمين الترف لكل جماعة . والقائمون بالعمل أفراد قليلون . والعمل مركزي عام ، فالهندسة العامة قام بها عدد محدود من العرب الخلف ممن عاشوا في الجزيرة ولم يعرف لهم اتصال بالخارج او علاقة بالاعاجم ، لذا يمكن اعتبارها عربية خالصة .

كانت الرقعة التي اختيرت لتشييد كل من الكوفة والبصرة ارضا مستوية لم تذكر فيها وهاد او تعاريج او مرتفعات او مجاري انهار قد تؤثر في تنظيم الخطط . غير انه كان في الطرف الشرقي من الكوفة ارض منخفضة سبخة يتلوها نهر الفرات الذي يكون حدا لنوها الشرقي ، غير انه يكون شريان موصلات تسلكه الزوارق والسفن الحاملة لكثير من السلع ، وخاصة المواد الغذائية ، وكان له تأثير في تقرير موقع دار الرزق قرب السبخة في شرقي الكوفة .

اما البصرة فكانت مياه البطيحة تغمر اطرافها الشمالية الشرقية فتحد من توسعها في تلك الجهات ، غير انها تتصل بمجرى دجلة ويسر شق نهر معقل الاتصال بين البصرة ودجلة فكانت الزوارق والسفن تسلكه وعنده اقام جباة العشور مراكزهم .

وادي هذا الوضع الى ان تنشأ فيها بعض الاسواق وخاصة لبيع المنتوجات الزراعية المستوردة من مناطق الريف الواقعة عبر النهر . غير ان نمو هذه الاسواق ، وقيام دار الرزق ، لم يؤديا حتى في اوج نمو كل من البصرة والكوفة الى ان تنمي الاقسام الشرقية القريبة من النهر من أي منهما تنظيما خاصا يواجه الاقسام الاخرى .

ان استواء الارض وفقدان العوارض الارضية البارزة اتاح المجال

لتوسع كل من المصريين ، وامتداد الابنية فيه الى الاطراف • ولدينا عـ
توسع البصرة معلومات اوفر ، حيث ذكر عدد من القصور والمنازل الذـ
في اطرافها ، وبعضها بعيد عن عقد التجمع السكاني ، ففي الاطراف الجـ
والغربية اقيمت قصور بالقرب من سفوان والشباك وقصور قرب المـ
وقصر انس والقصر الابيض في الشمال^(٢٢) وقد ظلت امدا دون سور وخـ
غير ان النشاط الرئيس الذي يشمل ازدحام السكان والاسواق
في اواسطها ، وكان يدعى في البصرة « الباطنة » وقد احتفظ كل مـ
قرونا طويلة بمكانه الذي انشئ فيه اول مرة ، الى ان حدث تحول و
في المركز ، فانتقل مركز البصرة اميالا شرقي المكان الذي انشئت فيه ، ا
مركزها الحالي ، اما الكوفة فقد انتقل مركزها في النجف على اميال مـ
مركزها القديم •

المنشآت العامة : الجامع ودار الامارة :-

انشئت الكوفة والبصرة وبقية الامصار لاقامة المقاتلة العرب المسلمين الـ
يتبعون الدولة التي تقوم على اعلاء كلمة الله وعلى سلطة مركزية عليا تنفذ اوامـ
على الجميع فاساسها المركزي الدين والسلطة المركزية العليا ، من جهـ
والمقاتلة من جهة اخرى ، وقد روعي في تخطيط الامصار بروز هذين الجـ
وتيسير التناسق بينهما •

فكان اول ما وضع في التخطيط تحديد مكان جامع واحد روعي
ان يتسع لكل المقاتلة دون تطديد خاص لاية جماعة متميزة ابو متفرد
وقد روعي في تشييده البساطة ، فكان ساحة واسعة محددة بسيـ
قصب ، وفي طرفه ظلة من القصب ، وحوله رجة واسعة من الارض خـ
من الزخارف والتزيينات ، وظل على هذا الحال اكثر من عشر سنو
استعوض بعدها عن القصب بالطين لتحديد حدوده ، وبعد ذلك بحوا
عشرين سنة بنى زياد بن ابي سفيان الجامع من اعمدة من الحجارة والطابـ
لكي تقي المسلمين اشعة الشمس في الصيف والمطر في الشتاء ، وظلـ

للمسجد ساحة واسعة مكشوفة للناس ، يتحلقون فيها للاحاديث والمناقشات والابحاث والمداولات في الشؤون الخاصة والعامه والعلوم والاداب ، وفي طرف منها يجلس القاضي لسماع الشكاوى والحكم فيها ، وفي هذا المسجد تقام صلاة الجمعة ويلقي فيها الوالي الاوامر والتوجيهات ، كما ان فيها يجتمع الناس عند حدوث اضطراب في الامن لنصرة الوالي ودعمه .

والمنشأة المركزية الثانية في مصر هي دار الامارة ، وكانت ملاصقة للمسجد الجامع في ضلعه القبلي المواجه لمكة ، ويعبر هذا التلاصق عن الصلة الوثيقة بين الدين والادارة ، ويسبغ على دار الامارة بعض حرمة الجامع .
ودار الامارة مكان اقامة الوالي واهله طيلة مدة ولايته ، وهي المركز الذي يصرف منه شؤون الادارة وما تتطلبه من مقابلة المراجعين من الافراد والوفود والجماعات .

وكان بناء دار الامارة من اللبن والطين وسقفه بالعشب ، ثم اعاد زياد بناءها بالطابوق والجص^(٢٣) وفي كلتا الحالتين كان البناء بسيطا خاليا من الزخارف ، غير انه كان واسعا ليتسع للوالي واهله وضيوفه .

وبالقرب من دار الامارة كانت ابنية للدواوين^(٢٤) وبرزها ديوان الجند والعطاء الذي يضم سجلات باسماء المقاتلة وعيالاتهم ومقدار عطاء كل فرد ورزقه وتجهيزاته ، وكذلك ديوان الرسائل التي تحفظ فيها الرسائل الواردة للوالي ونسخة مما يصدره ، ولعل فيه ايضا ديوان الخراج الذي تحفظ فيه سجلات تقدير جباية الخراج من البلاد التابعة للمصر .

وبالقرب من هذه المنشآت شيد السجن لحبس من يسيء التصرف ويخل بالنظام^(٢٥) .

وبالنظر لاهمية هذه الابنية فقد خصص لها حرس خاص كانوا في البصرة من السياجة ويبلغ عددهم خمسمائة يقيمون عند المسجد ليحرسوه ، ويمنعوا من يعيث بالامن عنده او يحاول استغلاله للتمرد والعصيان^(٢٦) .

ومنذ زمن ولاية زياد بن ابي سفيان وضع للوالي حرس خاص قوامه خمسمائة رجل عليهم رجل يتم اختياره من رجال العرب المعروفين بحزمهم ومهابتهم^(٢٧) ، وهم يخضعون لاوامر الوالي ، ويعززون سلطانه ، وينفذون اوامره •

السلطة المركزية وتوسعها :-

لا ريب في ان هذا الحرس ساعد على تقوية نفوذ الوالي ، غير انه لم يكن المصدر الوحيد لقوة الوالي ومركزه ، حيث كانت للوالي احوال اخرى تعزز مكانته المتميزة ، فهو ممثل الخليفة صاحب السلطة العليا للدولة ، وهو يرفع المصالح العامة للمجتمع ككل وليس مجرد مصلحة قبيلة او جماعة صغيرة وهو يحفظ التوازن بين هذه الجماعات • ويحدد الحقوق والواجبات بينهم فهو ليس مجرد حكم بين الناس وانما كانت له السلطة العليا وكان الجميع يعترفون ان « السلطان لا يعدي عليه »^(٢٨) •

ثم ان الوالي لم يكن مسؤولا عن الادارة العامة في المصر فحسب ، وانما ايضا على مايرتبط بالمصر من المناطق ، وكان مسؤولا ايضا عن ادارة الدواوين في داخل المصر وغيره ، فمنطقة سلطانه واسعه ، وبسقدوره ان يصدر الاوامر لهذا الغرض •

وكان الولاة مسؤولين عن اعداد الحملات العسكرية والقيام بالفتوحات ، وكانوا في العهود الاولى يقومون بانفسهم بقيادة الجيوش الاسلامية ، يساعدهم في ذلك عدد يختارونهم من القواد الصغار او رؤساء العشائر ، ثم اصبح الولاة متفرغين لشؤون الادارة وقلما يقودون بانفسهم الحملات وانما يختارون قواد الحملات العسكرية ، وولاة كثير من المدن التي تتبعهم في اداراتها ، وكانت لهذه القيادات الولايات اثر في تعزيز مكانة من يتم اختيارهم لها ، لذلك كان كثير من ذوي المكانة يتقربون الى الوالي للحصول على هذه المناصب ، فكان هذا من عوامل تعزيز مكانة الوالي ونفوذه •

وكان الخلفاء يختارون لولاية الامصار من يرون فيه الكفاءة والقدرة، ومن يثقون فيه ، فكانت لصلة الوالي بالخليفة اثر في تعزيز مكائته ، يضاف الى ذلك ان عددا من الولاة كانت لهم شخصيات متميزة ، و ثروات واسعة ، واموال عظيمة تحت تصرفهم ، فاعانت على توسيع نفوذهم وتقوية مركزهم ويسرت لهم قوة اجتماعية و سطوة شخصية واسعة بالاضافة الى القوة التي يستمدونها من منصبهم •

خطط السكان :-

كانت المنشآت العامة محدودة في عددها ، فهي تشمل المسجد الجامع ودار الامارات والدواوين وهي متقاربة في اماكنها وتختص بعناية الدولة في عمارتها وحراستها ، وكانت تحيطها رجة واسعة مفتوحة لا يحدها سور او سياج ، وانما تحيطها بيوت عدد من الناس واغلبهم ممن كانت لهم مكانة متميزة عندما اسس المصر ، وظلت لهذه البيوت ميزة ، اما لمكانة من انتقلت اليهم ملكيتها ، او لما اتخذت له من مراكز تجارة واسواق •

وتم تخطيط كل من البصرة والكوفة عند انشائها ، مركزيا فولي ابو الهياج الاسدي تخطيط الكوفة^(٢٩) ، وولي محجن بن الادرع السلمي تخطيط البصرة^(٣٠) •

ذكر الطبري تفاصيل عن تخطيط الكوفة عند تأسيسها فقال :

« لما اجمعوا على ان يضعوا بنيان الكوفة ارسل سعد الى ابي الهياج فاخبره بكتاب عمر في الطرق : انه امر بالمناهج اربعين ذراعا ، وما يليها ثلاثين ذراعا ، وما بين ذلك عشرين ، والازقة سبعة اذرع »^(٣١) •

ويذكر انه بعد ان خط ابو الهياج مكان الجامع ودار الامارة والرجبة خط المناهج حول ذلك ، فوضع في الشرق ، وفي الغرب ثلاثة مناهج ، وفي الجنوب اربعة مناهج وفي الشمال خمسة مناهج ، ويذكر ان هذه المناهج المتفرقة مما حول المسجد ودار الامارة هي « مناهجها العظمى » أي شوارعها الرئيسة ، وانهم « بنوا مناهج دونها تحاذي هذه ثم تلاقيها ،

واخر تتبعها ، وهي دونها في الذرع ، والمحال من ورائها وفيما بينها ، وجعل هذه الطرقات من وراء الصحن (٣٢) .

الشوارع والطرق :-

فالمناهج ، أي الشوارع هي المحاور الرئيسة الثابتة الاساسية في تخطيط المدينة ، وهي مستقيمة تؤدي كلها الى الرحبة التي فيها الجامع ودار الامارة ، وعددها خمسة عشر منهجا تتوزع بين ٣-٥ في كل جهة ، ولم تذكر الابعاد بين منهج و آخر ، والراجح ان الابعاد كانت حوالي ستين ذراعا ، والذراع قرابة ٦٥ سم ، اي حوالي اربعين مترا . فتخطيطها الاصلي كهيئة العجلة ، وليست كهيئة رقعة الشطرنج الذي عرفت به المدن الاغريقية . عرض كل من هذه المناهج الرئيسة اربعون ذراعا أي حوالي ٢٥ مترا ، وهي تكفي لمرور الابل بسهولة ويسر ، فضلا عن مرور بقية حيوانات النقل والسابلة ، وظلت هذه المناهج الرئيسة السمة المميزة لتخطيط المدينة ، وقد منع زياد التجاوز عليها .

وبجانب المناهج الرئيسة مناهج اصغر عرض كل منها ثلاثون ذراعا اي حوالي عشرين مترا تحاذي الرئيسة ثم تلاقيها ، وبعضها اصغر من ذلك ، وتنفرع من الجميع ازقة عرض كل منها سبعة اذرع اي اقل من خمسة امتار ، وهي تكفي لمرور السابلة ويتوفر عليها في جدران البيوت حولها ، ولم تذكر تفاصيل عن ابعاد هذه المناهج الفرعية والازقة ، لان الاهتمام الاكبر كان على المناهج الرئيسة .

كانت هذه الشوارع والطرق مستقيمة مفتوحة ، ليست لها ابواب تغلق عليها او اقواس في مداخلها او جنباتها ، وكانت خالية من الزخارف ومظاهر الزينة ، ومع انها متعاقبة ، ومتوازنة ولا يمكن تغييرها الا بالاخلال بالتصميم العام ، الا ان كلا منها كان بالامكان مده في تلك المنطقة المستوية الفسيحة ، وهذا المد يتيح توسع المدينة نحو الجهات كافة ، الا الجهة الشرقية التي يحد التوسع فيها امتداد النهر وما عند شواطئه من سباح .

ولم تذكر الروايات تخصيص اراض لتكون ساحات عامة للتجمع او تدريب الجند ، ولا ذكرت فيها مناطق خصصت لتكون حدائق عامة ومتنزهات . وفقدان هذه الامور يسببها بسمة الجدبة التي تتميز بها الحياة العسكرية للمقاتلة الذين انشئت لسكناهم واقامتهم ، وهي تنسجم مع الروح السائدة في الابتعاد عن الترف المادي الباذخ ، وقد اشارت المصادر الى ان الخليفة عمر بن الخطاب كان يحث الناس على الابتعاد عن الترف ويروي انه كان ينصح الناس ويقول « اخشوشنوا فان الترف يزيل النعم » وان البناء الاول كان بالقصب ، ثم اباح لهم بعد حدوث الحرائق ان يبنوا بالبن ، وامرهم الا يزيد مداهم على ثلاثة غرف والايطاولوا في البنيان وحدد قدر البناء بما لا يقربهم من السرف او يخرجهم عن القصد (٣٣) .

الخطط والقطائع :-

كان الهدف الرئيس من تأسيس الامصار ان تكون قاعدة لاستيطان المقاتلة وعيالاتهم واقامتهم دائماً فيها ، وقد منح عدد الشخصيات البارزة قطائع شخصية شيّدوا عليها دورا لسكناهم ، وكانت كل هذه القطائع الشخصية بالقرب من المسجد الجامع وحول الرحبة ، فكانت كالسور المميز للنشآت العامة التي في داخل الرحبة عما حولها . ونظرا لقرب هذه القطائع من المسجد الجامع ودار الامارة والدواوين ، وكذلك المكانة الشخصية لاصحابها ، فقد احتفظت بمكانة خاصة متميزة ، مدة اكثر من نصف قرن .

وقسمت الاراضي الواقعة على المناهج العظمى او بينها على المقاتلة وروعي في التقسيم الروابط القبلية ، فخصصت لكل عشيرة « خطة » اي ارض محددة تسمى باسم العشيرة التي رسمت اقامتها فيها ، واحتفظت هذه الخطط باسمائها العشائرية لعدة قرون ، وكان هذا من ابرز ما يميز الامصار الاولى عن المدن والبلدان الكثيرة التي قامت في اقاليم الدولة قبل الاسلام وبعده .

وكانت العشيرة تقسم خطها بين افرادها ، فيأخذ كل منهم قطعة يقيم

عليها مسكنه مع زوجته واطفاله ، وكان بناؤهم اول الامر بالقصب ، مما يسهل تبديل قطائع الافراد او تعديلها بما يؤمن الانسجام والاستقرار ، غير ان القصب معرض للحريق ، ويروى ان كلا من البصرة تعرضت خلال السنوات الثلاث الاولى الى حريق مدمر فامرهم عمر بن الخطاب ان يعدلوا عن القصب بالطين ينون منه البيوت • ويروى ان القطائع وزعت بالتساوي بين الافراد ، وكانت قطعة كل فرد ستين ذراعا ، اي حوالي اربعين مترا ، وهي تكفي لتشييد بيت صغير ياوي اسرة محدودة العدد مكون من ثلاث غرف (٣٤) •

وروعي في وضع الخطط ان تستوعب المقاتلة كافة بمن فيهم الحاميات التي ترسل مؤقتا الى المناطق التي تستدعي اقامة جند لحمايتها • ولا بد ان مساحة الخطط كانت واسعة تستوعب المقاتلة وروادفهم (٣٥) وقد خصصت في كثير من هذه الخطط ارض فضاء لتكون مقابر لمن يتوفى من افراد العشيرة ، وبذلك كانت في الكوفة مقابر متعددة وموزعة على خطط العشائر ومسماة بها ، وتستخدم هذه المقابر لتجمع الناس ايضا •

استيعاب تزايد السكان :-

ثم تابعت هجرات العرب من الجزيرة العربية الى هذه الامصار ، ولم تقيدوا بالحكومة وانما جعلتها حرة ، وكانت من مختلف ارجاء الجزيرة وغير منتظمة ، وادت هذه الهجرات الى تزايد السكان ، ولكنها تطلبت تنظيم اسكانهم ، وكان هؤلاء المهاجرون ينضمون الى عشائريهم المقيمة في مصر ، واعطي بعضهم لسكانه اقطاعات من الاراضي الخالية في الخطة ، كما ان بعضهم اعطي بعض القطائع التي قسمت من قبل ، غير ان بعض العشائر كانت من الكثرة لدرجة لا تستوعبهم خطة عشيرتهم ، فاعطوا خططا جديدة (٣٦) • وهكذا ازدحمت الخطط السابقة بأهلها ، واختلف مقدار هذا الازدحام ، فبعضها غص بالسكان وبعضها كان الازدحام فيه قليلا ، كما ان بعض العشائر كان لكل منها اكثر من خطة ومن حيث العموم كانت خطط

العشائر القديمة في الداخل واقرب الى مركز المدينة ، اما المهاجرة الجدد فكانت خططهم في الاطراف الخارجية •

النظام القبلي في التخطيط :-

كان التنظيم القبلي اساس تنظيم كل من الكوفة والبصرة ، فكانت العشيرة هي الوحدة المتميزة ، وهي تتكون من عدد من الافراد الذين ينتمون الى جد واحد ينحدرون منه ويتسمون به ، ويشتركون في عدد من الحقوق والواجبات ، فانهم كانوا يشتركون في وراثة من لاوارث له ممن يموت من افرادها ، كما انهم يساهمون جميعا في دفع دية القتل الخطأ الذي يرتكبه احد افراد العشيرة او موالها ، وهذا بالاضافة الى مايربطهم من اعتزاز باعمال اسلافهم وامجاد ابائهم ، وكان تقارب مساكنهم في خطة واحدة يزيد من قوة هذه الروابط واستمرارها ويجعلها تغطي على رابطة الاسرة ، وتهيمن على الفرد فتشده اليها •

فالعشيرة تكون وحدة متماسكة متميزة تصلح ان تكون اساسا لادارة السكان وتنظيم الجيش^(٣٧) ، غير انه يبدو ان هذا لم يكن امرا سهلا في السنوات الاولى لان هجرة العشائر لم تكن منتظمة ، فكانت بعض العشائر كثيرة العدد ، وبعضها قليلة الافراد ، كما ان عدد هؤلاء الافراد لم يكن ثابتا ، بل قد يزيد او ينقص بسبب الهجرات من الامصار واليهما ، او بسبب الوفيات ومن يستشهد في المعارك • ونظرا لشدة حاجة الدولة الى ايجاد تنظيم يؤمن توزيع العطاء على السكان ، فان الدولة لجأت الى تقسيم السكان الى وحدات على كل منها عريف ، ولذلك كانت تسمى العرافات • ويذكر سيف بن عمر انه خصص لكل عرافة مائة الف درهم من العطاء توزع سنويا على اهلها ويصيب كل فرد مقدار تبعا لقدم اشتراكه في المعارك ، « فكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة واربعين رجلا ، واربعين امرأة وخمسين من العيال لهم مائة الف درهم ، وكل عرافة من اهل الايام (اي المشاركون في المعارك التي سبقت القادسية) عشرين رجلا على ثلاثة الاف ، وعشرين

امراة وكل عيل على مائة الف ، وكل عرافة من الرذافة الاولى (أي انضم الى الجيوش الاسلامية بعد القادسية) ستين رجلا وستين امراة واربعين من العيال ممن كان رجالهم الحقوا على الف وخمسمائة ، على مائة الف درهم، ثم على هذا الحساب «(٣٨) . وبالرغم من ان هذا التنظيم قام على اساس وحدات متساوية من العطاء ، فانه لم يهمل التنظيم القبلي ، حيث كانت لكل عشيرة راية تتميز بها . لا ريب في ان هذا التنظيم يتميز بالمرونة ، فهو قائم على وحدات صغيرة الحجم ، وبذلك يسهل اضافة وحدات جديدة من المهاجرين الجدد او حذف وحدات يتناقص رجالها ، غير ان هذا التنظيم يتطلب تقسيم العشائر الكبيرة الى وحدات جزئية لتوزيع العطاء .

تطور التنظيم :-

وقد حدثت تطورات غير قليلة تطلبت اعادة تنظيم السكان على اسس جديدة ، فالتنظيم السابق كان التمييز فيه يقوم على اساس المعارك التي اشترك فيها الافراد ، وهو يعطي المشاركين في الايام الاولى عطاء اكبر ممن انضم الى الجيوش الاسلامية متأخرا وبذلك يصبح في العشيرة الواحدة اصناف متباينة في مقدار عطاياها ، ثم ان كثيرا من هؤلاء المشاركين الاولين انقرضوا بعد سنوات ، كما ان العشائر انضم اليها عدد من لم يشارك في الحروب الاولى ، وقد تزايد عدد هؤلاء لدرجة كادت تخل بالنظام ، وتطلب اما ادخالهم في عطاء قليل ، او عدم ادخالهم ، مما كان يتطلب زيادة المصروفات الاجمالية وصعوبة تأمين العطاء للجميع ، ولعل هذا التطور كان من اسباب القلق الذي حدث في اواخر سني خلافة عثمان بن عفان .

وعندما ولي زياد العراق قام باعادة تنظيم كل من الكوفة والبصرة بما يؤمن الاستقرار والنظام فاخذ بتدقيق سجلات اهل العطاء وحذف اسماء الموتى من تلك السجلات ، ونقل خمسين الفا من مقاتلة البصرة والكوفة واطنهم في خراسان (٣٩) ، ونقل عددا من الازد من البصرة الى مصر (٤٠) ، ونقل من الكوفة عددا واطنهم في قزوین واردبیل وربما الى مناطق اخرى ايضا (٤١) .

ثم جعل زياد كلا من الكوفة والبصرة مقسمة الى وحدات عشائرية تتكون كل واحدة من الف مقاتل ، وقسم العشائر الكثيرة العدد الى عدة وحدات ، اما العشائر القليلة العدد فضمها الى عشائر اخرى ليصبح العدد الف مقاتل ، وقد قام هذا التنظيم على اسس عشائرية فكل وحدة تسمى باسم العشيرة التي ينتمي اليها افرادها ، كما ان العشائر الصغيرة التي ضمت الى غيرها قد احتفظت بوحدتها الاجتماعية والنسبية ، وكان الضم لاسباب ادارية فحسب .

وجعل زياد على كل عشيرة عريفا يعينه الوالي ويكون مسؤولا عن حفظ سجلات باسماء مقاتلة العشيرة ونسائهم وعيالاتهم ، وعن تبليغ اوامر الولاية . ومراقبة الامن في داخل العشيرة ، ومساعدة الدولة في القبض على المفسدين ومولدي الشغب ، كما انه كان يقوم بتسليم عطاء العشيرة وتوزيعه على المستحقين من افرادها تبعا لما في السجلات^(٢٢) ، فهم حلقة الوصل بين الناس والحكومة ، وهم يخدمونها بتوزيع العطاء وجمع الجند ومراقبة الامن مما كان يعين على توسيع سلطة الوالي على العشيرة ، واخذوا يحلون محل شيوخ العشائر الذين اخذ نفوذهم يتناقص تدريجيا .

غير ان التنظيم الاداري والمالي من حيث العموم كان منسجما مع التنظيم القبلي ومعبرا عنه وقد اتسق هذا التنظيم مع النظام المركزي القائم على الوالي ، وظل هذا اساس التنظيم في الامصار وابرز سمة مميزة له .

وترد في المصادر اشارة الى انه كان فوق العرفاء منصبان اخران هما : النقيب والمنكب ، غير ان المعلومات عنهما قليلة مما يدل على ضآلة دورهما . ويبدو ان العشائر تساوت فيه ، وزالت الفوارق القديمة على اساس التمييز تبعا للاشتراك في الفتوح الاولى .

غير ان هذا التنظيم اقتصر على من كان ياخذ العطاء من المقاتلة ، فلم يشمل من لم يكن من اهل العطاء ممن كان ينتظر ان يزداد عددهم لعدم وجود

قانون يمنع الهجرة الى مصر الذي كانت حياته تعزى بالهجرة اليه ، كما ان هذا التنظيم لم يشمل الاعاجم •

اسباع الكوفة :

كان الغرض الاساس من انشاء الامصار هو استيطان المقاتلة وعيالاتهم في اوقات السلم ، وتنظيمهم بما يؤمن اشتراكهم في الحملات العسكرية واسهامهم في المعارك • وكان الاعتماد على الافراد او العشائر لا يحقق هذا الغرض بشكل كامل • لان عددهم كان كثيرا • وكانت العشائر غير متوازنة في عددها • لذلك كان لابد من وضع تنظيم خاص فوق الافراد والعشائر • مما يؤمن ادارة المقاتلة واعدادهم للمشاركة في المعارك • وعندما تأسست الكوفة امر الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ان يقسم سكانها المقاتلة الى اسباع يضم كل سبع عددا من العشائر يتراوح بين ٣ - ٥ عشائر • روعي فيها الى حد كبير اصول مساكنها القديمة • فكان سبع من عشائر حضرموت والسواحل الجنوبية ، وسبع من عشائر شرقي اليمن بما فيهم همدان وحمير وسبع من عشائر غربي اليمن بما فيهم مذحج وطلي • وسبع من عشائر اليمن بما فيهم بجيلة وخثعم والازد • وسبع شمل بكر وتغلب • وسبع شمل قيس عيلان • وسبع شمل عشائر الحجاز ونجد بما فيها قريش • وكذاته ومزينة • واسد وتميم والرباب وقد وضعت عبدالقيس مع قيس عيلان • وطلي مع عشائر غربي اليمن اما البصرة فلم يرد ذكر لتقسيماتها في العهود الاولى • ولعل بعض ذلك راجع الى ان عدد مقاتلة اهل البصرة في السنين الاولى كان قليلا • وربما قسموا الى اخماس بعد ازدياد عددهم •

ارباع الكوفة واخماس البصرة :

ظل نظام الاسباع في الكوفة الى زمن زياد حيث جعل الكوفة ارباعا • يضم كل ربع مجموعات من عشائر شمالية وجنوبية • اما البصرة فكانت اخماسا • يضم كل خمس عشائر متقاربة في النسب وفي موائل سكنها

القديم في الجزيرة • وهم اهل العاليه (ويقصد بهم عشائر الحجاز) وتميم، وبكر - وعبد القيس ، والازد ، وكان لكل من ارباع الكوفة واخماس البصرة رأس يتم اختياره من ذوي المكانة البارزة في القبيلة ، ويتم تعيينه باقرار من الخليفة • وله سلطات واسعة مستعدة من مركزه الشخصي ومن الواجبات العظيمة المطلوبة منه ، فكان هؤلاء الرؤوس في وقت السلم يرأسون مجالس القبائل • ويحكمون في بعض الخلافات التي تنشأ بين افراد القبيلة ، ويمثلون القبيلة ومصالحها امام الوالي • ويقررون موقعها من الاحداث السياسية المهمة وغالبا ماكانوا يشتركون في الوفادات التي يرسلها الوالي الى الخليفة ، اما في وقت الحرب فكانوا يقودون قبائلهم المشتركة في الحملات • وكثيرا ماكانوا يقودون بعض الحملات الصغيرة الا انهم كانوا تابعين للوالي وخاضعين له باعتباره ممثلا للخليفة كما ان سلطاتهم اقتضرت على عشائر كل منهم فحسب • وقد تضاءلت هذه السلطات على اثر تناقص الحملات ونمو الحياة المدنية •

التنظيمات المالية ونمو الحياة الاقتصادية

موارد المقاتلة : الغنائم :

كان الغرض من تأسيس البصرة والكوفة ان تكون كل منهما لاستيطان المقاتلة العرب المسلمين الذين يقومون بالفتوح وتوسيع الدولة وحفظ الامن والاستقرار فيها . مما يتطلب منهم تكريس حياتهم للجندية ويقتضي ان تضمن لهم ولبن يعولون موارد عيش دائمة . ومع ان حاجاتهم من الماكل والملبس والتجهيزات وغيرها متنوعة . الا ان قيام النظام الاقتصادي الاسلامي على النقود كان يقتضي ان يحصلوا على النقود بانتظام وبما يكفي احصولهم على حاجاتهم في الحياة .

وقد حصل المقاتلة المشاركون في المعارك على بعض الموارد من الغنائم فيها . حيث كانت من القواعد الاساسية ان الغنائم تقسم بالتساوي على من شارك في القتال . بعد فرز خسبها وتخصيصه للدولة ويعطى الفارس ضعف نصيب الراسل . كما يأخذ من يقتل جنديا من العدو سلبه . وقد غنم المسلمون في بعض المعارك غنائم كثيرة .

تنظيم الموارد :

غير ان المعارك التي تيسر الغنائم كانت محدودة قليلة العدد وقد توقفت بعد ان تست الفتوح فالموارد منها مؤقتة بالاضافة الى انها قليلة تقتصر على البسة الجند وتجهيزاتهم وما يحصله الجيش من اموال محدودة لسد نفقاته . ولذلك كان يجب تأمين موارد ثابتة تكفي لتأمين معيشة المقاتلة الذين كان عددهم كبيرا . وتم هذا التأمين بتخصيص الموارد الكبيرة من

الاقاليم المفتوحة لتصرف على المقاتلة ، بعد تحويل خمسها الى الحجاز
لتصرف على من كان يدفع لهم العطاء من اهلهم .

قرر عمر بن الخطاب ان تقوم الدولة بجباية الموارد من الاقاليم . ثم
توزيعها على المقاتلة ، وان تصرف موارد كل اقليم على عطاء المقاتلة الذين
قاموا بفتح ذلك الاقليم . وعلى هذا كانت موارد الكوفة من جبايات العراق
والاقاليم الشمالية الغربية من الهضبة الايرانية . اما البصرة فكانت موارد
من المناطق الواقعة على شط العرب وجنوبي العراق ، وكذلك من الاحواز
والاقاليم التي في جنوبي الهضبة الايرانية .

ومن الواضح ان موارد الكوفة كانت في السنين الاولى كثيرة . غير
ان عدد مقاتليها كان كبيرا ايضا . اما البصرة فكانت موارد قليلة ولكن
عدد مقاتليها غير كبير . ثم تزايد عدد المقاتلة في البصرة ورافقه قيام مقاتليها
بفتوح واسعة امنت لهم موارد كبيرة . اما اهل الكوفة فقد ظل عددهم يتزايد
بعد الفتوح الاولى ولكنهم لم يقوموا في السنين الاخيرة بفتوح واسعة . فظلت
مواردهم محدودة .

اجريت في اوائل زمن الخلافة الاموية تعديلات على موارد جبايات
الامصار ، فارسل خمسون الفا من مقاتلة البصرة والكوفة واطنوا خراسان
واصبحوا يأخذون عطاءهم من موارد خراسان . كما اوطن عدد من مقاتلة اهل
الكوفة في اردبيل وقزوین والري وصاروا يأخذون عطاءهم من هذه الاقاليم
التي لم تعد ترسل جباياتها الى الكوفة ، وبذلك استقرت موارد الكوفة على
مايجبى من العراق ، وموارد البصرة على مايجبى من مناطق شط العرب
وجنوبي العراق والاحواز وفارس .

والمصدر الرئيس لهذه الموارد هي جباية الخراج أي الضرائب
المفروضة على الاراض المزروعة في الاقاليم المفتوحة ، وكانت تصلها موارد
من جباية العشور المفروضة على التجارات وعلى زراعة الاراضي التي امتلكها

العرب المسلوق ، غير ان المقدار الكلي لهذه الموارد لم يكن كبيرا ، وكانت حصيلتها تدخل في الموارد العامة .

وكان معدل مقدار جباية العراق مائة مليون درهم . وذكرت بعض المصادر ان مقدار موارد الكوفة من الجباية كان خسون الف . وموارد البصرة ستون الف الف درهم^(٤٣) وكان الدرهم في اول الاسلام مثقالا من الفضة اي حوالي اربع غرامات . وظل كذلك الى زمن ولاية الحجاج حيث جعل وزنه $\frac{1}{7}$ من وزنه السابق اي حوالي ٣ غرامات . وكان سعر التبادل بين الفضة والذهب يتراوح بين ١٠-١٢/١ .

تنظيم العطاء :

وضع الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في سنة ٢٨هـ قواعد لتوزيع الموارد على المقاتلة ، فجعل لكل من الصحابة ممن شارك في معركة بدر ولمن تلاهم الى صلح الحديبية وجعل لكل من شارك في المعارك الاولى في اطراف العراق . وهم يسسون اهل الايام ، ثلاثة الاف درهم ، ولمن شارك في القادسية ٢٠٠٠ درهم ولمن شارك بعد القادسية ١٠٠٠ درهم ، اما الذين انضموا متأخرين فقد جعلهم اصنافا « تبعا » لزمان انضمامهم . وكان عطاؤهم بين ٥٠٠ - ٢٥٠ درهما وفرض للنساء مائتي درهم وللصبيان مائة درهم^(٤٤) .

اما في البصرة فقد قرر لمن شارك في فتوح الابلّة والاهواز بالف درهم^(٤٥) . وفرض للباقيين تبعا لزمان انضمامهم الى الجيوش الاسلامية . ومقدارها حدده يشبه ماطبق في الكوفة وفي الاقاليم الاسلامية الاخرى . وقد استوعب العطاء كل الموارد ولم يبق عمر بن الخطاب منه اي مبلغ احتياطي للطوارئ . وبلاضافة الى العطاء ، قرر عمر بن الخطاب ان توزع شهريا على المقاتلة ونسائهم وعيالاتهم ، مواد عينية وخاصة من الحنطة قدرها بما يكفي استهلاكهم .

فل العطاء على وفق ما قرره الخليفة عمر بن الخطاب الياب الرئيس للمصروفات • ويدفع سنويا بالدرهم • ويختلف مقدار ما يصيب كل فرد منه • غير ان التصنيف الذي وضعه عمر كان لا بد من تعديله لان المشاركين في المعارك الاولى كانوا يتناقصون بسبب الوفاة • وقد استقر فيما بعد ان يكون اعلى ما يعطى من العطاء ، ويسمى شرف العطاء • الفـين وخمسائة درهم • وكان عدد من شرف العطاء حوالي عشر المقاتلة • اما الاصناف الاخرى فكانت تأخذ مبالغ تتراوح بين ١٥٠٠ ، ١٠٠٠ ، ٧٠٠ ، والحد الادنى ٢٠٠ درهم ويعتمد هذا التصنيف على مهارة المقاتل ، وطول خدمته وتجهيزاته وكان اقل عطاء الفرسان ١٠٠٠ درهم (٤٦) •

كان العطاء يدفع سنويا بالدرهم ، ويطلب ممن يأخذه ان يستجيب لدعوة الدولة عندما تطلب اليه المشاركة في الحملات للقتال ، وعليه ان يجهز نفسه بمعدات القتال من نبال وسيوف ورماح ودروع وخيل ، ولا ريب في ان مقداره غير كبير ولا يكون فروقا طبقية واسعة قائمة على الثروات • وهو يوثق ارتباط الافراد بالدولة التي تعتمد على قوتها وسلطانها جباية الاموال وتأمين الموارد وتنظيم توزيعه ، كما انه يؤمن للفرد ممن يأخذه ، وهم غالبية العرب والسكان في كل مصر ، موارد لمعيشته ومستقبله في حال المرض والشيخوخة وتقلبات الاحوال ويوفر له الوقت الكافي للاستزادة من المعرفة والتفكير وامناء الحياة السياسية والفكرية •

ان نقل موارد الاقاليم • وخاصة المناطق الزراعية الى مصر ادى الى زيادة النقود فيه ، كما ان توزيع المواد الغذائية بالمجان في مصر ادى الى بقاء معظم هذه النقود وعدم اعادتها الى مناطق الريف وهذا ادى بدوره الى تناقص الدرهم في الريف والى زيادة تكديسها في مصر • ولما كانت الدولة لا توزع التجهيز على المقاتلة ، فانه كان عليهم الحصول على يحتاجون اليه

بالتراء * وقد ساعد هذا على نشاط الحياة الاقتصادية وازدهارها بمختلف المستويات من التجارة والصناعة والاعمال المالية .

هجرة العمال والعمل :

كان العرب الذين استوطنوا الكوفة والبصرة عند انشائها . مقاتلة واجبهام الاول الخدمة في الجيش والمشاركة في المعارك * وكانوا يتسيزون بالبعد عن الترف المادي وبالبساطة في المسكن والملبس والاكل ولذلك لم تمن الدولة بالاسواق ولم تخصص في تخطيطها رقاعا من الارض ليقام عليها السوق * غير ان متطلبات الحياة ، واقتصار الدولة على دفع العطاء دون الاسهام بالخدمات الاخرى للافراد ، تطلب الاهتمام بالعمل لتوفير البناء وما يستلزمه من لبن وطابوق واخشاب وحديد كما تطلب وجود من يعمل لسد الحاجات الاخرى من ماكل وملبس وغيره ، ولا بد ان عددا من الرجال والاولاد كانوا يقومون ببعض الاعمال التي تتطلبها الحياة ، سا في ذلك البناء ، كما ان عددا غير قليل من النساء كن يقمن باعمال البيت والطبخ والغزل والنسيج ، واستخدم الرقيق ايضا في القيام بالاعمال في بيوت اسياهم * غير ان كل هذه الاعمال المتفرقة لاتكفي لسد حاجة المدينة من الاعمال او توفير السلع * وقد تم سد كثير من هذه الحاجات اما باستيرادها من مصادر صناعتها * واما باستخدام بعض المهاجرين من غير العرب .

تنظيم العمال :

ادرك عدد غير قليل ، وخاصة من اهل المناطق المجاورة المجالات الواسعة للعمل في هذه الامصار ، والارباح التي يمكن ان يجنوها من ذلك * فآخذوا يتقاطرون اليها * ولم تعرقل الدولة هجراتهم وانسا ابحاثها * كما انها لم تتدخل في تنظيماتهم او معتقداتهم ، فظل كثير منهم محتفظا بدينه ولم

يجبر على اعتناق الاسلام • وتركت لهم حرية اختيار العمل • وكان بعضهم يفتقد المهارة في اي عمل وبعضهم مختص يتقن حرفة او صناعة وعندما قدموا لمصر كان بعضهم يعمل لحساب من يستخدمه • وبعضهم يعمل لحسابه الخاص في بيته او قرب السوق ، وقد يستعين باولاده في العمل ، واكثرهم من الاحرار • اذ لم تفرض عليهم الدولة ضرائب • غير انه كان على غير المسلمين ان يدفعوا الجزية ، ومقدارها قليل نسبيا كما ان الدولة لم تفرض قيودا على الصناعات سوى الحمامات التي وضعت شروطا لبنائها • وذلك لعلاقتها بالصحة العامة • غير ان طبيعة الامور كانت تقضي ان يتجمع ذوي الروابط بعضهم مع بعض، ولما كان الدين من اقوى الروابط • فقد كانت تجمعاتهم في الغالب تبعا لاديانهم وكانوا عموما قرييين من السوق ومتصلين به • نظرا لاهمية السوق في التزود بالمواد الاولية وتصريف المصنوعات • وقد اعتنق بعضهم الاسلام • ووالى العرب وحظي بحمايتهم ، حيث ان من واجب العشيرة حماية موالها •

غير ان بعضهم لم يوال العرب ، وكان يحسد العرب على مكائتهم واخذهم العطاء الذي يؤمن معيشتهم ، وقد استغل بعض الطموحين من العرب هؤلاء الاغراب ، فأغروهم بالمشاركة ببعض الثورات ضد الدولة • وحاول الحجاج اخراجهم من الامصار ولكنه لم يفلح فظلوا مصدر قلق وخاصة في اوقات الازمات •

التجارة :

ان الاسلام يعترف بالملكية الخاصة ويقر اقتناء الثروات والكسب الحلال ، واعتبر القرآن الكريم « المال والبنون زينة الحياة الدنيا »^(٢٧) وقد بدأ الاسلام في مكة التي كانت مركزا لتجارة نشيطة ساهم فيها الرسول (ص) ومعظم المسلمين الاولين وكان العرب منذ القديم معروفين بعملهم من نقل السلع والتجارات مع مختلف الاقطار • وقد يسر توسيع الدولة الاسلامية

وتوحد الاقاليم في ظل دولة واحدة قوية ، على ايقاف الحروب والغزوات ،
وازالة الحواجز المعرقة للتنقل ، وقد منعت الدولة الجديدة الفساد والعبث.
بالامن ووطدت الطمأنينة والاستقرار ، وابتاحت حرية العمل والتنقل ، مما
كان من شأنه تنشيط التجارة •

ومنذ بداية تأسيس الكوفة والبصرة كان السكان يحتاجون الى انواع
متعددة من السلع يمكن اجمالها باصناف رئيسة هي المواد الغذائية فان
توزيع الدولة الحنطة على السكان لم يكف لسد حاجاتهم من المواد
الغذائية كافة • فقد كان يسجل في العطاء من العرب وغيرهم يحتاجون الى
الحنطة ، كما ان العرب من اهل العطاء كانوا يحتاجون الى كثير من المواد
الغذائية كالقطني بما فيها الحصى والعدس واللوبيا والذرة والدخن •
وكذلك المخضرات المتنوعة • والفاكهة ، وبعض المنتجات الحيوانية من لبن
وسمن وجبن كما ان الصناعة تحتاج الى القطن والكتان والقنب وكثير من
المنتجات الزراعية الاخرى ، فضلا عن حاجتها الى الحيوانات وخاصة الخيل
والبغال والحير والابقار والاغنام •

اما المعادن ومصنوعاتها فابرز ماتحتاج اليه الكوفة والبصرة هو الاسلحة،
وخاصة السيوف والسكاكين والاسنة والدروع • بالاضافة الى الرماح
والهرايق والتروس ، وكان العرب في الجزيرة قبل الاسلام وعند ظهوره
يستوردون كثيرا من هذه المصنوعات من اقطار متعددة ، فكانوا يستوردون
السيوف من الهند واليمن اطراف بلاد الشام • ويستوردون اجود الرماح
من البحرين ، والدروع من اليمن • اما النبال والاسنة فكانوا يحصلون
تاليها من بعض المناطق التي تنتجها جزيرتهم ، ولا بد انهم تابعوا بعد الاسلام
استيراد هذه السلع من البلاد التي كانوا يستوردونها منها قبل ذلك ، وان
هذا الاستيراد قد زاد لازدياد الحاجة الى الاسلحة وتوفر المال اللازم
لشرائه •

وللفضة والذهب أهمية خاصة لغلاء ثمنها واستعمالاتها في العملة فضلا عن استخدامها حليا للزينة ، وكانت اكبر مناجم الفضة عند ظهور الاسلام في الاطراف الشرقية من الدولة قرب خراسان ، اما الذهب فان مناجمه في جنوب مصر والسودان وهي مناطق كانت قبل الاسلام تحت سيطرة الروم لذلك كان الذهب شحيحا في المشرق رغم اهميته في التجارة العالمية .

وكانت الفضة معدن الدرهم المتداول في المشرق ، وكانت الكوفة والبصرة تحصلان على كميات غير قليلة منها بما تجلبانه من الاقاليم التابعة لهما ولما توسعت الدولة الاسلامية واقصت الروم عن مصر ، اصبحت مهيمنة على مصادر الذهب ، وابتاحت تصديره الى المشرق ، فنشطت التجارة فيه وكانت مصدر ارباح كبيرة لعدد من المتعاملين به .

اما المنسوجات فقد كانت لصناعتها عند ظهور الاسلام عدة مراكز ، فالمنسوجات القطنية اشتهرت بها اليمن وعمان ، وعدد من مدن خراسان ، وكذلك العراق ، اما المنسوجات الحريرية فكان مركزها الرئيس مدن الاحواز ، والكتان في مصر ، والصوف في المناطق الجبلية في شمالي العراق (٤٨) .

ويتبين مما تقدم ان كلا من الكوفة والبصرة كانت تحتاج الى استيراد السلع من عدة مناطق ضمن شبه جزيرة العرب تستورد منتوجات الصحراء من خيل وابل واغنام ومنتوجاتها ، اضافة الى العطور والمنسوجات القطنية وبعض المعادن والاسلحة من اليمن وكذلك منسوجات واسلحة من البحرين وعمان وكان لا بد لها ان تستورد من مدن العراق المنتوجات الزراعية ، والاشخاب وبعض المنسوجات ، ومن الاقاليم الشرقية بعض الفواكة المجففة والجبن والمنسوجات والفضة وبعض الاسلحة ، ومن مصر الذهب والكتان، ومن الهند الاسلحة والاشخاب .

اباحت الدولة حرية التجارة ولم تعمل على عرقلتها^(٤٩) . وكل ما فرضته عليها هو العشر على التجار الاجانب ونصف العشر على التجار العرب ، وهو مقدار غير كبير ولا معطل ، كما ان الاسلام حرم الربا ، واكد على وجوب اقامة المعاملات المالية والتجارية على اسس اخلاقية سليمة خالية من الغش وسوء الاستغلال ، ولم تتخذ ما يعرقل المعاملات او يقيدھا .

السوق :

لم تخصص عند تخطيط كل من البصرة والكوفة رقعة خاصة لاقامة الاسواق ، لذلك لم تنحصر معاملات البيع والشراء في مكان واحد . وانما حيث تتوفر الارض الفضاء . ومن حيث العوم كان في كل من الكوفة والبصرة مكانان بارزان : احدهما في الاطراف الغربية والثاني بالقرب من السوق .

والسوق الذي كان في الاطراف الغربية يقع على الطريق الذي يربط كلا منهما بالجزيرة العربية وكانت ساحته تدعى في الكوفة (الكناسة) وفي البصرة « المربد » واكثر ما يباع فيه منتجات الجزيرة من ابل وخيل وجلود وصوف ووبر والبان . ونظرا لان اكثر رواده من اعراب اهل الجزيرة فقد كان يحضره ايضا عدد من المعنيين باللغة العربية واداب اهل الصحراء وتراثهم للتزود بالمعلومات عن هذه المعارف وبذلك اكتسبت « الكناسة » و « المربد » اهمية كبيرة في تطور اللغة والاداب العربية ، وصارت لهما مكانة خاصة فانشئت في كل منهما عدة قصور فخمة واسواق غنية .

اما السوق الثاني فكان في الرحبة عند المسجد الجامع^(٥٠) ، أي في وسط المدينة . ولا بد ان السلع التي كانت تعرض فيه متنوعة ومتعددة .

غير ان كلا السوقين كان فسحة من الارض يعرض فيها الباعة سلمهم في المكان الذي ينزلون فيه يومهم ، فهو « مثل المسجد الجامع من سبق الى مكان فهو أحق ما جلس عليه فاذا قام اخر فجلس عليه فهو احق به »^(٥١) .

فهو خال من الابنية • وليست فيه محلات او دكاكين مشته للبائعين • وتباع فيه مختلف السلع دون تخصيص • والغالب ان المعروضات هي السلع الرخيصة تعرض بكيات قليلة ليسهل حمل ما لا يباع منه ورده الى دار البائع • ثم جعلت بعض الدور للبياعات ففي الكوفة كانت دار الوليد للقصارين^(٥٢) • ودار عسرو بن حريث لاصحاب الخز^(٥٣) ودار حكيم لاصحاب الانباط^(٥٤) • اما في البصرة فقد اشتهرت دار الزبير في الكلاء لتجارات اهل البحر^(٥٥) • وتتميز هذه الدور بان مكان البيع ثابت ، ويمكن حفظ السلع فيها • فهي اشبه بما نسميه اليوم خانات •

وفي زمن خلافة هشام بن عبد الملك شيّد في البصرة والكوفة فيهما حوانيت تؤخذ من شاغلها اجور وكانت هذه السوق في الكوفة قرب الجامع ، غير ان اهل الكوفة هدموا ذلك السوق بعد القبض على خالد القسري والى هشام على العراق ، اما سوق البصرة فقد اشرف على تشييده بلال بن ابي بردة الذي كان واليا على البصرة وقاضيا فيها ، ولم تذكر المصادر موقع هذه السوق او مصيرها •

تنظيم السوق والمعاملات :

كانت التجارة واعمال السوق مفتوحة لكل من يريد ممارستها وتختلف اصنافها وحجمها وانظمتها فكل منتج محلي او مستورد يمكن ان يكون مادة للتجارة • كما ان حجمها يمتد من الباعة المتجولين والبقالين واصحاب السلع القليلة الى اولئك الذين يتاجرون بسلع غالية وبكميات كبيرة • وبعضهم يعمل لحسابه الخاص معتمدا على نفسه او مستعينا باولاده او اخوانه او بعض اقاربه •

وبعض التجار يقدمون الى الامصار مؤقتا لترويج تجارتهم ثم يغادرونها • غير ان اكثرهم كان يقيم دائما في مصر • ويجلب بضاعته من الخارج عن طريق وكلاء يختارهم في البلاد المنتجة للسلع التي ترسل الى

الامصار ، وقد يقيم في مصر وكيل عن تاجر يقيم في بلد اخر .
واغلب التجار يقومون بانفسهم في تجاراتهم . غير ان بعضهم يشارك
اخرين في التجارة . وتكون هذه الشركات انواعا . فقد تكون مؤقتة او
قد تكون دائمية ، وقد يكون الشركاء متساوين فيما يقدمونه من رؤوس
اخرين في التجارة . وتكون هذه الشركات انواعاً . فقد تكون مؤقتة او
بالاعمال المطلوبة .

اهل السوق :

وعلى أي حال فإن المركز الرئيس للنشاط والتجارة هو السوق ، ولا
ريب في ان المصالح المشتركة والعمل الدائم في حرفة واحدة وفي مكان واحد
ينمي على مر الايام علاقات مشتركة قائمة على المصالح التجارية وتتبع
ما تتطلبه هذه المصالح من نظم ، وبذلك نمت في الامصار « الاسواق »
وازداد عدد العاملين فيها واصبحت لهم تقاليد ونظم خاصة ، وصار « اهل
السوق » مجموعة تتركز حول السوق ، وتقابل المقاتلة العرب الذين
يتركزون حول مساجدهم المحلية .

وكان اهل السوق لا يأخذون العطاء ، ويعتدون في معيشتهم على ما
يجنونه من ارباح ، وكان فيهم كثير من العرب ، الا ان عدد الاعاجم كان
ملحوظا بين اهل السوق . وبالنظر للسلات الخاصة لنشاط السوق وتعدد
اعماله ، والاحطار التي يولدها سوء التصرف فيه ، فقد عينت الدولة عاملا
على السوق يشرف على المعاملات فيه ، ويحل بعض الخلافات التي قد تظهر
في المعاملات ، ويتابع الاسعار ، ويدقق في ضبط المكايل والموازين .

كان نمو الاسواق . وازدهار الحياة الاقتصادية قد وسع الاهتمام بجمع
الثروة وتقدير الغنى ، وانما ماتسميه اليوم « الطبقة البرجوازية »
باعمالها وعاداتها وتقديراتها ، غير ان هذه الاسواق لم تقض على السمة
العربية القبلية للامصار . تلك السمة التي ظلت المميز البارز لعدة قرون .

الامصار مراكز الحركات الفكرية ومواطن العلماء

اهتمام العرب بالفكر :

تسيز العرب بعنايتهم بالفكر وتقدير الكلسة الطيبة وتظهر معاجم اللغة العربية مدى سعة معارفهم وعقها ، بما تحويه من مفردات عن البيئة الطبيعية في شبه جزيرة العرب مــــن ارض ومنتجات معدنية وحيوانية وزراعية ، وكذلك الاحوال الطبيعية وما يتصل بها من الرياح والامطار وتقلباتها .

ويتجلى من لغتهم عنايتهم الفائقة بالانسان وما يتصل بخلقه واحاسيسه وعواطفه وتصرفاته وافكاره وامتدت عنايتهم بسلوك الانسان واخلاقه ، وتقديرهم الطيب منها . وحرصهم على تداول اخبارها ومتابعة اخبار الامم والشعوب واجدادهم وتداول اخبار البارزين في المجتمع ، مما يتصل بالتاريخ .

غير ان اوسع عنايتهم تركزت على الكلمة الطيبة من اقوال وامثال وحكم ، وتجلى ذلك بوضوح في شعرهم الذي عنوا بروايته وتناقله وفيه اظهار لاحساساتهم وعواطفهم وافكارهم ورائهم وكثير من الحوادث التي مرت بهم ، وكلها مدونة بلغة غنية المفردات ، دقيقة التعبير ، وبنسق موسيقي تألفه الاذن ويستسيغه الذوق ، ويقدره الفكر .

الاسلام والفكر واللغة العربية :

وقدم الاسلام للحركة الفكرية دافعا قويا وتوجيها جديدا وقامت دعوته على اساس فكري ، فهو يدعو الناس الى اعتناقه بالاعتناق الفكري الذاتي دون قسر خارجي ، وحض على استعمال البصر والنظر والعقل والتفكير ، واشاد بالحكمة والعلم والعقل وحض على الاستزادة منها ، وقال « يُؤْتِي الحكمة من يشاء ومن اوتي الحكمة فقد اوتي شيئا كثيرا » ، « ويرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » * وذكر اخبار عدد من الالام الماضية واشار الى ما حل بها ، وطلب دراستها والتفكير فيها واخذ العبرة منها والاهم من ذلك هو النظرة الكونية الواسعة التي لا تقتصر على الحاضر ، وانما تمتد الى الماضي والمستقبل وهي اساس العقيدة الاسلامية ، وبذلك وجه الفكر ونطاقه وجهة جديدة طالب بأذ تعم المسلمين كافة دون الاختصار على افراد محددين او طبقة معينة ، ورافق ذلك ايمان بالحرية التي تتصل بالفرد وسلوكه والاراء والمعتقدات التي ياخذ بها بعد ان يقتنع عقليا ووجدانيا بصحتها من غير الزام او فرض او رجوع الى سلطة سياسية او دينية تفرض على الناس اعتناق ما لا يؤمنون بصحته * .

واولى القرآن الكريم اللغة العربية اهمية خاصة ، فذكر انه نزل بلسان عربي مبين ، « قرآنا عربيا غير ذي عوج »^(٥٦) وذكر العرب فهمه « انا انزلنا قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »^(٥٧) وبهذا عزز مكانة اللغة التي كانت سائدة فيهم ، وعامة بينهم ، تجمعهم وتشدهم الى بعضهم وتوحدتهم فكريا ، وهي اللغة العربية التي نظم فيها الشعراء ، وعبر بها البلغاء عن الاقوال المختارة والحكم والتراث ، والواقع ان القرآن الكريم يظهر كفاية اللغة العربية بالnehوض باي تقدم علمي ، وذلك بكثرة مفرداتها ومرونتها وقابليتها للاشتقاق وقدرتها على استيعاب التطورات الفكرية * .

وكانت للعرب مكانة خاصة متميزة في الدولة الجديدة ، ففيهم ظهر الاسلام وبلغتهم نزل القرآن الكريم ، ومنهم كان المسلمون الاولون والخلفاء والقادة وكبار الاداريين والمقاتلة الذين انتصروا في المعارك ووسعوا رقعة الدولة وحمو حدودها ، وثبتوا الامن والاستقرار وظلت جزيرة العرب معينا ومادة للاسلام ، تمد المقاتلة بالرجال فتعوض ما يفقدون وتزيد من قوتهم العسكرية .

حمل العرب تراثهم الثقافي الى الامصار التي اسسوها واستوطنوها . ولم تشهم المعارك التي خاضوها والفتوح التي اتموها عن متابعة الاهتمام بها كانوا يعنون به من تقدير للكلمة الطيبة ، وترديد للشعر ، وتقدير للسلوك الحسن والخلق الحميد ، وعناية بالماضي واخبار السلف ، وتقدير بالامجاد وعزز الاسلام هذه الاهتمامات واعطاها افاقا جديدة ودوافع قوية . وما عمل على انمائها تيسير العطاء والرزق ومتطلبات المعيشة ، فلم يعد الناس يشغلون وقتهم بما يؤمن حصولهم على القوت ، وبذلك توافر لهم وقت كاف ، وخاصة بعد تناقص الحملات والحروب ، للانصراف الى هواياتهم والاهتمام ببحث ما يتصل بالانسان وبتراثهم الثقافي من لغة واداب واخبار الماضين واحوال الكون ونظمه ومصير الانسان .

عناية العرب من الامصار بالفكر :

لقد استوطنت الامصار عشائر متعددة ، جاءت من مختلف ارجاء شبه جزيرة العرب ، يحمل افرادها تراثهم وثقافتهم وتقاليدهم ، فكانت اقامتهم الدائمة معا في مكان واحد يساعد على انماء المعرفة ، لان كل فرد يطلع على ما عند العشائر الاخرى من معارف ، كما ان اعتدادهم الذاتي يدفع الى التفاخر والمناقشة فيذكي التفكير ، ويوسع مجالات المعرفة ، وعزز ذلك الحرية الواسعة التي تعودوا عليها ، وابعثتها الدولة ويسرت نشرها .

مراكز النشاط الفكري :

وكانت ابواب المعرفة مفتوحة للجميع ، بإمكان اي فرد يرغب الاسهام فيها والاستزادة منها ، فلم تكن عليها اجور مادية ، ولا قيود تنظم طريقة الدراسة وساعاتها او سن من يشارك فيها ، ولم يشترط لها مكان معين ، فقد تكون في البيوت او مساجد العشائر او الساحات غير ان اماكن الاجتماعات العامة كانت توفر مجالس اوسع للتجمع والبحث والمعرفة ، وابرز هذه الاماكن هي المسجد الجامع وساحة السوق .

فاما المسجد الجامع فكانت له مكانة متميزة بسبب ساحته الواسعة ، وتفرد في جمع الكافة للصلاة ، وخاصة صلاة الجمعة ، وموقعه المركزي المتوسط وصلته بالدين وحرمة التسيّرة ، ولذلك كانت تجري فيه كثير من الاجتماعات و « الحلقات » لتداول الشعر ومناقشة امور السياسة والمجتمع ، وبحث المواضيع المتعلقة بالدين ، واما ساحات الاسواق فابرزها الكناسة في الكوفة والمربد في البصرة وكل منهما ساحة واسعة يؤمها الاعراب من شبه الجزيرة لبيع منتوجاتهم ، وعرض معارفهم عندما يطلب منهم ذلك فكانت تجلب المستريدين بالمعرفة الذين لا يقتصر دورهم على التساؤل . وانما يمتد الى المناقشات وعرض الافكار .

القرآن الكريم وعلومه :

كان القرآن الكريم ، وهو المصدر الاساسي لافكار الاسلام وتعاليمه ، اول ما عنت الدولة بنشر دراسته ، ويروى ان الخليفة عمر بن الخطاب امر بان يفضل قراء القرآن في العطاء ، وكان لكل من ابي موسى الاشعري والي البصرة ، وعبدالله بن مسعود وهو من كبار رجال الادارة في البصرة ، اهتمام خاص بالقرآن الكريم ، فشجعا على اتقان الناس قراءته ، وظهر في كل من البصرة والكوفة عدد من فاق غيره في الاهتمام بقراءة القرآن ودراسته ، وقد كادت قراءته تتأثر باختلافات في بعض الالفاظ وفي ضبط حروف

الاحالة ، غير ان الخليفة عثمان بن عفان تدارك الامر فثبت قراءة واحدة في نسخ معتمدة وزعها على الامصار لتكون مرجعا في الضبط ومنع الاختلاف ، غير ان ضبط القراءات لم يوقف نمو الدراسات عن مختلف ما يتعلق به من امور ، منها الخط الذي يكتب فيه ، اي رسمه ، ومعاني مفرداته واياته ، وشرح احكامه واورائه ، وتفسيره ومتابعة تفاصيل ما اشار اليه من اخبار الماضي وحوادث الاسلام .

وكون القراء جماعة متميزة مترابطة ، افرادها من عشائر متنوعة ، وكانت لهم اراء موحدة في بعض القضايا السياسية التي تعرضت لها الامصار ، وخاصة في زمن خلافة الامام علي ، وفي زمن الحجاج ، فكان منهم اول الخوارج واشد مؤيدي عبدالرحمن بن الاشعث ، وقد ضعف دورهم السياسي بعد القضاء على ثورة ابن الاشعث ، غير ان الدراسات عن القرآن وما يتصل به تتابعت ولمت واسهم المثات من اهل الكوفة والبصرة ومنذ اوائل زمن خلافة العباسيين ، تزايد عدد الكتب المؤلفة فيها فبلغت المثات ، واكثرها تعتمد في معلوماتها الاولى على المعنيين بها من اهل البصرة والكوفة ، وبدرجة اقل على اهل المدينة ومكة والشام .

الفقه والمعاملات :

ذكرنا ان العرب وهم غالبية السكان في الكوفة والبصرة كانوا يهتمون بسلوك الانسان وتصرفه وقد وضع الاسلام لهم توجها جديدا ، ودفع هذا الاهتمام الى بحث ما يتعلق بالعبادات وتنظيم العلاقات الاجتماعية بما في ذلك الفرد والاسرة وشرائع المجتمع ، وكانت العناصر الاساسية في ارائهم ما جاء في القرآن الكريم من احكام ، وتوجيهات الرسول (ص) في اقواله واحكامه ، وكذلك الاعراف والتقاليد التي لاتناقض مبادئ الاسلام وروحه ، وكان هذا الميدان واسعا ومتطلباته متعددة وهو يتعلق بحياة الناس والعامة من مختلف المشارب لدراسة ممارسات بعضها منوع تبعا لما الفوه قبل

استيطانهم مصر ، ولابد ان المعنيين بهذه الامور كانوا كثيرين ، غير انه برز بمرور الايام اشخاص تميزوا بسعة المعرفة وعمق الفكر وسلامة الاحكام ، واطلق على ميدان معرفتهم « الفقه » ومعناها اللغوي الادراك العميق غير ان معناها الخاص هو الدراسات المتعلقة باعمال المجتمع وممارساته ، ومن الطبيعي ان نطاق دراساتهم متشابهة ومساند ارائهم واحدة غير انهم اختلفوا في اجتهاداتهم واحكامهم في الفرعيات ولكن ظلت عنايتهم الكبرى بدراسة ما كان سائدا في الامصار من اوضاع صارت المكون الاكبر لكتب الفقه الاسلامي ودراساته *

الحديث والسنن :

وكانت مكانة الرسول (ص) المتميزة في نزول الوحي عليه ، وقيامه بتبليغ رسالة الاسلام وتوجيه الفرد وتنظيم المجتمع وتثبيت الدولة وتوسيعها ، مبعث اهتمام وعناية ، فاقبل الكثيرون على تتبع اخباره واقواله ، واعتمدوا في ذلك على الصحابة الذين عاشوا معه ، وكان عدد منهم قد نزل في الكوفة والبصرة ، ورجع كثير ممن لهم عناية زائدة في ذلك الى المدينة يستزيدون من الصحابة فيها المعلومات عن الرسول وظل هذا الاهتمام متوسعا ، غير ان اكثر ما ينقل شفاها ، الى ان امر عمر بن عبدالعزيز بتدوين احاديث الرسول (ص) وسنته ، ونظرا لان النقل كان يتم شفاها فقد دخله بعض التحريف من عدم ضبط النص او من دخائل غير اصيلة ، فصار تدقيق جمع الاحاديث موضوعا يلقي الاهتمام وكمال المعنيون بجمع احاديث الرسول (ص) وسنته وفحصها وتدقيقها ، عددهم كبير جدا في الكوفة والبصرة مما يدل على سعة الاهتمام بذلك ،

الافكار والعقائد السياسية :

واهتم عرب الامصار في الشؤون العامة في امصارهم ، وكانت مكانتهم المتميزة في تكوين الدولة وتثبيتها قوة دافعة لهذا الاهتمام ، عززه ماكانوا

قد الفوه في مجتمعاتهم القبلية ، وتأکید الاسلام على الاهتمام بالفرد وتوجيهه الذاتي ومسؤوليته الشخصية ، ولذلك شارك عدد غير قليل منهم وخاصة ذوي المكانة في الامور السياسية واتخذوا ازاء الاحداث المهمة مواقف مختلفة كانت نواة « الاحزاب السياسية » ورافق ذلك ظهور اراء وافكار عن تلك الحوادث او عن المبادئ العامة الواجب السير عليها في السياسة او الحياة العامة ، وتولد من ذلك تيارات سياسية وفكرية نمت على مر الايام واتخذت مسارات متعددة ، وبرز مفكرون عبروا عنها بآرائهم التي امتزجت فيها السياسة بالعقائد من خوارج ومرجئة ، ومعتزلة فضلا عن التيارات التي تؤكد على تفضيل اشخاص دون اخرين في الجدارة بتولى الامور العامة •

وكانت هذه الحركات والافكار كافة تقر بسيادة العرب وتعمل على تحقيق ما تراه من مصلحة العرب الذين كان منهم قادة تلك الحركات ولمثلهم توجهت نشاطاتها ، وقد برزت هذه الحركات منذ اواخر سني خلافة عثمان بن عفان ، ثم اتسعت وتنوعت فيما بعد ، وقام بعضها بنشاط عسكري هدد سيطرة الخلفاء الامويين ، ورافقه نمو في افكارها وكان للعراق النصيب الاكبر من هذه الحركات ومراكزها الكبرى هي الكوفة والبصرة •

اللغة والشعر والتاريخ :-

وتابع العرب اهتمامهم باللغة والاداب والشعر والانساب واخبار الامم الماضية ، ولاريد في ان تجمعهم في الامصار من مختلف ارجاء الجزيرة زاد من ثروتهم الثقافية في ذلك ، كما ولد تيارات ثقافية يرجع بعضها الى الاختلافات الفرعية في اللهجات والمفردات ، وفي جوانب الاحاسيس ، والمشاعر • غير ان الاستقرار واحتكاك الافكار دفع الى انماء هذه الدراسات كما ان نمو الحياة الحضرية بمتطلباتها المادية وانماطها في المعيشة اسهمت في النمو والتطور •

ففي اللغة ازدادت الثروة في المفردات ، ولم تعد مقصورة على ما يعرفه أبناء العشيرة ، وانما امتدت الى ما يعرفه كل العرب ، بالاضافة الى ما دخل ذلك من حياة الحضارة او الاقتباس من الاعاجم ، وامتدت العناية الى حصر المفردات واستيعابها ، وتمييز العربي الاصيل من الدخيل ، وتقدير قواعد النمو السليم ، وضبط اللفظ في مبناء ونموه ، اما الشعر فتأثر بالحياة المتطورة ، واخذ يستمد من احوال الامصار مادة لوصف اهلها ومشاعرهم ، وظهر نقاد للشعر اورواة للجيد منه ، كما ازداد الاهتمام الاكبر وتوجه الى العناية باخبار الحوادث التي اسهم بها اهل المصر بعد الاسلام، حتى اننا لانكون بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا ان التاريخ المدون للعهد الاسلامي الاول هو تاريخ الامصار ، وخاصة ما اسهم به اهل الكوفة والبصرة .

تطور الاهتمام بالعلم :-

كانت الرغبة في المعرفة عامة ، ومجال الاستزادة منها واسعا ، وهي حرة مفتوحة لا يقيدوها الا الذوق العام الذي يمجّد الطيب ، والدين الذي يضع اطارا عاما لاقرار مبادئ الاسلام الاساسية والمثل الاخلاقية التي يدعو اليها ، وكان الاقبال على المعرفة كبيرا ، فيروى ان طلبة الحديث في الكوفة كان يبلغ عددهم حوالي سنة ٨٠ هـ اربعة الاف (٥٨) . وقد يكون في هذا الرقم مبالغة ، ولكنه يدل على كثرة المعنيين به ، ولا بد ان المعارف الاخرى كان عدد المعنيين بها كبيرا ايضا .

وكان العلم قبل انتشار الورق في اوائل العصر العباسي ، ينقل شفاهاء، ولا بد ان ذلك ساعد العلماء على التبسط في اقوالهم واراءهم وعلى تيسر المجال لتعديل افكار في مادتها وصياغتها ، وربط العلماء بالمجتمع واخرجهم من « البروج العاجية » التي تضيق الفكر وتحصره ، وجعل العلم يتأثر بالاحوال المحلية ، وحصره باماكن اقامة العلماء ، وكان للكوفة والبصرة النصيب الاوفى من ذلك غير انه عرف عن اهل البصرة الاهتمام بعلم اللغة (٥٩)، والزهد

والاعتزال^(٦٠) ، وبعض جوانب علوم القرآن^(٦١) وعرفت الكوفة بالاهتمام بالشعر^(٦٢) والفقه ، واشتركا في دراسة الاخبار .

العلماء والمشافهة :-

وقد برز في كل علم عدد من الاعلام الذين ادرك الناس سعة معلوماتهم ، وتدقيقهم وادراكهم ، فكان لكل منهم عدد ممن يسمعون عنهم ويروون اراءهم ، غير ان هؤلاء الرواة كثيرا ما يتصرفون فيما ينقلون ، فيحورون اراء العالم بالاختصار او تبديل الالفاظ ، وكان للرواة المدققين حضوة خاصة ، ولذلك حرص الناس على اختيار الموثقين من الرواة لينقلوا عنهم علم العلماء ، الا ان نقل العلم شفاها ثبت مكانة عدد محدود من العلماء ، واضاع بالنسيان كثيرا من الحقائق . فالمعرفة ابان صدر الاسلام كانت اوسع بكثير مما وصل اليها عنها ، والمشاركون في العلم كانوا اكثر من الاعلام محدودي العدد الذين رددت اسماءهم المصادر المتأخرة .

وظل يقل المعرفة بالمشافهة يحضى بالتقدير عند الناس حتى بعد ان اتنشر استعمال الكاغد والذي يسر مادة سهلة رخيصة للتدوين وتأليف الكتب ، اذ لاريب ان الكتب تحفظ العلم وتصونه وتيسر نشره بين المجتمع دون الاقتصار على الحفاظ ، او حصره في المكان الذي يقيم فيه العلماء ، فضلا عن امكان افادة الاجيال التالية من معرفة الاولين ، غير ان الكتب تجعل العلم بمتناول من يملكون المال اللازم للحصول عليها بصرف النظر عن حرصهم على التعلم ، اي تصبح اسباب العلم متوفرة لمن له مال وقد لا يكون له حرص ذاتي على التعليم ، كما انه قد يضعف من نشاط الانسان وجهده لتحقيق رغبته في العلم فيقتصر على اقتناء الكتاب دون اتقان قراءته ، كما ان الكتب تضعف مكانة العلماء ، حيث يتحول قصد الناس الى اقتنائها دون الحاجة الى الاتصال بالعلماء ، بالاضافة الى ان المؤلفين يضطرون الى صرف جهود كبيرة في اتقان الخط ، وتدقيق الكتابة ، والتحوط في التعبير تحاشيا

هما قد يكون مستمسكا ماديا وحجة عليه يحاسب بموجبها ، بالاضافة الى
انه يفقد مراكز اقامة العلماء اهميتها .

العرب حملة العلم :-

يتبين مما تقدم ان الامصار ، وخاصة مصري العراق : الكوفة والبصرة ،
كانت المراكز الرئيسة للحركة الفكرية التي نمت في الميادين التي عنى بها
سكانها وهي اللغة والادب والشعر والفقه والحديث وعلوم القرآن .
وكانت هذه الحركة واسعة نشيطة عمت بين الناس ، وبرز فيها الكثيرون ،
من سكان هذه الامصار .

فالعلم الذي ازدهر عربي في اصوله ومادته ، ووضع
ضمن الصورة التي وضعها العربي ، وان قراءة مدققة لاهل
الحديث ورواته تظهر ان كثرتهم الكاثرة من العرب ، مثل
هذا الفقه وشيوخه الاولين البارزين مالك بن انس الاصمعي ، ومحمد بن
ادريس الشافعي القرشي . وابو يوسف الكندي ، ومحمد بن الحسن
الشيباني ، علما بان الشيوخ هؤلاء وبرزهم ابراهيم التيمي ، وابراهيم النخعي
وسعيد بن المسيب القرشي ، وان نظرة عامة على كتب رجال الحديث ، ومن
اوسعها تاريخ البخاري وطبقات خليفه تظهر ان الكثرة الكاثرة من رواة
الحديث هم من العرب .

والاهم من ذلك هو انه عندما ظهر الاسلام وكون دولته الواسعة كانت
الحركة الفكرية في بلاد الشرق الاوسط قد اصابها الركود والضمور ، حتى
اعتبرها سارثون المؤرخ الحجة في تاريخ العلوم من احلك ما مر به الفكر
العالمي^(٦٣) . وعلى الرغم من روح التسامح التي اظهرها الاسلام ، وتأمينه حرية
الفكر ، وتقديره للمعرفة ، فانه لم تظهر في المدن غير العربية حركة نشيطة
وظلت الامصار العربية ، وخاصة الكوفة والبصرة ، مركز النشاط الفكري
الرحب ، وموئل العلماء .

الهوامش

- (٢٢) انظر تفاصيل اوفى في كتابنا « خطط البصرة ومنطقتها » .
- (٢٣) فتوح البلدان ٣٤٦ .
- (٢٤) فتوح البلدان .
- (٢٥)
- (٢٦) الطبري ٣١٢٥/١ .
- (٢٧) الطبري ٧٩/٢ .
- (٢٨) انساب الاشراف ٢٩/٤-٢٩ ، وانظر عن تطور سلطة الوالي تفاصيل ذلك في كتابنا التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة .
- (٢٩) الطبري ٢٤٨٠/١ .
- (٣٠)
- (٣١) الطبري ٢٤٨٠/١ .
- (٣٢) الطبري ٢٤٩٠/١ .
- (٣٣) الطبري ٢٤٨٧/١ - ٢٤٨٨ .
- (٣٤) الطبري ٢٤٨٧/١ - ٢٤٨٨ .
- (٣٥) الطبري ٢٤٩٠/١ .
- (٣٦) انظر : انساب الاشراف ٤ - ٢٠٦/٢ .
- (٣٧) انظر تفاصيل اوفى من البصرة في كتابنا « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » ص ٤٧ فما بعد .
- (٣٨) الطبري ٢٤٩٦/١ .
- (٣٩) الطبري ٨١/٢ ، فتوح البلدان ١٠٩ .
- (٤٠) معجم البلدان لياقوت ٤٥١/١ ، ٤٨٧ .
- (٤١) فتوح البلدان ٣٢٢ ، ٣٢٩ .
- (٤٢) الطبري ٢٤٩٦/١ ، ابن سعد ١٣٥/٥ ، ٦٢/٦ ، ١٣٥/٧ الاموال لابن عبيد ٤٤ ، ٢٧١ ، وانظر تفاصيل اوفى في كتابنا : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة .
- (٤٣) ادب الكتاب للصولي ٢١٩ ، البلدان للجاحظ ٥٠٥ ، انساب الاشراف ٤ - ١٨٩/١ ، الاحكام السلطانية للماوردي ١٦٧ .
- (٤٤) فتوح البلدان ٤٥١ ، الطبري ١٤٠٢/١ ، ٢٥٦٤ ، ٢٣٠٧ ابن سعد ٢١٢/٣ فما بعد .
- (٤٥) الطبري ٢٣٨٧/١ ، ٢٥٦٣ ، ٢٦٣٣ ، ابن سعد ٧ - ٩٢/١ فتوح البلدان ٣٧٣ ، التاريخ الكبير للبخاري ١ - ٢٥٤/٢ .

- (٤٦) انظر تفاصيل اوفى كتابنا ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة وانظر مقال « العطاء » في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة .
- (٤٧) من سورة الكهف : الآية ٤٦ .
- (٤٨) انظر ما كتبه شوارزولوس عن الاسلحة عند العرب ، وما كتبناه عن تجارة البصرة في كتابنا : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة .
- (٤٩) انظر مادة « تجارة » في دائرة المعارف الاسلامية .
- (٥٠) انظر عن سوق الكوفة الطبري ٢٤٩٢/١ ، البلدان لليعقوبي ٣١١ وعن سوق البصرة كتابنا : خطط البصرة ومنطقتها ١٢٧ .
- (٥١) الطبري ٤٩٠/١ ، الاموال لابي عبيد ٢٢٦ ، اخبار القضاة لوكيع ٣٣٩/١
- (٥٢) ابن سعد ١٥/٦ ، الطبري ٣٢١٥/١ ، ٧١٢/٢ .
- (٥٣) ابن سعد ٤١/٦ .
- (٥٤) فتوح البلدان ٢٨١ ، مقاتل الطالبين ١٠١٠ ، ابن الفقيه ١٨٢ .
- (٥٥) ابن سعد ٧٦/٣ ، ٧٧ ، الاشتقاق لابن دريد ٣٨٢ ، مروج الذهب ٢٤٢/٢
- (٥٦) سورة الزمر : الآية ٢٨ ، وانظر ايضا سورة النحل الآية ١٠٢ .
- (٥٧) سورة يوسف الآية ٢ ، وانظر : الزخرف ٤٥ ، فصلت ٣ .
- (٥٨) المحدث الفاصل للرامهرمزي ٥٦ .
- (٥٩) مراتب النحويين للحلي ٧٤ ، ٩٠ ، الفهرست لابن النديم ٦٦ ، ٨١ ، الزهر للسيوطي ٢٥٦/٢ ، نزهة الالباء لابن الانباري ٧٥ .
- (٦٠) حلية الاولياء لابي نعيم ٩٤/٢ .
- (٦١) المحكم في نقط مصاحف الامصار .
- (٦٢) لسان العرب ١٤٠/٣ ، الخصائص ٩٢/١ .

الفصل الثالث

المدن في العهود الاسلامية المزدهرة

الدكتور عبدالقادر سلمان المعاضيدي
كلية التربية - قسم التاريخ
جامعة بغداد

مدن الادارة

منذ ان تم تحرير العراق من السيطرة الساساية قسمه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الى منطقتين اداريتين هما ولاية البصرة وتكون مدينة البصرة مركزا لادارتها ، وولاية الكوفة وتكون مدينة الكوفة مركزا لادارتها ، وجعل كل ولاية مستقلة عن الاخرى في النواحي الادارية والمالية والقضائية ليسهل الاشراف على ادارتها وجمع مواردها ، فكان يعين للعراق اميران أحدهما على البصرة ، والآخر على الكوفة^(١) وقد عهد الى أمير البصرة بالاضافة الى ادارة المناطق التي تدخل ضمن حدود ولايته في جنوب العراق، الاشراف الاداري على الأقاليم التي تم تحريرها من قبل مقاتلة البصرة في جهة الشرق وهي : الاحواز ، وفارس ، وكرمان ، ومكران ، وسجستان ، وخراسان ، وكان أمير البصرة يعين عمالا على هذه الاقاليم يكونون مسؤولين أمامه^(٢) . كما عهد الى أمير الكوفة الاشراف الاداري على

أواسط العراق ، وعلى الأقاليم التي تم تحريرها من قبل مقاتلة الكوفة وهي همدان ، والري ، وقزوين ، واصفهان ، واذريجان^(٣) .

وفي زمن الامويين تابع الخليفة معاوية بن ابي سفيان النظام الاداري الذي كان سائداً في العصر الراشدي وذلك بتعيين اميرين على العراق أحدهما على الكوفة والاخر على البصرة^(٤) ، هذا ثم جمع الخليفة معاوية المصريين لاميير البصرة زياد بن ابي سفيان في سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م وكان زياد يقيم ستة أشهر في الكوفة وستة اشهر في البصرة^(٥) ، وجمع اكثر الخلفاء الامويين ادارة العراق بيد امير واحد كان يقيم مرة بالبصرة ومرة بالكوفة ، ويعينون نائباً عنهم لادارة المصر الآخر^(٦) .

ولما ولي الحجاج بن يوسف الثقفي العراق سنة ٧٥هـ / ٦٩٤م رأى من الأفضل ان يتخذ مكاناً وسطاً بين هاتين المدينتين يكون مقراً لادارته فاختار موضع واسط وبنى مدينة فيه سنة ٨١هـ / ٧٠٠م وأقام بها^(٧) . وكان الأمراء الذين توالوا على حكم العراق بعد الحجاج يقيمون في واسط ايضاً^(٨) . وكان الامير في واسط يعين نائباً عنه على البصرة ، وآخر على الكوفة يطلق عليه اسم العامل ، ويكون كل منهما مسؤولاً أمامه^(٩) ، وقد ظلت واسط مركزاً لادارة العراق والمشرق الاسلامي حتى نهاية الخلافة الاموية سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م^(١٠) .

لقد بلغت الدولة العربية اقصى اتساعها في العصر الأموي (٤٠ - ١٣٢هـ / ٦٦٠ - ٧٤٩م) وقد أدى هذا الاتساع الى عدم استطاعة الخليفة الأموي ادارة هذه الرقعة الواسعة بصورة مباشرة من عاصمة الخلافة دمشق فعمل بتطبيق نظام اللامركزية في ادارة الدولة العربية حيث قسمت الى خمس ولايات كبرى - عدا بلاد الشام - وكان على رأس ادارة

كل ولاية أمير يعينه الخليفة يحكم باسمه ويكون مسؤولاً تجاهه ، وقد أصبح العراق بموجب هذا التقسيم مركزاً لإدارة القسم الشرقي من الدولة العربية ، فكان أمير العراق يشرف على إدارة العراق والأقاليم الشرقية من الدولة العربية وهي خراسان ، وسجستان وكرمان ، وفارس ، وبلاد ما وراء النهر ، والسند^(١١) وكذلك أقاليم الخليج العربي^(١٢) . ولما أصبحت واسط مقراً للأمراء في العراق قام هؤلاء الأمراء بتعيين العمال على تلك الأقاليم ويوكلون اليهم الإشراف الإداري فيها ويكونون مسؤولين تجاههم^(١٣) .

وفي زمن الخلافة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٤٩ - ١٢٥٨ م) احتفظت واسط بأهميتها الإدارية حيث بقيت مركزاً لإدارة ولاية كانت تتبع بغداد إدارياً طيلة العصر العباسي^(١٤) ، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن أهمية منطقة واسط الاقتصادية والعسكرية كما أن سلطات ولاية واسط المالية والعسكرية كانت محدودة لا تساعدهم على الاستقلال عن بغداد^(١٥) .

كانت ولاية واسط في العصر العباسي مقسمة إلى خمس مناطق إدارية يقال لها « أعمال » وكانت كل منطقة منها تضم مجموعة من المدن والقرى ، وهذه الأعمال هي : أعمال الصلح كان مركزها مدينة الصلح ، وأعمال واسط كان مركزها مدينة واسط ، وأعمال الصينية ، وأعمال الغراف كان مركزها مدينة الغراف وأعمال الشرطة^(١٦) .

وبما أن مدينة واسط كانت قد احتفظت بأهميتها الإدارية منذ إنشائها سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م حتى احتلال المغول بغداد ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م فسوف نتكلم عن هذه المدينة كنموذج لمدينة الإدارة في العراق في العصور العربية الإسلامية المزدهرة وذلك بتوضيح المؤسسات الإدارية فيها منذ إنشائها حتى نهاية الدولة العربية في العصر العباسي .

لقد ذكرنا انه منذ ان انشئت مدينة واسط سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م كان امراء العراق يقيمون بها ويشرفون منها على ادارة العراق والمشرق الاسلامي، في العصر الاموي فكان الامير قائدا للجيش في العراق والمشرق ، وله امامة الصلاة والخطبة ، ومسؤولا عن الادارة العامة في العراق والمشرق ، وتتبعه عدة دوائر ادارية تساعدهم في الادارة وتطبيق النظام وتنفيذ القوانين ، وكان على رأس كل دائرة ادارية موظف يعينه الأمير يكون مسؤولا تجاهه (١٧) .

وقد اتخذ امراء واسط في العصر الاموي لهم حجابا بين هؤلاء الامراء والناس (١٨) .

أما في زمن الدولة العريية في العصر العباسي فقد كان اختيار ولاية واسط وتميينهم يتم من قبل الخليفة وذلك في العصر العباسي الاول (١٩) ، وكان النظام الاداري في ذلك العصر نظاماً مركزياً حيث كان الخليفة العباسي يقصر عمل الوالي على القيام بحفظ الامن والنظام في ولايته (٢٠) .

ولما تسلط العسكريون الاتراك على الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي عين الخلفاء ولاية منهم على واسط إلا ان هؤلاء الولاة أقاموا في العاصمة وأنابوا عنهم حكاماً كانوا يديرون شؤون واسط باسمهم (٢١) .

ولما استولى البويهيون على بغداد سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م اصبح امراء بني بويه هم الذين يعينون ولاية واسط (٢٣) وكان الوالي في هذا العصر يتولى الحرب والخراج (٢٤) . ولما استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م اتخذوا في ادارة ولاية واسط نظام الاقطاع الحربي الذي انتشر في هذا العصر كأسلوب من اساليب التنظيم الاداري والمالي . فكان السلاطين السلاجقة يقطعون ولاية واسط

لبعض الاشخاص الذين كان أغلبهم من قواد الجند^(٢٥) ، ويكون « المقطع » مسؤولاً عن الادارة وحفظ الأمن والنظام في الولاية وان يدفع الى خزانة السلطان مبلغاً من المال سنوياً ، وان يقدم المساعدات العسكرية الى السلطان السلجوقي وقت الحاجة^(٢٦) . ولما تحرر العراق من تسلط السلجوقي سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م غدا الخليفة العباسي هو الذي يعين ولاية واسط ، والجدير بالذكر ان الخلفاء العباسيين كانوا قد أخذوا بنظام الاقطاع العسكري ايضاً ، وقد أقام قسم من هؤلاء المقطعين بواسط^(٢٧) . وكانوا يجمعون بين الحرب والخراج في هذه الولاية ، وكان بعضهم يؤثرون البقاء في بغداد وينيون عنهم حكماً على واسط^(٢٨) .

وفي أواخر العصر العباسي أوردت المصادر وظيفة الوالي بواسط باسم «الصدر»^(٢٩) الذي يبدو انه كان مسؤولاً عن الناحية الادارية والمالية^(٣٠) .

وكان الى جانب الأمير بواسط موظف له اهمية كبيرة في الادارة هو صاحب الشرطة الذي كان على رأس جهاز الشرطة في هذه المدينة ، وقد نشأت هذه المؤسسة الادارية في هذه المدينة منذ نشوئها ، كانت مهمتها استتباب الأمن وحفظ النظام بواسط^(٣١) . ونظراً لأهمية هذا المنصب الاداري فقد كان الامراء بواسط يشترطون صفات معينة فيمن يقلدونه هذا المنصب ، فكانوا يولونه لاشخاص يتميزون بالكفاءة والمقدرة والحزم والامانة ، يقول ابن قتيبة^(٣٢) ان الحجاج بن يوسف الثقفي عندما اراد ان يعين صاحب الشرطة قال : « دلوني على رجل للشرطة ، فقليل أي الرجال تريد ؟ فقال : اريده دائم العبوس طويل الجلوس سمين اعجف الخيانة لا يحنو في الحق على جرة يهون عليه سبال الاشراف في الشفاعة ، فقليل له : عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي ، فارسل اليه يستعمله » .

يتبين من قائمة اصحاب الشرط في هذه المدينة ان معظم هؤلاء كانوا من رجال القبائل ، ومن المرجح انهم كانوا قد اختيروا من رؤساء هذه

القبائل زيادة في أهمية صاحب الشرطة لان مهمته تتعلق بالأمن والنظام في المدينة^(٣٣) .

أما افراد الشرطة فالمرجح انهم كانوا قد اختيروا من رجال القبائل التي سكنت واسط لكي يكون كل واحد منهم مسؤولا عن حفظ الأمن والنظام في قبيلته^(٣٤) .

ويظهر من المصادر التاريخية ان هناك عدة دوائر كانت مرتبطة بجهاز الشرطة في مدينة واسط ، وكانت على الدوائر واجبات مختلفة ومتعددة تتعلق باستتباب الأمن وحفظ النظام في المدينة ، فقد كان هناك حرس خاص يقوم بحماية الأمير والمحافظة على سلامته وتنفيذ أوامره^(٣٥) . كما انه كان هناك حرس خاص لحراسة المدينة ليلا يطلق عليه اسم « العسس »^(٣٦) .

وهناك اشارات الى موظف اخر كان على رأس دائرة مهمتها التحقيق مع المتهمين لأخذ اعترافاتهم قبل تقديمهم الى مجلس القضاء^(٣٧) . كما وردت اشارة الى وظيفة « صاحب الاستخراج » بواسطة ، ويتضح لدينا من اخبارها انه اودع الى صاحبها أمر التحقيق مع كبار الموظفين في موضع خاص يسمى « دار الاستخراج »^(٣٨) وقد وردت اشارة الى صاحب السجن في هذه المدينة ، ولا بد انه كان مسؤولا عن ادارة سجن الديماس فيها^(٣٩) .

كما ان هناك اشارات الى وظيفة « صاحب المعاون »^(٤٠) أو « عامل المعاون »^(٤١) أو « صاحب المعاونة »^(٤٢) بواسطة ، ويظهر من المصادر التاريخية ان هذه الدائرة كانت مرتبطة بجهاز الشرطة في مدينة واسط ، والراجح ان واجب صاحب المعاون كان قائما على مساعدة جباة الضرائب بواسطة^(٤٣) . ومساعدة بقية الموظفين الآخرين في اداء واجباتهم^(٤٤) .

وعندما استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م استحدثوا في مدن العراق المختلفة وظيفة جديدة كان يسمى القائم بها « شحنة »^(٤٥) .

ويظهر ان هذه الوظيفة كانت قد حلت محل وظيفة صاحب الشرطة بواسطة ،
فبينما كان لهذه المدينة صاحب للشرطة قبل عصر التسلط السلجوقي فاننا
لم نجد نسمع بمثل هذه الوظيفة في هذا العصر مما يدل على الغائها^(٤٦) .
ولأهمية هذه الوظيفة فقد كان الحكام في بغداد يختارون
شحنة واسط من البارزين الذين كانوا يتصفون بالكفاءة
العسكرية والادارية^(٤٧) . ويبدو ان الشحنة بواسطة كان يقوم بالواجبات
التي كان يقوم بها صاحب الشرطة نفسها ، فقد عهد اليه حفظ الأمن واشاعة
الاستقرار ومراقبة المفسدين والقبض على الجناة^(٤٨) .

ومما تجدر الاشارة اليه هو ان هذه الوظيفة ظلت بواسطة بعد زوال
التسلط السلجوقي واستقلال الخلافة ، وكان الخليفة هو الذي يعين الشحنة
في هذه المدينة^(٤٩) . أما مؤسسة القضاء بواسطة فقد ظهرت فيها منذ انشائها
وكان الامراء بواسطة في العصر الأموي هم الذين يعينون القضاة ويعزلونهم
ويرتبون ارزاقهم^(٥٠) . وقد تردد في المصادر ذكر عدد من الاشخاص الذين
نولوا هذا المنصب في هذه المدينة في هذا العصر^(٥١) .

كان عمل القاضي هو - « الفصل بين الناس في الخصومات حسماً
للتداعي وقطعاً للتنازع »^(٥٢) والنظر في المسائل الشرعية كالزواج والطلاق
والمواريث ، وشؤون اليتامى والأرامل والمعاملات في الأسواق^(٥٣) . أما
مجلس القضاء فقد كان في العصر الأموي يعقد في المسجد الجامع بواسطة
في اغلب الأحيان^(٥٤) .

وقد ورد ما يشير الى ان القاضي كان يقضي بين الخصوم في
السوق^(٥٥) . والبيت^(٥٦) أو الطريق^(٥٧) .

وكان مرجع القاضي في أحكامه القرآن الكريم والسنة النبوية والقياس
والاجتهاد وأخذ رأي الفقهاء ، أي ما أجمع المسلمون عليه^(٥٨) . أما تنفيذ
الأحكام فقد كان من واجبات الشرطة^(٥٩) .

أما في زمن الدولة العربية في العصر العباسي فقد كان الخليفة في القرون الاولى هو الذي يعين قضاة واسط وعزلهم^(٦١) . ومنذ النصف الاول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي تشير الاخبار الى ان تعيين قضاة واسط وعزلهم كان يتم من قبل قاضي القضاة ببغداد ، فقد ذكر ابن الجوزي ان قاضي القضاة عمر بن محمد بن يوسف قلد في سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٣م أبا طاهر محمد بن أحمد بن عبدالله الذهلي القضاء بواسط^(٦٢) ويبدو ان طريقة التعيين هذه لم تتبع طيلة العصور العباسية المتأخرة ، وانما اتبعت في معظم فتراتها^(٦٣) . فقد جاء في المصادر ان قاضي القضاة كان يستأذن الوزير عند ترتيب القاضي بواسط ، فصاحب كتاب الحوادث الجامعة يذكر انه عندما قلد قاضي القضاة عبدالرحمن بن مقبل الواسطي في سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م أحمد بن عنتر الهامي القضاء بواسط ، أمر الوزير بعزل القاضي لأن قاضي القضاة لم يستأذنه في ترتيبه ثم شفع به الى الوزير فتقدم الى قاضي القضاة باعاده فأعاده الى منصبه^(٦٤) . وهذا يدل على ان سلطة تعيينهم اصبحت بيد الوزير بعد ان كانت بيد قاضي القضاة ، ومن المرجح ان طريقة التعيين هذه اقتضت على الفترة التي أصبح فيها الوزراء أو نوابهم هم الذين يعينون قاضي القضاة^(٦٥) . وتشير الأخبار أيضاً ان قاضي القضاة كان يقترح اسما قضاة واسط ثم تقدم الى صاحب الديوان للموافقة على تعيينهم^(٦٦) ، وان بعض الخلفاء في العصر العباسي الأخير قلدوا قضاة واسط^(٦٧) .

لم نجد في المصادر ما يشير الى وجود أكثر من قاض واحد بواسط حتى اواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فقد ذكر ابن الجوزي ان القاضي أبا تغلب عبيد الله بن احمد بن جعفر (ت ٤١٠هـ / ١٠١٩م) كان نائباً عن القاضي إبي خازم محمد بن الحسن الواسطي في الجانب الشرقي من واسط^(٦٨) . ولاشك ان سبب ذلك يرجع الى اتساع رقعة المدينة وكثرة

عدد سكانها في هذه الفترة مما أدى الى تقسيم قضائها الى منطقتين ، غير اننا لا نستطيع تحديد السنة التي حدث فيها هذا التغيير في ادارة القضاء بواسط ، والراجح ان هذا الاجراء الاداري ظل قائماً بواسط طيلة العصر العباسي لأن هذه المدينة ظلت محتفظة بسعة رقعتها وازدهارها الاقتصادي والاجتماعي طيلة هذه الفترة (٦٨) .

ويظهر ان عمل بعض قضاة واسط كان يشمل مدن ولاية واسط ايضاً فقد ذكر ابن الجوزي انه في سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩م ولي ابو خازم محمد بن الحسن الواسطي القضاء بواسط واعمالها (٦٩) . وفي سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ولي ابو علي الحسن بن ابراهيم الفارقي القضاء بواسط واعمالها (٧٠) . ويذكر ابن الديلمي انه في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م قلد قاضي القضاة ابو الحسن علي بن أحمد الدامغاني أخاه أبا محمد الحسن بن أحمد بن علي قضاء واسط وأعمالها (٧١) . وغير هؤلاء (٧٢) .

وبما ان قاضي واسط لا يستطيع النظر في أمر جميع مدن واسط ، فلا بد ان قضاة مدن واسط الذين تردد ذكرهم في المصادر (٧٣) كانوا يقومون بأعمالهم نيابة عن قاضي واسط ويكونون مسؤولين أمامه (٧٤) . إلا ان المصادر لا تذكر كيف كان يتم ترتيب هؤلاء القضاة ، هل كان بتحويل شخصي من قاضي واسط دون حاجة الى تأييد قاضي القضاة ببغداد ؟ ام ان ترتيبهم كان يتم بعد استشارة قاضي القضاة وتأييده ؟ إلا اننا نرجح الحالة الثانية نظراً لأهمية منصب القضاء آنذاك .

أما مجلس القضاء بواسط فقد كان يضم بالإضافة الى القاضي ، الأعوان ، والحاجب والكاتب ، والشهود العدول والوكلاء .

كانت مهمة الأعوان احضار الخصوم الى مجلس القضاء والمحافظة على الهدوء والنظام في اثناء المرافعات (٧٥) . وكانت مهمة الحاجب هي الحفاظ على الهدوء في مجلس القضاء ، فكان لا يسمح بالدخول الى مجلس

القضاء إلا للخصوم والوكلاء وحسب ترتيب حضورهم^(٧٦) . وقد اشترط الفقهاء في الحاجب العدالة والعفة والامانة^(٧٧) .

أما الكاتب فقد كان يدون أقوال الخصوم والشهود ، وقرار الحكم الذي يصدره القاضي ، واشترط الفقهاء في الكاتب ان يكون « مسلماً ورعاً لأن الكتابة من جنس القضاء فيشترط في الكاتب ما يشترط في القاضي^(٧٨) وان يكون مكانه قريباً من القاضي » حيث يراه كي لا يخدع في الرشوة فيزيد في الفاظ الشهادة او ينقص^(٨٩) . أما الشهود العدول فقد كان يختارهم القاضي للشهادة في مجلس القضاء^(٨٠) ، وكان يشترط بالعدل ان يكون مسلماً بالغاً عاقلاً عالماً بما يشهد^(٨١) . لذلك فقد كان القضاة بواسط يختارون هؤلاء العدول من بين الفقهاء^(٨٢) والقراء^(٨٣) . ورجال الحديث^(٨٤) . وكان لا يصبح الرجل معدلاً إلا بتزكية اثنين من الشهود العدول أمام القاضي^(٨٥) .

أما الوكيل فهو الذي يعرف اليوم بالمحامي^(٨٦) . وكان يتولى مهمة المرافعة أمام القاضي وكالة عن موكله لقاء مبلغ معين من المال^(٨٧) .

أما عن أرزاق القضاة والأعوان ، والكتاب فقد ذكر وكيع ان رزق قاضي واسط ابو شيبة ابراهيم بن عثمان كان ١٥٠ درهماً في الشهر ثلاثين منها لكتابه وأعوانه فزادها الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٤ - ٧٨٥ م) فصارت (٣٠٠) درهم ، ثم زيدت فبلغت (٤٨٠) درهم^(٨٨) ومما لاشك فيه فان أرزاق هؤلاء زيدت عما كانت عليه في العصر العباسي الأول .

لقد أصبحت مدينة واسط منذ ان التشت سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م مركزاً لإدارة العراق والمشرق ، كما ذكرنا ، فمن المحتمل جداً ان عدداً كبيراً من

الصناع واصحاب الحرف ، والعمال ، والتجار ، ورجال الأعمال جاءوا من الكوفة والبصرة واماكن اخرى واستوطنوها منذ السنوات الاولى لتأسيسها مما أدى الى ازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها^(٨٩) . فلابد في هذه الحالة ان تقوم مشاكل من جراء المعاملات في السوق والصناعات والأعمال الاخرى التي تتعلق بحياة السكان المعاشية ، فلكي تمنح الدولة قيام الغش والحيل والتدليس ، والاحتكار من قبل بعض الباعة كان لابد لها ان تعالج المشكلة فأوجدت مؤسسات ادارية لمراقبتهم ومنعهم من القيام بالأعمال المضرة بمصلحة المستهلك^(٩٠) . فكان المحتسب على رأس هذه المؤسسة الادارية في مدينة واسط^(٩١) .

أما في زمن الدولة العربية في العصر العباسي فان المصادر المتيسرة لدينا أشارت الى عدد من الشخصيات التي تولت هذا المنصب في هذه المدينة^(٩٢) مما يدل على استمرار هذه المؤسسة الادارية ، إلا ان هذه المصادر لم تمدنا بأية معلومات عن واجبات المحتسب ، ولكن يمكن القول أنه ظهرت في المجتمع العربي الاسلامي كتب تناولت الحسبة بصورة مفصلة فبحثت في شروط المحتسب وواجباته واعوانه^(٩٣) . والراجح ان واجبات المحتسب في المدن التي ألفت فيها هذه الكتب لا تختلف بصورة أساسية عن واجباته في مدينة واسط وذلك لان واجبات المحتسب كانت متشابهة الى حد كبير في كل جزء من اجزاء المجتمع العربي الاسلامي^(٩٤) .

لقد اشارت كتب الحسبة هذه الى ان من واجبات المحتسب تفقد أحوال اهل السوق ومراقبة الموازين والمكاييل والمقاييس نظراً لتعددتها في الأقاليم العربية الاسلامية وذلك للتأكد من صحتها^(٩٥) . ومراقبة اصحاب الحرف

والاصناف وارباب الصنائع^(٩٦) والحيلولة دون وقوع الغش أو التدليس في المبيعات^(٩٧) . وكان عليه مراقبة عمل الدالين في الأسواق و « يقر منهم الامناء ويمنع الخونة »^(٩٨) . ويلزم المحتسب الخبازين بنظافة أفرانهم وملاحظة اوزان الخبز ونظافته^(٩٩) . ويمنع الجزارين من اخراج اللحوم خارج حوائطهم لئلا تلتصق ثياب الناس ، ويأمرهم ألا يخلطوا لحوم الماعز بلحوم الضأن^(١٠٠) . كما كان يلزم الصيادلة بعدم غش الدواء^(١٠١) وكان على المحتسب ان يقوم بملاحظة سعة ونظافة الأسواق والطرق للحيلولة دون مضايقة المارة فيها^(١٠٢) . ويأمر أصحاب المباني المتداعية بهدمها^(١٠٣) . وملاحظة نظافة المساجد « ومنع الناس من الاجتماع فيها لغير الصلاة »^(١٠٤) . ومراقبة المعلسين ومنعهم من ضرب الاطفال ضرباً مبرحاً^(١٠٥) .

ان كثرة مسؤوليات المحتسب جعلته يتخذ من أهل كل صناعة عريفاً يكون مشهوراً بالثقة والأمانة ، خبيراً بصناعتهم ، بصيراً بغشهم وتدليسهم ، يشرف على أحوال أهل صنعته ويوصل اخبارهم الى المحتسب ، وعهد اليه ايضاً ان يشرف على البضائع الواردة الى السوق ويوصل اخبارها واسعارها الى المحتسب^(١٠٦) . وازضافة الى هؤلاء كان المحتسب يتخذ له أعواناً يساعدونه في اداء مهمته^(١٠٧) . كان يجري تهذيبهم وتعليمهم على واجباتهم تحت اشرافه^(١٠٨) .

كان اختيار وتعيين المحتسب بواسطة في العصر الأموي يتم من قبل الامير^(١٠٩) . أما في العصر العباسي فلم أجد في المصادر ما يشير الى من كان يقوم بتعيين المحتسب في هذه المدينة ، إلا اننا نجد اشارات الى ان هذه الوظيفة كانت تعهد الى بعض القضاة بواسطة ، فقد ذكر ابن الديثي ان القاضي أبا الازهر علي بن أحمد بن محمد بن علي الكتاني كان محتسباً بواسطة ، وان ابنه القاضي أبا طالب محمد بن علي الكتاني كان محتسباً

«أيضا» (١١٠) . ومن المحتمل جداً ان هذه الوظيفة كانت تعهد الى القاضي في أثناء تعيينه بمنصب القضاء» (١١١) .

لم نجد أية اشارة عن دائرة المحتسب بواسط ، ولكن لابد انه كانت هناك دائرة خاصة به وذلك لحفظ سجله الذي ربما كان يسجل به أصحاب الحوائت واصحاب الحرف وغيرهم في المدينة ويضع فيها عدته كما كان عليه الحال ببغداد» (١١٢) .

وبما ان مدينة واسط كانت مركزا لادارة العراق والمشرق الاسلامي فقد كان في هذه المدينة عدد من الدواوين كانت مساهمة بمتطلبات ادارة واسط هي :

ديوان الخراج : كان يرأس هذا الديوان في مدينة واسط موظف يسمى (كاتب الخراج) (١١٣) . وكان يساعده في ادارة هذا الديوان عدد من الموظفين والكتاب والمحاسبين ، أما مهنته فقد كان يتولى تنظيم الخراج وجبايته (١١٤) . ويظهر ان النظام الاداري في الدولة العربية في العصر الأموي كان قد منح الاقاليم سلطات واسعة تسهلا لادارتها ، وكان هناك اتجاه لا مركزي قد ساد المؤسسات الادارية آنذاك ، فقد كان الأمير بواسط يدفع من أموال الخراج التي بمهنته أعطيات الجند والنفقات الاخرى ثم يرسل الباقي الى بيت المال المركزي في دمشق ، يقول الماوردي (١١٥) : « وكان يوسف بن عمر يحصل منه (يعني الخراج) في كل سنة من ستين الف الى سبعين الف ، ويحتسب بعتاء من قبله من أهل الشام ستة عشر الف الف درهم ، وفي نفقة البريد أربعة آلاف ألف درهم ، وفي الطوارق الف الف ، ويبقى في بيوت الأحداث والعوائق عشرة آلاف ألف درهم » .

أما في العصر العباسي فقد كانت ضريبة الخراج بواسط تجبى من قبل موظف يطلق عليه اسم « صاحب الخراج » كان يحمل خراج ولاية واسط الى خزائن الدولة ببغداد بعد ان يسدد نفقاتها (١١٦) . غير ان طريقة الجباية هذه

كانت قد تغيرت وخلفتها طريقة أخرى هي « الضمان » حيث أصبح الضامن هو الذي يتولى جباية الضرائب المفروضة على الأراضي الخراجية بولاية واسط على أن يتعهد بدفع مبلغ معين للخزينة ببغداد سنوياً (١١٧) .

لقد بدأ ضمان واسط في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، لذلك لم يعد لكلمة الخراج أو عامل الخراج بواسط ذكر في المصادر بعد هذا التاريخ (١١٨) .

وكان سبب اللجوء الى هذه الطريقة هو الازمات المالية التي كانت تمر بها الدولة العربية في العصر العباسي وحاجتها الى المال لدفع رواتب الجند والموظفين (١١٩) .

وعلى الرغم من أن هؤلاء الضامين كانوا يخضعون لاشرف الوزراء واصحاب الدواوين ببغداد (١٢٠) ، إلا أنهم لكي يربحوا كان عليهم أن يجلبوا ما يمكنهم جبايته من الاموال ، فقد ذكر مسكويه أن ربح حامد بن العباس من ضمانه لواسط سنة ٣١١هـ / ٩٢٣م كان أكثر من الضعف (١٢١) . وكان الضامنون يتبعون طرقاً غير مشروعة في اثناء جمعهم الاموال (١٢٢) . مما أدى الى خراب الأراضي بمنطقة واسط وغلاء الأسعار (١٢٣) .

وكان مع الضامن كتاب يساعده (١٢٤) . كما كان له وكلاء ايضاً يقومون بالأعمال التي يعهد بها اليهم (١٢٥) .

وفي عصر التسلط البويهي (٣٣٤ - ٤٤٧هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥م) استحدثت بواسطة وظيفة « الناظر » الذي كان مسؤولاً عن تنظيم واردات ولاية واسط وتفقاتها (١٢٦) وكان اختيار الناظر وتعيينه يتم من قبل الأمير البويهي ، فقد ذكر أبو شعاع أنه في سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م عهد بهاء الدولة بهذا المنصب بواسط الى ابي علي بن اسماعيل (١٢٧) .

ومع أن صاحب هذه الوظيفة موظف مالي إلا أنه بسبب التداخل الموجود في عمل الموظفين في الدولة العربية في العصر العباسي ، فقد كان يعهد الى

الناظر أحياناً إضافة إلى وظيفته مهمة الاشراف على الادارة في ولاية واسط (١٢٨) * كما تولى بعضهم النظارة والاشراف (١٢٩) *

وكان للناظر نواب (١٣٠) * ومعه موظفون يسمون العمال ، وكتاب يساعدونه في أعماله (١٣١) *

ويظهر انه كانت هناك تقاليد ورسوم تتبع عند تعيين الناظر فقد ذكر ابن الساعي انه عندما عين ابو الفضل بن النمس ناظراً بواسط سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م خلع عليه في الديوان العزيز ثم توجه الى واسط (١٣٢) * ويذكر صاحب كتاب الحوادث الجامعة انه عندما عين محمد بن يحيى البصري ناظراً بواسط سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م ارسلت اليه خلعة من بغداد (١٣٣) *

ومما تجدر الاشارة اليه ان هذه الوظيفة ظلت قائمة بواسط حتى نهاية الدولة العربية في العصر العباسي (١٣٤) * وان الخليفة في العصر العباسي الأخير هو الذي كان يعين الناظر (١٣٥) *

اما في عصر التسلط السلجوقي (٤٤٧ - ٥٥٢ هـ / ١٠٥٥ - ١١٥٧ م) فقد استحدثت بواسطة وظيفة مالية اخرى هي « المشرف » والراجح ان تعميم الاقطاع في هذا العصر هو الذي ادى الى استحداث هذه الوظيفة المالية ، وكان لهذه الوظيفة ديوان يرأسه موظف يعرف بالمشرف (١٣٦) * ومن خلال الاشارات التي وصلت إلينا عن هذا الديوان يمكن القول ان رئيس هذا الديوان كان يراقب أعمال الناظر ويشرف عليها (١٣٧) *

وهذه الوظيفة أشبه ما تكون بوظيفة المدقق او المفتش المالي في الوقت الحاضر (١٣٨) ونظراً لكون وظيفة هذا الديوان هي مكملة لوظيفة الناظر فقد جمع الديوانان أحياناً لشخص واحد (١٣٩) *

ديوان الجند : لقد انشئت مدينة واسط لتكون مقراً لادارة العراق والمشرق ، ومركزاً لتجمع الجيش العربي في العراق ، ومركزاً لانطلاق هذا

الجيش الى الساحات الشرقية ، وقد ادى امراء ومقاتلة واسط دورا متميزا في حركات التحرير العربية في جبهة خراسان ، وجبهة ما وراء النهر ، وجبهة السند حيث اصبحت هذه المدينة مقراً لادارة العمليات العسكرية في تلك الجبهات^(١٤١) . وبما ان الابواب الرئيسة لمصروفات الدولة العربية هي الاتفاق على المقاتلة ، وعلى الحملات العسكرية وعلى تكاليف الادارة بواسط^(١٤١) . فلا بد في هذه الحالة من وجود سجلات منظمة باسماء المقاتلة واوصافهم وأنسابهم ومقدار عطاء كل منهم وموعد استحقاقه . كما انه لا بد من وجود مكان لحفظ هذه السجلات والاشراف عليها وذلك ما يطلق عليه اسم الديوان^(١٤٢) .

والجدير بالذكر ان ثقات هذا الديوان على الجند بواسط كانت قد بلغت في عهد الأمير يوسف بن عمر الثقفي (١٢٠ - ١٢٦ هـ / ٧٣٧ - ٧٤٣ م) ستة عشر مليون درهم^(١٤٣) . وبلغت ثقات هذا الديوان على حركات التحرير العربية في جبهة السند في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي (٨٢ - ٩٥ هـ / ٧٠١ - ٧١٣ م) ستين مليون درهم^(١٤٤) .

ديوان الرسائل : كانت مهمته تحرير الرسائل التي يبعث بها الأمير الى الخليفة بدمشق او الى عمال الأقاليم التي كان يشرف على ادارتها ، وتلقى الرسائل التي كانت ترد الى الأمير بواسط^(١٤٤) . وكان يرأس هذا الديوان موظف يسمى « كاتب الرسائل »^(١٤٥) .

ديوان البريد : كانت مهمة صاحب البريد الرئيسة هي نقل الاخبار والرسائل بين واسط ودمشق ، وبين واسط ومراكز ادارة الاقاليم التابعة لادارتها^(١٤٦) . وكان لصاحب البريد النظر في احوال موظفي البريد ودوابه وامكنته ، وينبغي ان يكون عارفاً بالطرق والمسالك الى جميع نواحي الدولة بحيث يجد الأمير عنده كل المعلومات المطلوبة^(١٤٧) .

لقد أولى امير واسط الحجاج بن يوسف الثقفي عنايته واهتمامه
بشؤون البريد اذ رأى - على ما يظهر ان هنالك ضرورة لاتصاله الدائم
وامامه السريع بأخبار الجيش العربي الذي يقاتل الأعداء في الساحات الشرقية
فقام بتحسين طرق المواصلات التي يسير عليها صاحب البريد ، ويدل على
ذلك سرعة وصول الأخبار منه واليه ، فقد ورد في كتاب فتوح البلدان ان
كتب الحجاج كانت ترد على القائد محمد بن القاسم الثقفي في بلاد السند ،
وكتب القائد محمد ترد اليه كل ثلاثة ايام (١٤٨) . ولكي تنقل اخبار حركات
التحرير العربية في المشرق بسرعة اتخذ الحجاج المناظر بين مدينة واسط
وقزوين ، وكان « اذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهارا ، وان كان
ليلا أشعلوا نيراناً فتجرد الخيل اليهم » (١٤٩) .

ويبدو ان الامراء الذين جاءوا بعد الحجاج كانوا قد اهتموا بالبريد
أيضاً واولوه عنايتهم ، فقد ذكر الماوردي ان ثقة البريد كانت في زمن امير
واسط يوسف بن عمر الثقفي أربعة ملايين درهم (١٥٠) .

لم تقتصر واجبات صاحب البريد بواسط على نقل الرسائل والاخبار
وانما كلف بالقيام بواجبات أخرى ، فقد كان عيناً للامراء على عمالهم يرفعون
عنهم التقارير الى الامراء (١٥١) كما استخدم البريد لنقل كبار الموظفين (١٥٢)
والاشخاص الذين يطلبهم الأمير للمشول امامه (١٥٢) . ولما كان صاحب البريد
عالماً بالطرق والمسالك فقد استخدم البريد لنقل الجند في اثناء حركات
التحرير العربية (١٥٣) ، وقيام حركات المعارضة (١٥٤) .

لقد جائتنا كتابات عن الطرق والسكك التي كانت تربط مدينة واسط
بالمدن والأقاليم الاخرى في العصر العباسي . وأعطت هذه الكتابات وصفاً
دقيقاً وشاملاً لطرق البريد هذه ، مع تحديد المسافات بين واسط وهذه
الأقاليم بدقة . وهذه الكتابات - بلاشك - تعيننا على معرفة طرق البريد
في فترة دراستنا بصورة دقيقة (١٥٥) .

والجدير بالذكر هنا ان عملية تعريب دواوين الطرق تمت في مدينة واسط بأمر من أمير واسط الحجاج بن يوسف الثقفي (١٥٦) .

ونظراً لأهمية واسط الادارية والسياسية والاقتصادية فقد اتخذت مركزاً لضرب الدراهم منذ انشائها حيث جمع الحجاج فيها الطبايعين والصناع من المراكز الاخرى لسك النقود في العراق (١٥٧) .

وقد اصبحت هذه المدينة منذ سنة ١٠٦هـ / ٧٢٤م المركز الوحيد لضرب النقود في العراق والمشرق الاسلامي ، وقد أشار المقرئ الى هذه الحقيقة فقال (١٥٨) : « فلما قام هشام بن عبد الملك ، وكان جموعاً للمال ، أمر خالد بن عبد الله القسري في سنة ست ومائة من الهجرة ، ان يعيد العيار الى وزن سبعة ، وان يبطل السك في كل بلدة إلا واسطاً ، ف ضرب الدراهم بواسط فقط ، وكبر السكة ، ف ضربت الدراهم على السكة (الخالدية) حتى عزل خالد في سنة عشرين ومائة وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي ، فصغر السكة وأجراها على وزن ستة ، وضربها بواسط وحدها » .

ويؤكد Jungfleisch ان مدينة واسط اصبحت المركز الوحيد لضرب الدراهم في جميع الأقاليم التابعة للدولة العربية في العصر الأموي ، باعتبار انه وجد بواسط عدد كبير من الدراهم الأموية الخاصة بأفريقية والاندلس كانت قد ضربت في هذه المدينة وكانت معدة لتصديرها الى هذين الاقليمين (١٥٩) . ويوافقه في ذلك كل من Walker (١٦٠) . و « عبد الرحمن فهمي » (١٦١) .

لقد كان امراء واسط شديدي الحرص على الاحتفاظ بسلامة النقود وجودتها ، فقد كانت النقود التي ضربت بواسط من الانواع الجيدة وقد اشار البلاذري الى ذلك بقوله (١٦٢) : « فلما ولي عمر بن هبيرة العراق ليزيد بن عبد الملك خلص الفضة أبلغ من تخليص من قبله ، وجود الدراهم ،

فاشتد في العيار ، ثم ولي خالد بن عبدالله البجلي ثم القسري العراق لهشام بن عبدالملك ، فاشتد في النقود اكثر من شدة ابن هبيرة ، حتى احكم أمرها أبلغ من احكامه . ثم ولي يوسف بن عمر بعده فأفرط في الشدة على الطباعين واصحاب العيار . . . فكانت الهيرية والخالدية ، واليوسفية أجود نقود بني أمية . ولم يكن المنصور يقبل في الخراج من نقود بني أمية غيرها « (١٦٣) .

وفي زمن الدولة العريية في العصر العباسي استمر ضرب النقود بواسطة ايضا (١٦٤) .

الهوامش

- (١) انظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٥٩٠/٣ ، ٩٥/٤ ، ١٦٠ .
- (٢) انظر : تاريخ خليفة بن خياط : ١٥٦/١ ، ١٥٨ ، الطبري : ١٣٧/٤ «
الكامل في التاريخ : ١٠٠/٣ .
- (٣) انظر : الطبري : ١٣٧/٤ .
الكامل في التاريخ : ١٤٧/٣
- (٤) اليعقوبي : تاريخ : ٢٢٠/٢ ، الطبري : ٢٣٤/٥ .
- (٥) اليعقوبي : تاريخ : ٢٢٩/٢ ، الطبري : ٢٣٤/٥ .
- (٦) الطبري : ٣٤٨/٥ .
- (٧) بحشل : تاريخ واسط : ٤٣ .
- (٨) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٣٠٦ .
- (٩) انظر : الطبري : ٤٣٣/٦ .
- (١٠) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ١٦٤ وما بعدها
- (١١) ابن الفقيه : البلدان : ورقة ٢٩ ب ، الطبري : ٤٢٦/٦ .
- (١٢) تاريخ خليفة بن خياط : ١٣٦/١ ، ٢٩٩ . الطبري : ٢٦٦/٤ . الكامل
في التاريخ : ١٠٠/٣ . الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر
الأموي : ٣٠٨ .
- (١٣) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
- (١٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٤٧ .
- (١٥) ن . م : ١٤٨ .
- (١٦) انظر تفاصيل ذلك في : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر
العباسي : ١٣١ - ١٤٦ .
- (١٧) انظر تفاصيل ذلك في : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر
الأموي : ١٦١ - ٢٦٧ .
- (١٨) الامامة والسياسة : ٣٤/٢ ، ٣٩ ، الطبري : ١٤٨/٧ ، ٤٥٦ ،
الجهشياري : الوزراء والكتاب : ٦٣ .
- (١٩) الطبري : ٦٣٦/٧ . الكامل في التاريخ : ٥٦٤/٥ .
- (٢٠) الدكتور جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق : ٩٥
- (٢١) انظر : الطبري : ٥٣٩/٩ ، ٥٤٠ .
- (٢٢) اسقط هذا الهامش من المتن ، احذف العبارة المتعلقة به .

- (٢٣) مسكويه : تجارب الامم : ٢/٢٦٠ ، ٢٨٧ ، ٣٤٦ . الكامل في التاريخ : ٣٧٦/٩ .
- (٢٤) مسكويه : تجارب الامم : ٢/٢٦٠ . الكامل في التاريخ : ٥١٧/٩ .
- (٢٥) انظر : الكامل في التاريخ : ١٠/٤٤٤ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٣٧/١١ ، ٤١ ، ٧٨ ، ٣٩٥ .
- (٢٦) ابن الجوزي : المنتظم : ٣/١٠ . الكامل في التاريخ : ٦٣٨/١٠ .
- (٢٧) ابن الجوزي : المنتظم : ١٠/١٤٨ . الكامل في التاريخ : ١١/٢١٢ ، ٣٢٨ .
- (٢٨) الايوبي : مضممار الحقائق وسر الخلائق : ١٤ ، ١١٨ ، ١٧٠ .
- (٢٩) الحوادث الجامعة : ٢٤٤ .
- (٣٠) ن.م : ٢٤٤ .
- (٣١) بحشل : تاريخ واسط : ٩٠ الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٧١ .
- (٣٢) عيون الاخبار : ١/١٦٠ . انظر ايضا : انساب الاشراف : ج ١١ ورقة ١٤١
- (٣٣) تاريخ خليفة بن خياط : ١/٣١٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٤ ، ٣٦٦/٢ ، الطبري : ٢٨/٧ ، ٤٢٦/٦ .
- (٣٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٢٧٣ .
- (٣٥) الطبري : ١٤٨/٧ .
- (٣٦) المحاسن والاضداد : ٣٤ ، ٣٥ . الذهبي : تاريخ الاسلام : ٣/٣٥٣ .
- (٣٧) انساب الاشراف : ج ٧ ورقة ٣٦ب ، ج ١١ ورقة ٤١ب .
- (٣٨) ن.م : ج ٧ ورقة ٣٦ب . الاوائل : ٢٢٧ . نشوار المحاضرة : ١/١٣٦ .
- (٣٩) ن.م : ج ١١ ورقة ٤٠ب .
- (٤٠) الصابي : الوزراء : ١٨ .
- (٤١) مسكويه : تجارب الامم : ٢/٨٤ .
- (٤٢) التنوخي : نشوار المحاضرة : ٤/١٥٨ .
- (٤٣) انظر : الصابي : رسائل الصابي : ١/١٣٨ .
- (٤٤) انظر : نشوار المحاضرة : ٤/١٥٨ .
- (٤٥) انظر : البنداري : دولة آل سلجوق : ٢٢٧ .
- (٤٦) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٥٥ .
- (٤٧) انظر : الكامل في التاريخ : ١١/١٣٢ . ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب : ج ٤ ، ص ٢٩ ، ٣٠ .
- (٤٨) انظر : ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب : ٥/٥٨٦ ، ٥٨٩ (حرف الميم) .

- (٤٩) ن.م : ٢٨٩/٥ (حرف الميم) .
- (٥٠) بحشل : تاريخ واسط : ١٣٣ . الخطيب : تاريخ بغداد : ١٠٣/١٤ .
اخبار القضاة : ٣١٥/٣ .
- (٥١) انظر : اخبار القضاة : ٣٠٧/٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، بحشل : تاريخ
واسط : ١٢٥ ، ١٣٧ . ٣٠٨ الخطيب : تاريخ بغداد : ٣٩٣/٢ ، ابن
سعد : الطبقات ٢٦٧/٦ ، ج ٧ ق ١ ص ٥٩ .
- (٥٢) ابن خلدون : المقدمة : ٢٢٠ .
- (٥٣) انظر : الوقائع التي ذكرها وكيع في كتابه « اخبار القضاة » . عيون
الاخبار : ٦٠/١ وما بعدها .
- (٥٤) انظر : بحشل : تاريخ واسط : ١٠٣ . اخبار القضاة : ٣١٦/٢ . عيون
الاخبار : ٦٠/١ وما بعدها .
- (٥٥) اخبار القضاة : ٣٣٩/١ .
- (٥٦) ن.م : ٣١٦/٢ ، ٤١٢ .
- (٥٧) ن.م : ٣٣٣/١ .
- (٥٨) ن.م : ٧٦/١ .
- (٥٩) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٢٧٢ .
- (٦٠) اخبار القضاة : ٣١٣/٣ . الخطيب : تاريخ بغداد : ٣٧١/٣ .
- (٦١) المنتظم : ٩٠/٧ . انظر : الخطيب : تاريخ بغداد : ٣١٣/١ .
- (٦٢) المنتظم : ٣٠٠/٧ ، ١٠٣/١٠ . ابن الساعي : الجامع المختصر : ٤٥/٩ ،
٢٠٤ ، ٢١٨ . الحوادث الجامعة : ١٥ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٢٧٦ .
- (٦٣) الحوادث الجامعة : ٣٢ .
- (٦٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٦٠ .
- (٦٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب : ج ٤ ق ٢ ص ٧٢٥ ، ٧٢٦ .
- (٦٦) مرآة الزمان : ج ٨ ق ٢ ص ٥٠٩ .
- (٦٧) المنتظم : ٢٩٤/٧ .
- (٦٨) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٦٢ .
- (٦٩) المنتظم : ٢٠٨/٧ .
- (٧٠) ن.م : ٦٣/٩ ، ٣٧/١٠ .
- (٧١) ذيل (مخطوطة) ج ٢ ق ١ ورقة ١٥٤ .
- (٧٢) انظر : ن.م : ج ١ ق ٢ ورقة ١٣٩ . ابن الساعي : الجامع المختصر
٢٠٤/٩ ، ٢١٨ . ابن رجب : الدليل على طبقات الحنابلة : ٣٠٥/١ .
- (٧٣) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي من
ص ٤١٢ - ٤١٤ .
- (٧٤) ن.م : ١٦٣ .

- (٧٥) اخبار القضاة : ٣/٣١٤ .
- (٧٦) السمناني : روضة القضاة : ١/١٢٠ .
- (٧٧) الماوردي : ادب القاضي : ١/٢٠٤ .
- (٧٨) ابن مازة : شرح ادب القاضي (مخطوطة) ورقة ٦١٤ .
- (٧٩) ن.م : ورقة ٦١٤ .
- (٨٠) السلفي : معجم السفر (مخطوطة) ورقة ١٦٥ ب . ابن الديلمي : ذيل (مخطوطة) ج ١ ق ١ ورقة ١١٥ .
- (٨١) السمناني : روضة القضاة : ١/٢٠٠ .
- (٨٢) انظر : ابن الديلمي : ذيل (مخطوطة) ج ١ ق ٢ ورقة ١٥٧ ، ، ج ٢ ق ١ ورقة ١٧٩ .
- (٨٣) سؤالات السلفي : ٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٩٨ . ذيل (مخطوطة) ج ٢ ق ٢ ورقة ٢١٤ .
- (٨٤) ن.م : ٧ ، ٢٣ ، ٤٠ ، ٤١ . ن.م ج ١ ق ٢ ورقة ٢٦٢ ، ج ٢ ق ١ ورقة ٩٠ ، ١٢٤ ، ١٦٩ ، ١٩٨ ، ج ٢ ق ٢ ورقة ١٢٧ .
- (٨٥) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٦٦ .
- (٨٦) الدكتور مصطفى جواد : المختصر المحتاج اليه : ١/٩ حاشية ٣ .
- (٨٧) الدكتور عبدالرزاق الانباري : النظام القضائي في بغداد في العصر العباسي : ٢٩٢ .
- (٨٨) اخبار القضاة : ٣/٣١٠ .
- (٨٩) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٢٨٢ .
- (٩٠) انظر : كوركيس عواد ، الحسبة في خزائن الكتب العربية : مجلة المجمع العلمي العربي ١٨م ١٩٤٣ ص ٤١٧ .
- (٩١) تلخيص مجمع الاداب : ج ٤ ق ٤ : ٨٦٠ .
- (٩٢) انظر : السلفي : معجم السفر (مخطوطة) ورقة ١٤٦ ب . سؤالات السلفي : ٤٧ ابن نقطة : اكمال الاكمال (مخطوطة) ورقة ١٢٠٨ . ذيل (مخطوطة) ج ١ ق ١ ورقة ٩٥ ، ٩٦ ، ج ١ ق ٢ ورقة ٢٤١ ، ج ٢ ق ١ ورقة ١٥٨ ، ج ٢ ق ٢ ورقة ٢١٠ . الذهبي : العبر : ٢٣٨/٤ ، ٩٨/٥ . تلخيص مجمع الاداب : ج ٤ ق ٤ : ٦١ ، ٨٦٤ .
- (٩٣) منها : الاحكام السلطانية ، والرتبة في طلب الحسبة للماوردي ، ومعالم القرية في احكام الحسبة لابن الاخوة ، ونهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ، ونهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيرازي .
- (٩٤) الدكتور حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية في الدولة العباسية : ٣١٦ .

- (٩٥) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٤ . الشيرازي : نهاية الرتبة : ١٥ ، ١٩ .
- ابن الاخوة : معالم القربة : ٨٣ ، ٨٤ ، ٢١٩ . ابن بسام : نهاية الرتبة : ٢٧ ، ١٨٢ .
- (٩٦) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٤ - ٢٥٦ . الشيرازي : نهاية الرتبة : ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ابن الاخوة : معالم القربة : ١٤١ ، ١٤٩ .
- (٩٧) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٣ .
- (٩٨) ن.م : ٢٥٤ . ابن الرفعة : الرتبة في الحسبة (مخطوطة) ورقة ٥٧ب .
- (٩٩) الشيرازي : نهاية الرتبة : ٢٢ . ابن بسام : نهاية الرتبة : ٢١ .
- (١٠٠) الماوردي : الرتبة في طلب الحسبة (مخطوطة) ورقة ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ .
- الشيرازي : نهاية الرتبة : ٢٨ . ابن الرفعة : الرتبة في الحسبة (مخطوطة) ورقة ٥١ب ، ١٥٢ ، ٥٢ب .
- (١٠١) الشيرازي : نهاية الرتبة : ٤١ ، ٤٣ . ابن بسام : نهاية الرتبة : ٨٥ .
- (١٠٢) ن.م : ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٢ . ابن الرفعة : الرتبة في الحسبة (مخطوطة) ورقة ٤٢ب . ابن بسام : نهاية الرتبة : ١٧ .
- (١٠٣) ابن الاخوة : معالم القربة : ٧٦ ، ٩٩ . الشيرازي : نهاية الرتبة : ١٤ .
- (١٠٤) الشيرازي : نهاية الرتبة : ١٢٤ .
- (١٠٥) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٦ .
- (١٠٦) الشيرازي : نهاية الرتبة : ١٢ . ابن بسام : نهاية الرتبة : ١٨ .
- (١٠٧) ن.م : ١٠ . ابن الاخوة : معالم القربة : ٢٢٠ . ابن بسام : نهاية الرتبة : ١٥ .
- (١٠٨) ابن الاخوة : معالم القربة : ١٢١ . ابن الرفعة : الرتبة في الحسبة (مخطوطة) ورقة ١١٦ب .
- (١٠٩) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٢٨١ .
- (١١٠) ذيل (مخطوطة) ج٢ ق٢ ورقة ٢١٠ ، ورقة ١٢٣ ، ١٢٤ (كيمبرج) ، ج١ ق١ ورقة ٩٥ ، ٩٦ . انظر : سؤالات السلفي : ٤٧ .
- (١١١) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٧٢ .
- (١١٢) انظر : ابن الجوزي : المنتظم : ٢٢٣/١٠ .
- (١١٣) تاريخ خليفة بن خياط : ٣١٣/١ ، ٣٦٦/٢ ، ٣٨٦ ، الطبري : ٥٢٣/٦ . الوزراء والكتاب : ٣٨ ، ٣٩ .
- (١١٤) انظر : الطبري : ٥٢٤/٦ .
- (١١٥) الاحكام السلطانية : ١٧٥ ، ١٧٦ .

- (١١٦) الوزراء والكتاب : ٢٨١ .
- (١١٧) الصابي : الوزراء : ١٥ ، ١٠٨ .
- (١١٨) ن.م : ١٥ ، ٩٥ ، ٩٦ .
- (١١٩) الدكتور عبدالعزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري : ٤٣ .
- (١٢٠) انظر : الصابي : الوزراء : ٤٠ . مسكويه : تجارب الامم : ٢٥/١ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٩٤ .
- (١٢١) تجارب الامم : ١٠٠ ، ٩٩/١ .
- (١٢٢) انظر : الصابي : الوزراء : ١٠٥ . مسكويه : تجارب الامم : ٦٢/١ .
- (١٢٣) ابن الساعي : الجامع المختصر : ٤٦/٩ .
- (١٢٣) المنتظم : ١٥٦/٦ . الأيوبي : مضمار الحقائق وسر الخلائق : ١١٨/٣ .
- (١٢٤) الصابي : الوزراء : ٤٢ . الهمداني : تكملة تاريخ الطبري : ٣٣/١ ، ١٦٠ .
- (١٢٥) المنتظم : ١٨٢/٦ ، ١٨٣ .
- (١٢٦) انظر : أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الامم : ١٢٧ ، ٣٠٧ . الأيوبي : مضمار الحقائق : ١١٧ . الحوادث الجامعة : ٦٣ ، ١١٧ .
- (١٢٧) ذيل كتاب تجارب الامم : ٣٠٦ .
- (١٢٨) ابن الساعي : الجامع المختصر : ٢١٨/٩ ، ٢١٩ .
- (١٢٩) ذيل (مخطوطة) ج٢ ق٢ ورقة ١٧٢ . ابن النجار : التاريخ المجدد لمدينة السلام : (مخطوطة) ج٣١٠ ورقة ١٤٦ اب . ابن الساعي : الجامع المختصر : ٧٠/٩ ، ١٩٣ .
- (١٣٠) ابن أبي عذبة : انسان العيون (مخطوطة) ورقة ١٦٢ ، ١٦٣ .
- (١٣١) ديوان ابن المعلم الواسطي (مخطوطة) ورقة ٩٤ ، ٩٥ .
- (١٣٢) الجامع المختصر : ١٩٣/٩ .
- (١٣٣) المؤلف مجهول : الحوادث الجامعة : ٢٨٩ .
- (١٣٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٥٨ .
- (١٣٥) ديوان ابن المعلم الواسطي (مخطوطة) ورقة ١٠٧ ، ١٠٨ .
- (١٣٦) ابن النجار : التاريخ المجدد لمدينة السلام (مخطوطة) ج٣١٠ ورقة ١٤٦ اب .
- (١٣٧) الحوادث الجامعة : ١١٧ .
- (١٣٨) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٥٨ .
- (١٣٩) ذيل (مخطوطة) ج٢ ق٢ ورقة ١٧٢ . ابن النجار : التاريخ المجدد لمدينة السلام (مخطوطة) ج٣١٠ ورقة ١٤٦ اب .
- (١٤٠) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : دور امراء العراق في حركات تحرير المشرق في العصر الأموي ، مجلة المؤرخ العربي ، عدد ٢٧ السنة ١٩٨٦ ص ٩٩ - ١٠٩ .

- (١٤١) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٣٤١ وما بعدها .
- (١٤٢) ن.م : ٢٩٣ .
- (١٤٣) الماوردي : الاحكام السلطانية : ١٧٥ ، ١٧٦ .
- (١٤٤) البلاذري : فتوح البلدان : ٥٣٨ .
- (١٤٥) تاريخ خليفة بن خياط : ٣٨٦/٢ ، ٤٣٤ .
- (١٤٦) ن.م : ٣١٣/١ ، ٣٢٣ ، ٣٨٦/٢ ، ٤٠٣ ، الوزراء والكتب : ٤٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .
- (١٤٧) الطبري : ٣٣٩/٦ ، ٤٤٩ ، ١٥/٧ . انظر : فتوح البلدان : ٥٢٣ .
- (١٤٨) قدامة : الخراج : ١٨٤ ، ١٨٥ .
- (١٤٩) فتوح البلدان : ٥٣٥ .
- (١٥٠) معجم البلدان : ٨٨٦/٤ .
- (١٥١) الاحكام السلطانية : ١٧٥ .
- (١٥٢) الطبري : ١٥/٧ .
- (١٥٣) ن.م : ٦١٥/٦ ، ٦٧/٧ ، العيون والحداثق : ٧٥/٣ .
- (١٥٤) انظر : تاريخ خليفة بن خياط : ٣٥٦/٢ .
- (١٥٥) انظر : الطبري : ٣٣٩/٦ ، ١٣١/٧ . الكامل في التاريخ : ٢١٠/٥ .
- (١٥٦) انظر : ابن خرداذبة : المسالك والممالك : ٥٩ . قدامة : الخراج : ٢٢٥ وما بعدها .
- (١٥٧) انظر تفاصيل ذلك في : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي ص ٢٩٦ وما بعدها .
- (١٥٨) انظر : ن.م : ٣٧٤ .
- (١٥٩) شذور العقود في ذكر النقود : ٤٤ ، ٤٥ .
- (١٦٠) walker, A catalogue of the Arab- Byzantine and post Reform Umayyad Coins pp. Ixiif, Ixir .
- Op. Cit., P. Ixir. (١٦١)
- (١٦٢) فجر السكة العربية : ٦٧ ، ٦٨ .
- (١٦٣) فتوح البلدان : ٥٧٥ ، ٥٧٦ . انظر : الاحكام السلطانية : ١٥٤ .
- (١٦٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

الفصل الرابع

دور الخلافة ومراكزها

**الدكتور ظاهر مظفر العميد
كلية الآداب – جامعة بغداد**

مراكز العباسيين قبل بغداد :

عندما تم النصر للجيش العباسي في العراق عقب هزيمة ابن هبيرة ، والي الامويين وقائد جيشهم ، دخل الجيش العباسي مدينة الكوفة^(١) ، ثم جاء ابو العباس ، الخليفة العباسي الاول فنزل اول الامر الكوفة^(٢) . وقد تمت في الكوفة بيععة الخليفة ابي العباس ، في دار الوليد بن سعد الازدي^(٣) ، والقي خطبته المشهورة في مسجد الكوفة ، وبعد هذه الخطبة خرج الخليفة وعسكر بحمام اعين^(٤) .

واقام ابو العباس في هذا المعسكر اشهرًا ثم ارتحل فنزل مدينة الهاشمية في قصر الكوفة^(٥) ، وبهذا تكون مدينة الكوفة ومعسكر حمام اعين القريب منها ، اول مركز اتخذته الخليفة ، واول موضع يظهر فيه اسم الخليفة الجديد ، ومنها شاع اسمه الى بقية المدن والاقاليم العربية والاسلامية الاخرى . ومن هنا كانت أهمية الكوفة في صدر التأريخ العباسي .

ونزل ابو العباس بعدئذ في مدينة ابن هبيرة ثم تحول منها فبنى المدينة الهاشمية ، ثم ان المنصور ، الخليفة الثاني ، بنى بظهر الكوفة مدينة سماها

الرصافة^(٦) ، ونزلها عدة مرات^(٧) ، ولا يعرف موقع هذه المدينة على وجه التأكيد^(٨) .

الهاشمية :

كانت تسمى قبل هذا الاسم ، قصر ابن هبيرة ، فقد روى البلاذري ان يزيد بن عمر بن هبيرة بنى مدينة بالكوفة على الفرات ونزلها ومنها شيء يسير لم يستتم ، فأناه كتاب الخليفة الاموي مروان يأمره بأجتناب مجاورة اهل الكوفة فتركها ، وبنى القصر الذي يعرف بقصر ابن هبيرة بالقرب من جسر سورا^(٩) .

وعندما ظهر امير المؤمنين ابو العباس ، نزل هذا المكان واستتم مقاصير فيها وأحدث فيها بناء وسماها الهاشمية^(١٠) . ولم يمكث ابو العباس كثيرا في هذه المدينة ، اذ يظهر لنا بصراحة من رواية البلاذري ان الخليفة العباسي الاول قد ضاق ذرعا بالتسمية التي انتشرت عن القصر الذي اقامه ابن هبيرة ولم يكمله ، فأكملة هو ، وهو يظن ان الناس سوف تنسى اسم بانيه الاول ، فتطلق عليه اسم « الهاشمية » ، الا ان الناس استمروا في نسبته الى ابن هبيرة مما جعل الخليفة العباسي يقول :

« ما ارى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها ، فرفضها » لذلك احجم عن سكناها والاقامة فيها ، « وبنى بحيالها المدينة الهاشمية »^(١١) .

ونود ان نشير هنا ، ان اسم الهاشمية قد يكتنفه بعض الغموض والتشابه فالاسم يرد لمواضع وابنية وقصور متعددة ، والواضح من رواية البلاذري التي مر ذكرها ان ابا العباس اطلق اسم الهاشمية على المدينة التي بناها ابن هبيرة بالكوفة على الفرات ثم تركها بأمر من الخليفة الاموي مروان ، ثم كره ابو العباس هذه المدينة وذلك لانها لم تشتهر بين الناس بأسم الهاشمية ، وانما بقيت تسمى مدينة ابن هبيرة فهجرها لهذا السبب ، وبنى بحيالها مكانا سماه

الهاشمية وهي بالكوفة ايضا (١٣) . وتسمى في كتب التاريخ بهاشمية الكوفة (١٣) .

ويشير اليعقوبي الى أن ابا العباس عندما انتقل الى الانبار بنى على شاطئ الفرات مدينة الهاشمية (١٤) ، وذكرها ابن شاعر الكتبي في فوات الوفيات بأنه بنيت لابي العباس الهاشمية الى جانب الانبار (١٥) .

ويذكر اليعقوبي بأنه لما استخلف المنصور بعد وفاة اخيه بنى الهاشمية (١٦) ويشير الطبري كذلك الى ان المنصور بنى الهاشمية (١٧) . هذا بينما لا يشير البلاذري الى بناء المنصور للهاشمية ، وانما يذكر انه « نزل المدينة الهاشمية بالكوفة واستتم شيئا كان بقي منها وزاد فيها بناء وهيأها على ما اراد (١٨) »

واذا اردنا تحديد موقع هاشمية المنصور فأنها تقع وفق رواية الطبري قبالة مدينة ابن هبيرة بينهما عرض الطريق (١٩) ، وموقعها حسب ما ذكر اليعقوبي « بين الكوفة والحيرة » (٢٠) . ويحدد لسترايج مكانها على جانب الفرات الغربي في موقع فوق النهر الذي كان يجري في القرن العاشر الميلادي ثم يتبدد في المستنقع الكبير او البطيحة (٢١) .

ولم يمكث المنصور كثيرا في الهاشمية ، فقد كرهها كرها شديدا ، وخاصة بعد ثورة الراوندية . وهم حسب ما يذكر الطبري ، جماعة من الناس يقولون بتناسخ الارواح ، ويزعمون ان روح آدم حلت في عثمان بن نهيك ، وان ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو ابو جعفر المنصور . ولم يرض المنصور عن آرائهم المخالفة لمبادئ الاسلام في الوحدانية وانكر عليهم هذا التأليه المتعمد الذي ينطوي على الفوضى والتخريب ، واقتناص القرص لقتل الخليفة والوثوب الى الحكم ، ومن المؤكد ان هذه الحركة واحدة من الحركات الباطنية والشعووية التي تتظاهر بالاسلام ، وجوهرها تقويض سلطان العرب وتشويه دينهم . ويبدو ان المنصور كان يظن في الراوندية الاخلاص في اول

الامر ، ولكن حينما ظهرت آراؤهم جلية ، تصدى لهم ، منكرا وغازبا ونستطيع ان ندرك اهمية تمرد الراوندية وحركتهم التي انتقلت الى قصر المنصور في الهاشمية ، ان الخليفة نفسه كان الموت يحدق به ، والسيوف مشهورة من حوله تطلب رأسه ، لذا آثر ترك الهاشمية • ولاشك في ان المنصور ادرك ببصيرته النافذة الحكيمة ، ان حركة الراوندية ، ما هي في الحقيقة الا بدء لسلسلة من الثورات هدفها تقويض الحكم العباسي وارهاقه •

وفي رأينا ان تمرد الراوندية لم تكن قضية بسيطة ، وانما كانت مسألة مهمة بالنسبة للخليفة المنصور حيث لفتت نظره الى موطن الضعف في مدينته الهاشمية ، ولقد رأى ضرورة تغييرها ، لذا عزم البحث عن موضع يصلح لان يكون دارا لخلافته وعاصمة للملكة الواسع (٢٣) •

مدينة وقصر ابن هبيرة :

ينسب المؤرخون والجغرافيون العرب هذه المدينة وهذا القصر الى يزيد بن عمر بن هبيرة ، وهو القائد الاموي الذي تحصن في مدينة واسط اثناء الحرب بين الجيش الاموي والعباسيين في العراق (٢٣) • وقد ورد ذكر مدينة وقصر ابن هبيرة في رواية البلاذري التي اشرنا اليها في مطلع هذا البحث ، ونصها : « كان يزيد بن عمر بن هبيرة بنى مدينة بالكوفة على الفرات ونزلها ومنها شيء يسير لم يستتم فأثاه كتاب مروان يأمره بأجتناب مجاورة اهل الكوفة فتركها وبنى القصر الذي يعرف بقصر ابن هبيرة بالقرب من جسر سورا » (٢٤) •

يتبين لنا من النص السابق ان ابن هبيرة بنى مدينة بالكوفة على الفرات وهي غير قصر ومدينة ابن هبيرة المشهورة والتي هي على جسر سورا • ونزلها مدة قصيرة قبل ان تتم ثم تركها لاسباب ادارية (٢٥) •

واذا اردنا التعرف على موقع مدينة ابن هبيرة، فإنه كما هو موضح في رواية لبلاذري ، فانها تقع على الفرات ، اما قصر ابن هبيرة فإنه يقع « على الضفة الفرات اليسرى - الشرقية - فوق الكوفة كثيرا » (٢٦) .

والظاهر من رواية المقدسي ، عن قصر ابن هبيرة انه كان في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على حالة جيدة فقد كتب عنه يقول : « اما قصر ابن هبيرة فمدينة كبيرة جيدة الاسواق تجيئهم الماء من الفرات » (٢٧) .

والذي يبدو ان المنصور بعد شروعه ببناء المدورة ، عاد فسكن قصر ابن هبيرة ، اذ يروي اليعقوبي اثناء حديثه عن خروج محمد بن عبدالله حيث يقول : « ولم يقر ابو جعفر الا اياما حتى آتته الخبر بخروج محمد بن عبدالله بن حسن وظهور امره فرجع الى الكوفة فأقام بقصر ابن هبيرة » (٢٨) . وعندما قضى المنصور على محمد بن عبدالله واخيه ابراهيم تحول من مدينة ابن هبيرة الى بغداد ليكمل عمارتها (٢٩) .

الانبار :

ومن المراكز المهمة التي اتخذها العباسيون دارا لخلافتهم قبل بغداد ، الانبار ، وقد بناها الخليفة العباسي الاول ، وتقع بقاياها اليوم على الضفة اليسرى (الشرقية) من نهر الفرات ، ويقول جغرافيو العرب انها على مسيرة اثني عشر فرسخا من بغداد ، الا ان ياقوت وابو الفدا يشيران بأنها تقع على بعد (١٠) فراسخ من بغداد ، وتقع اطلالها شمال غربي مدينة الفلوجة على بعد (٤) كيلو مترات منها .

والموضع الذي اقيمت عليه مدينة الانبار يقع الى شمال سواد العراق ، وهو سهل قابل للزراعة على مقربة من نهر عيسى الذي كان ينتهي الى بغداد ويصب في دجلة ، وقد كان يعرف في الفترة التي سبقت بناء المدينة المدورة بنهر رفيل ، ويأخذ مياهه من الضفة اليسرى (الشرقية) لنهر الفرات عند قنطرة

دمم: (٣٠) * جنوبي مدينة الانبار على مقربة من الفلوجة * ويعد « نهر عيسى »
القناة الاولى الصالحة للملاحة من نهر الفرات الى نهر دجلة ، وموقع مدينة
الانبار جعلها تسيطر على ممر مهم في الفرات (٣١) *

ورد ذكر الانبار في معارك تحرير العراق على عهد الخليفة الراشدي
الاول ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، فقد ذكر البلاذري ان خالد بن
الوليد سار الى الانبار ففتحها فتحصن اهلها ثم اتاه من دله على سوق بغداد
الذي كان عند قرن الصراة ، فبعث خالد المثني بن حارثه فأغار عليه ثم باتوا
بالسيلحين ثم رجعوا الى الانبار وخلد محاصر اهلها وحرقوا نواحيها ، ولما
رأى اهل الانبار ما نزل بهم صالحوا خالدا على شيء رضي به فأقرهم (٣٢) *

وتفيد المراجع العربية ان سعد بن ابي وقاص عندما حرر المدائن واختطها
لفرض سكتها (٣٣) ، أتاح امر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في
عدم رغبته في سكنى العرب لهذه المدينة ، فأستجاب سعد الى رغبة الخليفة واتجه
نحو الغرب مسترشدا بتوجيه الخليفة الذي حدد له الاتجاه بقوله في ما كتب
اليه : « ان تنزلهم منزلا غريبا » (٣٤) * وسار سعد نحو الانبار ، وبني بها
مسجدا *

والظاهر ان الانبار لم تعجب القائد سعد فتحول عنها ، وتشير النصوص
التأريخية ان سبب تحوله عنها كثرة الذباب * ويرى باحث عراقي ان هذا لم
يكن السبب الحقيقي لترك سعد مدينة الانبار ، ويشير ان السبب حربي بحت ،
اذ ان الانبار لا تصلح من الناحية الحربية لوجود عائق طبيعي هو الفرات ،
وما يتسبب عنه وعن بحيرة الحباينة من فيضانات ومستنقعات ، ولبعدها عن
العاصمة المدينة المنورة ، مما يؤخر ويعرقل ارسال المدد اذا ما تجدد القتال
بينهم وبين الفرس في المستقبل (٣٥) *

ويبدو ان الخليفة ابو العباس حين ترك الكوفة ، لم يكن قد اتفق على
مكان بادىء ذي بدء ، لينزل فيه ، وانه نزل الحيرة فتركها من دون ان يقدم

سببا لتركها ، فسار باتباعه مع نهر الفرات باتجاه معاكس لمجرى النهر ، واخذ يتفحص الامكنة التي يمر بها تفحصا دقيقا حتى انتهى الى موضع الانبار فأستطابه ورضي عنه ، واشترى اراضي هذا الموضع من اصحابها ، ثم قسمها خططا ووزعها على قواده وجنده واصحابه واهل بيته^(٣٦) . وفي الانبار بنى الخليفة مدينة اطلق عليها الهاشمية^(٣٧) .

ولا نعرف بالتأكيد تأريخ انتقال الخليفة الى الانبار ، فقد اختلف الباحثون المحدثون في ذلك ، وقد جاء في دائرة المعارف الاسلامية ان ابا العباس اتخذها مقرا له من عام ١٣٢ الى عام ١٣٦ هـ^(٣٨) ، بينما جاء في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، ان ابا العباس حول عاصمته الى الانبار في عام ١٣٤ هـ جريسة^(٣٩) .

وقد اشار مؤلفا دليل خارطة بغداد الى عام ١٣٢ هـ جريسة فكتبا : « اتخذها الخليفة العباسي الاول (١٣٢ هـ - ٧٥٠ م) عاصمة لمملكته »^(٤٠) ، الا ان اصح الروايات هي تلك التي تشير الى انتقال الخليفة الى الانبار في عام ١٣٤ هـ^(٤١) . فمن غير المعقول ان يكون قيام الدولة العباسية في عام ١٣٢ هـ ، واتخذ الخليفة عبدالله للانبار عاصمة لخلافته في نفس السنة ، اذ تشير النصوص التاريخية التي مفادها ان الخليفة ابو العباس بعد ان القى خطبته في مسجد الكوفة خرج وعسكر في حمام اعين ، الذي اقام فيه عدة اشهر ، ثم ارتحل ونزل المدينة الهاشمية في الكوفة^(٤٢) . ثم تحول منها الى قصر ابن هبيرة ، واستتم مقاصير فيها واحداث فيها بناء^(٤٣) .

لا نعرف شيئا عن تخطيط المباني والعمائر التي شادها الخليفة ابو العباس في الانبار ، وكذلك فأنا نجهل طبيعة الطراز الذي اختاره لمبانيه ، والمواد البنائية التي استخدمت في البناء . اذ أن المؤرخين المسلمين لم يقدموا لنا شيئا عن طبيعتها ، ومن المؤكد أن التنقيبات التي ستجري في موقع الانبار ، والنتائج

التي سنحصل عليها من عمليات الحفر والتنقيب ستميط اللثام عن طبيعة المباني والعمائر وزخرفتها في فجر الدولة العباسية .

وتشير النصوص التاريخية العربية ، أن أبا العباس عسر ما في الانبار من مبان (٤٤) ، وبنى بها قصورا (٤٥) ، واسس في موقعها مدينة (٤٦) ، ولا ندري هل اقام مسجدا جديدا أم عمر المسجد الذي كان قد بناه القائد سعد بن أبي وقاص في الانبار

ومكث ابو العباس في الانبار منذ تأسيسها حتى وفاته لثلاث عشرة من شهر ذي الحجة متأثرا بمرض الجدري (٤٧) ، وصلى عليه عمه عيسى بن علي ودفن في الانبار العتيقة بقصره . وبويج بالخلافة لابي جعفر المنصور بالانبار في اليوم الذي توفي فيه اخوه ، وابو جعفر يومئذ بمكة ، وكان الذي اخذ البيعة لابي جعفر عيسى بن موسى الذي كتب الى المنصور يعلمه بموت اخيه وبالبيعة له .

بغداد - المدينة المدورة :

يجمع المؤرخون والجغرافيون العرب (٤٨) ، ان مؤسس بغداد هو الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر المنصور . والباعث الرئيس الذي دفع المنصور الى بناء بغداد ، كما يشير بعض المؤرخين ، ثورة الراوندية عليه عندما كان يقيم بالهاشمية (٤٩) .

وقد ظهرت بعض الابحاث الحديثة التي لا تأخذ بهذا الرأي ولا تقر به كأساس لبناء بغداد وانما ترى ان الضرورة السياسية الالية (٥٠) ، وادارة الملك (٥١) ، وتجارب المنصور الادارية والسياسية هي التي دفعته لبناء مدينته .

والواقع فإن ثورة الراوندية قد لفتت نظر الخليفة الى موطن الضعف في عاصمته الهاشمية ، واذا افترضنا أن المنصور كان قد فكر أثناء سكناه بالهاشمية اتخاذ عاصمة جديدة لدولته فإن هذه الثورة قد حفزتة للاسراع في التنفيذ (٥٢) .

وحين عزم المنصور ترك هاشمية الكوفة خرج بنسبه يبحث عن موضع ملائم^(٥٣) ، كما ارسل روادا يرتادون له موضعا لينزل به^(٥٤) ، ومن نتائج بحثه الشخصي، وما حمله اليه الرواد اضافة الى ما اشار عليه اصحاب القرى والاديرة تكونت للمنصور فكرة واضحة بأن المنطقة الواقعة الى غرب نهر دجلة والتي تشمل طشوج قطر بل^(٥٥) هي افضل المناطق لبناء دار خلافته .

والموقع الذي اختاره المنصور لبناء مدينته ، منطقة ذات اهمية في التأريخ القديم الذي سبق تحرير العراق في العصر العربي الاسلامي ، وقد اصبحت هذه المنطقة فيما بعد جزءا من اقليم العراق الذي اهتم به العرب المسلمون المحررون في مختلف العصور ، وعلى وجه الخصوص في العصر العباسي ، حين اصبحت مركز الدولة والخلافة .

تشير النصوص التاريخية المختلفة ان الخليفة المنصور اهتم اهتماما خاصا في اختيار الموقع ، ولقد اصبحت معروفا عن العرب والمسلمين منذ فجر الاسلام ، انهم كانوا يتخيرون مواضع مدنهم ، ويتفحصون امكنتها تفحصا طبوغرافيا ، لذلك وضعوا شروطا وقواعد لبناء المدن وتخطيطها ابتداءً من المدن التي شرع العرب بتشبيدها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وما بعده .

واذا تفحصنا موضع بغداد ، تفحصا دقيقا يتبين لنا أن المكان يمتاز بمزايا عديدة ، وأن الله تعالى قد منحه مكانة جعلت منه محلا ملائما للدولة العباسية الجديدة ، وموضعا ستراتيغيا طيبا^(٥٦) ، فضلا عن وقوعه على طريق قوافل التجارة، كما انه يتحلى بمزايا صحية ملموسة .

وبعد أن اطمأن المنصور الى الموضع الذي يبنى فيه مدينته ، وأعد المال اللازم لجميع المصاريف التي يحتاج اليها مشروعه الكبير ارسل الى عماله وولاته في مختلف الاقطار الاسلامية يطلب معوتهم في توجيه العمال والمهندسين والفنانين والحرفيين اليه ، ويشير اليعقوبي الى هذا بقوله : « ثم وجه في

احضار المهندسين واهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين حتى اختط مدينته المعروفة بمدينة ابي جعفر واحضر البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين^(٥٧) » .

وتحدد النصوص التاريخية والجغرافية الاقاليم والمدن التي استعان المنصور بعمالها ومهندسيها وفذئها ، فتشير بأن المنصور وجه في حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة^(٥٨) .

وطلب المنصور الاستعانة بالعمال والفنانين العرب من مختلف المناطق ، والاستفادة من خبراتهم نستطيع ان نطلق عليه اسم نظام «الاستدعاء» أو «أمر تكليف» ، وهذا الاستدعاء كان مألوفاً لدى الخلفاء والولاة المسلمين^(٥٩) وتروي لنا كتب التاريخ امثلة يتجسد فيها هذا النظام كمثل حي للتعاون المشر والمساعدة القيمة التي يتسابق اليها العمال والمهرة من الفنانين ورجال الهندسة لتشييد العمائر واقامة المباني . ولا ريب أن العرب المسلمين قد استفادوا كثيراً من هذا التعاون، وبفضله انتقلت الاساليب الفنية والطرز المعمارية في مختلف مجلل الفنون العربية الاسلامية من قطر الى قطر ومن مدينة الى اخرى ، وقد ادى انتقال هذه الاساليب الفنية المختلفة الى امتزاج المدارس والانماط الفنية والتقاء فروعها بعضها مع بعض مما كان له الاثر في وحدة الفن العربي الاسلامي .

وقد قسم موضع بغداد عند بدء تخطيطها الى اربعة ارباض ، ويفهم من رواية اليعقوبي انه كان يشرف على كل ربع أو ربض من هذه الارباض الاربعة ثلاثة من الرجال اختارهم المنصور من المقربين اليه^(٦٠) . وبدو أن اولهم قائد وثانيهم مولى وثالثهم مهندس ، فالقادة الذين اشرفوا على الارباض الاربعة هم : « المسيب بن زهير وسليمان بن مجالد وحرب بن عبدالله وهشام بن عمر التغلبي » اما المرالي فهم « الربيع وواضح وغزوان وعمارة » اما المهندسون

فهم « عمران بن الوضاح وعبدالله بن محرز والحجاج بن يوسف وشهاب بن كثير » . وبالإضافة الى هؤلاء القدة والموالي والمهندسين كان يشرف على البناء بعض المراقبين هم الحجاج بن ارطاة وابو حنيفة النعمان بن ثابت ليشرفا على سير العمل ومحاسبة العمال اذا ما تهاونوا في العمل او تقاعسوا عنه ، وقد اختارهما لمكاتبتهما اذ المعروف عنهما انهما من ذوي الفضل والعدالة والفقہ والامانة(٦١) .

ولم يبدأ المنصور البناء،حتى اقبل اليه الفعلة وأهل المهن من عمال ومساحين وحدادين ونجارين ومزوقين وغيرهم ، وقد قيل أن عدد هؤلاء قد بلغ مائة الف(٦٢) . ويذكر الدكتور صالح احمد العلي انه ليس من المستبعد أن يكون هؤلاء المهندسون أو معظمهم من اهل الكوفة(٦٣) .

وأمر المنصور بضرب اللبن العظام قبل وضع الاساس ، وأمر بحفر الآبار للماء وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا الذي يأخذ مياهه من الفرات فأثقت القناة واجريت الى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبلّ الطين(٦٤) .

وقبل ان تحفر اسس المدينة احب المنصور أن يتبين معالم تخطيط مدينته « فأمر ان يخط بالرماد ثم اقبل يدخل من كل باب ويمر في فصلاتها وطاقتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد ودار عليهم ينظر اليهم والى ما خط من خنادقها فلما فعل ذلك امر ان يجعل على تلك الخطوط حب القطن ، ويصب عليه النفط، فنظر اليها والنار تشتعل ففهمها وعرف رسمها وأمر بحفر اساس ذلك على الرسم(٦٥) » .

وبعد أن اطمأن المنصور الى تخطيط المدينة على الارض امر ان يحفر الاساس ، ووضع الخليفة اول لبنة بيده وقال « بسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال ابنوا على بركة الله(٦٦) .

وسوف نستعرض اقسام مدينة المنصور المدورة بدءا بالخندق وانتهاء بالقصر والجامع ، مراعين الايجاز دون التوسع في المناقشات التي لا يتسع لها مجال هذا البحث ، وفي وسع الباحث الذي يود الاستزادة في المعلومات الموسعة لاقسام المدينة الرجوع الى المراجع والمصادر القديمة والحديثة التي تناولت بناء وتخطيط هذه المدينة^(٦٧) .

كان يحيط المدينة خندق ، اجري المنصور فيه الماء من قناة كانت تأخذ مياهها من نهر كرخايا^(٦٨) ، وكانت على الخندق في جانب السور مسناة متقنة محكمة عالية تدور حول السور من الآجر والصاروج^(٦٩) .

وكانت وظيفة هذه المسناة حماية السور وجدران المدينة من تسرب مياه الخندق اليها ، ومن الجدير بالذكر أن وجود هذا الخندق حول المدينة كان يقصد منه زيادة تحصين المدينة .

ثم يأتي السور الخارجي ويسمى ايضا السور الاول^(٧٠) ، وهو أقل سمكا وارتفاعا من السور الثاني ، وليس لدينا معلومات تأريخية أكيدة عن عرضه وارتفاعه ، غير أن الطبري يورد مقاييس لاحد الاسوار يظن انها ربما تكون ابعاد هذا السور ، فذكر بأن المنصور أمر ان يجعل عرض السور من أسفله خمسين ذراعا وقدر اعلاه عشرين ذراعا^(٧١) . وقدم الدكتور صالح العلي مقاييس لأسوار المدورة وفصلاتها وطاقتها ويشير بأن المصادر قدمت لنا معلومات متباينة عن عدد الاسوار والرحاب وابعادها ، وذكر بأن هذه الاختلافات تدل على عدم اعتماد الرواة على القياسات الفعلية^(٧٢) .

وكان لهذا السور اربعة ابواب هي : باب الكوفة ، باب البصرة ، باب خراسان ، باب الشام^(٧٣) . ويحدد الخطيب اتجاه هذه الابواب بالاتجاهات الاربعة المعروفة شرقي وغربي وقبلي وشمالي^(٧٤) ، وكانت المسافة بين كل باب من هذه الابواب الى الآخر خمسة آلاف ذراع^(٧٥) ، بينما يذكر الخطيب رواية مصدرها رباح البناء الذي قام ببناء سور المدينة بأن المسافة بين كل باب السور

الآخر ميل^(٧٦) . والواضح من روايتي اليعقوبي والخطيب أن ابواب مدينة المنصور الاربعة كانت متناظرة تقابل احداها الاخرى ، وعلى مسافة واحدة^(٧٧) . وكان لكل باب من ابواب السور الاول دهليز طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا^(٧٨) .

ومما يتعلق بهذه الابواب ، ظاهرة معمارية فريدة ، هي ظاهرة المدخل المنحرف (المزور أو المنكسر) ، اذ يروى الخطيب انه : « اذا دخل الداخل من باب خراسان الاول عطف على يساره في دهليز أزج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعا ، وطوله ثلاثون ذراعا ، المدخل اليه في عرضه والمخرج منه من طوله^(٧٩) » . وكان هذا العنصر المعماري مثار المناقشات بين علماء الآثار حيث ادعى بعضهم انه كان معروفا من قبل في بعض القلاع البيزنطية في شمال افريقية ، في حين انكر بعضهم الاخر هذا الادعاء ، وواضح ان المثل البيزنطي انما يرجع تاريخه الى سنة ٨٥٩م أي بعد انشاء بغداد بما يقرب من مائة عام^(٨٠) .

وقد اوضحنا في كتابنا « بغداد مدينة المنصور المدورة » أن المدخل المنحرف أو المزور أو المنكسر لم يستعمله الرومان أو البيزنطيون في شمال افريقية ولم يظهر في مصر في « حصن كوم الاحمر » أو « شونة الزيب » وخلصنا الى ان ابواب مدينة أبي جعفر المنصور هي أقدم امثلة حقيقية للمدخل المنحرف ظهر بصورة واضحة وطيبة وتناقل اخبارها بعض المؤرخين والجغرافيين^(٨١) .

وكان بين السور الاول (الخارج) والسور الثاني (الاعظم) للمدينة مسافة خالية ، اطلق عليها المؤرخون اسم « الفصيل » ، وينقسم هذا الفصيل الى اربعة ارباع بواسطة الرجبات الأربع التي تمتد بين كل باب في السور الخارج ، والباب المقابل له في سور المدينة الاعظم ، وجميع هذه الفاصلان متشابهة متناظرة ، وهي على قول الخطيب « على نعت واحد وحكاية واحدة »^(٨٢) .

والظاهر ان المنصور منع السكن في هذا الفصيل ، فقد اشار الخطيب انه
« امر ان لا يسكن تحت السور الطويل الداخل احد ولا يبنى منزلا » (٨٣) ،
ووصف اليعقوبي هذا الفصيل بأنه « جليل عظيم » (٨٤) ، وعرضه عند اليعقوبي
مائة ذراع (٨٥) ، وعند الخطيب ستون ذراعا (٨٦) .

وبعد الفصيل يأتي السور الاعظم ، وتختلف المراجع العربية في تحديد
ابعاده (٨٧) . وعلى الرغم من اختلاف الروايات في ابعاده (٨٨) ، فإن هذا
السور يعتبر امتن اسوار المدينة المدورة ، ويسمى في بعض المراجع العربية
بالسور الاعظم ، وهو اكثر ارتفاعا وضخامة من السور الاول . وزيادة في
تحصين المدينة فقد جعل لهذا السور ابرجة عظام عليها شرفات (٨٩) . اما عدد
هذه الابراج فكان « ٢٨ » برجا بين كل باين من ابواب المدينة المدورة ماعدا
المسافة المحصورة بين باب البصرة والكوفة فإن بها « ٢٩ » برجا (٩٠) . ولا نعرف
على وجه التحديد هيئة هذه الابراج ، وقد تكون على شكل حدوة الفرس
كما هو الحال في مدينة الرافقة ، اذ انها بنيت على طراز مدينة المنصور (٩١) .

وكان للسور الاعظم بوابتان من حديد في كل ربع (٩٢) ، ذواتا حجم كبير
وصفها الخطيب بقوله : « على كل باب من ابواب المدينة الاوائل والثواني
باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان » (٩٣) وكانت هذه الابواب
من القوة والمتانة بحيث لا يعلق الباب الواحد منها ولا يفتحه الا جماعة
رجال (٩٤) ، وانها كانت مرتفعة بحيث يدخل الفارس بالعلم والرامي بالرمح
الطويل من غير ان يميل العلم ولا يثني الرمح (٩٥) .

الفصيل الثاني والمنطقة السكنية والسكك :

يتبين من رواية الخطيب ان الداخل من الباب الثاني الواقع في السور
الثاني للبوابة الرئيسة يجتاز رحبه مربعة طول ضلع كل جدار منها عشرون
ذراعا ، وعلى جانبي هذه الرحبة بابان ، احدهما على الجهة اليمنى والآخر على

الجهة اليسرى ، ويؤدي الباب الايمن في حالة وصفنا لباب خراسان الى ربع
الفصيل الثاني المفضي الى باب البصرة ، واذا اجتاز الداخل هذه الرحبة وصل
الى منطقة الطاقات والتي تمتد خلفها من جهتي اليمين واليسار، المنطقة السكنية،
وتتضمن السكك والدور والشوارع ، وتنقسم هذه المنطقة ايضا الى اربعة
اقسام (ارباع) تماما مثل الفصيل السابق ، كل قسم منها يؤلف ربع دائرة ،
وفصل هذه الاقسام الاربعة الطرق الاربعة النافذة من ابواب السور الاعظم
والتي تجتاز وسط الطاقات حتى تصل الى الرحبة المربعة في سور المدينة الداخلي
وهو السور الثالث ، وهو اشبه بحاجز يلتف حول المنطقة التي تضم القصر
والجامع وملحقاتها ، وعليه فأن تلك المنطقة التي تحف بالطاقات من جانبيها
تشمل المنطقة السكنية الوحيدة للناس في المدينة المدورة ، وتقع بين الجدار
الضخم للسور الاعظم والجدار المحيط بالمنطقة المركزية (٩٦) .

وقد اشار اليعقوبي الى اسماء السكك وعددها (٩٧) اما الخطيب فيشير الى
ان سكك المدينة منسوبة الى موالي ابي جعفر وقواده ويسمي بعضاً منها (٩٨)،
وكان على كل سكة من طرفيها الابواب الوثيقة ولا تتصل سكة منها بسور
الرحبة التي فيها دار الخلافة (٩٩) .

وكان الطريق الرئيس الذي يبدأ من رحبة السور الخارج وينتهي الى
رحبة السور المحيط بالمنطقة المركزية يضم على جانبيه سلسلة من الطاقات
وعدها اربعة وخمسون طاقا .

ويظهر من رواية الخطيب ان للمدينة المدورة نوعين من الطاقات ،
طاقات كبرى وطاقات صغرى (١٠٠) . وفي كل قسم من الطاقات الاربعة للمدينة
حرس يتألف من الف رجل تحت امرة قائد (١٠١) . وكانت هذه الطاقات بمثابة
اسواق المدينة المدورة حتى عام (١٥٧ هـ) ، وفي هذا العام امر الخليفة
المنصور تحويل الاسواق من داخل المدينة الى ربض الكرخ (١٠٢) .

وإذا خرج الخارج من الطاقات افضى الى رجة ثم الى دهليز عظيم ازج معقود بالآجر والجص عليه باب حديد ثم يخرج من الباب الى الرجة العظمى (١٠٣) .

وتقع الرجة العظمى وسط المدينة المدورة ، ونستطيع ان نطلق عليها اسم « قلب المدينة » ، دعاها اليعقوبي بـ « الرجة العظمى » (١٠٤) دلالة على مساحتها الواسعة ، كما انه ذكر العمار التي فيها فقال : « وفي وسط الرجة القصر الذي سمي بابه باب الذهب ، والى جنب القصر المسجد الجامع وليس حول القصر بناء ولا دار ولا مسكن لاحد الا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص ، يجلس في احدهما صاحب الشرطة ، وفي الاخرى صاحب الحرس ، وهي اليوم يصلي فيها الناس ، وحول الرجة كما تدور منازل اولاد المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده ، وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل ، وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الاختام ومطبخ العامة وديوان النفقات (١٠٥) .

ويظهر ان المنصور كان لا يسمح لاحد من اتباعه او رجال حاشيته دخول الرجة العظمى وهو راكب (١٠٦) .

قصر المنصور :

ويسمى ايضا بقصر باب الذهب (١٠٧) ، ويقع في وسط المدينة (١٠٨) ، وهو على شكل مربع طول كل ضلع من اضلاعه اربعمائه ذراع (١٠٩) . وفي صدر هذا القصر ايوان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا ، وسقفه قبة عليه مجلس مثله ، فوقه القبة الخضراء ، وسمكه الى حد عقد القبة عشرون ذراعا فصار من الارض الى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعا (١١٠) .

ومن المعروف ان هذه القبة الخضراء كانت ترى من مسافة بعيدة من خارج اسوار المدينة المدورة (١١١) ، وقد كانت بمثابة « تاج بغداد ، وعلم البلد

ومأثرة من ماثر بني العباس» (١١٣) • ويذكر بعض المؤرخين انه كان على رأس القبة الخضراء صنم على صورة فارس في يده رمح (١١٣) •

كان قصر المنصور بمثابة المقر الرسمي للخلافة يمكث الخليفة في احد قاعاته متفرغا للنظر في امور الدولة ، اضافة الى انه محل سكناه الخاص وسكنى زوجاته وخدمه والقائمين على مشاغل القصر •

وقد اورد الطبري وصفا لغرفة نوم المنصور وهي « حجرة صغيرة وفيها بيت واحد ورواق بين يديه في عرض البيت وعرض الصحن على اسطوانة ساج ، قد سدل على وجه الرواق البواري كما يضع بالمساجد ... ليس فيه شيء غيره الا فراشه ومرافقه وذئاره » (١١٤) •

ولم تذكر المصادر ان احدا من الخلفاء سكن قصر الذهب بعد ابي جعفر المنصور سوى الخليفة محمد الامين (١١٥) ، فان ابن الجوزي يذكر انه لما وصل خبر وفاة الرشيد بغداد « كان الامين نازلا ببغداد في الخلد ، فتحول الى قصر المنصور بالمدينة » (١١٦) •

اما هارون الرشيد فقد فضل الإقامة في قصر الخلد المشرف على نهر دجلة (١١٧) ، وحينما آلت الخلافة الى الامين تحول من قصر الخلد الى قصر المنصور (١١٨) ، وانه كما يروي الطبري اضاف اليه ميدانا (١١٩) •

وفي الفترة التي هاجمت فيها جيوش المأمون المدينة المدورة بقيادة طاهر بن الحسين ، قائد جيوش المأمون ، مكث الامين في قصر باب الذهب محتميا به (١١٩) ، الا ان المنجنوقات الكثيرة التي نصبها طاهر حول المدينة المدورة والتي رشق اسوارها وقصرها بوابل من الحجارة الكبيرة قد هدمت بعض اقسامها وهدم بعضها الآخر التخریب (١٢٠) •

وفي قصر المنصور سجن محمد الامين وامه زبيدة مدة يومين قبيل تقدم طاهر بن الحسين لحصاره (١٢١) ، كما حبست فيه زبيدة بعد مقتل الامين بفترة ثم نقلت الى الخلد (١٢٢) •

ومما يفهم من روايات المؤرخين ان قبة المنصور الخضراء بقيت قائمة على جذرائها حتى سقط رأسها في يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ، وكان ليلتئذ مطر عظيم ورعد هائل وبرق شديد (١٢٣) ، ويعتقد لسترايخ انه ربما اصابتها صاعقة الهبت فيها النيران (١٢٤) .

والظاهر ان آخر خبر جاءنا عن بقايا القبة الخضراء ، ورد في كتاب الحوادث الجامعة لسنة ٦٥٣ هـ « وفيها وقعت القبة الخضراء المجاورة لجامع المنصور » (١٢٥) .

ومن المؤكد ان سبب وقوع بقايا القبة الخضراء يرجع الى الفرق الذي حدث في بغداد سنة ٦٥٣ هـ الذي اشار اليه صاحب الحوادث الجامعة بقوله : « وفي هذه السنة اتفقت امور عجيبة وحوادث غريبة ٠٠٠ منها الفرق العام الذي ضرب بغداد ولا سيما دار الخلافة ، والدور الشطانية في الجانبين ، وتهدمت الجوامع والمساجد كجامع المنصور ٠٠٠ والقبة الخضراء » (١٢٦) .

مسجد المنصور :

هو أول مسجد يشيد على ارض بغداد (١٢٧) ، ومع الأسف فإن معالم هذا المسجد قد زالت عن الوجود منذ مئات السنين ، ولم يبق له أي ذكر الا بعض اشارات موجزة في المؤلفات العربية لا تتناسب ومنزلة المسجد الاول .

وقد حاول بعض علماء الآثار الاسلامية ان يكتبوا عنه ويرسموا مخططات له ، امثال هرتسفيد (١٢٨) ، والبروفسور كريزويل (١٢٩) ، ولسترايخ (١٣٠) .

وسوف نحاول ان نلم بتخطيط هذا المسجد على ضوء ما جاء في وصف الخطيب البغدادي له (١٣١) ، دون التوسع في الآراء والنظريات التي طرحها علماء الآثار .

في وسعنا أن نقسم المراحل التي مرت بالمسجد بثلاث مراحل :

١ - مرحلة التأسيس •

٢ - مرحلة التجديد

٣ - مرحلة الزيادة

مرحلة التأسيس :

تم تنفيذ بناء المسجد في هذه المرحلة على يد الخليفة المنصور في عام ١٤٥هـ (٧٦٦م) ، وقد جعله ملاصقا لقصره (١٣٢) ، وكان شكله على هيئة مربع متساوي الاضلاع كل ضلع من اضلاعه مائتا ذراع • وكان للمسجد مصلى « بيت الصلاة » وفيه المحراب ، ومؤخرة ومجنبتان وفناء ومأذنة •

كان مصلى المسجد فسيحا طوله بقدر طول ضلع المسجد ، يحتوي على خمسة اروقة موازية لجدار القبلة ، وكل رواق له ستة عشر عمودا من الخشب أي أن الاروقة كانت تنقسم الى سبع عشرة بلاطة ، وكانت بيت الصلاة تطل على الجانب من الصحن •

وكانت تحيط بالصحن من جانبيه مجنبتان لكل منهما رواقان ، وكانت المجنبتان والمؤخرة تطل على الجوانب الثلاثة من الصحن ، وتقع المؤخرة قبالة المصلى وتتألف من رواقين •

والمادة التي استخدمت في بنائه لهذه المرحلة هي اللبن والطين أما اعمدته فمن الخشب وقد وصف الخطيب البغدادي هذه الاعمدة بقوله: « كل اسطوانة كانت قطعتين معقتين بالعقب (١٣٣) » • ويذكر هرتسفيلد أن الخطيب يقصد بذلك أن القطعتين متصلتان احدهما بالآخرى من طرفيها ، اي ان العمود الواحد (الاسطوانة) كان يتألف من قطعتين احدهما فوق الاخرى • ويضيف هرتسفيلد ان هناك امثلة هذه الاسطوانات من الاعمدة الرخامية في سامراء ، فإن كل عمود منها يتكون من ثلاث قطع (١٣٤) •

اما قبلة المسجد ، فانها كما يشير المؤرخون ، تحتاج الى ان تحرف الى باب البصرة قليلا (١٣٥) * ويوضح ابن الاثير ذلك ، ان انحراف القبلة قد نشأ من بناء المسجد ملاصقا للقصر بعد ان تم بناء القصر اولا حيث « كان غير مستقيم على القبلة (١٣٦) » *

مرحلة التجديد :

تبدأ هذه المرحلة في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٩٢ - ١٩٣ هـ) ، حيث هدم المسجد الاول ، وأعاد بناءه بالآجر والجص ، وقد تم تجديد المسجد على نفس المخطط السابق له ، وبنفس الابعاد ، وقد سجل الرشيد تأريخ هذا التجديد في لوحة كتابية تضمنت اسم البناء وتأريخ البناء (١٣٧) ، والظاهر ان الرشيد صنع منبرا جديدا للمسجد غير المنبر القديم (١٣٨) *

مرحلة الزيادة :

تبدأ هذه المرحلة بعد عودة الخلافة من سامراء الى بغداد ، سنة ٢٧٩ هـ في عهد الخليفة المعتمد وقد قام المعتمد بافتتاح مساحة مقاربة لمساحة مسجد المنصور من قصر باب الذهب ، وضمها الى المسجد ، وسميت بالصحن الاول ، بينما سمي صحن مسجد المنصور بالصحن العتيق ، وفتحت بين جدار الصحن العتيق والصحن الاول سبعة عشر طاقا ثلاثة عشر منها الى الصحن ، واربعة منها الى الاروقة على أساس طاقين لكل رواق ، ثم حول المنبر والمحراب والمقصورة الى قبلة المسجد الجديد المضاف من قصر باب الذهب (١٣٩) *

مكث مسجد المنصور في بغداد الغريبة مكانا يؤدي فيه الناس الصلاة من سنة ١٤٥ هـ حتى سنة ٧٢٧ هـ حيث زار ابن بطوطة بغداد * وكان يعد من الجوامع العظيمة التي حفلت ببعض الاحداث التاريخية (١٤٠) *

نشأة الجانب الشرقي :

ترجع نشأة الجانب الشرقي الى ايام الخليفة المنصور وأغلب المؤرخين العرب يميلون الى ان تاريخ نشأة هذا الجانب كانت في سنة ١٥١هـ (١٤١) (٢٧٦٨ م) * الا أن اليعقوبي يشير ان البدء في بناء هذا الجانب كان في سنة ١٤٣هـ (١٤٢) * ، ويبيّل استاذنا صالح احمد العلي الى رواية اليعقوبي ويذكر ان التخطيط لاستيطان الجانب الشرقي رسم منذ اوائل تأسيس المدينة المدورة وكجزء من الخطة العامة في استيطان المنطقة وليس لغرض عسكري محدد ، وان استيطان الجانب الشرقي واتساع اعماره يرجع الى ان الجانب الغربي اكتمل اعماره في وقت مبكر ولم يعد فيه مجال للتوسع ، ويوثق رأيه في ان الجانب الشرقي استوطنه الناس قبل سنة ١٥١هـ بجملة روايات تشير الى ان بعض الشخصيات الاسلامية البارزة دفنت في المقبرة التي صارت تسمى فيما بعد مقبرة الخيزران ، وهي في الجانب الشرقي ، فممن دفن في تلك المقبرة هشام بن عروة (توفي سنة ١٤٥) ابو حنيفة النعمان بن ثابت (توفي سنة ١٥٠) ومحمد بن اسحق (توفي سنة ١٥٠) ولا بد ان هؤلاء وغيرهم ممن لم تذكرهم المصادر ، كانوا يقيمون عند وفاتهم في الجانب الشرقي (١٤٣) * .

والواقع اننا مازلنا نجهل السبب المباشر الذي دفع المنصور الى اعمار الجانب الشرقي الذي سعى اول الامر بـ « عسكر المهدي » ، ولعل الدافع العسكري والامني هو الذي دفعه الى التفكير في اقامة هذا المعسكر ، اذ كان المنصور يرى ضرورة جعل الجانب الشرقي مقرا لولده المهدي ، ولي عهده ، مع جنده مقابل مقر الخلافة في الجانب الغربي (١٤٤) * .

وكان المهدي قد عسكر بجنده في هذا الموضع عند خروجه الى الري ، وعند عودته منها ، اتخذ معسكره في نفس المكان (١٤٥) ، ولعل وجود معسكر على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، قبالة المدينة المدورة ، مركز الخلافة ، بجنده

كثيف، وقيادة تدين بالطاعة والولاء للخلافة من الامور التي خطط لها الخليفة المنصور وأولاه اهتمامه .

ولاشك ان وجود هذا المعسكر ، كان يعد خطا دفاعيا متقدما يحمي مدينة المنصور من اي هجوم عسكري من الشرق ، ويؤلف مع فھر دجلة وسيلة دفاعية كبيرة يصبح من العسير على اية قوة غزبية ومعتدية ان تفلح في العبور وتطويق المدينة المدورة .

وكان « عسكر المهدي » يشتمل على ثكنات الجند ، ثم عرف فيها بعد ب « محلة الرصافة » ، واقطع المنصور اقطاعات لولده المهدي وحاشيته ومواليه (١٤٦) . ويشير استاذنا الدكتور العلي بان استيطان الجانب الشرقي بدأ في وقت مبكر وبمعرفة المنصور وتخطيطه . وكجزء مكمل للجانب الغربي ، ويتسم بنفس مظاهره من حيث ان مستوطنيه الاولين هم ابنه وحاشيته وبعض اهل بيته وجنده ممن يرتبطون بالولاء للدولة الجديدة ويعتمدون في معاشهم على عطائها ، ولا ريب في أن ابرز شخصية في الجانب الشرقي هو محمد المهدي، ابن الخليفة وولي عهده ، غير ان اسكانه في الجانب الشرقي بعيدا عن مركزه في قصر الذهب ، هو امر ينسجم مع اسلوب المنصور الذي اقطع كل اولاده اقطاعات خارج المدينة المدورة . بعيدا عن قصره ويفصله عنهم الاسوار والخندق ولم يجمع هؤلاء الاولاد في اقطاع أو قصر واحد . وحتى المهدي نفسه قدرله المنصور أن يستوطن أولا في الشرقية التي تقع في الطرف الجنوبي الشرقي خارج المدينة المدورة (١٤٧) .

وتطور اعمار الجانب الشرقي ، ولعل أول ما اقيم فيه هو جامع الرصافة الكبير ، وكان اكبر من جامع مدينة المنصور (١٤٨) ، وشيد المهدي قصره على مقربة من هذا الجامع ، واقطع لبعض رجاله وقادة جيشه اراض في الشمال الشرقي ، والجنوب الشرقي وبنوا دورهم وقصورهم فيها . ويشير اليعقوبي الى اسماء تلك القطائع ، وقد اصبحت هذه المناطق تدعى بمحلة « الشماسية »

ومحلة « المخرم » . وكان المنصور قد احاط الرصافة بسور وخندق وميدان وبستان ، واجرى له الماء فكان الماء يجري من نهر المهدي الى الرصافة (١٤٩) .

والى الشمال من جامع الرصافة بمسافة قليلة ، وعلى مقربة من نهر دجلة تقع المقبرة المشهورة آنذاك بأسم « ترب الخلفاء » ، وقد دفن فيها العديد من الخلفاء العباسيين المتأخرين .

وكان يقع الى الشمال جامع الرصافة ايضا ، قبر الامام النعمان بن ثابت المعروف بأبي حنيفة ، وقد سميت المنطقة التي تحيط بقبره بمحلة أبي حنيفة ، وقد دفن فيها عند وفاته عام ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) في المقبرة التي كانت تسمى بأسم « مقبرة الخيزران » ، نسبة الى الخيزران زوجة الخليفة المهدي ، وهي نفس مقبرة الامام ابي حنيفة .

ولم يسكن الخليفة المهدي كثيرا بقصر الرصافة ، اذ يلاحظ انه حج في سنة ١٦٠ هـ (١٥٠) ، ثم سافر في سنة ١٦٣ هـ الى الموصل ثم الى بيت المقدس (١٥١) ، وعندما عاد أعمر عيساباذ فبنى قصر الطين في سنة ١٦٤ هـ ثم انتقل الى قصر السلامة بعد ذلك ، اي انه لم يسكن في قصر الرصافة الا بعض الوقت بين سنتي ١٦٠ - ١٦٤ (١٥٢) . وبقي قصر الرصافة مسكونا بعد ان تخلى عنه المهدي ، فقد ولد فيه الامين في سنة ١٦٩ هـ (١٥٣) ، مما يدل على ان الرشيد كان يقيم فيه آنذاك . ولما عاد المأمون الى بغداد في سنة ٢٠٢ هـ نزل في هذا القصر الى ان بنى له قصرا خاصا (١٥٤) .

عيسا باذ :

لم تحدد النصوص التاريخية موقع عيسا باذ ، وقد ناقش الدكتور العلي العديد من النصوص التاريخية لمحاولة تعيين موقعها وخلص انها قرب قصر المأمون (١٥٥) . ويشير البلاذري بأن الخليفة المهدي « كان اكثر نزوله مدينة السلام بعيسا باذ في ابنية بناها هناك (١٥٦) » . والظاهر ان اهم مباني عيسا باذ

هما قصر الطين والسلام . ولم تشر المراجعة الى قصر الطين ، مما يدل على انه كان بناء مؤقتا ، ولكنها رددت ذكر قصر السلام .

ويشير الطبري أن المهدي تحول في سنة ١٦٦ هـ « الى عيسا باذ فنزلها ، وهي قصر السلامة ، ونزل بها معه الناس ، وضرب بها الدنانير والدراهم (١٥٧) » ويظهر من هذا النص ان المهدي جعل عيسا باذ مقر الدولة ، وقد نزل الناس مع المهدي فتوسعت ونمت هذه المدينة .

واقام الخليفة الهادي معظم ايام خلافته القصيرة في عيسا باذ ، ويظهر انه بقى مقيما فيها حتى توفي ودفن فيها (١٥٨) . ويبدو أن عيسا باذ هجرت بعد ذلك فلم يرد ذكر لاحد اقام فيها ، ولم تحدد الكتب مكانها ولم يرد لها ذكر في الاخبار (١٥٩) .

قصر المأمون والمعتصم :

وعندما عاد المأمون الى بغداد نزل الرصافة « الى ان بنى منزله على شاطئ دجلة عند قصره الاول في بستان موسى (١٦٠) » . وقد ذكر الخطيب قصر المأمون فقال : « واما شاطئ دجلة من الجانب الشرقي فأوله بناء الحسن بن سهل وهو قصر الخليفة في هذا الوقت ، ودار دينار ودار رجاء بن ابي الضحاك ، ثم منازل الهاشمين ، ثم قصر المعتصم ، وقصر المأمون ، ثم منازل آل وهب الى الجسر كانت اقطعا لناس من الهاشمين (١٦١) ، والراجع ان قصر المأمون المذكور في هذا النص هو الذي بناه بعد توليه الخلافة .

اما المعتصم فأن المصادر لم تذكر مقامه في السنتين الاوليتين اللتين كان فيها ببغداد ، ولعله كان يقيم في قصره القديم القريب من قصر المأمون وهو مركز الخلافة في عهد سلفه (١٦٢) .

والمعروف ان المعتصم شيد مدينة سر من رأى (سامراء) فنقل دار
الخلافة اليها .

دار الخلافة :

عندما كانت سامراء مركز الخلافة العباسية ، منذ عهد المعتصم ، ترك
المستعين بالله سامراء متوجها الى بغداد في سنة ٢٥١هـ (٨٦٥م) على اثر ثورة
الجند الاتراك ضده في سامراء، وعند وصوله بغداد شرع بتشبيد سورين حول
مدينة بغداد في جانبيها الشرقي والغربي بغية الدفاع عنها . السور الاول ،
يحيط بالجانب الشرقي الذي كان يضم ثلاث محلات هي : الشماسية والرصافة
والمخرم . والسور الثاني يشتمل على المحلات والارباض التي تقع
حول المدينة المدورة .

وكان القسم الشمالي من هذا السور يبدأ من نهر دجلة عند فرضة
« الخندق الطاهري » (١٦٣) ، حتى باب الانبار ، ثم يميل نحو الجنوب الشرقي
بأمتداد ضفة نهر عيسى حتى يلتقي بنهر دجلة على مقربة من قصر حميد الذي
كان موقعه على نهر دجلة .

اما سور الجانب الشرقي ، فكان يبدأ من ضفة نهر دجلة مقابل قصر حميد،
ويمر بباب سوق الثلاثاء ، وعند وصوله الى باب « ابرز » يميل الى الشمال
الغربي نحو نهر دجلة ، مارا بباب « سوق الدواب » وباب « خراسان » ،
ثم باب « البردان » ثم باب « الشماسية » فيلتقي بضفة نهر دجلة مقابل فرضة
« الخندق الطاهري » في الجانب الغربي .

وهكذا اصبحت بغداد بجانيبيها الغربي والشرقي في آواخر القرن الثالث
محصنة قوية أشبه ما تكون بحلقة يدور حولها السور الذي بناه الخليفة
المستعين من جميع اطرافها (١٦٤) .

وعندما عادت الخلافة العباسية الى بغداد في عهد المعتمد في سنة ٢٧٩هـ (٨٩٣م) نزل الخلفاء العباسيون في الجانب الشرقي من بغداد، وقد اتخذ المعتمد مقامه في الجانب الشرقي تحت سوق الثلاثاء ، وكانت دار الخليفة أو مقر دار الخلافة تطلق على المنطقة حول داره ، وكان حريم الخلافة يتكون من ثلاثة قصور كبيرة هي (قصر الفردوس ، وقصر الحسني ، والتاجي) ، وحولها عدد من الابنية الصغرى ، ويحيط بها سور شبه دائري ، وكان الصعود الى « دار الخلافة » يتم عن طريق من شاطئ دجلة او من احد الابواب الثمانية التي كانت في سورہ . والعلاقة بين هذه الابنية بعضها ببعض غير واضحة . ثم بنى قصرا رابعا هو (الثريا) على بعد ميلين (٤ كم) من دار الخلافة ، وكان يرتبط بها بازاج تسر تحت الارض (١٦٥) .

وفي الفترة التي تسلط فيها الفرس البويهيون على مقدرات الخلافة بين سنتي ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ اصاب الخراب والدمار والتهديم في أوائل القرن الرابع الهجري اسوار مدينة أبي جعفر المنصور (المدورة) وبقية مبانيها ، اذ غرقت بغداد الغربية في عام ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) ، ودخلت المياه مدينة المنصور وتهدمت طاقات باب الكوفة (١٦٦) .

وشمل التهديم ايضا سور بغداد الشرقية والغربية الذي بناه الخليفة المستعين ، ولم نستطع ان نقف على رواية تفيد سبب تهديم هذا السور، وبقينا أن البويهيين الفرس قاموا بنقض اجزاء كبيرة من هذا السور عيدا (١٦٧) .

الهوامش :

- ١ - الطبري ، الجزء ٦ صفحات ٧٢-٧٥
- ٢ - اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٧
- ٣ - اليعقوبي ، التاريخ ، ٤١٨/٢
- ٤ - حمام اعين : وهو معسكر للجند بالكوفة على بعد ثلاثة فراسخ منها. وسمي كذلك كما يقول البلاذري في فتوح البلدان صفحة ٢٨٠ ، نسبة الى اعين مولى سعد بن ابي وقاص قائد معركة القادسية الاولى الخالدة .
- ٥ - الطبري ، الجزء ٦ صفحة ٨٧
- ٦ - البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥ ، الطبري ٢٣٤/٦
- ٧ - الطبري ، ٢٤٨/٦
- ٨ - الدكتور صالح احمد العلي ، (منطقة الحيرة) مجلة كلية الاداب ، ١٩٦٢ صفحات ٢٥-٢٦
- ٩ - سورا : وهو - كما قال سهراب صفحة ١٢٤ - قسم من نهر الفرات ويمر بقرى وضياح ويتفرغ منه انهار كثيرة تسقي طوج سورا ، ثم يمر بازاء مدينة قصر ابن هبيرة وبينهما اقل من ميل ، وعلى هذا النهر جسر هو جسر سورا
- ١٠ - البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥
- ١١ - البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥
- ١٢ - الدكتور طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحة ١٠٩
- ١٣ - ابو الفدا ، تقويم البلدان ، صفحة ٢٩٧
- ١٤ - البلدان ، صفحة ٢٣٧
- ١٥ - الجزء الاول ، صفحة ٤٨٦
- ١٦ - البلدان ، صفحة ٢٣٧
- ١٧ - الجزء السادس ، صفحة ٢٣٤
- ١٨ - فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥
- ١٩ - ٢٣٤/٦
- ٢٠ - البلدان ، صفحة ٢٣٧
- ٢١ - بغداد في عهد الخلافة العباسية ، صفحة ١٣ .
- ٢٢ - الدكتور طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحات ١٢٤-١٢٥

- ٢٣- الطبري ، ١٠٤/٦
- ٢٤- فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥ .
- ٢٥- الدكتور صالح احمد العلي ، « منطقة الحيرة » ، مجلة كلية الآداب ، لسنة ١٩٦٢ ، صفحة ٢٦
- ٢٦- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٧
- ٢٧- احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، صفحة ١٢١ .
- ٢٨- التاريخ ، ٤٥٠/٢ - ٤٥١
- ٢٩- تاريخ ابو الفدا ، ٤/٢
- ٣٠- سهراب ، عجائب الاقاليم السبعة ، صفحة ١٢٣ ، الاصطخري ، مسالك الممالك صفحة ٨٤ ، ١١١/١
- ٣١-
- ٣٢- فتوح البلدان ، صفحة ٢٤٧
- ٣٣- البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥
- ٣٤- المرجع السابق ، صفحة ٢٧٧
- ٣٥- الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة ٢٥
- ٣٦- اليعقوبي ، التاريخ ٤٢٩/٢ - ٤٣٠
- ٣٧- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٧
- ٣٨- دائرة المعارف الاسلامية ، مادة الانبار ٣/٣
- ٣٩-
- ٤٠- مصطفى جواد واحمد سوسه ، صفحة ٣
- ٤١- اليعقوبي ، التاريخ ٤٢٩/٢
- ٤٢- الطبري ٨٧/٦
- ٤٣- البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥
- ٤٤- شيخ الرتبة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، صفحة ١٨٦
- ٤٥- ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٦٨/١
- ٤٦- البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥ ، اليعقوبي ، البلدان ، صفحة: ٢٣٧ ، المسعودي ، التنبيه والاشراف ، صفحة ٣٣٩
- ٤٧- الطبري ٤٧٠/٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، ٤٦٠/٥
- ٤٨- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٧ وكتابة التاريخ ٤٤٩/٢ ، الطبري، ٢٣٤/٦ ، الخطيب ٦٦/١ وما بعدها ، ياقوت ٦٧٧/١
- ٤٩- ذكر الطبري ٢٣٤/٦ ، بانه لما ثارت الراوندية بابن جعفر في مدينته التي تسمى بالهاشمية، والتي هي بحيال مدينة ابن هبيرة سحره سكانها لاضطراب من اضطراب امره عليه من الراوندية مع قرب جواره من الكوفة ولم يأمن اهلها على نفسه فاراد ان يبعد من جوارهم .

- ٥٠- ريجارد كوك ، بغداد مدينة السلام ٢٣/١
- ٥١- علي ظريف الاعظمي ، مختصر تاريخ بغداد ، صفحات ٦٥
- ٥٢- الدكتور طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة صفحة ١٢٤ .
- ٥٣- الطبري ٢٣٤/٦
- ٥٤- الطبري ٢٣٤/٦ - ٢٣٥
- ٥٥- منطقة غربي دجلة كانت تشمل عند تأسيس بغداد طسوجين ، يفصل بينهما نهر الصراة ، فالذي يقع شماله يسمى (طسوج قطر بل والذي كان جنوبه يسمى طسوج بادوريا ، وعلى هذا الاساس فان مباني مدينة المنصور المدورة اقيمت على هذا الطسوج .
- ٥٦- الطبري ٢٣٤/٦ - ٢٣٥
- ٥٧- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٨
- ٥٨- الطبري ٢٣٧/٦ ، ياقوت ، معجم البلدان ٦٨٠/١ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ١٥/٥
- ٥٩- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٨٥ .
- ٦٠- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٤٠ ، د. صالح احمد العلي ، بغداد مدينة السلام ، ص ١٣٧ .
- ٦١- الطبري ٢٧٦/٣ ، الدكتور صالح احمد العلي ، بغداد مدينة السلام ، الجانب الغربي ، المجلد الاول ، صفحة ٢٢٨ .
- ٦٢- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٨ ، بينما يشير الخطب ٦٧/١ ، ان عددهم بلغ الوفا كثيرة .
- ٦٣- صالح احمد العلي ، بغداد مدينة السلام ، الجانب الغربي صفحة ٢٣٠ .
- ٦٤- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٨ .
- ٦٥- الطبري ٢٣٧/٦
- ٦٦- الطبري ٢٣٥/٦
- ٦٧- البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحات ٢٨٣-٢٩٧ ،
- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٣ وما بعدها ،
- الطبري ، ج ٦ صفحة ٢٣٤ وما بعدها ، المسعودي ،
- مروج الذهب ، ج ٦ صفحة ١٧١ ، الخطيب ، تاريخ بغداد ج ١ صفحة ٦٧ وما بعدها ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ صفحة ٤٥٧ وما بعدها ،
- لسترانج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، كريتويل ، العمارة الاسلامية الاولى ، الجزء الثاني ، باللغة الانكليزية ، الدكتور طاهر مظفر العميد ،
- بغداد مدينة المنصور المدورة ، ١٩٦٧ ، الدكتور صالح احمد العلي
- بغداد مدينة السلام ، الجانب الغربي ١٩٨٥ ، الدكتور يعقوب ليسنر ،
- ترجمة الدكتور احمد العلي ، خطط بغداد في العهود العباسية الاولى ، ١٩٨٤ .

- ٦٨- اليقوي ، البلدان ، صفحة ٢٣٩
- ٦٩- اليقوي ، البلدان ، صفحة ٢٣٩ . هذا بينما يشير ابن رسته في الاطلاق
النفسية صفحة ١٠٨ بان حافتي الخندق قد بنيتا بالجص والأجر اي.
انه كان للخندق مستنان .
- ٧٠- الخطيب ٧٤/١
- ٧١- الطبري ٢٣٨/٦
- ٧٢- الدكتور صالح احمد دالي ، بغداد مدينة السلام صفحة ٣٠٨ .
- ٧٣- اليقوي ، البلدان ، صفحة ٢٣٨ ، ابن رسته .
- ٧٤- الخطيب ٧٤/١
- ٧٥- اليقوي ، البلدان صفحة ٢٣٨
- ٧٦- الخطيب ٧١/١ ، ياقوت ٦٨٣/١ ، ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، ص ٩ .
- ٧٧- للاستزادة عن ابواب المدينة المدورة . يراجع بغداد مدينة المنصور المدورة ،
للدكتور طاهر مظفر العميد ، صفحات ٢١٨-٢٢٠ ، وبغداد مدينة السلام ،
الجانب الغربي للدكتور صالح احمد علي ، صفحات ٣١١-٣١٥ .
- ٧٨- الخطيب ٧٤/١ ، هذا بينما يروي اليقوي ان المنصور جعل لابواب المدينة
اربعة دهاليز عظاما آراجا كلها طول كل دهليز ثمانون ذراعا كلها معقودا
بالأجر والجص ، فاذا دخل من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبة
مفروشة بالصخر ثم دهليزا على السور الاعظم .
- ٧٩- الخطيب ٣٤/١ . وكذلك يشير ياقوت في معجمه ٩٥٤/٢ الى هذه الظاهرة
فيقول : « وقيل انما سميت بالزوراء وذلك لان المنصور حين عمرها
جعل الابواب الداخلة مزورة عن الابواب الخارجة اي ليست على سمتها» .
- ٨٠- للاستزادة من معرفة هذه الظاهرة المعمارية وما اثر حولها من مناقشات.
تراجع . كتاب كريزويل « العمارة الاسلامية الاولى » الجزء الثاني ،
صفحات ٢٤-٢٦ . وكتاب « المختصر » صفحات ١٧٥-١٧٩ . وكتاب
« بغداد - مدينة المنصور المدورة » للدكتور طاهر العميد ، صفحات
٢٢٠-٢٣٢ . وكتاب « المدخل » للدكتور احمد فكري ، صفحة ٣٤ .
- ٨١- الدكتور طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، ص ٢٣٢ .
- ٨٢- تاريخ بغداد ٧٤/١ .
- ٨٣- تاريخ بغداد ٧٣/١ .
- ٨٤- البلدان ، صفحة ٢٣٩ .
- ٨٥- البلدان ، صفحة ٢٣٩ .
- ٨٦- تاريخ بغداد ٧٤/١ .

- ٨٧- اشار اليعقوبي في كتابه «البلدان» صفحة ٢٣٩، ان اساس السور تسعين ذراعا مع الشرفات ، اما الخطيب في « تاريخ بغداد » ٧٤/١ فيروي بان ارتفاع هذا السور خمسة وثلاثون ذراعا وعرضه من اسفله نحو عشرين ذراعا .
- ٨٨- يراجع من السور الاعظم كتاب « بغداد مدينة المنصور المدورة » للدكتور طاهر مظفر العميد ، وكتاب « بغداد مدينة السلام » للدكتور صالح احمد العلي ، صفحة ٣٠٨ .
- ٨٩- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٩ .
- ٩٠- الخطيب ٧٢/١ .
- ٩١- البلاذري ، صفحة ١٨٤ ، الهمداني ، البلدان ، صفحة ١٣٢ .
- ٩٢- الطبري ٢٦٥/٦ ، الخطيب ٧٥/١ ، ياقوت ٦٨٤/١
- ٩٣- الخطيب ٧٥/١
- ٩٤- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٩
- ٩٥- المصدر السابق صفحة ٢٣٩
- ٩٦- الخطيب ٧٦/١ ، الدكتور طاهر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحة ٧٤ .
- ٩٧- البلدان ، صفحة ٢٣٠-٢٣١
- ٩٨- الخطيب ٨٩/١
- ٩٩- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٤١ . للاستزادة من المعلومات عن السكك يراجع كتاب « بغداد - مدينة المنصور المدورة » للدكتور طاهر العميد ، صفحات ٢٤٨-٢٤٩ . وكتاب « بغداد مدينة السلام » للدكتور صالح احمد العلي صفحات ٢٦٠-٢٨٣ ، وقد قدم استاذنا الدكتور العلي معلومات دقيقة وواسعة عن سكك المدينة المدورة واهليها .
- ١٠٠- الخطيب ٧٦/١
- ١٠١- المصدر السابق ٧٧/١ . عن الطاقات تراجع الكتب التالية : لسترانج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، صفحة ٣٣ وما بعدها كوزويل ، « العمارة الاسلامية الاولى » الجزء الثاني ، صفحة ١٦ .
- طاهر العميد - بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحات ٢٥٠ - ٢٥٥ .
- صالح العلي ، بغداد مدينة السلام ، صفحات ٢٨٤-٢٨٩ .
- ١٠٢- يتفق الطبري ٢٦٦/٦ ، والخطيب ٧٨/١ في ان سبب نقل الاسواق من داخل المدينة المدورة الى ربض الكرخ كان للدواعي الامنية .
- ١٠٣- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٤٠ ، الخطيب ٧٦/١
- ١٠٤- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٤٠
- ١٠٥- المصدر السابق ، صفحة ٢٤٠ .
- ١٠٦- الطبري ٢٦٦/٦ ، الخطيب ٧٨/١ .

- ١٠٧- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٠ .
- ١٠٨- تؤكد الروايات التاريخية وقوع قصر المنصور وسط الرحبة العظمى ، انظر : البلدان ، اليعقوبي صفحة ٢٣٠ ، الاعلاق النفيسة : ابن رسته ، صفحة ١٠٨ ، الكامل ، ابن الاثير ٢١/٥ .
- ١٠٩- الخطيب ١٠٧/١
- ١١٠- الخطيب ٧٣/١ ، اما ياقوت في المعجم ٦٣٨/١ فيقول : « وبني القبة الخضراء فوق ايوان وكان علوها ثمانين ذراعا » .
- ١١١- يذكر ابن الفوطي في الحوادث الجامعة صفحة ٣٠٢ بانها كانت عالية ينظر الجالس فيها من يخرج من الانبار .
- ١١٢- ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، صفحة ١٢ ، ياقوت ٦٨٤/١ .
- ١١٣- الخطيب ٧٣/١ ، ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، صفحة ١١ .
- ١١٤- الطبري ٤١٥/٣ ، الدكتور صالح احمد العلي ، « منازل الخلفاء وقصورهم في بغداد » سومر المجلد (٣٢) سنة ١٩٧٦ ، صفحة ١٦٨ .
- ١١٥- الدكتور صالح احمد العلي ، « منازل الخلفاء وقصورهم في بغداد » سومر المجلد (٣٢) سنة ١٩٧٦ ، صفحة ١٦٨ .
- ١١٦- المنتظم حوادث سنة ١٩٣ .
- ١١٧- الطبري ٥٤٤/٦
- ١١٨- المصدر السابق ، ٦ صفحات ٥٤٤ و ٥٥١
- ١١٩- يذكر الطبري تفاصيل حصار طاهر بن الحسن لبغداد . الجزء السابع صفحات ٧٣-٥٠
- ١٢٠- الدكتور طاهر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة .
- ١٢١- الطبري ٨٤٦/٣ ، ٨٥٢
- ١٢٢- الطبري ٩٣٤/٣ ، الدكتور صالح احمد العلي ، نفس المصدر ، صفحة ١٦٨ .
- ١٢٣- اليعقوبي ، التاريخ ٤٥٠/٢ ، الخطيب ٧٣/١ ، ياقوت ٦٨٣/١ ، ابن الجوزي ، مناقب ، صفحة ١١ .
- ١٢٤- بغداد في عهد الخلافة العباسية ، صفحة ٣٩ .
- ١٢٥- ابن الفوطي ، صفحات ٣٠٢-٣٠٣ .
- ١٢٦- المصدر السابق ، صفحة ٣٠٣ .
- ١٢٧- ابن الفوطي ، صفحة ٣٠٣
- ١٢٨-
- ١٢٩-
- ١٣٠- بغداد في عهد الخلافة العباسية ، مترجم الى العربية ، الصفحات ٣٩-٤١
- ١٣١- تاريخ بغداد ، ١٠٧/١-١٠٨
- ١٣٢- اليعقوبي صفحة ٢٤٠ ، الخطيب ١٠٧/١

- ١٣٣- العقب ، ومعناها كما ورد في معجم متن اللغة ١٥٥/٤ ، جمعها أفتاب من كل شيء آخره وخاتمته .
- ١٣٤-
- ١٣٥- الخطيب ١٠٧/١ ، المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم صفحة ١٢١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٧٩/١٠ .
- الطبري ٣٢٢/٣ .
- ١٣٦- الكامل في التاريخ ٣٩/٥ ، ابن الجوزي ، مناقب صفحة ٢٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٩٧/١٠
- ١٣٧- الخطيب ١٠٨/١
- ١٣٨- الخطيب ١١٠/١
- ١٣٩- الخطيب ١٠٨/١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ١٤٣/٥ .
- ١٤٠- ابن الجوزي ، المنتظم ، حوادث سنة ٤٥٠ ، رحلة بنيامين التيطلي ، صفحة ١٣٣ .
- ١٤١- البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٣٠٣ ، الطبري ٣٧/٨ ، الخطيب ٨٢/١ .
- ١٤٢- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٥٢ .
- ١٤٣- د . صالح احمد العلي / ادارة بغداد ومراكزها في العصور العباسية الاولى ، سومر (١٩٧٧) صفحة ١٣٣ .
- المصدر السابق . صفحة ١٣٣ .
- ١٤٤- د . طاهر مظفر العميد ، العمارة العسكرية ، حضارة العراق ، الجزء التاسع ، صفحة ١٩٨ .
- ١٤٥- البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٣٠٣ .
- ١٤٦- للاستزادة من قطائع الجانب الشرقي يراجع بحث الدكتور صالح احمد العلي ، « ادارة بغداد ومراكزها في العصور العباسية الاولى » ، سومر (١٩٧٧) صفحات ١٣٣-١٣٤ .
- ١٤٧- سومر « ادارة بغداد ومراكزها في العصور العباسية الاولى . سنة (١٩٧٧) ، صفحة ١٣٤ .
- ١٤٨- ياقوت ٧٨٢/٢ .
- ١٤٩- الخطيب ٨٢/١
- ١٥٠- الطبري ٤٨٢/٣
- ١٥١- المصدر السابق ٤٩٤/٣
- ١٥٢- الدكتور صالح احمد العلي ، « منازل الخلفاء وقصورهم في بغداد » سومر ، المجلد ٣٢ سنة ١٩٧٦ ، صفحات ١٨١-١٨٢ .
- ١٥٣- الطبري ٤٩٤/٣ .
- ١٥٤- الطبري ٩٣٨/٣

- ١٥٥- الدكتور صالح أحمد العلي « منازل الخلفاء وقصورهم في بغداد » سومر ، المجلد ٣٢ سنة ١٩٧٦ ، صفحة ١٨٥-١٨٦ .
- ١٥٦- البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ١٩٦ .
- ١٥٧- الطبري ٥٠٢/٣ .
- ١٥٨- الطبري ٥٦٩/٣ ، الخطيب ٦٨/١ .
- ١٥٩- الدكتور صالح أحمد العلي ، نفس المصدر ، صفحة ١٨٤ .
- ١٦٠- الطبري ١٠٣٨/٣ .
- ١٦١- الخطيب ٩٨/١ .
- ١٦٢- السقط من المتن .
- ١٦٣- المصدر السابق ، صفحة ١٨٧ .
- ١٦٤- وصف سهراب خندق طاهر بكتابه صفحات ١٣١-١٣٢ ، ونقل عنه الخطيب في كتابه « تاريخ بغداد » ١١٢/١ ، وابن الجوزي في كتابه « مناقب بغداد » صفحات ١٨-١٩ .
- ١٦٥- حضارة العراق ، الفصل الرابع ، العمارة العسكرية بحث للدكتور طاهر مظفر العميد ، صفحة ٢٠٠ .
- ١٦٦- انظر سهراب صفحة ١٢٩ ، ابن سراجيون ، صفحات ٢١-٢٢ ، ياقوت ٢٥٤/٢-٢٥٥ ، خطط بغداد في العهود العباسية الاولى - يعقوب ليسنر ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ، تعليقات على الفصل السابع رقم (١) . صفحة ١٨٤ .
- ١٦٧- حضارة العراق ، الفصل الرابع ، العمارة العسكرية ، بحث للدكتور طاهر مظفر العميد ، صفحات ٢٠٠-٢٠١ .
- ١٦٨- المصدر السابق

الفصل الخامس

مدن القلاع الجبلية

الدكتور توفيق سلطان اليوزيني

بدايات تكوين المعسكرات والثغور الجبلية :

ترجع صلة عرب الجزيرة بعرب العراق والشام الى ما قبل الاسلام بقرون كثيرة حيث ان حركتها تجاوزت حدود الجزيرة وكانت ترمي قصد العراق والشام وشمال شرق افريقيا تمارس حياتها في الائتلاف فيما بينها تتأثر وتؤثر فيها وتكون بنتيجة ذلك صلة ما بين الجزيرة العربية وخارجها لان المجتمع العربي قبل الاسلام بوجه عام لم يكن مجتمعا انطوائيا ولا منغلقا على نفسه .

وكان لهذا التمازج انعكاس في الحياة اللغوية والادبية فقد كان له اثاره العميقة في القريب ما بين لهجاتها وفي تشذيب الخلافات التي كانت بينها .

فقد استطاع الاسلام ان يثبت اسس الوحدة العربية داخل الجزيرة في ظل عقيدة واحدة بتطبيق مبدأ المُواخَاة وانكار الدعوة الى العصبية القبلية وتصفية احقادها واقامة مجتمع اساسه العقيدة لا الدم ووحدة الكلمة مكان

التشتت والفرقة والمشاركة في البذل والتضحية من اجل هذه المثل والمبادئ^(١) .

وهذا يقودنا الى ابراز حقيقة تاريخية هي ان حركة التحرير التي قادها العرب كانت تهدف الى وحدة الامة والارض وتحرير الانسان من العبودية والضلال بما حمله العرب من رسالة الاسلام ، وتنتج عن ذلك مزج وصهر بين الطوابع القديمة الموجودة خارج الجزيرة والتي حملها اهل الجزيرة فاستطاعت ان تؤلف وحدة اجتماعية تتعاون وتتزوج وتختلط وتكون لها روحها وعقيدتها فهذه الظاهرة الواضحة في الحياة العربية تشكل الامة وصورتها^(٢) .

ولم تكد تمضي سنوات قليلة على ظهور الاسلام في قلب الجزيرة العربية حتى حرر العرب حصن بصرى العربي (البتراء) الذي كان خاضعا للبيزنطيين وكان تحرير ذلك الحصن كما يقول كيبون (حادثا تافها لو لم يكن مقدمة لثورة عظمى)^(٣) وكانت انتصارات العرب الحربية تبعث على الدهشة ففي سنة ١٤ هـ / ٩٣٥ م سقطت دمشق وفي سنة ١٥ هـ / ٩٣٧ م سلمت بيت المقدس وعادت فلسطين ولاية عربية وفي الوقت ذاته انتهت الدولة الساسانية وحرر العراق وفتحت بلاد فارس وفي سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م حرر العرب الاسكندرية وبعد ذلك بسنوات قلائل تقدم العرب على سواحل الوطن العربي في شمال افريقيا ولم تحل سنة ٢٩ هـ / ٦٥٠ م حتى كانت بلاد الشام والقسم الشرقي من اسيا الصغرى والعراق وفلسطين ومصر وجزء من الولايات في المغرب العربي قد تحررت نهائيا ، وعند نهاية القرن السابع الميلادي حرر العرب شمال افريقيا كله وبدأوا عند مطلع القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي فتحهم لشبه جزيرة ايبيريا^(٤) . واسسوا دولة العرب في الاندلس .

لقد كانت حركة تحرير الشعوب الخاضعة للنفوذ الساساني والبيزنطي حدثا خطيرا في مجرى التاريخ فقد قضت حركة التحرير العربي على الدولة

الساسانية وهزت القوة البيزنطية وحسرت نفوذها وبقيت على التخوم العربية تشكل العدو للدود للعرب وللإسلام .

ان تأمين حدود الوطن العربي الشمالية المجاورة للدولة البيزنطية استدعى السيطرة على تخومها من الشمال، والشمال الشرقي وفي ظل هذه الاستراتيجية اقتضى الموقف العسكري ان تؤمن الشام والجزيرة ومصر فقام الخليفة عمر بين الخطاب وقواده بتأسيس قواعد عسكرية في مناطق الحدود واعادوا بناء المدن المهجورة والخربة وبناء مدن جديدة وتحسينها وقد تحولت هذه المعسكرات والقلاع والحصون الى مراكز حضرية واقتصادية هامة بالاضافة الى مركزها العسكري .

ولقد أدى الوضع الجغرافي للوطن العربي دورا أساسيا في توزيع المعسكرات العربية المجاورة للحدود البيزنطية ، فيؤكد ابن رسته ان عمر بن الخطاب جند الشام الى اربعة اجناد وعين عليها قادته ، وزاد عليها يزيد بن معاوية قنشرين وكانت من ارض الجزيرة^(٥) .

ان الثغور والعواصم والمعسكرات والقلاع التي اوجدتها الجيوش العربية الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب كانت طلائع المدن العربية الإسلامية التي وجدت في العراق وفي غيره من اجزاء الوطن العربي ، حيث اسس العرب في خلافة امير المؤمنين عمر بن الخطاب ستة امصار^(٦) ثلاثة منها في العراق وهي البصرة والكوفة والموصل ، وفي تونس (القيروان) ، وفي العصر الأموي اسست واسط وفي العصر العباسي اسست سامراء . كما انشأت الثغور والعواصم على حدود الدولة العربية الإسلامية واصبحت هذه الامصار والثغور والعواصم قواعد عسكرية وظائفها الأساسية هي ايواء المجاهدين وعوائلهم ومراكز ادارية للمناطق التي تم فتحها وتحررها ، وحلقة وصل بين المدينة المنورة العاصمة والمناطق المفتوحة والمحرة لارسال الاوامر العسكرية والنجادات واتخاذها خطا مفتوحا يؤمن رجعتهم في حالة تعرضهم

للخطر ، كما اتخذت مراكز تموينيه للجيوش العربية الاسلامية التي تحارب في
جبهات القتال مع الاعداء (٧) .

لقد سكن العرب الثغور ومنهم الاراميون وكثروا هناك قبل الاسلام
بقرون عدة وغدت هذه المناطق ديارا لهم عرفت بأسم قبائلهم التي استقرت.
فيها مثل ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر كما وجدت فيها عناصر من السكان
المجاورين ، وكانت تلك الثغور تعرف بأسم (المسالح) ومنها المسلحة وهم
(القوم الذين يحفظون الثغور من العدو وسموا مسلحة لانهم يكونون ذوي
سلاح أو لانهم يسكنون المسلحة وهي كالنحر) (٨) .

وكان يسكن تلك المسالح جماعة من العرب واجبهم مراقبة تحركات.
الاعداء ضد بلاد العرب وتنبيه اخوانهم الذين فيها عن تقدم العدو الى داخل
الاراضي العربية ويسمى المرقب فيقول ابن منظور (والمرقب تكون فيه اقوام
يرقبون العدو لئلا يطوقهم على غفلة فإذا رأوه اعلموا اصحابهم
ليتأهبوا) (٩) .

وقد نمت اغلب هذه المعسكرات والثغور والعواصم وتوسع عمرانها
فأصبحت مدنها مأهولة بالسكان الى يومنا هذا . وتحولت الى مراكز حضارية.
بالاضافة الى مراكزها السياسية والعسكرية .

والذي يهمننا من بحثنا ، بحث الثغور والعواصم (المدن الجبلية الحدودية)
والتي اصبحت فيما بعد مدنا عامرة بالسكان ومظاهر الحضارة ، فالثغور كما
يقول ياقوت (١٠) : كل موضع قريب من ارض العدو في بطن واد او فرجة.
جبل . . . ويسمى من يسكنها ويلازمها من الناس بالمرابطين . . . وقد ورد هذا
المعنى في القرآن الكريم (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
ترهبون به عدو الله وعدوكم) (١١) . ووزد في الحديث الشريف (رباط يوم.
في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها) (١٢) . وقد حث الفقهاء على حماية
الثغور والمراقبة فيها فيذكر الماوردي : أن من واجبات الامام (تحصين الثغور .

بالبعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظهر الاعداء بقوة ينتهكون فيها محرما
ويسفكون فيها لمسلم او معاهد دما (١٣) *

وهناك خطان رئيسان من الثغور العربية الاسلامية *

الاول : الثغور الجزرية وتشمل المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية من الدولة
العربية الاسلامية تحمي منطقة الجزيرة وتشمل ملطية وزبطرة وحصن
منصور وبهسنا والحدث ومرعش والهارونية والكنية السوداء وعين
زربة *

والثاني : الثغور الشامية وهي جنوبية غربية تحمي الشام ومنها المصيصة وادنة
وطرطوس *

اما الحصون الحدودية فأطلقوا عليها في عهد عمر وعثمان بالعواصم
الواقعة بين انطاكية ومانبيدي (١٤) * ويذكر ابن خرواذبة في معرض حديثه عن
العواصم فيقول : انما سمي واحد منها عاصما لانه يعصم الثغر ويمدده في
اوقات النفير ثم ينفر اليه من اهل المدن المجاورة والقرية (١٥) *

والعواصم انشأت لتكون الخط الثاني للثغور الملاصقة للروم بقصد ان
يعتصم بها المسلمون من العدو اذا خرجوا من الثغر ويجتمع فيه المتطوعة قبل
الانطلاق للقتال (١٦) *

وقد تعرضت هذه الثغور قبل الاسلام الى غزو الروم والفرس ولم يكن
لها كيان مستقل وجاءت حركة التحرر العربي للعراق والجزيرة والشام الى
تنحية الجيوش البيزنطية عن مواقعها في هذه الثغور وقد تهيأ للثغور الجزرية
بحكم موقعها الجغرافي المتوسط وكونها معبرا بين العراق والشام والدولة
البيزنطية وارمنيا واذريجان ان تكون ذات اهمية خاصة بين اقاليم الدولة
العربية الاسلامية (١٧) *

فقد اتبع معاوية بن ابي سفيان في ولايته وخلافته للشام اسلوب اسكان
القبائل الضاربة في شمال العراق في جهات بعيدة عن المدن والمعرضة للغزو
البيزنطي ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون وخصص لها حاميات
دائمة (١٨) .

فقد لقيت هذه الثغور والحصون والقلاع عناية فائقة من الخليفة عمر بن
الخطاب وعثمان بن عفان فكتب عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة بن الجراح
يقول (ان رتب بانطاكية جماعة من المسلمين اهل ثبات وحسبة واجعلهم بها
مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء ، ثم ان عثمان كتب اليه يأمره ان يلزمها قوما
وان يقطع القطائع وشحنها بالمقاتلة واسكنها قوما من العرب) (١٩) .

وأهتم الخلفاء الامويون والعباسيون ببناء الثغور والعواصم والحصون
والقلاع فقد بنى عبدالله بن عبدالمملك المصيصة سنة ٨٤ هـ ، وبنى هشام بن
عبدالمملك الربط وحصن الثقب وقطر عاش ويونا وبفراس ، وعمر العباس بن
الوليد مرغش وحصنها ونقل اليها الناس ، وبنى مروان بن محمد الحصون
في الاطراف الشمالية والشرقية للدولة الاموية (٢٠) .

وبلغ من اهتمام العباسيين بالثغور انهم كانوا يولونها الى ابنائهم واخوتهم
واقرب المقربين اليهم ، ففي خلافة ابي العباس ولي اخاه المنصور الجزيرة
والموصل وارمينيا واذريجان (٢١) .

وتابع المنصور والمهدي تحصين المصيصة واعاد بناء سورها سنة ١٤٠ هـ
وسماها المعمورة واعاد المهدي بناء وتحصين طرطوس والحدث سنة
١٦٣ هـ (٢٢) .

وفي خلافة الرشيد أمر هرثمة بن اعين ببناء طرطوس سنة ١٧١ هـ وبنى
فوقها الابراج العظيمة ، وبنى الرشيد عين زربة سنة ١٨٠ هـ ، كما بنى
الهارونية سنة ١٨٢ هـ وبنى حصن الكنية السوداء وشحنها جميعا بالمقاتلة.

والمتطوعة (٢٣) . وكان الخلفاء الامويون والعباسيون يزودون اهل الثغور بما يحتاجون اليه من النفقات والكسوة ويرتب لهم الاطباء والجراحين وما يحتاجون اليه من الادوية والاشربة والذخائر (٢٤) .
وكانوا يزيدون في عطاء الجند اضافة الى اعتماد مرتبات الجند بالاضافة الى ماكانوا يقطعون للجند من المزارع لتشجيع المرابطين على ما يواجهونه من مخاطر (٢٥) .

واتخذت هذه الثغور والقلاع على الحدود بوجه عام كمراكز للدفاع عن الدولة وقد تكون قواعد ينطلق منها الهجوم اذا لزم الامر وهذه الحدود قد تكون حدودا طبيعية بحرا او جبلا او صحراء او قد تكون حدودا صناعية باقامة حواجز او اسوار او حوائط او قلاع وحصون ، ولسلامة الحدود يقتضي وضع حاميات منظمة مستقرة عليها وانشاء نقاط او مراكز عسكرية تقوم بمهمة الحماية والتنبيه والمراقبة ، وهذه النقاط غالبا ماتكون على شكل قلاع وحصون او مدن حربية حدودية .

وفي احيان كثيرة استخدمت هذه المراكز الحدودية العسكرية لاعداد الحملات التأديبية ضد القبائل في المناطق الجبلية والوعرة لحماية المدن القريبة من غزواتهم ونهبهم لها .

ويبدو أن القلاع والحصون والتي اصبحت فيما بعد مدنا آهلة بالسكان كانت تستخدم بشكل اوسع في حماية الحدود من الغزوات الاجنبية ولضرب حركات القبائل الخارجة على سلطة الدولة كانت قلعة العمادية مثالا لهذه القلاع والمدن الجبلية التي قامت بهذين الدورين .

وقامت المدن والقلاع الحدودية بدور حضاري وثقافي مهم ولاسيما في مجال تبادل الافكار والآراء والمعارف ، وفي مجال الحياة الاجتماعية من قيم وتقاليد وعادات ومثل اجتماعية بالاضافة الى دورها في الحياة الدينية واللغوية

والادبية ، كما اصبحت هذه الثغور مراكز للمتطوعين من الزهاد والصوفية واستقروا فيها حباً في الاستشهاد في سبيل الله ، فأقاموا الرباطات للنساء والرجال وهي اماكن للعبادة حيث يربط فيها^(٢٦) ، وكانت الربط مأوى يلجأ اليها الرحالون وطلاب العلم^(٢٧) .

كانت اغلب الثغور قلاعاً جبلية والتي كانت تقع على حافات الممرات الطبيعية الممتدة من الفتحات والثغرات التي تتخلل مناطق الهضاب وقد تقع على تقاطع الطرق القديمة مما اصبحت اغلبها مدناً عامرة بالعمران والحضارة .

وقامت بعض مدن القلاع بدور مهم في الحياة السياسية بفضل موقعها وحصانتها وقد اتخذ قسم منها معقل للتأثرين والمتشردين على الدولة خاصة في العصر العباسي لاسيما في فترة ضعف الخلافة وتسلبت العناصر الاجنبية والطامعة على مقاليد المؤسسات الادارية والعسكرية في الدولة من سلاجقة وatabكة وغيرهم .

فقد شهدت الموصل والجزيرة والشام عدداً كبيراً من المدن والقلاع الجبلية المنفرقة التي استأثر بحكم كل منها امير شبه مستقل والتي كانت تتميز عن الامارات المحلية بكون صاحبها لم يكن يملك الاحكام المدينة وحدها وما يحيط بها احياناً من اراض محدودة ، وكان حكام هذه المدن عرضة للتبديل والتغيير بين حين وآخر بمجرد ظهور امير طامع قوي تتيح له امكاناته العسكرية اكتساح اولئك الحكام^(٢٨) .

وكنتيجة للاضطرابات التي حلت بالدولة العباسية والخطر الصليبي على بلاد الشام والجزيرة وظهر امراء طامعين في بعض مدن وقلاع الثغور ولموقف عماد الدين الزنكي المشرف من الخليفة عندما كان يتولى شحنة بغداد ولما له من خدمات للخلافة العباسية فقد ولاه الخليفة ولاية الموصل سنة ٥٢١ هـ - ١١٢٧ م ، وبدأ زنكي بتنظيم ادارة الموصل خاصة وانه وجد البلاد مقسمة بين امراء الاطراف ورؤساء العشائر ، وكل واحد منهم قد استأثر

بولايته ولا يهه من امر البلاد سوى جمع ما يقدر على جمعه ومن أي طريق كان (٢٩) .

وقد حاول زنكي توحيد المنطقة بضم هذه المدن والقلاع الجبلية لضعفها وتفرقها وضيق مساحتها ، كما بنى بعض الحصون والقلاع في شمال الموصل لاتخاذها حصونا في مواجهة حركات العشائر المعادية في الشمال (٣٠) .

فبدأ بأمرء الاطراف وأخذ يصانع بعضهم ويستولي على قلاع وحصون بعضهم الآخر حتى استولى على مدن كثيرة فاستولى على جزيرة ابن عمر ، ونصيبين وسنجار وحران ثم سار جيشا الى الشمال والشرق من الموصل فاستولى سنة ٥٢٨ هـ على قلاع الاكراد الحميدية (العقر وشوش) كما استولى على قلاع الاكراد الهكارية في نفس السنة ونازل الروم وأخذ منهم قلعة بارين سنة ٥٣٤ هـ وكسر شوكة الصليبيين (٣١) .

حيث كانت المناطق الجبلية المحيطة بالموصل من جهاتها الشمالية والشمالية الشرقية ذات اهمية بالغة بالنسبة لولاية الموصل ولضمان أمنها وازدهارها وامكاناتها الاقتصادية فضلا عن الاخطار التي يمكن ان تنشأ عن عدم سيطرة زنكي على القبائل القوية المنتشرة في تلك المناطق ، الامر الذي حتم عليه مد نفوذه اليها كي يضمن لولاية الموصل خطوطا دفاعية طبيعية تحمي ظهره في حالة انهماكه بحروبه ومشاكله بعيدا في الشام أو الجزيرة (٣٢) . فبنى مدينة جبلية في المنطقة اتخذها حصنا ومركزا دفاعيا لمواجهة الحركات المناوئة له . فأنشأ مدينة العمادية بعد ان استولى على قلعة (آشب) والتي تعد من اكبر حصون الاكراد الهكارية واكثرها مناعة وتقع ضمن منطقة العمادية حيث كانت تنتشر عدة قرى زراعية ، وقد استطاع زنكي الاستيلاء عليها وعلى الحصون والقلاع الحميدية المجاورة وعلى قلاع عشائر الهيكارية لانها تهدد أمن الموصل العسكري اذ كانوا قد انتشروا وكثر فسادهم وازدادت قلاعهم واقتقد الامن عبر طرق المواصلات (٣٣) .

فقام عماد الدين زنكي بتخريب قلعت آشب لكي لا تكون مركزاً دفاعياً قد يستغل في المستقبل ضد مصالحه في المنطقة^(٣٤) .

ثم مالبث زنكي ان اصدر اوامره ببناء قلعة العمادية على اطلال حصن قديم مخرب وذلك سنة ٥٣٧ هـ - ١١٤٢ م . ويذكر ياقوت في معرض حديثه عن نشأة العمادية فيقول : وكانت حصناً للاكراذ فلكبره خربوه فأعادهم زنكي وسماه بأسمه وكان اسم الحصن الاول (آشب)^(٣٥) ويظن بعض من الباحثين ان العمادية لم تقم على انقاض قلعة (آشب) لان خرائبها لا تزال باقية للعيان ويسميها اهل تلك الجهات بـ (آشورا) وهي في سلسلة جبال كارا قريية من العمادية^(٣٦) .

وكان عماد الدين زنكي قد فتحها وخربها سنة ٥٣٧ هـ^(٣٧) . وقد اخطأ القزويني حين قال ان مجدد العمادية عماد الدولة الديلمي (ت ٣٣٨ هـ) لانفراده بالرواية ولمخالفته ما رواه البلدانيون والمؤرخون العرب الذين اكدوا ان مجدد العمادية كان عماد الدين زنكي^(٣٨) .

وللعمادية تاريخ طويل حافل بالاحداث التاريخية الهامة لانها تمثل اهم مدن القلاع الجبلية فقد ورد ذكرها بأسم (آمات) في المخطوطات الاشورية ، ولعل اقدم ذكر لها في سجلات اخبار الملك الاشوري (شمش أدد الخامس) ٨٢٣ - ٨٢٠ ق م الذي خلف اباه شلمنصر الثالث ، وقد ذكرها من جملة المدن التي فتحها اخوه (اشور - داتن - آيلي) في حياة ابيه ، اما محل ورودها فإنه في مسلة (شمش أدد) التي وجدت في القصر الجنوبي الغربي في النمرود ، وذكرها الملك الاشوري (ادد نراري الثالث) ٨٠٥ - ٧٨٢ ق م ابن شمش أدد الخامس في مسلته الموجودة حالياً في متحف اسطنبول وبقيت (آمات) مدينة حتى العصر البابلي الحديث (الكلداني)^(٣٩) .

ومن المرجح ان تكون آمات أو (آمادي - آمالتي هو) الحصن الذي بنيت العمادية على اطلاله استناداً الى الدلائل الاثرية حيث يوجد في العمادية

حاليا بابان قديمان احدهما شرقي ويسمى (ده ركهي زيباري) والاخر غربي ويسمى (ده ركهي سه قافا) وتوجد عليه صورة حارسين مسلمين بينهما حيوان لا يوجد له شبيه حي وغيرها من نقوش غير اسلامية ، كما توجد بالقرب منه صورة رجل منحوتة في الصخرة التي بنيت القلعة عليها مما يشير الى ان اطلال البناية تعود الى ما قبل الاسلام^(٤٠) .

وقد اخطأ بعض الباحثين المحدثين في محاولة لايجاد علاقة لغوية بين كلمتي (آمات) و (العمادية) والقول بأن العمادية ليست سوى تعريب لكلمة (آمات)^(٤١) ، حتى ان احدهم ذهب الى التأكيد بأن عماد الدين زنكي لم يتم ببناء العمادية اساسا وان اسم القلعة الحالي (العمادية) ليست سوى تعريب آمات القديمة^(٤٢) ، في حين لم تذكرها المصادر الاسلامية .

وتاريخ العمادية يرجع الى عهود قديمة جدا فيروي صاحب الاخبار^(٤٣) الطوال (ان سفينة نوح « ع » استقرت على رأس جبل الجودي الواقع في منطقة حكاري) .

كما عثر فيها على كهف شاندر الذي وجد فيه بقايا انسان النياندرتال الذي عاش قبل اكثر من خمسين ألف عام^(٤٤) ، وعثر فيها ايضا على (مسلة كيله شين) في جبال برادوست وعليها كتابة بالخط المسماري وباللغة الاشورية يعود تاريخها الى القرن الثامن قبل الميلاد^(٤٥) .

ولدى المتحف العراقي منحوتة تمثل مشاهد ثلاثة بالنحت البارز في موضع (كندك) احدها داخل الكهف واثنان خارجه ، ويرى الباحثون انها تعود الى الالف الثالث قبل الميلاد^(٤٦) .

وقد تعاقب على المنطقة الكويتيون ، الكاشيون ، الخلديون ، الميديون ، الاشوريون ، الفرس ، اليونان ، الارمن ، الرومان ، الاشكائيون ، البابكيون ، واخيرا المسلمون^(٤٧) .

ومن الآثار التي عثر عليها في العمادية تمثال صخري يمثل محارباً من العصر الفرثي يعود تاريخه الى حدود القرن الاول للميلاد على طول الدرج المؤدي الى باب العمادية المسمى (باب الموصل) ، وكذلك المعبد القديم الواقع في الجهة الجنوبية فوق القلعة ويعتقد انه من آثار الفرثيين أو الساسانيين^(٤٨) .

واصبحت منطقة العمادية ضمن الدولة العربية الاسلامية فقد فتحها قائد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) عياض بن غنم سنة ١٨ هـ عندما وجهه لفتح الجزيرة وديار مضر وبكر ومدنها (حران والرها ورأس العين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وجبال هكاري واديان)^(٤٩) (منطقة العمادية) .

لم تحدد المصادر الغرض السياسي الذي استهدفه زنكي في اقامة قلعة العمادية واغلب الظن انه اعتمد اتخاذها قاعدة عسكرية للدفاع والتموين في حالات التمرد التي قد تقوم بها القبائل ضد ممتلكاته هناك ، ونقطة انطلاق لتوسيع نفوذه في المنطقة^(٥٠) ولادخال الرعب في قلوب اصحاب القلاع الاخرى في المناطق المجاورة . وقد تمكن بذلك من تأمين احدى الجهات الهامة لمارته ، بعد ان كانت تشكل نقاط خطر عليه ، وجعلها تستند الى خطوط دفاعية يصعب اختراقها تحقيقاً لخطته في بناء السياج الذي صمم على بنائه .

وفي سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨ م حاصر بدر لؤلؤ قلعة العمادية وكان فيها عماد الدين زنكي فارتد عنها خائباً لمناعتها وكثرة الثلوج في تلك البقاع^(٥١) ، واعاد بدر الدين لؤلؤ محاولته للسيطرة على العمادية فأصبحت من املاكه عام ٦٢٢ هـ - ١٢٢٥ م وانقطعت اخبارها منذ هذا التاريخ^(٥٢) حتى عام ٧٤٠ هـ - ١٣٣٩ م حين ظهور الملك خليل العباسي مؤسس الامارة البهدينائية^(٥٣) .

وكانت امارة بهدينان مقصورة في اول عهدها على (العمادية) واطرافها غير انها اتسعت شيئا فشيئا حتى شملت المنطقة بين آسيا الصغرى شمالا والى الموصل جنوبا وبين (كيله شين) على الحدود الايرانية شرقا حتى منطقة زاخون والسند وشيروان غربا(٥٤) .

بقيت العمادية احدى الحصون والقلاع الاسلامية حتى احتلال المغول لبغداد سنة ٦٥٦ هـ - ١٤٥٨ م حيث دخلت في حكم دويلات مختلفة الى سنة ٧٠٤ هـ - ١٣٣٩ م عندما عاد الحكم العباسي ثانية حين خضعت لحكم احد احفاد الخليفة الاخير المستعصم العباسي ودام حكمهم فيها اكثر من خمسة قرون حتى سنة ١٢٥٨ هـ - ١٨٤٢ م حين سقطت امارتهم على عهد اخر الامراء العباسيين اسماعيل باشا العباسي وكانت تسمى آنذاك بأمارة البهدينانيين العباسيين المنحدرين من جدهم الاكبر العباس(٥٥) عم النبي (ص)، فبعد احتلال هولاءكو بغداد وقتل اخر خليفة عباسي تفرق العباسيون واولادهم في البلاد فلجأ بعضهم الى مصر وهناك اعلنت لهم الخلافة الاسلامية بكنف ممالك الاثراك بمصر بعد ان انقطعت مدة ثلاث سنين ونصف ، ومنهم انتقلت الخلافة الى بني عثمان سنة ٩٢٢ هـ - ١٥١٦ م حين اتزعها منهم السلطان سليم الاول العثماني(٥٦) .

ومن اولاد العباسيين التجأ الى المناطق الجبلية المنيعه في شمال العراق فخص بالذكر (جولرك) و (العمادية) و (نهري) وقد كون العباسيون في شمال العراق ثلاث امارات عباسية وهي :-

- ١ - الهكارية ومركزها جولرك
- ٢ - الشمدينائية ومركزها نهري
- ٣ - البهدينائية ومركزها العنادية اسسها احفاد المبارك بن المستعصم العباسي(٥٧) .

وتوالى العديد من الامراء على حكم العمادية واستطاع الامير حسن في توسيع حدود امارته فأضاف اليها دهوك والشيخان والسليفاني وزاخو والسندي ولما وقعت المعركة بين السلطان سليم العثماني والشاه واسماعيل الصفوي في جالديران سنة ٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م ، وقف السلطان حسن موقف الحياد حتى تأكد ان الغلبة للسلطان العثماني فأنضم الى جانبه فمنحه لقب السلطان وجعله رئيسا عاما لامراء الاكراد^(٥٨) .

وتوالى على حكم امارة العمادية العديد من الامراء من احفاد الاسرة العباسية ابرزهم الملك خليل بن عز الدين بن محمد بن مبارك بن المستعصم بالله العباسي ، وبهاء الدين بن خليل وتابعه اخوته زين الدين وعزالدين واحفادهم ، وفي ولاية الامير حسن استولى على عقر شوش ووسع بذلك حدود امارته كما اشتهر بحبه للعلم والعلماء وأسس المدارس والمساجد وخصص لها الاوقاف^(٥٩) . وفي عهده حاول امراء (الاق قويونلو) الخروف الاسود في سنة ٨٧٥ هـ - ١٤٧٠ م ، احتلال العمادية واخضاعها لامرائهم وحاصروها مدة ثلاثة اشهر الا ان هذه القوات هوجمت من قبل عشائر الزيارية والبروارية فقتل من قتل وانسحب الباقون ، واستطاع الامير حسن من استئصال شأفة امراء الاق قويونلو^(٦٠) . وبعدها اخذ يوسع نفوذه فاستولى على عدة مناطق منها داسن ، دهوك ، الشيخان ، السليفاني ، زاخو ، ليفي والسندي^(٦١) .

توفي الامير حسن سنة ٩٤٠ هـ - ١٥٣٤ م عن سبعة بنين وكان اولهم ابرزهم واكفأ اخوته الامير حسين فكان عالما فقيها وسياسيا بارزا نال المكانة اللائقة لدى الباب العالي ، وقام بسلسلة اصلاحات في العمادية من بناء المدارس والمساجد وتعبيد الطرق وبناء الخانات^(٦٢) .

وفي سنة ٩٦٠ هـ - ١٥٥٣ م حارب مع العثمانيين ضد الايرانيين واحتل تبريز واذربيجان^(٦٣) ، ووزع اخوته حكاما على زاخو ودهوك والعقر وشيخو

ويزوة^(٦٤) . وبعد وفاة الامير حسين سنة ٩٨٤ هـ - ١٥٧٦ م تعاقب اولاده
الخمسـة واحفادهم على امارـة العـمادـية .

وقد تميزت الفترة الواقعة بين ٩٨٤ هـ - ١٢٨٢ هـ - ١٥٧٦ - ١٨٦٥ م
بالصراعات الطويلة بين القبائل في المنطقة ، ومحاولة امراء العمادية استتباب
الامن بالقضاء على اطماع رؤساء العشائر المجاورة ، هذا في السياسة الداخلية
اما السياسة الخارجية فقد حرص الامراء المتأخرون على تحسين وتمتين
علاقاتهم بالسلطان العثماني عدا بعض الفترات التي كانت الدولة العثمانية
لا ترضى عن بعض حكامها فتوعز الى والي الموصل او بغداد للقضاء
عليه وتنصيب بديل عنه احد افراد الاسرة او الى عقد الصلح بينهم وتقديم
الاثاوة للسلطان العثماني واستمر الحال حتى سنة ١٢٥٨ هـ التي دخلت فيها
الجيوش العثمانية الى العمادية والحقت العمادية والعقر بولاية الموصل^(٦٥) .

وبالاضافة الى ما امتازت به مدن القلاع الجبلية وخاصة العمادية من
مراكز حصينة اتخذت كقلاع وثغور لحماية حدود الدولة العربية الاسلامية في
العصر العباسي من غارات البيزنطيين ، ولضرب حركات القبائل المناوئة للدولة
في شمال الموصل ، فقد نشأت في العمادية وما يجاورها من المدن والقرى التكايا
والمدارس الدينية والتي استقر فيها العلماء ومشايخ الصوفية واصحاب
الطرق يمارسون فيها الزهد والعبادة وتعليم العلوم الدينية ومن ابرز
التكايا التي ظهرت في العمادية تكية ديرش انشأت في القرن الخامس الهجري
انشأها شيخ الاسلام ابو الحسن علي بن احمد بن عرفه الحكاري وهو من
ولد عتبة بن ابي سفيان سنة ٤٠٩ هـ - ١٠١٩ م ، وتكية العمادية اسسها الملك
خليل العباسي حوالي العقد الثالث من القرن الثامن للهجرة ، وتكية الشيخ
جانكير البهدينان وغيرها من التكايا^(٦٦) .

وكان لامراء العمادية اهتمام كبير بأثناء المدارس الدينية وتشجيع
العلم وتقريب العلماء والصوفية والادباء ، واخذ طلاب العلم يتلقون العلوم

الدينية خاصة في التكايا والجوامع والمدارس ، ومن اهم المدارس مدرسة سيدي خان اسستها الاميرة زاهدة العباسي (ت ٧٢٩ هـ - ١٣٢٨ م) وجعلت فيها خزانة كتب (٦٧) . ومدرسة الامام قاسم في العبادية انشأها الامير غياث الدين قاسم سنة ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م وجعل فيها خزانة كتب (٦٨) . ومدرسة قبهان (قباد) يرجع تاريخها الى ما قبل القرن التاسع الهجري جدها السلطان حسين ولي وسماها بأسم ولده قباد واصبحت من الوقف القادري (٦٩) .

وكانت هذه التكايا والمدارس تدرس العلوم الدينية وظهرت طرائق الصوفية لدى علماء الدين واهمها القادرية والرفاعية والاحمدية والبرهامية (٧٠) . مما كان لهم دورهم الكبير في ازدهار الحركة العلمية والاداب والفنون وساعد ذلك على تأليف الكتب في مختلف العلوم العقلية والنقلية . وقد ظهر هؤلاء العلماء والمشايخ بمكانة رفيعة لدى امراء الاسرة العباسية والناس في العبادية لمنزلتهم الدينية والعلمية وبالاخص مشايخ الطريقتين القادرية والنقشبندية الذين احرزوا نفوذا كبيرا في هذه المنطقة مما اصبح لهم بمرور الزمن السلطان الروحية والزمنية وبلغ احترام الناس لهؤلاء الشيوخ والعلماء درجة الخضوع المطلق (٧١) .

ان تمسك اهل العبادية وما حولها من المدن والقرى بالحكم العربي العباسي يأتي من حبهم الكبير لاهل بيت الرسول (ص) المنبثق عن تمسكهم الشديد بالدين الاسلامي وقوة ايمانهم جعلهم يفضلون حكم الاسرة العباسية على رؤسائهم ويفرضون طاعة هذه الاسرة على انفسهم ويفدون بها بالارواح والمال ارضاء لله ورسوله (٧٢) .

وبقيت امارة العبادية جزءا من الوطن العربي الذي خضع للدولة العثمانية قرابة خمسة قرون حتى قيام الحكم الوطني في العراق حيث قضى على نفوذ الامراء فيها واصبحت احد اقضية العراق المهمة في الدولة العراقية .

الهوامش

- (١) شكري فيصل ، المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري ، ص ٢٨ ، وما بعدها ، دار العلم - بيروت - ١٩٧٣ .
- (٢) نفس المصدر السابق ص ٣٥ .
- (٣)
- (٤) نورما بيتر : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦١ .
- (٥) ابن رسته : الاعلاق النفسية ، ص ١٠٥ .
- (٦) ناجي معروف : عروبة المدن الاسلامية ، ص ٧ .
- (٧) الموسوي : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية ، ص ٦٤ .
- (٨) ابن منظور : لسان العرب (مادة مسلح) .
- (٩) نفس المصدر السابق .
- (١٠) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٦ ، ابن منظور : لسان العرب ج ٥ ، ص ١٧١ .
- (١١) سورة الانفال ، آية ٦ .
- (١٢) البخاري : صحيح البخاري ج ٤ ، ص ٤٣ .
- (١٣) الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ١٣ .
- (١٤) دائرة المعارف الاسلامية (مادة العواصم) ، ج ١ ، ص ٧٦١ .
- (١٥) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٢٥٣ .
- (١٦) عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الاول ، ص ١٧٥ .
- (١٧) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ١ ، ص ١٤٢ .
- (١٨) العدوي : الامويون والبيزنطيون ، ص ١٠٣ .
- (١٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٤ و ص ١٥٦ .
- (٢٠) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .
- (٢١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٣ ، ص ٨٠ ، دار الفكر - بيروت ١٩٥٦ .
- (٢٢) اليعقوبي : تاريخ ، ج ٣ ، ص ١٠٨ .

- (٢٣) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .
- (٢٤) الحسن بن عبدالله : اثار الاول في ترتيب الدول ، ص ١٦٦ .
- (٢٥) شعيرة : المرابطون في الثغور العربية الرومية (بحث في كتابة الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) .
- (٢٦) ديمويين : النظم الاسلامية ، ص ١٥٩ .
- (٢٧) عبدالله عبدالدائم : التربية عبر التاريخ ، ص ١٦١ .
- (٢٨) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ، ص ٦٩ .
- (٢٩) سعيد ديوهجي : الاتابكة - ص ٢٠ - ٢١ .
- (٣٠) عماد الدين زنكي - ص ٦٩ .
- (٣١) سعيد الديوهجي : الاتابكة - ص ٢٣ .
- (٣٢) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي - ص ١٠١ .
- (٣٣) المصدر السابق - ص ١٠٦ .
- (٣٤) ابن الاثير الباهر - ص ٦٤ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص ١٩٠ .
- (٣٥) ياقوت : معجم البلدان - ج ٦ - ص ٢١٤ .
- (٣٦) العمري : منية الادباء - ص ٢١٨ .
- (٣٧) ابن واصل : فرج الكروب ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٥ .
- (٣٨) ياقوت : معجم البلدان - ج ٦ - ص ٢١٤ .
- (٣٩) طه باقر : العراق في القرن السابع عشر - ص ١٦٦ .
- (٤٠) انور المائي : الاكراد في بهديناني - ص ٥ .
- (٤١) محمد امين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان - ص ١٥٤ .
- (٤٢) انور المائي : الاكراد في بهدينان - ص ٥ - ٧ .
- (٤٣) الدنيوري : الاخبار الطوال - ص ٢ .
- (٤٤) مجلة سومر ، المجلد ٨ - سنة ١٩٥٢ .
- (٤٥) نفس المصدر السابق .
- (٤٦) لابارد : نينوى ، بابل - ص ٣٦٩ .
- (٤٧) الطبري : تاريخ ، ج ١٠ ، ص ٥٢ - ٥٣ .
- (٤٨) محفوظ : امارة البهدينانية ص ٢٤ .
- (٤٩) ابو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٧٥ - باريس - ١٩٨٤ م .
- (٥٠) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي - ص ١١٠ .
- (٥١) ابن الاثير : الكامل - ج ١٢ - ص ١٢٩ .
- (٥٢) محفوظ : امارة بهدينان العباسية - ص ١٧ .

- (٥٣) البهدينانية : سمت العمادية باسم البهدينانية اشتقاقا من اسم امرأه
(البهانديتين الذين حكموها بضعة عصور وهم ينتمون الى جدهم بهاء
الدين من نسل العباسيين) - محفوظ : اماره بهدينان العباسية - ص ٩ .
- (٥٤) محفوظ : اماره بهدينان - ص ١٠ .
- (٥٥) العمري : منهل الاولياء - ص ١١-١٣ - دائرة المعارف الاسلامية ج ١ -
ص ٣٢٨ ، السهروردي : الايناس في تراجم احفاد العباس - ج ١ - ص
١١٦ .
- (٥٦) امرة بهدينان - ص ٢٧ .
- (٥٧) محفوظ : اماره بهدينان - ص ٢٧ - نقلا من المخطوطة الميوكية للباليسالي .
- (٥٨) محفوظ : اماره بهدينان - ص ١٦ .
- (٥٩) محفوظ : اماره البهدينانية - ص ٥٠ .
- (٦٠) محمد امين زكي : خلاصة الكرد وكردستان ، ج ١ ، ص ١٧٦ .
- (٦١) البدليسي : الشرفنامه ، ص ١٤٠ .
- (٦٢) البدليسي : الشرفنامه ، ص ١٤١ .
- (٦٣) المصدر السابق ، حاشية ص ١٤٢ .
- (٦٤) المائي : الاكراد في بهدينان ، ص ١٣٠ .
- (٦٥) سليمان الصائغ : تاريخ الموصل ، ج ١ ، ص ٣١٠ ، العزاوي : تاريخ
العراق بين احتلالين ، ج ٤ ، ص ٢٥٣ .
- (٦٦) محفوظ : اماره بهدينان العباسية ، ص ١٤١ .
- (٦٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ٢ ، ص ١٥١ .
- (٦٨) داود الجلبلي : مخطوطات الموصل ، ص ٢٥٠ .
- (٦٩) المصدر السابق ص ٢٥٣ .
- (٧٠) علي باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ١٢٩ .
- (٧١) محفوظ : الامارة العباسية ، ص ١٩٦ .
- (٧٢) المصدر السابق : ص ١٢٢ .

المصادر والمراجع

- ابن الاثير : عز الدين
١ — الكامل في التاريخ
دار الطباعة — القاهرة ١٢٩٠هـ
٢ — التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية
دار الكتب الحديثة — القاهرة ١٩٦٣م
— ابن بطوطة : محمد بن عبدالله (ت ٧٧٧هـ)
٣ — رحلة بن بطوطة
القاهرة — ١٩٣٨م
— ابن الجوزي : سبط
٤ — مرآة الزمان في تاريخ الاعيان
دائرة المعارف العثمانية — حيدر آباد الدكن — الهند — ١٣٧٠هـ
— ابن خرداذبة : ابي القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ)
٥ — المسالك والممالك
طبعة بريل — ١٨٨٩م
— ابن رسته :
٦ — الاملاق النفسية
طبع ليدن
— ابن منظور :
٧ — لسان العرب
باعتناء مرجليوث
— ابن واصل : جمال الدين محمد
٨ — مفرج الكروب في اخبار بني ايوب
طبع جامعة فؤاد الاول — القاهرة ١٢٩٠هـ

- البخاري :
٩ - صحيح البخاري
القاهرة ، ١٣١٣هـ
- البديسي : الامير شرفخان
١٠ - الشرفنامه
بغداد - ١٣٧٢هـ
عرب عن الفارسية ملا جميل بندي
- البلاذري : احمد بن يحيى بن جاسم (ت ٤٧٩هـ)
١١ - فتوح البلدان
نشر صلاح المنجد ومكتبة النهضة العربية
- بينز : نورمان
١٢ - الامبراطورية البيزنطية
الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة
- خليل : عماد الدين
١٣ - عماد الدين زنكي
الدار العلمية - بيروت ١٩٧١م
- ١٤ - دائرة المعارف الاسلامية (مادة العواصم)
- الدينوري : عبدالله بن مسلم بن قتيبة
١٥ - الاخبار الطوال
طبع مصر - ١٣٣٠هـ
- ديمويين : موريس غود فورا
١٦ - النظم الاسلامية
مطبعة الزهراء - بغداد - ١٩٥٢م
- الديوهجي : سعيد
١٧ - الموصل في العهد الاتابكي
مطبعة شفيق - بغداد - ١٩٥٨م
- زكي : محمد امين
١٨ - خلاصة تاريخ الكرد وكردستان بغداد ١٩٤٥م

- شعيرة : عبدالهادي
- ١٩- المراطون في الثغور الرومية
(بحث في كتاب الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين)
- الصائغ : سليمان الموصللي
- ٢٠- تاريخ الموصل
القاهرة - ١٩٢٣ م
- الطبري : ابن جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)
- ٢١- تاريخ الامم والملوك
طبع دار المعارف - مصر ١٩٦٠ م
- العباسي : محفوظ محمد عمر
- مطبعة الجمهورية - الموصل ١٩٦٩ م
- ٢٢- امارة بهدينان العباسية
- عبداللّهم : عبدالله
- ٢٣- التربية عبر التاريخ
دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٥ م
- عثمان : فتححي
- ٢٤- الحدود الاسلامية البيزنطية
طبع دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٧٧ م
- المسدوي : ابراهيم
- ٢٥- الامويون والبيزنطيون
مطبعة الانجلو المصرية
- العزاوي : عباس
- ٢٦- العراق بين احتلالين
بغداد - ١٩٣٥ م
- العمري : ياسين بن خير الله الخطيب
- ٢٧- منية الادباء
طبع الموصل - ١٩٥٥ م
- فيصل : شكري
- ٢٨- المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري
دار العلم - بيروت - ١٩٧٣ م

- المائسي : انور
٢٩- الاكراد في بهدينان
الموصل — ١٩٦٠ م
- ماجد : عبدالنصم
٣٠- العصر العباسي الاول
نشر مكتبة الانجلو المصرية — ١٩٧٣ م
- الماوردي : ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب
البصري (ت ٤٥٠)
٣١- الاحكام السلطانية
مطبعة البابي الحلبي — القاهرة ١٩٦٠ م
- معروف : ناجي
٣٢- عروبة المدن الاسلامية
- الموسوي : مصطفى عباس
٣٣- العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية
دار الرشيد للنشر — بغداد — ١٩٨٢ م
- ياقوت : شهاب الدين ابي عبدالله الحموي (ت ٦٢٦ هـ)
٣٤- معجم البلدان
طبع ليبزك — ١٨٦٦
- اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن وهب المعروف بابن واضح الاخباري
(ت ٢٨٤ هـ)
٣٥- تاريخ اليعقوبي
دار الفكر — بيروت — ١٩٥٦ م

الفصل السادس

الحياة الاقتصادية ونظمها في المدن

في عهد الازدهار الاسلامي

الدكتور حمدان عبدالمجيد الكبيسي

كلية الآداب – جامعة بغداد

١ - الاجراءات التي من شأنها تنشيط الحياة الاقتصادية :

ان استقرار عدد كبير من الناس في مدن معينة ينمي بينهم علاقات خاصة»
ويؤدي الى ظهور مؤسسات اقتصادية وسياسية واجتماعية وادارية تنظم
الحياة العامة فيها ، وتحقق الأمن والطمأنينة ، وتنشط النمو الاقتصادي ،
وتؤدي الى الازدهار الحضاري •

ونشأت المدن في العراق منذ عهد سحيق، وبعيد تحرير العراق من قبل
الجيوش العربية الاسلامية ، انشئت مدن جديدة لتؤدي جملة وظائف ،
سياسية ، وعسكرية ، وادارية ، واقتصادية • وكانت تمتلك مقومات مميزة.
ومتكاملة ومتجانسة ، عضويا وتخطيطا •

فمنذ عهد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رض) ، ثم تأسيس
البصرة والكوفة ، ومن ثم واسط وبغداد وسامراء • فهذه الحواضر استطاعت

أن تحتضن مركز السلطة فاستقر فيها أمير الاقليم (في البصرة والكوفة وواسط) ، أو الخليفة ، فيما يخص بغداد وسامراء . وكان لابد والحالة هذه أن يستقر في هذه المدن المقاتلة وعوائلهم ، فأصبحت قواعد للادارة ولتحرك الجيوش العربية ، فيسرت فيها الحياة المدنية ، واستتب فيها الامن والاستقرار ، فسرعان ما نمت فيها الحياة الاقتصادية والمالية واتسعت .

والملاحظ أن المدن التي نصرت في العراق ابان تحريره اشتركت في سمات عامة . لان تأسيسها سار على وفق قواعد بمقاييس وعناصر اقتضتها اعتبارات دينية ، وادارية ، واقتصادية محددة ، املتها ظروف الدولة الجديدة وايدىولوجيتها المميزة . وأن هذه السلسلة لم تأت عفويا ، وانما جاءت على وفق تخطيط مسبق . اذ نلمس في المدينة العراقية ما يمكن اعتباره تنظيما وظيفيا . فهناك مناطق خاصة للسكن ، واخرى للادارة ، وثالثة تركز فيها النشاط الاقتصادي والمالي . ففي المنطقة المركزية الرئيسة المسجد الجامع ، ودار الامارة والدواوين والسوق ، الذي هو محور الحياة الاقتصادية وعمودها الفقري . ولكن في الوقت نفسه نلمس أن العلاقة بين هذه المناطق علاقة عضوية .

والمراكز الاقتصادية ، المتمثلة بالأسواق تحتل عادة أهم شوارع المدينة واكثرها جذبا للسكان في ذهابهم وأيابهم . وهي تأخذ النمط الطولي المتشعب احيانا ، الذي يبدأ من مركز المدينة - عند المسجد الجامع - ويمتد مع المحاور الرئيسة التي تتجه نحو مداخل ، أو مخارج المدينة .

الا أن تعدد مظاهر التشابه بين المدن التي نصرت بالعراق ، لم تصل حد التطابق ، وانما وجدت بينها اختلافات محددة ، ما لبثت أن اتسعت من جراء تطور الاحوال الادارية والاقتصادية والاجتماعية في كل منها عبر الحقب

التاريخية المتعاقبة . وان هذه التطورات لم تسر على وفق وتيرة واحدة، والسما
تحكمت فيها متطلبات ادارية ، ومؤثرات اقتصادية ومالية وبيئية . وبلا ريب،
فأن استقرار اناس في هذه الامصار جعلهم أوسع اطلاعا ، وأكثر ممارسة
في حياة التحضر ، فأسهلوا في نمو النشاط الاقتصادي ضمن حدود العراق ،
ومع الاقاليم الاخرى ، وبخاصة مدينة البصرة التي اصبحت ثغر العراق
الذي يمر عبره النشاط التجاري مع جنوب وشرقي آسيا ، وجنوب وشرقي
افريقية . ومن المؤكد أن هذا النشاط كان له أثره في نمو الحياة الاقتصادية ،
وتبلور النظم المالية في العراق .

وخلال العصر الأموي ، اصبحت والي العراق مسؤولاً عن ادارة الاقاليم
الشرقية ، كما انه تولى الاشراف على حركة الفتوح في الشرق ، وتجهيز
الجيوش التي اوكلت اليها هذه المهمة . وبلا شك ، فأن هذه الحالة مكنت
مدن العراق من الاحتفاظ بمكائنها الادارية والاقتصادية حتى قيام الدولة
العباسية سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٨ م . وحينئذ أصبح العراق مركز الخلافة . وما
أن استقرت الامور حتى اقدم الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور
على انشاء بغداد ، واتخاذها عاصمة له ، وعندئذ اقبل الناس عليها من كل
مكان ، وتكاثفت فيها مساعي رجال المال والاعمال مع الدولة على انماء
المؤسسات الاقتصادية والمالية ، حيث اقيمت الاسواق والمنشآت التجارية ،
كما تضافرت الجهود والأيدي لتوسيع هذه المنشآت وزيادة عددها عندما
نشطت حركة الاسواق التجارية . (اليقوي ، البلدان، ص ٢٣٣ و ٢٥٢) .

ايقن المسؤولون أن قوة الدولة وازدهار الحياة الاقتصادية في المدن ،
تتوقف على سعادة ورفاهية المواطنين . لذا حرص كثير منهم الا يرهق الناس
بالضرائب . فتؤكد الروايات التاريخية على أن الخليفة المنصور لم يضع
على الأسواق غلة . وهكذا ظلت الاسواق معفاة من هذه الضريبة اكثر من
عشر سنوات ، وبذلك استطاعت خلال هذه الفترة أن تنتعش وتنشط قبل أن

تثقل بهذه الضريبة المحدثة التي وضعها الخليفة محمد المهدي على الاسواق عام ١٦٧ هـ / ٧٨٣ م . الا أنه سرعان ما الغيت ، وكان من جراء ذلك أن اثرت كثير من مدن العراق ، وأخذ الناس يشعرون بالرخاء ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري .

وبلا ريب ، فإن الفئة الغنية لديها قدرة شرائية كبيرة . وهي والحالة هذه سوف تمتص اكثر ما كان يعرض في اسواق المدن من سلع وحاجيات . ذلك ان حاجاتها المعاشية وزيادة دخلها ، ومتطلباتها الاجتماعية ، خلقت قوة دافعة للنشاط الاقتصادي في اسواق المدن . وفي الوقت نفسه حملت التجار على ان يضربوا في الامصار لأرضاء تلك الاحتياجات المتنوعة المتزايدة .

ولم تكن مثل هذه المظاهر الاجتماعية مقتصرة على الفئة الموسرة في المجتمع ، اذ أن عامة الناس نشطت في مجالات العمل المتعددة فحصلت على موارد مالية جيدة ، فانعكس ذلك على النشاط الاقتصادي في المدن ، لاندفاع الناس في اقتناء الاشياء للزينة والمباهاة . هذا فضلا عن التطور الحضاري الذي طرأ على حياة المجتمع في المدن الذي يمكن ربطه بالحياة الاقتصادية . وأن ما طرأ على حياة الناس في المدن من تغيير في نمط الحياة الاجتماعية والعلمية والفنية ، ليس الا نتيجة طبيعية لما طرأ عليهم من تغير اقتصادي . كما أن للموروث الحضاري أثره في هذا المجال . وندرك ذلك جليا من النظرة الفاحصة في موضوع الاشتغال بالتجارة ، وما يدر من كسب عن طريقها . ثم ان توسع المدن العراقية ، وتعدد دور الضرب ، ومهارة الذمين في التبادل النقدي ، وظهور نظام المصارف ، كل ذلك ادى الى تنشيط الحركة التجارية في المدن العراقية .

وحتى البسة الناس تعددت وتنوعت . فكان للخلفاء لباس خاص ، وكذلك حال الوزراء ، والامراء ، والقضاة ، وعامة الناس . فضلا عما في الملابس من اختلاف بين الصيف والشتاء ، وفي المناسبات العامة والدينية .

والخلاصة ، ان التغير السياسي الذي شهده المجتمع صحبه تطور حضاري سريع أدى الى نقلة المجتمع من حالة الى حالة اخرى جديدة تطلبت حياتها اليومية كثيرا من السلع التي باتت ضرورية لهذا اللون من الحياة . ومن المؤكد أن النشاط التجاري بأسواق المدن ؛ له صلة قوية بالرخاء الاقتصادي الذي يعيشه المجتمع .

وبلا شك ، فإن نشاط وازدهار الحياة الاقتصادية في مدن العراق ، كان متناسبا مع درجة تقدم الدولة التي اتخذت من هذا القطر مركزا للخلافة . ذلك أن الدولة اتخذت بعض الاجراءات التي كان من شأنها تنشيط الحياة الاقتصادية في المدن ، فقد ألغى الخليفة أبو جعفر المنصور ضريبة الحنطة والشعير التي كانت تدفع نقدا وادخل نظام المقاسمة . وكان هذا من العوامل المنشطة للإنتاج الزراعي وخطى الخليفة محمد المهدي خطوة اخرى ، اذ أنه رأى الجباة يبتزون اموال الفلاحين فمنعهم من الاشتطاط أثناء عملهم ، آخذا بنظر الاعتبار طريقة سقي الغلال الزراعية ، ومقدار الجهد المبذول ، والنفقات التي تتطلبها عملية الإنتاج مستهدفا مصلحة المواطنين .

وفي سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م خفض المأمون ضريبة الخراج فأصبح يجبي الخمسين بدلا من النصف ، وضرب بشدة على أيدي من تسببوا في احراق سوق العطارين والسيارفة والصفارين والفرائين في سنة ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م ، وترك الخليفة الواثق جباية اعشار سفن البحر عام ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م . وكان الخليفة المعتضد بالله قد اسقط ضريبة المكس . ولم يتوان بعض المسؤولين عن القيام بكل عمل من شأنه تنشيط الحياة الاقتصادية في المدن ، اذ أمر الخليفة المقتدر بالله عام ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م بهدم المنشآت التي بناها سلفه . الخليفة المكتفي بالله في رجة باب الطاق ببغداد الشرقية (الرصافة) ، لأنها كانت تلحق ضررا بصغار الباعة الذين كانوا يقعدون فيها لتجارتهم بلا أجر .

٢ - الأسواق وأهميتها :

لقد وجدت الأسواق في مدن العراق منذ عهد بعيد . وفي الأسواق ، حيث التجار والصناع ، برزت كثير من النظم والأعراف الاقتصادية والمالية ، وأن هذه الأسواق قامت في مجتمعات متحضرة كانت تتعاطى البيع والشراء . وقد تكون الأسواق مستقرة في محلات معينة على طول أيام السنة ، يرتادها من يريد أن يتزود بالسلع والمواد التي يحتاج إليها . وقد تقوم أسواق أخرى في مناطق معينة ومواسم خاصة تتفق مع طبيعة تلك المنطقة من الناحية المناخية والدينية والاجتماعية والاقتصادية . وهذه الأسواق تدعى « الأسواق الموسمية » التي لها موسم محدد تقوم وتنشط فيها ، يؤمها الناس للبيع والشراء .

وبعد أن تم تحرير العراق وأصبح جزءاً من الدولة العربية الإسلامية ، ألف الناس حياة الطمأنينة والاستقرار ، فنشطت عندئذ الحياة الاقتصادية في الأسواق ، لا سيما في المدن التي مصرت حديثاً . فالمراكز الأساسية للحياة العامة في المدينة العراقية الجديدة هي المسجد الجامع ، ودار الإمارة ، والسوق . وهو مركز الحياة الاقتصادية وعظمتها . ويظهر هذا التماثل واضحاً في المدن الجديدة كافة . وأن الأسواق تستعمل عادة معياراً ودليلاً على حجم وأهمية المدن ، أو أهمية أقسامها وللمدينة أسواقها المركزية ، وللمحلات أسواقها الخاصة من مرتبة أدنى . ويربط بين هذه المراتب شوارع قد يتحول قسم منها إلى أسواق أيضاً .

ويرى (الدكتور العلي ، خطط البصرة ص ١٢٧) أن في البصرة سوقاً رئيسية واحدة في بداية تأسيسها ، وأنه لا توجد محلات معينة للبائعين وبقيت هذه السوق دون تسقيف حتى ولاية زياد بن أبيه الذي تولى ذلك . وأن وجود السوق قرب المسجد الجامع أمر طبيعي لأهميته العامة وموقعه في مركز المدينة . وأنه لم يقتصر على بيع سلعة مفردة ، وإنما كانت تباع فيه

مختلف انواع السلع . الا أن السوق الرئيسة في البصرة انتقلت عند نهر بلال بن ابي بردة ابان ولاية خالد بن عبدالله القسري ، ذلك ان الخليفة الاموي هشام بن عبدالملك اولى اهتماما خاصا في الأسواق والعناية بها . ويدل بناء الحوانيت في الاسواق على احتمال فرض ضرائب عليها باعتبارها (غلة) أو اجارة لهذه الحوانيت التي شيدها الدولة . وأن عدة اسواق قد شيدت خلال الحقب التاريخية ، اختص بعضها ببيع انواع معينة من السلع . وفي مقدمة هذه الاسواق سوق المريد الذي احتل موقعا واسعا في الطرف الغربي من مدينة البصرة ، وأن القبائل المجاورة اتخذت من المريد سوقا لتصريف البضائع الفائضة ، وللحصول على حاجاتها الاخرى . وخلال القرن الهجري اشار (المقدسي ص ١١٧) الى وجود ثلاثة اسواق كبيرة في البصرة .

وعند تشييد الكوفة جعلت الاسواق في ساحة واسعة احتلت وسط المدينة قرب دار الامارة والمسجد الجامع . ولم يسمح لأحد البناء فيها . وبمرور الزمن امتد السوق من دار الامارة الى دار الوليد بن عقبة . وكان سقف هذه السوق في بادىء الأمر مغطاة بالحصر . وظلت كذلك حتى زمن والي العراق خالد بن عبدالله القسري ، حيث عقدت بالحجارة . وقد اثنى (المقدسي) على اسواق الكوفة لسعتها وتنظيمها ونشاط الحركة التجارية فيها، ولأنها ملتقى القوافل التجارية القادمة من شبه الجزيرة العربية حينذاك .

وعند تخطيط مدينة واسط أعطى الوالي الحجاج بن يوسف الثقفي عناية خاصة للاسواق ، اذ انشأ السوق الرئيسة على مقربة من المسجد الجامع ودار الامارة . وكانت سوقاً واسعة امتدت من دار الامارة ، التي تقع في وسط المدينة ،حتى شاطئ نهر دجلة شرقا . وبمرور الزمن تكونت اسواق فرعية داخل السوق الكبير ، اذ ذكر (بخشل ، تاريخ واسط ، ص ٤٤) أن أصحاب كل تجارة كانوا يكونون سوقا فرعية صغيرة داخل السوق الكبير .

فكانت اسواق الطعام ، والبزازين ، والصيارفة ، والعطارين ، والبقالين ،
وأصحاب الفاكهة ، وغيرها من الاسواق •

ومنذ الشروع في بناء المدينة المدورة بدأ اهتمام الخليفة المنصور
بالاسواق ، ذلك انه اراد أن تتخذ المنشآت التجارية في مدينته الجديدة
مكائلا المناسب لأنه ادرك بثاقب بصره أن المدينة الفتية (بغداد) ستشق
طريقها الطويل متخطية حدود الزمان والمكان الى مجال أرحب ، لتبني مجدا
اثيرا ، تتفيا بظلاله مظاهر الحضارة العربية الاسلامية • فيروي (اليعقوبي ،
البلدان ص ٢٤٢) ان الخليفة « وقع الى كل اصحاب ربع ما يصير لكل
رجل من الذرع ولمن معه من اصحابه ، وما قدره للحوانيت والاسواق في كل
ربض ، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت في كل ربض سوقا جامعة
تجمع التجارات » •

ومما يؤكد اهمية الاسواق عند تخطيط بغداد ، أن هذه المنشآت
التجارية اعتبرت من المؤسسات الاساسية التي تولت الدولة الاتفاق على
انشائها • ولم تذكر المصادر أن الدولة اخذت أو تقاضت مبلغا من المال من
التجار والباعة لقاء اشغالهم الاسواق في المدينة المدورة • ولكن الخليفة
المنصور « وضع عليهم الغلة على قدر الذرع » لما انتقلوا الى اسواق الكرخ
التي انشئت لهم فيما بعد •

ومهما يكن ، فقد انشيء في داخل المدينة المدورة أربعة أسواق رئيسة
في الطاقات المتحدة في الطرق الاربعة الواقعة بين السور الثاني والثالث •
وهي ثلاث وخمسون طاقا متناظرة ، يتوسطها طريق عرضه حوالي ثمانية
أمتار • ولهذه الطاقات نوافذ وضعت بحيث تسمح بدخول اشعة الشمس ،
وفي الوقت نفسه تمنع تساقط المطر في داخلها • وذكر (اليعقوبي ، البلدان
ص ٢٣٩) أن الطاقات التي شغلها أسواق بغداد كانت مقببة بالطابوق

المفخور والجص ، وأن الزخارف التي كانت تزين جدران وسقوف هذه المنشآت كانت مصنوعة من الآجر .

وظلت الأسواق داخل المدينة المدورة تحتل الطاقات الممتدة على جانبي الطرق الاربعة الرئيسية ، ما بين السور الثاني والثالث ، ولم تزل على هذه الحال حتى أمر الخليفة المنصور بتحويلها الى ربض الكرخ . اذ أخذت الحياة العامة في داخل المدينة المدورة تتطور بسرعة مدهشة . وأن هذه المدينة صارت تنمو وتتسع بشكل غير متوقع ، فما أن أصبحت بغداد حاضرة الخلافة حتى « . . . انتقل اليها من جميع البلدان القاصية والدائية ، وآثرها جميع أهل الآفاق على اوطانهم ، فليس من أهل بلد الا لهم فيها محل ومتجر » ، وحينئذ باتت اسواقها وشوارعها تغص بالمارة ، وتضيق بالمشتريين والباعة .

وأزاء هذا الوضع بات أمر التفكير في نقل الاسواق الى خارج اسوار المدينة المدورة أمرا واردا ، لا بل ضرورة ملحة فرضها واقع المدينة الناشئة . لذا أمر الخليفة المنصور بنقل الاسواق الى الكرخ لتكون مركزا للنشاط الاقتصادي ، على أن تبنى من اموال الدولة . وجعل عرض السوق اربعين ذراعا ، وطولها فرسخين . وفي الوقت نفسه خصص لكل حرفة سوقا خاصة ، وأكد على ضرورة جعل سوق القصايين في آخر الاسواق .

والمتتبع لخطط اسواق الكرخ يلاحظ ظاهرة جديدة هي ، تجمعها حول مجاري الانهار المناسبة في هذا الجانب من بغداد . وفي الوقت نفسه يلمس أن الحياة الاقتصادية طغت على ما حولها بحيث استطاعت أن تؤثر في اسماء الانهار وتصبغها بصبغتها الخاصة ، فدعيت الانهار بأسم نوع البضاعة المباعة عندها ، وصرنا نسمع ، نهر البزازين ، ونهر القلائين ، ونهر الدجاج وغيرها .

ولم يقتصر وجود الاسواق على الجانب الغربي من بغداد ، وانما امتد الى الجانب الشرقي . ذلك أن التفكير في بناء الرصافة وأسواقها أملت فيه ضرورات اقتصادية ودوافع سياسية وعسكرية . وعندئذ بات من المؤكد أن تنشأ أسواق عديدة ونشطة في جانب الرصافة لتواكب الوضع الجديد ، ولتفي بحاجات التوسع الهائل الذي شهده هذا الجانب من بغداد .

وتشير الروايات التاريخية بوضوح الى أن السوق الرئيس في الجانب الشرقي من بغداد كان معقودا بالآجر والجص ، وله باب مقوس عرف بباب الطاق . قال اليعقوبي : (البلدان ص ٢٥٣) « وسوق هذا الجانب العظمى التي تجتمع فيها اصناف التجارات على رأس الجسر ، مارا من رأس الجسر ، مشرعا ذات اليمين وذات الشمال . ومن اصناف التجارات والصناعات » . ومن هذا السوق تتفرع أسواق فرعية اقل اهمية ، مثل سوق الطيب والطور ، والأساكفة ، والسيارفة ، والطعام ، والصاغة ، والوراقين ، والقصابين ، وسوق الغنم ، وسوق السلاح وغيرها .

وعلى الرغم من التشابه الواضح في اسواق جانبي بغداد ، الا أنه يبدو أن اسواق الرصافة كانت اكثر تنسيقا من اسواق الكرخ . وقد يكون لعامل الزمان أثره في عملية تخطيط اسواق الرصافة . ذلك أن المسؤولين عنه قد حاولوا تجنب كل نقص وقع به من سبقهم .

١ - تخصص الاسواق :

لقد وجدت ظاهرة التخصص في اسواق مدن العراق قبل عمليات التحرير ، اذ تشير النصوص الى وجود سوق التمارين ، وسوق الصيارفة ، وسوق الطعام في مدينة الحيرة قبل ظهور الاسلام . أما بعد أن أصبح العراق ضمن حضيرة الدولة العربية الاسلامية ، فقد صرنا نشهد بوضوح أسواق متخصصة ببيع نوع محدد من البضائع . ففي البصرة كان اصحاب كل مهنة

يجتمعون معا في محل واحد مكونين سوقا فرعية صغيرة داخل السوق الكبير،
منها سوق العطارين ، وسوق الطعام ، وسوق الغنم ، وسوق القصاين ،
وسوق القداحين ، وسوق الصرافين .

ولدينا اشارة (ابن سعد ٣٠/٢) الى وجود اسواق متخصصة في
البصرة منذ السنوات الاولى من بنائها . اذ ورد ذكر سوق العطارين التي
كانت فيها دار لعون بن خلف .

واشار (البلاذري ، الانساب ٢٠٧/٢) الى وجود سوق للطعام، كما ذكر
وجود سوق متخصص ببيع الغنم ، وآخر فيه باعة النبيذ ، وسوق الزيادي
الذي تباع فيها الغلال ، وسوق للقداحين . ووجدت في سوق المربد يبيوعات
كبيرة، ولاسيما منتوجات المناطق الصحراوية، مثل الابل والاغنام ومنتوجاتها
كالصوف والوبر والجلود والدهون .

ومنذ أن انشئت الكوفة ظهرت فيها الاسواق المتخصصة . الا أنها في
فترة ولاية خالد بن عبدالله القسري برزت بشكل اوضح . ذلك أن هذا
الواوي كان قد صنف الاسواق في الكوفة حسب عروض التجار التي تعرض
فيها ، « وجعل لكل باعة دارا وطاقا » (يعقوبي ، البلدان ص ٧١) . وفي
واسط كان اصحاب كل تجارة يكونون سوقا فرعية صغيرة ، فظهرت اسواق
لأصحاب الطعام ، والبزازين ، والصيارفة ، والعطارين ، والبقالين
والفاكهة وغيرها .

وفي داخل المدينة المدورة لم ترد الا اشارة عابرة تشير الى وجود سوق
خاصة يباع فيها نوع معين من السلع هي سوق دار البطيخ التي اختصت
ببيع الفواكه ، والتي ابقاها الخليفة المنصور داخل اسوار المدينة المدورة ،
ولم يأمر بنقلها كما فعل مع بقية الاسواق . وعندما توسعت مدينة السلام ،
وتطورت فيها الحياة الاقتصادية ، وتطلب الامر الانتقال الى الكرخ ، وبنيت
الرصافة . عندئذ اصبحت الاسواق منظمة بشكل جعل لكل تاجر وتجارة شارعا

معلوما ، لا يختلط قوم بقوم ، ولا تجارة بتجارة ، ولا يباع صنف من السلع مع غير صنفه ، ولا يختلط اصحاب المهن بغيرهم « وكل سوق مفردة ، وكل اهل تجارة منفردون بتجارتهم » ، وعند ذلك اصبح من المحتتم أن تبرز ظاهرة تخصص الأسواق بشكل واضح ، فأقيم سوق للبزازين ، وسوق للزيت ، وآخر للدقاقين ، والدباغين ، والقصابين ، وسوق السلاح ، والقلائين وغيرها وحصل مثل ذلك في مدن العراق الرئيسة الاخرى .

ومن المؤكد ان الاشراف الحكومي على الاسواق ساعد في بروز ظاهرة التخصص ، اذ كان من واجبات المحتسب أن يجعل « لأهل كل صنعة منهم سوقا يختص بهم وتعرف صناعتهم فيه » ، كما أن مصلحة التجار وأصحاب الحرف انفسهم ، حملت اصحاب كل مهنة ، أو معظمهم ، على التجمع في سوق واحدة . ولغرض المحافظة على ما في السوق من بضائع ، وجدت في بعض هذه الاسواق أبواب خاصة بها ، تغلق وقت الغروب ، عندما يتوقف البيع والشراء في مثل هذه الاسواق .

وكان لنظام تخصص الاسواق مزاياه الحسنة ، اذ سهل مهمة الاشراف الحكومي عليها . كما أن التاجر الجشع لا يستطيع أن يرفع سعر سلعته خشية من جيرانه المنافسين له في السلمة نفسها . وفي هذه الحالة يقل احتمال حدوث الاحتكار ، أو أي ارتفاع غير طبيعي في سعر البضائع . ثم أن المشتري يستطيع أن ينتقي أجود ما يحتاج اليه من هذا الصنف من السلع في وقت قصير لتقارب الحوانيت المعروض فيها البضائع المتشابهة .

ب - الاسواق الجامعة :

نستطيع القول ، انه في كل مدن العراق الرئيسة وجدت أسواق جامعة ، تباع فيها مختلف البضائع . فمثلا وجد في البصرة سوق كبير تباع فيه انواع السلع . وكذلك الحال في سوق المربد الذي يعتبر من الاسواق

الجامعة • وفي الكوفة وجد سوق رئيس تجتمع فيه عدد كبير من التجار الذين كانت تجاراتهم متنوعة • وفي واسط شيدت سوق جامعة ، كانت تمتد من دار الامارة التي تقع في وسط المدينة حتى شاطئ نهر دجلة شرقا • اما في بغداد فقد وجدت عدة اسواق جامعة في داخل المدينة المدورة • وكذلك الحال في كل من الكرخ والرصافة ، وفي مدينة سامراء والموصل وبقية مدن العراق الكبيرة •

٣ - الصناعة والتنظيم الحرفي :

امتنع العراقيون ، منذ عهد بعيد ، كثيرا من المهن والحرف الصناعية وبرعوا في اتقانها • وبعد أن تم تحرير العراق ، فتحت الدولة العربية الاسلامية المجال واسعا أمام جميع فئات المجتمع في ممارسة العمل واختيار المهن التي يرغبون في مزاومتها • وفي القرآن الكريم وردت آيات عديدة تحث على الاخلاص في العمل • قال تعالى في سورة الكهف : « انا لا نضيع أجر من احسن عملا » • وقال في سورة الشعراء : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » • وأشير الى العمل وأهميته في الحديث النبوي الشريف حيث قال الرسول (ص) : « ان الله يحب احدكم اذا عمل عملا أتقنه » • وقال : « ان الله يحب المؤمن المحترف » •

وفي المدن والقرى العراقية وجد نوعان من الصناع ، الصناع المأجورون الذين يعملون لحساب غيرهم لقاء اجر محدد يتقاضونه ، اما النوع الثاني من الصناع فهم الذين يمارسون عملهم في بيوتهم ، أو حوائيتهم لحسابهم الخاص • وهؤلاء ، في الأعم الأغلب ، من ذوى الحرف الذين ورثوها عن آبائهم • وهم على العموم أحسن مكانة ، وأكثر موردا من الصنف الاول ، فهم يمتلكون وسائل الانتاج والادوات البسيطة ، ورأس مال محدود • ويمتلكون حرية التصرف

في علمهم ، كما يشاؤون بعيداً عن التسلط . ومع ذلك فإن بإمكان الصنفين أن ينعموا بشمار اتعابهم ، ويزيدوا دخلهم بمهارتهم في الصناعة ، وزيادة انتاجهم ، وحماسهم في العمل .

ومن المؤكد أن أجور أهل الصنایع اختلفت تبعا لنوع العمل الذي يؤديه . ولا بد أن تكون أجور الصناع الماهرين اعلى من غير المهرة . ولدينا روايات تاريخية تشير الى أن أجره العامل اليومية الذي يشتغل في خراطة الزجاج في أواخر القرن الثالث الهجري ، درهما ونصف درهم ، وأجره عامل الحفر ثلاثة دراهم في اليوم ، وأجره الحداد خمسة دراهم . وهي أجره مجزية حينذاك ، حيث انها كانت تساوي قيمة عشرة ارطال من لحم الغنم ، أو خمسة عشر رطلا من لحم البقر .

٢ - أهم المنتجات الصناعية :

لقد أسدت الدولة الى المنشأ الصناعي يدا طولی . فقد عملت على صيانة جميع انواع الصناعات المحلية وتحسينها وتطويرها . وعملت على استخراج الثروة المعدنية التي حفلت بها أرض العراق ، وعملت على نقلها الى المراكز الصناعية بسهولة ويسر من أجل استثمارها . وكان ذلك من أهم أسباب الانطلاق الصناعي الكبير الذي تحقق خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، فضلا عن قيام الدولة بتيسير نقل المنتجات الصناعية بين المدن والاقاليم بسهولة ويسر ، بسبب السبل الآمنة التي اولتها الدولة عناية خاصة . كل ذلك ادى الى رواج المنتجات الصناعية .

ويعتبر النسيج من اعرق الصناعات التي راجت في مدن العراق وقراه ، اذ توفرت المادة الاولية التي كانت تعتمد عليها هذه الصناعة . كما أن النسيج يعد من المتطلبات الاساسية التي يحتاج اليها الناس . فظهرت أنسجة صوفية، وقطنية ، وكتائية ، وحريرية فاخرة . وابدع الصباغون في استخراج ألوان

جميلة وجذابة من الاقمشة ، تناسب أذواق الناس وميولهم . كما صنعت أنواع متعددة من البسط والسجاد الثمين ، على وفق مقاسات معينة ، واستعمل الصانع خيوط الحرير والصوف في نسجها ، وكانت تزين قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والموسرين ، كما زينت البيوت من الداخل بالستائر الجميلة الزاهية الالوان . وعرف العراقيون صناعة الخيام التي كانوا ينسجونها من شعر الماعز ، أو صوف الاغنام ، أو وبر الابل .

ومنذ العهد الاموي اشتهرت بعض مدن العراق بصناعة الطراز . وهو نسيج يصنع من خيوط الحرير والابرسم والديباچ المحلي بسطور من الكتابة على حافة القماش مطرز عليها اسماء الخلفاء أو الولاة ، وبعض عبارات الدعاء . وأن دور الطراز عادة تكون مملوكة من الدولة ، وأن صناعتها يشتغلون بأجر عند الحكومة التي انشأت لهذه الصناعة ديوانا خاصا سمي « ديوان الطراز » ، يديره موظف خاص دعي (صاحب الطراز) ، كانت مهمته الاشراف الدقيق على المصانع التي تنسج الملابس الرسمية والشارات والأعلام .

وهناك صناعات اعتمدت على الاخشاب وسيقان الاشجار ، مثل الرماح ، والنبال ، والاقواس ، والسهام وبعض ادوات الحصار ، والادوات المنزلية المتعددة الاخرى ، وصناعة السفن والمراكب والقوارب . ثم صناعة العطور والصابون والشموع ، وصناعة الورق التي ظهرت في العراق في آخر القرن الثاني الهجري . وصناعة الحديد ، والصناعات القائمة على المنتجات الحيوانية ، فضلا عن صناعة الزجاج ومواد البناء ، والخزف ذات الالوان الزاهية . ان هذه الصناعات وغيرها كانت تلاقي اهتماما ودعما من الدولة ، الأمر الذي جعلها تبلغ درجة عالية من الجودة والاتقان . وأن قسما من هذه الصناعات كانت تكفي لسد حاجة السوق الداخلية ، في حين كان قسم منها يفيض عن ذلك فيصدر الى بعض اقاليم الدولة .

ب - تكتل اهل الحرف :

وبلا ريب فإن تطور المجتمع ، واتساع المدن ، وازدياد العناية بالمهن والحرف ، وزيادة رقابة الدولة على الحياة الاقتصادية ، كل ذلك ادى الى ظهور مهن وحرف متعددة * كما أوجد شعورا بضرورة تماسك أصحاب الحرف ، لاسيما ، في الازمات السياسية والاقتصادية التي كانت تحصل بين الحين والآخر .

ويشار الى اهل الحرف بـ « الاصناف » أو « أهل المهن » أو « أهل الصنائع » . وبمرور الزمن قويت الرابطة بين هؤلاء ، وصار كل صنف يشعر بالارتباط الوثيق بأهل صناعته . وصار من اقوالهم المأثورة : « الصناعة تسب » . فانتشر الانتساب الى المهنة بجوار الانتساب الى المدينة أو القبيلة ، فصرنا نسمع لقب الزجاج ، والزيات ، والجراح ، والحلاج ، والفراء ، والثعالبي وغيرهم .

وبلغ من تماسك اصحاب الحرف وتكتلهم أن (القاضي الماوردي ص ٢٣١) أصبح يرى في العرف الجاري بين أهل الصنائع اساسا يستطيع المحتسب الرجوع اليه حين ممارسة مهمته في مراقبة الاسواق ، وفض المنازعات بين أهل المهن .

ثم ان التطورات الداخلية اسهت من جانبها في تنظيم أهل الحرف ، واكسبتها اطارا . فأصبح لكل حرفة (رئيس) من اصحابها ، تعينه الحكومة عادة ، أو تعترف به . ويرى (اليعقوبي البلدان ص ٢٤٥ - ٢٤٦) أن كل فئة من اصحاب الحرف تجمعت في اسواق معينة وسميت بها . ويبرز التنظيم الحرفي من خلال تحديد مراحل التدرج المهني . فيكون العامل (مبتدئا) ، ثم يصبح (صاعنا) ، وينتهي الى مرحلة (الاستاذية) . وهو في كل مرحلة يمارس شكلا من العمل ، ويتقاضى اجرا معيناً .

٢- النشاط التجاري :

شهدت مدن العراق نشاطا تجاريا منذ عهد بعيد . وتشير الروايات التاريخية الى أن سكان مدينة الانبار ، وسكان مدينة الحيرة ، مارسوا التجارة في أسواق شبه الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسلام . كما اقيمت أسواق دائمية ، وأسواق موسمية في المدن والقرى العراقية ، مثل سوق الحيرة في غربي نهر الفرات ، وسوق بغداد غربي نهر دجلة ، وسوق الثلاثاء في شرقي دجلة وغيرها .

وبعد أن حررت جميع مدن العراق وأراضيه ، واصبح يستقل بظل الدولة العربية الاسلامية ، نشطت التجارة فيه . لاسيما وأن الدولة اتاحت للتجار فرصا واسعة للتجارة والربح الحلال . فلم تضع قيودا امام نقل السلع بين المدن والاقاليم ، ولم تحتكر الحكومة تجارة أية بضاعة ، أو تمنع مبادلتها ، مادام تعاطيها لا يتعارض مع شعائر الدين الحنيف .

وعمل ولاية العراق خلال عهد الراشدين والأمويين على تنشيط الحركة التجارية ، فشيّدوا الاسواق والمنشآت التجارية ، وأقاموا الجسور ، وشقوا الطرق . ولم تكن الضرائب المفروضة على التجار خلال العصر الاموي باهظة . وقد اعفي صغار التجار من بعض الضرائب تخفيفا من اعبائهم ، ووضع حد أدنى لقيمة السلع التجارية التي فرضت عليها الضرائب .

وتميزت مواقع مدن العراق الرئيسة بوجود طرق تجارية تربطها بعضها ببعض ، وطرق أخرى تربطها وتسهل اتصالها مع الاقاليم المجاورة . وان هذه الحالة يسرت انتقال البضائع بين المدن العراقية المتعددة بسهولة ويسر ، وقد تجلّى ذلك بشكل واضح في المدن التي مصرت بعد عمليات التحرير . اذ وضع المسؤولون في تقديرهم اهمية موقع المدينة الجديد التي يرومون انشاءها ، بحيث يرتفق الناس به ، ولا تفلو عليهم الاسعار ، ولا تشتد فيه المؤونة (الطبري ٦١٥/٧) . وفي هذه الحالة لا يلاقي التجار صعوبة كبيرة

في نقل البضائع من مدينة الى اخرى لوقوع كثير من مدن العراق الرئيسية على ملتقى الطرق التجارية وثمة ظاهرة اخرى في ان بعض المدن العراقية كانت تقع على ضفاف الانهار ، (دجلة والفرات وشط العرب ، ونهر عيسى) مما يسر تزويد أسواقها بالسلع التجارية التي كانت تصل اليها عبر هذه الانهار . فضلا عما كان يرد الى أسواق المدن من بضائع بالطرق البرية التي تسير بها القوافل القادمة من الموصل وبلاد الشام وشبه جزيرة العرب ومصر ، أو من الاقاليم الشرقية . ولدينا نصوص تشير الى أن الطرق المائية كانت أنشط من الطرق البرية في هذا المجال . وان كثرة السفن التجارية المصعدة والمنحدرة بين مدينة البصرة ومدن عراقية اخرى قد تطلب الامر قيام مرافئ خاصة عند ضفاف المدن الرئيسية ، ترسو فيها السفن المحملة بالبضائع المنقولة بين هذه المدن . وان نشاط هذه المرافئ تطلب قيام أسواق بجوارها هي الاخرى نشطة . ونشاطها هذا يدعونا لان نؤكد من خلاله ضخامة التبادل التجاري بين مدن العراق .

ويذكر (ابن الاثير ١٤/٥) أنه كانت تصل بغداد ، ومدن عراقية أخرى في (نهر عيسى) محصولات الاقاليم الغربية والمؤن المجلوبة من أراضي الفرات الاعلى مثل الحبوب التي تأتي بها القوافل عن بلاد الشام ومصر ، فتتقل عبر نهر الفرات ، ومنه الى نهر عيسى ، ثم تفرغ حمولتها على ارضفة عند الفرضة السفلى في الكرخ .

وتوجد محطات (مآصر) على الطرق النهرية الهامة ، يديرها موظفون ، ويحرسها حراس ، وتخبي فيها الضرائب . وان سلطة هؤلاء الموظفين كانت مرتبطة بمدى قوة السلطة المركزية في الدولة أو ضعفها .

واهتمت الدولة العربية الاسلامية باثشاء الطرق البرية وصيانتها وحمايتها وفي الفترات التي كانت الحكومة حازمة ، كانت الطرق آمنة ،

وبذلك تصل البضائع الى اسواق المدن سالمة • وكانت الجمال اهم وسائل النقل في مثل هذه الطرق •

٢ - التبادل التجاري بين مدن العراق :

امتحن كثير من العراقيين التجارة ، وحذقوا في ممارستها • وكانت حرفة التجارة تدر على محترفيها ارباحا كبيرة ، الامر الذي جعلها تجذب عددا كبيرا من الناس • ولم تكن قلة رأس المال عائقا امام بعضهم ، اذ وجد هؤلاء من يبيعهم سلعا تجارية بدفع مؤجل ولو بسعر أعلى قليلا من سعر السوق • ومع ذلك فقد حصل هذا النوع من التجار على ارباح جيدة •

وراجت بين مدن العراق تجارة المواد الغذائية لاسيما الحبوب ، والتمور والخضراوات والفاكهة ، وفي مدينة البصرة تأتي التمور في مقدمة السلع التي كانت تصدرها الى اسواق كثيرة من مدن العراق وقراه اذ كان سوق التمارين من الاسواق النشيطة في مدينة البصرة • وكان لتجار البصرة وكلاء في بعض مدن العراق الرئيسة يبيعون لهم تجارتهم • ومما جعل مدينة البصرة تؤدي دورا نشيطا في الميدان التجاري ، انها كانت تتصل بمدن العراق الرئيسة بطرق برية ومائية • فعبر هذه الطرق صدرت منتجات البصرة ، وعبرها ايضا جلبت الغلال من مدن عراقية اخرى • كما ان الموقع الجغرافي الخاص لمدينة البصرة جعلها محطة لنزول القوافل العربية المتجهة في طريقها الى بعض مناطق شبه الجزيرة العربية • وبمرور الزمن اصبحت البصرة ثغرا تجاريا هاما ، وبخاصة في مجال التجارة الخارجية مع الهند والشرق •

وعن طريق مرسى البصرة والأبله وردت سلع تجارية متنوعة من منطقة الخليج العربي والهند وجنوب شرق آسيا والصين ، وجنوب شرق افريقية • وكان كثير من تجار المدن يقصدون البصرة والأبله لجلب انواع السلع ليتجروا بها في بلدانهم •

وكان التمر ايضا عنصرا اساسيا في تجارة مدينة الكوفة ، اذ كان للتمارين سوق خاص في هذه المدينة • وصدرت الكوفة الى سائر مدن العراق الوشي والخز والفاكهة والزيوت المستخرجة من بذور القطن والكتان والسسم • وكان للزياتين سوق كبير قرب قصر امارة الكوفة • كما زودت الكوفة مدنا عراقية اخرى ، وبخاصة بغداد بكميات كبيرة من مواد الطعام • ففي سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م صدرت الكوفة نحو خمسمائة كر من الحبوب (الكر : مكيال بابلي الاصل ، كان يساوي في العراق ستين قميزا)

واشتهرت مدينة الحيرة بتجارة الفواكه والرياحين • في حين راجت في ميسان تجارة الانماط والوسائد • كما اشتهرت مدينة واسط بتجارة البسط والستائر والاقمشة الثمينة التي صدرتها الى عدة مدن عراقية • و انتجت واسط ايضا كثير من الغلال الزراعية مثل الشعير والرز والسسم ، فصدرت قسما منها الى مدن عراقية اخرى • كما انتجت مدينة كسكر كميات كبيرة من القمح فزودت به بعض أسواق مدن العراق •

واعتمدت مدن عراقية كثيرة على ما كانت تنتجه منطقة الموصل من مواد غذائية مثل القمح والدقيق والشعير وغيرها • فلدينا اشارات الى ان سفنا وزوارق تجارية محملة بالقمح والشعير والدقيق والثياب ، والعسل والشحم ، والستائر والقيير والسكاكين ، والسلاسل ، وثياب الصوف ، والفواكه المقددة ، والموازين ، صدرت من مدينة الموصل الى سامراء وبغداد ومدن عراقية اخرى • كما صدرت مدينة الموصل الاخشاب وانواع من الاقمشة الى كثير من مدن العراق • وصدرت مدن الجزيرة الفراتية الصابون والزيت والموازين والعسل والسمن والخيول الجياد والزبيب •

وخرجت من مدينة بغداد قوافل تجارية محملة بالبضائع المعتددة الى بعض مدن العراق • وربما صدر قسم من هذه البضائع الى اقاليم الدولة

الآخري ، أو ربما صدرت الى دول أخرى • واشتملت السلع التي صدرت من بغداد على المنسوجات القطنية والصوفية والكتانية التي راجت في عاصمة الخلافة العباسية ، كصناعة المنسوجات الحريرية الفاخرة ، والاقمشة القطنية والصوفية ، والعمائم الرقيقة ، والازر والمناديل بأنواعها ، والثياب العتائية المشهورة التي كانت تحاك من خيوط القطن والحرير • والصابون والدهون والمعاجين والادوية والعطور وماء الزعفران ، وماء السوس ، وشراب العنب ، والورق الذي انشئ له مصنع خاص في بغداد منذ عهد الخليفة هارون الرشيد • كما صدرت بغداد القاشاني الى بعض اقاليم الدولة لأستعماله في بناء المساجد ، والادوات الزجاجية • وقد شاهد الرحالون العرب في الكعبة قناديل من الزجاج العراقي تزينها نقوش جميلة •

وتشير الروايات التاريخية الى أن عددا من تجار بغداد خرجوا بتجاراتهم الى مدينة واسط والكوفة والبصرة وغيرها من المدن • كما خرجوا الى الاقاليم الشرقية من الدولة ، حيث وصل تجار بغداد بتجارتهم الى المدن المطلة على سواحل بحر قزوين • ومما فتح المجال امام التجار العراقيين بأن يتوسعوا في تجارتهم ، وجود جاليات عراقية في بعض اقاليم الدولة • مثل مدينة سمرقند ، وبلاد ماوراء النهر ، والهند ، والصين ، والقسطنطينية • وبلا ريب ، فإن هذه الجاليات كانت تمد يد العون والمساعدة للتجار العراقيين الذين يفتدون الى تلك المناطق • وتشير النصوص الى وجود تجار عراقيين كانوا يقيمون في مصر ، وكان بعضهم وكلاء لتجار بغداد •

ب - اسلوب التعامل في الاسواق :

الدرهم والدينار ، هما النقدان الاساسيان اللذان بهما تم التبادل والتعامل والتقدير في جميع اسواق المدن العراقية ، وعلى اساسهما حددت اقيام السلع المعروضة في الاسواق • وان الدولة ضربت من هذين النقدين الكميات اللازمة لتنشيط التعامل التجاري في الاسواق لكن

الملاحظ ان التعامل بالدينار الذهبي بأسواق المدن كان انشط من التعامل بالدرهم الفضي ، كما ان الدولة كانت تفضل ان ترد اليها الاموال بالدينار ، في حين كانت ترغب ان يكون ما يخرج من بيت المال من اعطيات بالدرهم الفضية . وبناء على ذلك اصبحت رغبة التجار منصبة على قبول العملة الذهبية .

ومن المؤكد ان التعامل كان يجري في اسواق مدن العراق بجميع انواع النقود التي ضربت في اقاليم الدولة العربية الاسلامية ، لاسيما بعد ان اصبحت العراق مركز هذه الدولة ابان العصر العباسي ذلك ان وحدات هذه النقود كان يرد منها الى حاضرة الخلافة سنويا كميات كبيرة عن طريق الضرائب المختلفة كالخراج ، والاعشار ، والمكوس ، والزكاة ، والضمانات ، وما ينقله التجار والمسافرين ، وما الى ذلك . فعن هذه الطرق وغيرها كانت تصب النقود في اسواق العاصمة . ومنها الى بقية المدن ، ويجري التعامل بها ، بفئاتها المختلفة . ولدينا كثير من الروايات التاريخية التي تشير الى ان نقودا ضربت في عواصم الاقاليم التي كانت تتكون منها الدولة ، وأن هذه النقود كانت مقبولة لدى تجار مدن العراق ، مادامت محتفظة بالوزن الشرعي .

وشهد نظام التعامل بأسواق مدن العراق ظاهرة اخرى ، هي انه اذا كانت نقود التعامل غير كاملة الوزن الشرعي ، سواء كانت دنانير او دراهم ولا تتماشى مع حساب الوزن الشرعي فانها لا تقبل الا وزنا لذا صرنا نعرث احيانا على نصوص تشير الى معاملات تجارية كانت تجري على اساس مقدار وزن النقود .

ولتسهيل التعامل التجاري بالنقود من جهة ضربت قطع نقدية تمثل اجزاء الدينار والدرهم منذ العصر الاموي ، واستمرت هذه الحال خلال العصر العباسي .

والى جانب التعامل بالنقود في اسواق مدن العراق ، جرى التعامل بأنواع اخرى من البيوع ، مثل البيع المطلق ، وهو بيع العين بالثمن ولعل هذا

النوع من البيوع هو اكثر انواع البيوع شيوعا في مدن العراق . وهذا لا يعني ان بيع المقايضة لم يكن سائدا ، لاسيما عند سكان الازياف . كما وجد « بيع المستدين » اي شراء سلعة ما من صاحبها ، سبق له ان اشتراها قبل قليل من الدائن بسعر اعلى لكن لأجل . ثم بيع « السلم » ، اي بيع الدين بالعين . و « الصرف » وهو يعني بيع الثمن بالثمن ثم بيع (المراجعة) ، الذي يعني البيع بالثمن مع زيادة يتفق عليها كل من البائع والمشتري . واخيرا البيع « بالوضيعة » ، اي البيع بالنقصان عن القيمة الاصلية . ان كل هذه الانواع من البيوع جرى التعامل بها في اسواق مدن العراق وقراه ، ولكن ليس بالضرورة انها كانت سائرة على وتيرة واحدة في جميع المدن كبرها وصغيرها .

وتشير الروايات التاريخية الموثقة الى توافر الثقة بين الباعة في اسواق المدن العراقية وبين زبائنهم . وان نظام التعامل بينهم كان يتم دون أخذ مستندات مالية مكتوبة في اغلب الاحيان ، الامر الذي سهل عملية التبادل التجاري بينهم . وفي بعض الاحيان كان البائع يكتفي بأخذ رهن يفي بمقدار الدين ، او يزيد عليه قليلا ، ويحفظه عنده لحين استرداد المبلغ المستلف .

واستكمالا لدراسة نظم التعامل في الاسواق ، لابد من القاء نظرة سريعة على وحدات الوزن والكيل المستعملة فيها . وقد تنوعت وحدات الكيل في اسواق مدن العراق . ولعل ابرزها « الصاع » الذي يرى « البخاري ٢٣/٢ » انه يساوي ثمانية ارطال بغدادية . ثم الجريب الذي يمكن تحديده بـ (٢٩٥ لتر) ، ثم « الكيلجة » التي كانت خمسة ارطال ، ثم « الكر » ، وهو مكيال بابلي الاصل ، كان يساوي في بغداد والكوفة ستين ققيزا ، اي حوالي (١٤٤٠ كيلجة) أو (١٥٠٠ رطل) (الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ٧٦) . اما الققيز فقد استعمل في الاسواق كوحدة كيل ايضا ، وهو يساوي (٢٤ كيلجة) ، اي حوالي ٤٥ كغم

(الماوردي ص ١٥٠) • كما استعمل « المكوك » كمكيال في اسواق العراق وهو صاع ونصف وان متوسط سعة المكوك (٧٥ لتر) • وعلى نطاق واسع استعمل « المد » كمكيال عند أهل العراق ، ومقداره رطلان ، أو ملء كفي الانسان المعتدل اذا ملاهما ومد يده بهما • وبه سمي مدا • كما استعمل في اسواق العراق الرطل الذي كان يساوي (١٢ أوقية) • وخلال قيام الدولة العباسية شاع استعمال « الرطل البغدادي » ، وهو الرطل الشرعي حينذاك ، وكان يساوي حوالي (٤٦٢٥ غراما) ، ثم استعمل « القنطار » الذي كان يساوي من الاساس (١٠٠ رطل) كما شاع في الاسواق استعمال « القيراط » الذي كان يساوي ٢٠/١ من المثقال ، وهو شرعا يساوي خمس حبات • ثم استعمل « المن » الذي كان يساوي رطلين • وتعامل اهل العراق بـ « الكارة » ، وكانت تساوي ققيزين أو ١٦ مكوكا • ثم الاوقية التي كان وزنها يساوي ١٢/١ من الرطل • واخيرا الحبة ، ووزنها بقدر وزن حبة الشعير العربية • وبمقتضى السنة الشرعية تساوي الحبة ١٠٠ / ١ من المثقال •

وتأتي الذراع في مقدمة وحدات قياس الطول التي استعملت في مدن العراق • وترد في الروايات التاريخية سبعة انواع من الاذرع • وتأتي في مقدمتها الذراع « العمرية » ، نسبة الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، وهي التي مسح بها ارض السواد ، وتساوي (٧٢٫٨ سم) • اما اكثر الاذرع شيوعا في اسواق مدن العراق فهي الذراع « السوداء » • وأول من وضعها الخليفة هارون الرشيد ، قدرها بذرار خادم اسود كان يقف عادة على رأس الخليفة ، وهي التي تعامل بها الناس في ذرع البز والتجارة ثم الذراع « القاضية » التي تقل عن الذراع السوداء باصبع وثلثي الاصبع • واول من وضعها (ابن ابي ليلى القاضي) • ثم الذراع « اليوسفية » نسبة الى واضعها القاضي ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم • ويقدر طولها بحوالي (٥٢٫٥٥ سم) ثم الذراع « الهاشمية الصغرى » ، وهي البلالية ، وسميت

بهذا الاسم نسبة الى بلال بن ابي بردة قاضي البصرة . وكانت تزيد على الذراع السوداء باصبعين وثلثي اصبع ثم « الهاشمية الكبرى » ، وهي الزيادة ، وسميت كذلك لان زياد بن ابيه مسح بها ارض السواد، واستعملها الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور ، وهي اطول من السوداء بخمسة اصابع وثلثي اصبع . واخيرا الذراع التي استعملها الخليفة المأمون والتي سميت « الميزانية » ، وكانت تساوى بالذراع السوداء ذراعين وثلثي اصبع (الماوردي ص ١٤٧) .

٥ - النظام النقدي :

١ - الدرهم والدينار :

ارتكز النظام النقدي في المدن العراقية ابان قيام الدولة العربية الاسلامية على الدرهم والدينار . وهما النقدان الاساسيان اللذان بهما تم التبادل والتعامل وتقدير قيم السلع في جميع اسواق مدن العراق ، وعلى اساسهما حددت بعض الواجبات الشرعية .

ومنذ أن تم تحرير العراق ، ابقت الدولة النقود القديمة التي كانت رائجة في الاسواق ، الا أن الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رض) رأى ان الدراهم المتداولة مختلفة الاوزان ، فلما احتيج في الاسلام الى تقدير الزكاة اخذ الوسط ، فجعل وزن الدرهم الشرعي ستة دوايق ، أي اربعة عشر قيراطا ، وكل عشرة دراهم تساوى سبعة مثاقيل . ونقش على بعضها « الحمد لله » ، وعلى الآخر « محمد رسول الله » ، وفي بعضها « لا اله الا الله وحده » . ولما بويع عثمان بن عفان بالخلافة ضرب دراهم ونقش عليها « الله اكبر » ، وكذلك فعل الامام علي بن ابي طالب . ونقل عن معاوية بن ابي سفيان انه سك في خلافته دراهم ودنانير . ومن المرجح ان هذه الانواع من النقود قد تداولت في مدن العراق .

وابان قيام عبدالله بن الزبير بمكة ضرب اخوه مصعب
ابن الزبير دراهم بالعراق سنة ٧٠ هـ / ٦٩٠ م وعلينا لفظنة
« بركة » في جانب ، ولفظ الجلالة « الله » في الجانب الآخر . وظل التعامل
بها جاريا حتى ابطله الحجاج عند اصلاح تعريب النقود ، وقيل ان مصعب ضرب
مع الدراهم دنانير ايضا .

ب - عملية تعريب النقود :

وبعد أن استقر الامر للامويين الذين وقعوا تحت تأثيرات قومية ،
ودوافع دينية ضاغطة ، عندئذ رأوا ضرورة سك عملة جديدة ، فضية وذهبية ،
خالية من الشارات الاجنبية . وتتفق اغلب الروايات وأوثقها على ان الخليفة
الاموي عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) هو الذي ضرب الدنانير العربية
بشكلها المتميز تماما عن النقود الاجنبية . اما الدراهم فقد تولى عملية
تعريبها والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م ، ثم أمر
بضربها في بعض اقاليم المشرق سنة ست وسبعين للهجرة ، فعد عمله هذا
اصلاحا جذريا حاسما ، اذ حدد عيارا ثابتا للدراهم ، جاعلا حق اصدارها
مقصورا على دور الضرب الحكومية المعتمدة ، وأن كان « أذن للتجار
وغيرهم ان يضربوا بها النقود لحسابهم » نظير اجرة قدرت بواحد في المائة .
وساد اعتقاد مفاده ان الدراهم الجياد هي التي كانت تضرب في دور الضرب
الحكومية ، اذ هي مستوفية الشروط اللازمة اكثر من غيرها . وسحب
الحجاج الدراهم القديمة التي كان يجرى التعامل بها ودفعها الى دور الضرب
لاعادة سكها من جديد طبقا لمواصفات الشكل العربي الاسلامي الجديد .

ونستطيع ان نجزم ان والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، هو
اول من أوجد الدرهم العربي الاسلامي بخصائصه المميزة ، وكتب لعمله هذا
الاستمرار والبقاء ، وكان لهذا العمل شأن في ارضاء الشعور الديني والقومي .

وينقل (الماوردي ص ١٥٤) رواية يحيى بن النعمان الغفاري التي تؤكد ان الحجاج ضرب الدراهم وكتب في جانب منها « بسم الله » ، وفي جانب آخر « الحجاج » . وبذلك يكون الحجاج اول وال في الدولة العربية الاسلامية يكتب اسمه على الدراهم . وقد بقيت الدراهم التي ضربها الحجاج بالعراق معمولاً بها حتى نهاية خلافة عمر بن عبدالعزيز ، ذلك ان الدراهم الجديدة غطت حاجة المعاملات التجارية في الاسواق من قبل المتعاملين في قطاع التبادل النقدي الذي توسع على حساب المقايضة العينية .

ولما تقلد عمر بن هبيرة ولاية العراق في ايام يزيد بن عبد الملك ، ضرب الدراهم اجود مما كانت عليه ، فخلص الفضة أبلغ تخليص ، وجوّد الدراهم ، واشتد في العيار ، وسميت النقود باسمه . ثم ولي بعده خالد ابن عبد الله القسري ، فشدّد في تجويدها ، وضرب بعده يوسف بن عمر الثقفي ، فأفرط في التشديد فيها ، « فكانت الهيرية ، والخلدية ، واليوسفية ، اجود نقود بني امية ، ولم يكن - الخليفة العباسي - المنصور ، يقبل في الخراج من نقود بني امية غيرها » . وكان ولاية العراق هؤلاء ، قد وضعوا اسماءهم على الدراهم التي سكوها . ومن هنا نلمس ان هؤلاء الولاة تمتعوا بهذا الحق ، وأن نقودهم جرى التعامل بها في اقاليم اخرى من الدولة

ومن هنا يمكننا ان ندرك ابعاد خطوة ولاية العراق هذه ، وعندئذ يتضح امامنا عمق الاصلالة المبدعة التي تمت في العراق في هذا المجال . بذلك ان هذا الانجاز الكبير جدير بالاعجاب ، لاسيما اذا ادركنا الظروف الزمانية التي البثق عنها .

واستهل العباسيون حكمهم بأن نقلوا دار ضرب النقود الى الانبار ، وأصبح يضرب في مدن العراق الدنانير بجانب الدراهم . وأن الخليفة العباسي الاول انقص وزن الدرهم المتداول في الاسواق حبة ، ثم ما لبث ان انقصه حبة اخرى . ويبدو ان وراء اجراء الخليفة هذا اعتبارات اقتصادية

املتها ظروف الدولة الجديدة على الخليفة الاول * ولا بد أن يكون الخليفة قد استهدف من اجراءاته هذه التخفيف عن كاهل الشعب ، وأن يستن سنة صالحة ، بدليل ان الخليفة الثاني ابا جعفر المنصور ، هو الآخر أقدم على انقاص وزن الدرهم حبة اخرى *

لم يطرأ تعديل جوهري على الدينار العربي الاسلامي ، خاصة في عهد الخليفة ابي العباس * الا أن العباسيين نقشوا آية جديدة على الدينار تشير الى حقهم في الخلافة وقرابتهم من الرسول (ص) ، وكان الهدف من وراء ذلك حقوق العباسيين التي كانوا يطالبون بها ، اذ وضعوا « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » *

وظلت العملة المتداولة في اسواق مدن العراق على هذه الحال حتى تقلد المهدي الخلافة ف ضرب سكة مدورة فيها نقطة * والخليفة المهدي هو اول خليفة عباسي ظهر اسمه على الدراهم * في حين كان الامين اول خليفة عباسي ذكر اسمه على العملة الذهبية *

ونستطيع ان نتلمس اهتمام الدولة بالنظام النقدي من ان الخلفاء انفسهم كانوا يشرفون بصورة مباشرة على دور الضرب لكي يتحققوا من ضبط وزن النقود ، وليبعدوا عنها احتمالات الغش والتزييف * لكن الخليفة هارون الرشيد صير هذه المهمة الخطيرة الى من كان يثق به * ولم تفصح المصادر عن دوافع هذا التطور الجذري في نظام ضرب النقود * الا انني ارجح ان مشاغل الخليفة الرشيد الكثيرة وطبيعة الظروف التي كانت تحتّم عليه قضاء فترة طويلة خارج العاصمة ، حالت دون اشرافه بنفسه على السكة ، فنهج نهجا لا مركزيا في الحكم ، واعطى الولاة مزيدا من السلطة *

وظهرت في اسواق مدن العراق دراهم ودنانير تقدر بأكثر من قيمة نظائرها من النقود العادية المتبادلة في الاسواق * وربما لم يكن الغرض الاساس من ضربها استعمالها في البيع والشراء ، وانما ضربت لمناسبات خاصة

فسميت نقود الصلات * (مسكويه ٤٢/١) * ففي عهد الرشيد ضربت دنانير زفة كل دينار منها مئة مثقال ، كانت تسمى « دنانير الصلة » * أو «دنانير الخريطة» ، مكتوب على كل دينار من : « ضرب الحسنی لخريطة امير المؤمنين » * وهذه الدنانير هي التي ينعم منها الخليفة على بعض المقربين * وكان (قدامة بن جعفر ص ٦٠) قد اثنى على الدنانير المضروبة في ايام الخليفة هارون الرشيد والمأمون والواثق بالله ، حيث اتخذت فيما بعد معيارا لدور الضرب في تحديد نسبة نقاوة المعدن الثمين فيها *

وكانت « قبيحة » أم المعتز (٢٥١ - ٢٥٥ هـ) قد تقدمت بضرب دراهم مكتوب عليها « بركة من الله لا عذار أبي عبدالله المعتز بالله » ، ف ضرب منها مليون درهم لتنتشر بمناسبة ختان ابنها * وفي سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ضربت دراهم ذات فئة خاصة لأجل أن تهديها قطر الندى الى زوجها المعتضد بالله ، وكل درهم من هذه الدراهم يساوي ثلاثة دراهم غادية * وبلا ريب ، فأن هذه الدراهم والدنانير كان يجرى التعامل بها في الاسواق ، وفي هذه الحال كان البائع والمشتري يلجآن الى الصرافين لتبديلها بنقود عادية ، أو استعمال الوزن في حالة التعامل بها *

ولما اصبح الحسن بن عبدالله الحمداني أمير الامراء ولقب ناصر الدولة عام ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م صار معنياً بأشور النقود ، وجرت بينه وبين الصيارفة بمدينة السلام خطوب كثيرة ، فأمر بتصفية الذهب والفضة لكي يصنع منهما الدنانير والدراهم الخالصة من الشوائب والمكتملة الوزن ، وسميت دنانيره بـ « الابريزية » ، وكان هذا الاجراء أجل منقبة لآل حمدان تفرد بها ناصر الدولة *

وبعد أن تغلب احمد بن بويه على بغداد عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ، كان يشعر بالاهمية الكبرى التي تأتيه من جراء وجود لقبه على الدنانير والدراهم ، لأن ذلك قد يسبغ على مركزه شرعية كان بأمس الحاجة اليها *

ومعلوم ان اسواق المدن العراقية كانت تتعامل بنظام نقدي مزدوج ،
فهي تتعامل بالدينار والدراهم معا . ويمكن ان يحول احدهما الى النوع
الآخر بحسب سعر الصرف السائد في السوق الذي تحدده الاحوال التجارية ،
دون تدخل الحكومة . وتدل قوائم الخراج الرسمية على ان الدولة كانت
تقبل مبالغ الخراج بأي من النقدين . وكان بأستطاعة المواطنين ان يبيعوا
دراهم للصرافين بدنانير جديدة حسان .

غير أن هذا لا يعني أن سعر الصرف كان ثابتا ، وانما كان يتعرض
لتقلبات السوق . وهذا شيء طبيعي فالدينار بعد ان كان مساويا لعشرة
دراهم في اسواق مدن العراق في صدر الاسلام ، صار في النصف الثاني من
القرن الاول الهجري يساوي اثني عشر درهما . وفي العصر العباسي وصل
الى ثلاثة عشر درهما ، ثم الى اربعة عشر درهما او اكثر . وقد اعترف
الشرع بجباية الزكاة بالنقدين .

الا انه من الملاحظ ان الاقبال على التعامل بالدينار الذهبي بأسواق
المدن كان اشط من التعامل بالدرهم الفضي ، لأن رغبة التجار منصبة على
قبول العملة الذهبية ، لأن طبيعة هذا المعدن الثمين تتحمل الخزن
اكثر من ظيره الفضة .

ومن القراءات المتأنية للنصوص ، تتلمس روايات تشير الى ان نقودا
ضربت في عواصم الاقاليم التي تتكون منها الدولة العباسية ، ومع ذلك
جرى التعامل بها في اسواق العراق ، لأنها كانت محتفظة بالوزن الشرعي ، اذ
نقلها التجار والمسافرون ، او وردت الى بيت مال العامة الموجود في العراق
حينذاك كضرائب .

وشهد النظام النقدي ، دراهم « بهرجة » ، وهي التي تكثر فيها نسبة
المعدن الرخيص لأنها لم تضرب بدار الضرب الحكومية . فهي والحالة
هذه لا تلقي اقبالا كبيرا في تعامل الناس بها .

والحق ان النقود الذهبية التي ضربت من قبل الخليفة ، أو سكها قواد وأمرء الاقاليم ، لم تختلف في طرازها العام عن النقود الحكومية . كما ان الخليفة كان يعتمد الى ابطال التعامل بالنقود التي ضربت دون موافقته .

ولتسهيل التعامل التجاري من جهة ، وللوفاء بالالتزامات الضرائبية من جهة اخرى ، اقتضى النظام النقدي ضرب قطع نقدية تمثل اجزاء الدينار والدراهم منذ العصر الاموي ، واستمرت على هذه الحال خلال العصر العباسي .

وشهد النظام النقدي ظاهرة اخرى ، هي انه اذا كانت نقود التعامل غير كاملة الوزن ، سواء كانت دنائير او دراهم ، ولا تتمشى مع حساب الوزن الشرعي ، فأنها لا تقبل الا وزنا . وبذلك صرنا نعثر احيانا على معاملات تجارية كانت تجري على اساس مقدار وزن النقود .

ج - دور ضرب النقود :

لقد اهتمت الدولة العربية الاسلامية بأقامة دور الضرب في المدن الكبرى والأمصار ، ومنها العراق . واصبحت دور الضرب هذه تؤدي خدمات جليلة لا تقل شأنًا عما تؤديه مصارف الاصدار في الوقت الحاضر . فهي التي كانت تضرب الكميات اللازمة من النقود الجارية في التعامل حينذاك ، واللازمة لتنشيط التجارة ، وهي التي تزيد في إنتاجها او تقلل منه حسب حاجة السوق المحلية .

ونظرا لأهمية دور الضرب هذه اصبحت ادارتها من الوظائف الدينية الشرعية التي تندرج تحت لواء الخلافة . وافردت الدولة ديوانا خاصا للنقد ودور الضرب . وخصص لهذه الدور عامل مهمته النظر في أمر النقود التي يتعامل بها الناس ، وحفظها مما قد يداخلها من الغش والتزييف .

وكانت دور الضرب تشكل موردا هاما من موارد بيت المال ، لأنها تقوم بسك ما يقدمه الافراد اليها من سبائك طبقا للوزن المقرر نظير تقاضي رسوم معينة . وبلغت واردات الدولة من دور الضرب بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة فقط (٦٠٣٧٠ ديناراً) كما جاء في الميزانية التي اعدّها علي بن عيسى سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م .

وكانت اعمال الادارة في دار الضرب موكلة الى شخص يسمى « متولي دار الضرب » . وكان الاشراف الرسمي للقاضي . ولعل السبب في ذلك ضمان شرعية النقود التي تصدر عن دار السكة ، سواء من حيث جواز العيار ، أو الوزن . اما متولي دار الضرب فكانت له السلطة المباشرة على العمال في الدار ، وهو والحالة هذه لم يكن وجوده يتعارض مع اشراف القاضي من الوجهة الادارية .

وهناك ايضا (المشارف) ، الموكل اليه حفظ جميع المحتويات من فضة وذهب ، وسكك ، وآلات ، ومنها الصبغ والعيار وختم الاقداح ، وتحرير وزن عيار الذهب والفضة . وكذلك (الشاهد) الذي يشهد على جميع ما حوت الدار .

اما المقدم فهو أهم شخصية فنية بدار الضرب موكول اليه حفظ عيار الذهب وسبائكه التي ترد الى دار الضرب . ويوجد (النقاش) ، ومهمته نقش السكة ، اي حفر الكتابات المزمع ابرازها على النقود . ويحضر السباك وزن المعدن قبل طرحه في البودقة في حالة السبك . ويتولى الضرب على السبيكة ، والختم على السكة .

٦ - النظام المصري :

الصيرفة ، من الانظمة المالية التي واكبت نشأة المدن العراقية وتوسعها ، كما واكبت النشاط الاقتصادي والتجاري والمالي في اسواق المدن .

ومعروف أن النقود ضربت من المعادن الثمينة ، الفضة والذهب .
ونتيجة لندرة هذين المعدنين ، ومحدودية مناجمهما في العالم ، وتزايد الاقبال
العالمي على اقتنائهما ، نجد أن النقود التي ضربت منهما قد تعرضت الى انواع
شتى من الغش ، والتدليس ، والتزييف سواء في وزنها ، أو في نسبة نقاوة.
المعدن الجيد المضروبة منه . ازاء هذا الامر يقوم الصيرفي بمهمة اجراء
التفاضل بينها لتحديد درجة جودتها وزقا ونقاوة .

وتشير الروايات التاريخية الى وجود صرافين في اسواق مدينة الحيرة.
قبيل تحرير العراق من قبل الجيوش العربية الاسلامية . وبعد أن نصرت
البصرة والكوفة وواسط وبغداد وسامراء ، كان للصرافين في اسواقها دكاكين
معينة ، مارسوا فيها عملهم المصرفي .

١ - بيت المال ودوره في عمليات الاقتراض :

ومنذ قيام الدولة العربية الاسلامية ، نشطت الحركة التجارية ،
ومارسها عدد كبير من الناس في المدن العراقية . وقسم من هؤلاء كان ذا
ثراء كبير وواضح ، فأستطاع أن يسير أعماله التجارية بما يملكه من اموال.
كافية . وقد وجد بجانب هذا الفريق الثري ، عدد قليل ممن لا يمتلكون رؤوس.
اموال كافية لممارسة النشاط التجاري الذي أخذ يدر على اصحابه موارد
مالية مجزية .

اتجه المقرضون الى وجهتين ، الاولى : الى الاغنياء أو الموسرين الذين
كانت لديهم اموال طائلة لا يستطيعون استثمارها جميعا بأنفسهم ، فأقترضوا
من شاء الاقتراض ومزجوا الاقتراض بالتجارة ، فاشتركوا مع المقرضين
بتجارتهم ، وبذلك ضمنوا نصيبا من الربح عن اموالهم الموظفة دون أن
يكونوا قد خالفوا النصوص الشرعية . في حين اتجه القسم الآخر الى
الاقتراض من بيت المال الذي يمكن ان نعهده بمثابة « بنك الدولة » الذي
يقوم بتسليم الواردات التي تأتيه من جبايات الضرائب ، ودفع النفقات

التي تتطلبها مرافق الدولة ، مع الاحتفاظ بمبلغ احتياطي لمجابهة الاحوال الطارئة . فعلى سبيل المثال كان مقدار الاحتياطي في بيت مال البصرة ابان واقعة الجمل ستمائة الف درهم (الطبري ١ / ٣٢٢٧) ثم ارتفع في نهاية خلافة الامام علي بن ابي طالب (رض) الى ثمانية ملايين درهم (يعقوبي ٢٤٣ / ٣) . في حين كان الاحتياطي في بيت مال الكوفة عند قيام حركة المختار الثقفي حوالي ثمانية ملايين درهم .

وبيت المال سواء كان في البصرة والكوفة ، أو واسط ، او بغداد ، فيما كانت له موارد غزيرة تصب فيه ، تأتي في مقدمتها الاموال التي كانت تجبى من اراضي الخراج التي شكلت نسبة عالية من موارد بيت المال . ذلك ان (الماوردي ص ١٧٥) ذكر ان وارد سواد العراق فقط في زمن الخليفة عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وعشرين ألف درهم ، وجبى والي العراق عبيدالله بن زياد مائة ألف ألف وخمسة وثلاثين ألف ألف درهم ، وكان وارده خلال ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف . في حين كانت جباية سواد العراق في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف . كما شكلت موارد الجزية موردا آخر لبيت المال في مدن العراق . ففي رواية (لابي يوسف ص ١٢٨) ، انه كان بالعراق خمسمائة ألف ممن يدفعون الجزية التي قدرت بثمانية وأربعين درهما على الاغنياء والموسرين ، واربعة وعشرين درهما على متوسطي الحال ، واثنى عشر درهما على مادون ذلك . كما شكلت عشور التجارة ، وعشور الزرع موردا آخر من موارد بيت المال . هذا فضلا عن زكاة الاموال من الفضة والذهب والاعنام والأبل وبقية الحيوانات . كل هذه المواد كانت تصب في بيت المال في المدن العراقية الرئيسية . وأن قسما منها تخرج في وجوه الاتفاق المتعددة . ومع ذلك يبقى خزين في بيت المال يمكن الاستفاد منه في مجالات استثمارية اخرى .

والنظام المالي اباح لأمير الاقليم الاستفادة من بعض الخزين في بيت المال لأغراضه الخاصة ، ولتمشية اعماله التجارية والمالية ، كما فعل عبيد ابن عامر ، وزياد بن ابي سفيان •

وكان عبدالله بن مسعود مسؤول بيت مال الكوفة اقترض أحد المواطنين مالا من بيت المال ، كما قام بيت المال بعمليات التحويل التجاري للذين يتاجرون بين اقاليم الدولة ، فسهل معاملاتهم التجارية والمالية • فلدينا اشارة الى ان عبيدالله بن عمر قد اقترض مبلغا من بيت مال البصرة ايام الوالي ابي موسى الاشعري ، اشترى به بضاعة اخذها الى الحجاز للتجارة ، وبعد ان صرفها في السوق هناك دفع المبلغ الذي اقترضه الى بيت مال الحجاز • كما قام بيت المال بوظيفة اخرى هي التعامل بالنقد ، فقد كان يبيع النقود الزائفة والمسوحة •

وقام بيت مال مدينة واسط في زمن الوالي الحجاج بن يوسف الثقفي بدور بنك التسليف الزراعي ، فاقترض الفلاحين هناك مليوني درهم لتخفيف الضائقة المالية التي كانوا يعانونها • وأشار (ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٢٠) الى المساعدات المالية التي قدمت لمزارعي العراق في خلافة عمر بن عبدالعزيز الذي كان يدعو الى تقديمها باستمرار لانها تقوي من قدرة وقابلية الفلاح في استثمار أرضه ، وتحقيق الاستمرارية في زيادة انتاجية الارض ، حيث كتب الى عامله في العراق : « ان اظن من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يتقوى به على عمل أرضه ، فأنا لا نريدهم لعام ولا لعامين » •

ومن اجل المحافظة على استمرارية انتاجية الارض ، قدم الخليفة المتوكل على الله قرضا مقداره عشرة آلاف دينار الى مزارعي منطقة (باسورين) في الموصل • وقدمت عشرة آلاف اخرى في خلافة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) لفلاحي (الصلح والبارك) في المنطقة الممتدة بين واسط والبصرة • وقد اعطت هذه القروض مردودات ايجابية ، حيث عملت على

رفع معنوية الفلاحين ، وضاعفت من عنايتهم بأراضيهم • اذ كانت هذه الاموال تعينهم على توفير المستلزمات الزراعية الضرورية ، كالبذور ومتطلبات الحراثة والسقي وغيرها •

وأشار (الصابي ، الوزراء ص ٣٦٤) الى سياسة الدعم التي سار عليها وزير الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) علي بن عيسى التي ابتغى من وراءها اعتماد سياسة زراعية تؤدي الى زيادة الانتاج ، دعماً للاقتصاد الدولة ، وتحقيقاً لمبدأ العدالة اذ كتب الى عامله في الصلح والمبارك بتقديم الاموال لاصحاب الحاجة من المزارعين كي يستطيعوا شراء البذور ولوازمهم الاخرى • وليست لدينا اية اشارة الى ان بيت مال الاقاليم ، أو المركزي أخذ فائدة من هؤلاء المقترضين • والراجح انه كان يكتفي بتسليم المبلغ نفسه الذي سبق أن دفعه الى المقترض •

ولم يكن الاقتراض مقصوراً على رجال الدولة والتجار والمزارعين فقط ، اذ قد يلجأ اليه افراد من عامة الناس ، او من الجند من اهل العطاء ، خاصة عندما لا يدفع لهم العطاء في الوقت المحدد • واحياناً عندما لا يكفيهم هذا العطاء لسد حاجاتهم المعاشية •

وتعاملت بيوت الاموال في مدن العراق الرئيسة مع متقبلي الضرائب (الدهاقين) الذين كانوا يجمعونها من مزارعي المقاطعات ، ويدفعونها الى مسؤول بيت المال بثلاثة اقساط • اذ كان على كل واحد من هؤلاء المتقبليين أن يدفع لبيت مال المصر ثلث وارء المصر كل اربعة اشهر بصورة منتظمة •

ومعلوم أن امصار العراق الرئيسة كانت تدفع سنوياً مبلغاً يتراوح بين مائتين وخمسين الف الى عشرة ملايين درهم (قدامة ، الخراج ، ص ٢٣٧) ، وعندئذ يتحتم على كل واحد من هؤلاء المتقبليين ان يكون تحت تصرفه مبالغ كافية لسد هذه الاقساط في مواعييدها المحددة • ومن المحتمل أن بعض المتقبليين لم يمتلك ما يكفيهم للايفاء بهذه المتطلبات ، وحينئذ يضطر الى

الاقتراض ، أو يكون مع غيره شركة كي يستطيع سداد ما سبق أن تعهد به من التزامات مالية . ومن جانب آخر قد لا تتوافر لدى دافعي الضرائب المبالغ اللازمة التي يتحتم عليهم دفعها ، فينبغي هؤلاء المتقبلون لا قراضهم النقود لكي يمكنهم من دفع ما بذمتهم من ضرائب . ومن المحتمل أن المتقبلين يجنون من ذلك ارباحا طيبة ، وان لم تكن دائما شرعية . ولعل خطوة والي واسط والخليفة المتوكل على الله في اقراض المزارعين من بيت المال كانت قد فوتت على هؤلاء المتقبلين فرصة في جني الارباح . وابان ولاية الحجاج على واسط ايضا اصبح بيت المال مسؤولا عن سك النقود الخاصة بالدولة ، كما أذن لمن لديه سبائك فضة بضرب نقود في دور الضرب الحكومية مقابل واحد في المائة ، الامر الذي زاد من اعمال بيت المال ، وجلب له ارباحا جمة .

ب - البنوك الخاصة :

وبجانب بيت المال ظهرت في المدن بنوك خاصة يمتلكها اصحاب الاموال الذين كانوا يوظفون اموالهم ، كلها او بعضها ، في الاعمال المالية والاقتراض ، وكان نشاط هذه البنوك وسعة تعاملها يتوقفان الى حد كبير على ثروة صاحبها . وأن كان هؤلاء يقبلون احيانا الودائع التي يأخذونها من بعض الاغنياء ، كالقواد ، وكبار موظفي الدولة ، ممن لا خبرة لهم في الشؤون المالية وتنميتها . ومن الصعب تقدير رؤوس هذه البنوك وودائعها وديونها لأن المصادر لا تشير الى ثروات هؤلاء بدقة .

ومهما يكن فقد تولت هذه البنوك خلق الاعتماد واقتراض النقود . ولما كان الربا محرما في الاسلام ، فإن كثيرا من المصادر اغفلت ذكر مقدار الفائدة أو تحديدها . وفي مجال آخر اضطر الاتقياء من اصحاب هذا النوع من البنوك الى مزج اعمالها بالتجارة ، فيبيعون المدينين بضاعة بسعر اعلى من سعر السوق السائد ، على أن يكون الدفع مؤجلا . والفرق بين سعر

السوق وسعر البيع هو في الحقيقة الفائدة على ثمن البضاعة عن المدة التي يؤخر فيها الدفع ، عن ثمن الشراء . ولكن بإمكان أهل الذمة الاقتراض بفائدة . ولدينا روايات تاريخية تشير الى نشاط عمليات الاقتراض في البصرة والكوفة وغيرهما (ابن حنبل ٢٠/٤) ، كما لدينا معلومات عن بعض القروض ، فقد أورد (السكري ، المحبر ص ٣٤٢) أن (أبا دكين مولى مراد) اقترض عشيرته سبعمائة ألف درهم .

نستطيع أن ندرك مدى ثراء البنوك الخاصة اذا ما علمنا أن طلحة بن عبيدالله كان يغل كل يوم من العراق ألف درهم . وكان لفيروز بن الحصين مليوناً درهم موظفة في البصرة (الطبري ١٢٠/٢) .

وقد يكتفي المقرض بثقلته في المقرض ضماناً له ، وبذلك يتم الاقتراض دون أخذ مستندات مالية مكتوبة . وفي بعض الاحيان كان على المقرض أن يقدم كمياً يكفله برد الدين في حالة امتناع ، أو عجز ، المقرض عن الدفع . وفي احيان اخرى يكتفي المقرض بأخذ رهن يفي بمقدار القرض أو يزيد ، وله الحق في الانتفاع من هذا الرهن لمصلحته الخاصة . وهذه المنفعة التي يجنيها المقرض من الرهن يمكن اعتبارها فائدة على القرض المدفوع . واذا لم يستطع المقرض دفع القرض في الوقت المحدد ، فإن الدفع قد يمدد أجله ، أو قد يطلب من الكفيل أن يدفع عنه ، أو يلجأ المقرض الى الحكومة لتحصيل قرضه .

وقامت البنوك الخاصة ايضاً باستعمال الصكوك والحوالات أو السفاتج التي بدورها نشطت الحياة الاقتصادية ، وسهلت الامور المالية بين مدن العراق وبقية اقاليم الدولة الاخرى ، وكانت تجنى من ذلك فوائد مالية جيدة .

وكان لبعض البنوك الخاصة في الاقاليم فروع في العراق ، حيث اورد (ابن سعد ٧٦/٣) أن بنك الزبير بن العوام الذي كان مركزه المدينة ، له

فروع في الكوفة والبصرة ، وانه كان يشغل بناية ضخمة ، قدر المسعودي
٤ / ٢٥٣) قيمتها في عهد معاوية بن ابي سفيان بمائة الف درهم . وذكر
(السرخسي ١٤ / ٣٧) أن لعبدالله بن عباس فروع بنوك في
الكوفة والبصرة ايضا .

وبلا ريب ، فإن البنوك اسهمت في تنشيط الحياة الاقتصادية ، لاسيما
في مجال التبادل التجاري مع اقاليم الدولة . كما أن مدينة البصرة والموصل
نشطت فيهما الاعمال المصرفية بحكم تعامل أهلها مع تجار اجانب
يملكون نقودا اجنبية ، والتي كان الصيارفة يتولون تقدير قيمها حسب قيمة
ما فيها من معدن ، بصرف النظر عن السعر الرسمي لتلك النقود .

وقام الصرافون بدور الوسيط بين الشعب ودار الضرب الحكومية ،
فكان عليهم أن يقدموا لدور الضرب السبائك التي يشترونها من الناس لضربها .

وقد تنعكس الحالة ، اذا قصرت واردات بيت المال عن سد النفقات ،
فعندئذ تضطر الدولة الى الاستعانة بالمبالغ الاجتياطية المخزونة في بيت المال .
فاذا لم تكف هذه ، فألها اما أن تخفض النفقات ، أو تلجأ الى الاقتراض .
فخلال تمرد الخوارج انخفضت واردات بيت مال البصرة ، فقدم التجار
والموسرون قروضا للدولة من اجل تعزيز مركزها حتى يتسنى لها أن تخدم
هذا التمرد . وقد استطاعت الدولة رد المبالغ التي اقترضتها حالما اخمد هذا
التمرد . واصيب بيت مال واسط بعجز مالي موقت في عهد الحجاج بن
يوسف الثقفي من جراء حركة عبدالرحمن بن الاشعث ، وحرق الديوان ،
فانخفضت واردات بيت المال . ولكن في هذه الحالة لم يلجأ أمير واسط
الى الاقتراض ، بل اقدم على خطوة اخرى عالج من خلالها العجز المالي ،
اذ قرر انقاص عيار العملة .

وعالج الخليفة العباسي الاول (ابو العباس عبدالله بن محمد) ظاهرة
الازمة المالية التي تعرضت لها الدولة ابان قيام الخلافة العباسية ، اذا لجأ

الى الصراف (ابن ابي مقرن الصيرفي) فأقترض منه ألف ألف درهم . ويبدو أنه كان وراء هذه الخطوة دوافع اقتصادية أملتها ظروف الدولة الجديدة على الخليفة العباسي الاول ، فوقع تحت تأثيرهم ، مما اضطره الى الاقدام على خطوة اخرى ، اذا امر بانقاص وزن الدرهم حبة واحدة ولما اشتدت عليه الظروف اضطر الى انقاص وزن الدرهم مرة اخرى حبتين خلال عهده القصير (١٣٣ - ١٣٦ هـ) . ويبدو أن هذه الازمة المالية امتدت الى بداية عهد الخليفة العباسي الثاني ابي جعفر المنصور الذي اقدم هو الآخر على انقاص وزن الدرهم حبة اخرى .

وفي الواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجريين ، برزت ظاهرة العجز المالي من جديد ، وصرفنا نشهد أن البنوك الخاصة اخذت تقرض الدولة عندما كانت تتعرض احيانا لازمة مالية شديدة الوطأة . ففي سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م استعان الوزير علي بن الفرات بصرافين يهود لتمشية امور الدولة المالية . كما أن الوزير الجديد علي بن عيسى شعر بحاجته الماسة الى هذين الصرافين عندما تلمس بوادر الازمة المالية ، واتفق معهما على ان يقرضاه في مستهل كل شهر مائة وخمسين ألف درهم ، على ان يرتجعاها من وارء أحد الاقاليم فيما بعد . وكان هذان الصرافان يأخذان ربح دائق ونصف فضة في كل دينار .

وهكذا كلما حدثت ازمة مالية التجأ المسؤولون الى الاقتراض ممن تتوافر لديهم الاموال لقاء فائدة مقررة يثفق عليها في حينه . فقد حدث ان اقترض الوزير عبيدالله بن محمد الكلوزاني عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م من الثري (ابن ابي بكر قرابة) قرابة مائتي ألف دينار بربح درهم في كل دينار . واقترض (بن ابي بكر بن قرابة) اموالا اخرى بربح درهم في كل دينار للحسين بن القاسم ، عندما تولى الاخير منصب الوزارة (مسكويه ٢١٣/١ و ٢٢٠) . ان حصول هذه الظواهر المالية دفع بعضهم الى التفكير بضرورة تثبيت النظام المالي في المدن على اسس متينة وثابتة ، فأسس في بغداد أول مصرف رسمي عرفته الدولة العربية الاسلامية ، وبهذا الاجراء

تحسن الوضع المالي نسبيا ، وحصل نوع من التوافق في موازنة الدخل والخرج •

كما أن التجار كانوا يضطرون أحيانا الى التعامل مع الصرافين ، نظرا الى ان الاقاليم الشرقية من الدولة كانت تتعامل بالدرهم في الاغلب ، في حين كانت الاقاليم الغربية تتعامل ، في الاكثر ، بالدنانير الذهبية ، وفي هذه الحالة اصبح لابد من وجود الصرافين لتغيير العملة التي كانت قيمتها عرضة للصعود والهبوط ، تبعا لتقلبات قيمة المعدن المكونة منه •

وبذلك تعد نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي نقطة تحول فاصلة في تاريخ (النظام المصرفي) في العراق ، حيث اتسمت هذه الفترة بتبلور تنظيماتها ومؤثراتها ، اذ اقدم قسم منها على تأسيس فروع لها في بعض اقاليم الدولة العربية الاسلامية ، مثل مصر ، وأصفهان ، وتستر • وتم التنسيق بين مركزها الرئيس في بغداد ، وفروعه الكائنة في هذه الاقاليم •

وكان اوسع المصارف العراقية قوة وفعالية ذلك المصرف الذي تأسس في بغداد سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م • والذي وضع خدماته تحت تصرف الدولة بالمرتبة الاولى ، ثم لأرباب الاموال من القطاعات الاخرى • وكان عمله الرئيس فتح الاعتمادات المالية لخزينة الدولة المركزية • فقد تم الاتفاق بين علي بن عيسى مؤسس هذا المصرف ، على ضرورة تقديم اعتمادات مالية سنوية تقدر بنحو مليون وثمانمائة الف درهم سنويا • ، على ان يحال امر تسديدها الى جبايات الاقاليم (التنوخي ، نشوار ٨ / ٤١ - ٤٢) فضلا عن ذلك اخذ هذا المصرف بقبول الودائع ، وقد بلغت احداها ثمانية ملايين دينار ، ثم مد القروض وتنظيم المعاملات والوثائق المالية ، وعقد الصفقات التجارية • وكان معظم عملائه من التجار وكبار رجال الدولة •

واسهم في تأسيس هذه الانواع من المصارف عدد من الموسرين من ذوي الخبرة والاختصاص في الاعمال المصرفية ، واحوال العملة وتجارها •

والى جانب هذه المصارف ، هناك عدد من الصيارفة ، مارسوا الفعاليات المصرفية المختلفة ، معظمهم من التجار وأصحاب المهن الذين مزجوا بين التجارة والصيرفة ، وانتشروا في اسواق المدن ، حيث افردت لهم اسواق خاصة في عدد من المدن الرئيسية اذ اشارت المصادر الى اسواقهم في كل من الحيرة ، والبصرة ، والكوفة ، وواسط ، وبغداد ، والموصل وسامراء .

وقدم (ماسونيون P. 8-9) تفصيلات وافية عن ارتباط وعلاقة الحجاز والشام ومصر واسبانيا بالمؤسسات المصرفية العراقية . فقد ارجع الامر الى العلاقات السياسية التي كانت قائمة آنذاك بين هذه الاقاليم . اذ أن المنافسة الكائنة بين العباسيين في العراق ، والفاطميين في شمال افريقيا ومصر ، لعبت دورا ايجابيا فيها . حيث عمل الفاطميون على تشجيع انتقال اصحاب رؤوس الاموال والاعمال الى مصر ، وكان بينهم عدد من الصيارفة العراقيين . والذي سهل لها هذا الامر أن عددا من المصارف العراقية كان لها فروع في مصر .

لقد مارست المصارف في مدن العراق انواعا متعددة من الاعمال المالية . اذ بحكم تعلق اختصاص الصيارفة بالنظام النقدي ، فقد بذلوا جهودا فاعلة في تسهيل أمر تبادل النقود في الاسواق ، اما نقدا ، أو بموجب وثائق مالية قابلة للصرف . وبلا ريب ، فإن عملية تبادل النقود مهمة اساسية تتطلبها النشاط الاقتصادي والمالي في المدن ، بفعل ارياد التجار الاجانب الذين يحملون معهم نقودا قد تختلف عن النقود المتداولة في المدن العراقية .

وحينئذ يبرز دور الصرافين فيها من خلال التعرف على جنسيات التجار الوافدين على العراق . وكان الصيارفة هم الجهة الوحيدة التي تتولى أمر تقويم جودتها ، وتحديد وزنها ، والتثبت من قيمتها النقدية ، ازاء النقود المتداولة في مدن وأسواق العراق .

وبخصوص التجار الاجانب الوافدين على مدن العراق ، فإنه يكفي الإشارة هنا الى مذكره (يعقوبي البلدان ص ٢٣٣ - ٢٥٤) عن مدينة

بغداد والنشاط الاقتصادي والمالي في اسواقها ، والتسهيلات التي قدمها الصيارفة للتجار الاجانب القادمين اليها من انحاء شتى . ومن المؤكد ان هؤلاء التجار تأثروا ، ومارسوا النظم المالية في هذه المدينة . والراجح أن بعضهم نقل بعض هذه النظم الى بلدانهم حيث مورست هناك .

واشارت المصادر الجغرافية الى نشاط بعض التجار العراقيين الذين جابوا مناطق عديدة من العالم ، وأسسوا الوكالات والمراكز التجارية في بعض منها ، فقد استوطن في مدينة صيمور الهندية عدد من تجار البصرة وبغداد ، وقام المسعودي عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م بزيارة مركزهم التجاري ، وتقد اسواقهم ، واطلع على نشاطاتهم (١ / ٣٣٣) . واشاد (ابن حوقل ص ٦٥) بالمركز التجاري العراقي في مدينة سلجاسة المغربية الذي ضم عددا من تجار البصرة والكوفة وبغداد .

ج - استخدام الصك والسفتجة :

لقد تطورت النظم المالية ووسائل التعامل التجاري بأسواق المدن العراقية ، تبعا للتطور الذي شهدته الحياة الاقتصادية في عموم الدولة . فالى جانب التعامل بالعملة النقدية ، من الدنانير والدراهم ، صرنا نشهد استعمال الصكوك في ميادين متعددة ، على مستوى القطاعين الرسمي والشعبي اذ استخدم الصك كوسيلة لدفع الاموال ، وهو أمر خطي يدفع بواسطته مقدار من النقود الى الشخص المسمى فيه .

والصك وسيلة لأيفاء ما يقع على الحكومة من التزامات خاصة بالصرف ، كالرواتب ، والاوراق ، والاعانات ، والمنح ، ووجوه النفقات المختلفة ، مهما كانت مبالغها .

ويجري تحرير الصك بدقة متناهية ، ويُدْرَج فيه اسم صاحبه ، ومقدار المبلغ الواجب الدفع (رقما وكتابة) ، وموعد الاستيفاء . وقد يُؤرَخ ويحتم بخاتم خاص ، ويصدق عليه .

ويتم دفع المنح المالية التي كان يهبها المسؤولون الى المقربين منهم في بعض الأحيان بالصكوك . ومن المؤكد أن مثل هذه الصكوك كانت تصرف اما عند الصيارفة ، أو في بيت المال (بنك الدولة) . ويبدو أن الصكوك عندما تعطى الى شخص ما كانت تثبت في سجل خاص في الدواوين بأعتبرها من النفقات التي صرفت من بيت المال .

وكان والي العراق يزيد بن المهلب يشتري متاعا ويصك الصكاك به الى صالح بن عبدالرحمن المسؤول عن الامور المالية في الولاية لكي ينفذها . ولكن صالحا، أحيانا لا يروج هذه الصكاك الا بجهد ومطل، وقد يرد أكثرها . وأن صرف الصك من قبل الصيرفي كان يقتضي أخذ عمولة عليه . فياقوت (ارشاد الاريب ، ٢/٢٧٢) اشار الى ان الوزير الحسن بن مخلد منح الشاعر « جحظة » خمسمائة دينار وأعطاه صكا بها على صيرفي ببغداد ، فتوجه اليه جحظة ، فافهمه الصيرفي ، ان الرسم يقتضي أن ينقص في كل دينار درهما .

ويبدو أن النظام المصرفي الذي ترعرع في العراق ، ومورس على نطاق واسع ، مورس ايضا في مدن عربية أخرى . اذ روى (ابن حوقل ص ٦٥) انه شاهد في مدينة (اوغست) المغربية صك ائتمان حرر بمبلغ اثنين وأربعين ألف دينار بين تاجر عراقي وآخر مغربي .

كما أن الدولة كانت تسترد ديونها من المدينين عن طريق صكوك خاصة، أو توفي ديونها باستعمال الصكوك . وجرى التعامل بالصكوك حتى في بعض حالات الصادرات .

ونظرا لما تقوم به الصكوك من تسهيل قضايا البيع والشراء في الوقت الذي لا تتوافر فيه الاموال نقدا من جهة ، ولكونها وثيقة ائتمان مضمونة لتقرير الديون واستيفائها ، فقد تطور استعمالها في مدن العراق الرئيسة بعد

القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، بشكل مثير للاهتمام ، وحل محل التعامل النقدي ، وجعل هذا الامر مخطط اعجاب غير العراقيين .

وخلال القرن الرابع الهجري ، شهدت اسواق مدينة البصرة ارقى صور التعامل المالي والتجاري ، اذ اورد تفصيلاتها الرحالة (ناصر خسرو ص ١٤٥) في رحلته ، حيث اطلع خلالها على النشاطات التجارية والمصرفية القائمة في اسواق البصرة الرئيسة ، مثل سوق خراعة ، وسوق عثمان ، وسوق القداحين ، حيث لاحظ أن بإمكان التجار الوافدين الى مدينة البصرة أن يعطي كل واحد منهم ماعنده من مال لأحد الصرافين ، ويأخذ منه صكاً ثم يشتري كل ما يلزمه ويحول الثمن الى الصراف الذي تعامل معه . ويستشف من هذا الاجراء مبلغ الرقي والتطور الذي بلغه النظام المصرفي في مدينة البصرة ، والذي شمل تبادل العملات ، وحفظ الايداعات وتنظيم المعاملات ، وحالة صرفها . كما أن هذا النظام أوضح في الوقت نفسه ان الصكوك اصبحت هي المعول عليها في تنظيم المعاملات بين التجار والصيارفة ، بحيث اصبح المشتري لا يستخدم شيئاً غير صك الصراف طالما هو مقيم في المدينة .

ومن النظم المالية التي شهدتها مدن العراق استعمال السفتجة . فالى جانب التعامل بالعملة النقدية ، من الدنانير والدرهم ، واستخدام الصكوك ، صرنا نشهد استعمال الحوالات أو السفاتج ، التي تعني أن تعطي مالا لرجل له مال في بلد تريد أن تسافر اليه فتأخذ منه خطا « سفتجة » لمن عنده المال في ذلك البلد ، أن يعطيك مثل مالك الذي سبق أن دفعته قبل سفرك .

والحق ان نظام السفتجة ، أو الحوالات ، قد ظهر استعماله في مدن العراق منذ وقت مبكر من قيام الدولة العربية الاسلامية ، ذلك ان الزبير بن العوام كان يأخذ الورق من التجار فيكتب لهم سفاتج الى البصرة والكوفة ، فيأخذون أجود من ورقهم . وعن عبدالله بن عباس انه اكان يأخذ أجود من

ورقهم . وعن عبدالله بن عباس انه كان يأخذ الورق بسكة من التجار والمسافرين على ان يكتب لهم الى الكوفة ليأخذوا مثل ورقهم .

وبعد أن أصبح العراق مركز الدولة العربية الاسلامية . ووضحت بغداد حاضرة الخلافة العباسية تبلور نظام السفتجة ، وتحددت أطره . واستخدم في مؤسسات الدولة الرسمية ، اذ كانت إيرادات الاقاليم . احيانا . تصل الى بيت المال المركزي ببغداد بواسطة سفاتج تحرر لهذا الغرض . ويحال أمر صرفها الى التجار ، أو الصيارفة . من لهم تعامل خاص مع الجهات الرسمية ، ليتم تصفية الحسابات الخاصة بشأنها . وفي هذا الصدد يشير (مسكويه ١/٤٢ - ٤٣ و ١٤٦) الى ورود سفاتج الى بغداد من بلاد الشام ومصر ، والاحواز وفارس . وكرمان ونواحي المشرق . وفضلا عن هذه ، وردت في المصادر سفاتج اخرى حررت لاغراض سياسية مختلفة . منها السفتجة التي تم تبادلها بين بغداد ومدينة (ميفارقين) عام ٣٣٣ هـ . ويرى (الصايي ص ٩٣) ان عمال الاقاليم كانوا يرسلون الاموال من اقاليمهم الى بغداد ، اما « مع رسل ، أو سفاتج تجار الى تجار » .

وخلال القرن الثالث ، وبداية القرن الرابع الهجريين . العاشر الميلادي ، أصبح التعامل في اسواق المدن ، أو دفع الديون ، ليس بالنقود فقط ، وانما بالسفتجة ايضا ، وأن الهدف من استعمال السفتجة في المعاملات المالية ، كان الغرض منه نقل النقود من مكان الى آخر دون تعرضها لمخاطر الطريق . فهي والحالة هذه كانت وسيلة للحيلولة دون اجراء الدفع بالسلات المعدنية في الاماكن البعيدة . اذ في حالة التعامل بالسفاتج يكون وصول الاموال اضمن ، وبعيدا عن عاديات الطريق ومخاطره .

ونشط نظام السفتجة بين المدن العراقية . ذلك ان هذا النظام توافرت فيه الثقة والسرعة والامان ، كما استبعد مخاطر فقد النقود المراد نقلها من مدينة الى اخرى . ويرى (ابو شجاع ص ١٩٨) ان سفتجة بألف دينار

صرفت عام ٣٨١ هـ / ٩٩١ م تم تحويلها الى مدينة واسط . وسفتجة اخرى حررت في الكوفة بمبلغ ثلاثين الف دينار صرفت في مدينة البصرة لشراء ضيعة . و اشار (التنوخي ، نشوار ٣/٣٨١) الى ان احد العراقيين المقيمين في مصر حرر سفتجة بمبلغ مائة دينار أرسلها الى زوجته في بغداد .

وأتاح نظام السفتجة تحويل الدين من شخص الى آخر وتصفية الحساب بينهما . كما أصبح من الممكن تصفية الحساب بين مدن وإقليم مختلفة دون الحاجة الى نقل النقود والبضائع . فلدينا اشارة الى أن مائة وخمسين دينار مغربية اودعت عند احد الصيارفة ببغداد لاتخاذ الترتيبات الخاصة بالقضية بأمر تحويلها الى احد المصارف في القاهرة . وكان بمقدور التاجر أن يقترض سفاتج من بيت المال ليشتري بها بضائع من ذلك الاقليم ، ثم يدفع ما اقترضه الى بيت مال اقليم آخر .

واحيانا يحدد أجل صرف السفتجة حسب اتفاق الاطراف المعنية . اذ اوردت المصادر سفتجة حدد اجلها بأربعين يوما من تاريخ تنظيمها . أما طريقة صرفها في الموعد المحدد ، فيجوز ان يكون بدفعة واحدة ، أو على شكل دفعات . وقد اورد (التنوخي ، نشوار ٢٢/٨) سفتجة ارتأى صاحبها ان يأخذها متفرقة على دفعات . الا انه من الممكن اذا شاء تسلمها دفعة واحدة ، على وفق شروط يتفق عليها مسبقا .

ووصل نظام التعامل بالسفاتج الى آفاق اقتصادية ومالية جديدة ، بدخولها ميدان الاحتكار والمنافسة ، والتأثير على التعامل في اسواق النقد في المدن العراقية . فبهذا الخصوص اشارت رواياتنا التاريخية الى ان السفاتج المتبادلة بين بغداد والشام ومصر وتونس ، حيث كان بعض صيارفتها يعملون بشكل هيئة مصرفية موحدة ، تقوم بتبادل المعلومات بشأن اسعار تحويل العملات ، ونوعية النقود التي ارتفع سعرها ، والاخرى التي اصابها الانخفاض ، ومقارنتها بالاسعار السائدة في سوق النقد الخاص بكل مدينة ،

ليتسنى لهم ازاءها تحويل العملات ، واعداد السفاتج لها . واصبح لدى المعنيين بنظام السفتجة أن تأخير صرفها ، أو حجبتها . سيكون له مردودات ايجابية في ارتفاع اسعار بعض العملات وفقا لقانون العرض والطلب . وقد تحسّن (مسكويه ٢٣/١) لهذا الامر ، وأتهم الوزير محمد بن عبيدالله الخاقاني ، واعتبره ضعيفا في ادارته المالية لأنه كان يهمل كتبها فيها سفاتج قادمة من الأمصار . وربما كان الوزير متعمدا في اهماله السفتجات حتى يضمن للصرافين فائدة اكبر . ونستطيع ان نقدر مقدار الخسارة التي لحقت بيت المال اذا ما علمنا أن الوزير علي بن عيسى كان يستلف من التجار على سفاتج وردت من الاقاليم لم تحل عشرة الاف دينار بربح دائق ونصف في كل دينار ، وكان يلزمه في كل شهر الفين وخمسمائة دينار أرباحا .

وبلا ريب ، فإن النشاط الاقتصادي ، وبخاصة التجاري ، كان القوة الفاعلة الرئيسة في رواج واتساع نظام السفتجة . وشيوع استخدامها بين مدن العراق وأقاليم الدولة .

وفي أول الامر ، اثار نظام السفتجة تساؤلات شرعية لدى الفقهاء ، وبخاصة اذا ما ترتب على صرف السفاتج في الاسواق عمولات مصرفية . كما هي الحال في صرف الصكوك . غير أن الفقهاء أباحوا استعمال السفاتج التي تتعامل بها الناس على انها اقتراض بغير شروط ولا أرباح .

د - نظام الرقابة المالية :

وخلال عهد الخليفة العباسي محمد المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) تم استحداث نظام مالي جديد في بغداد ، عبر عن تطور المؤسسات المالية ودقتها . كما انه اثبت من سياسة الحرص والتدبير التي ارتأت الدولة العربية الاسلامية اتخاذها . ففي سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٨ م أوعز الخليفة المهدي بتأسيس دواوين خاصة تتولى مراقبة وتدقيق الاعمال والحسابات التجارية في الدواوين العامة ، منها ديوان الازمة ، والآخر زمام الازمة .

ويستشف مما اورده (الجهشيارى ص ١٤٦ و ١٦٨) عن الكيفية التي كان يسير بها نظام الرقابة المالية الذي استحدث في العراق اول مرة . فقد اتخذت في كل مؤسسة ادارية هيئة فرعية خاصة سميت بالازمة ، اذ أوكلت اليها مهمة تدقيق ومراقبة الاعمال المالية الجارية فيها . اما زمام الازمة ، فهو هيئة مركزية عليا للرقابة ، اختصت بالاشراف على اعمال الهيئات الفرعية المذكورة .

وحددت اعمال هذه الهيئات في المؤسسات الاقتصادية والمالية ذات العلاقة ببيت المال ، أو خزينة الدولة المسؤولة عن استحصال الايرادات ، وتولي النفقات وأوجه الصرف المختلفة ، مثل ديوان الخراج . وديوان النفقات ، وديوان الجيش . وهنا يتضح أن نظام الرقابة المالية كان يسير بأساق دقيق ، وبسلسل وظيفي ، وعلى هيئة هرم .

ونظام الرقابة المالية هذا كان قد عهد بإدارته الى كادر من ذوى الخبرة والاختصاص بالقضايا الحسائية والمالية ، وأمر النقود وطرق تقويمها . وكان (التنوخي ، الفرج بعد الشدة ٣/٣١٧) قد بين زخم المعاملات والتنسيق الجاري بين كتاب الدواوين والمحاسبين .

لقد تطورت مهمة الرقابة المالية الموكلة لديوان الرقابة المالية ، شأنها في ذلك شأن التطورات الحاصلة في المؤسسات المالية والادارية الاخرى في مدن العراق . ونستطيع أن نتلمس ذلك بعد عام ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، حيث اضحى اعلى هيئة للرقابة في العراق مرتبطة بالوزير مباشرة ، اذ أوكل لصاحبه أمر مراقبة وتدقيق اعمال بيت المال المركزي ، الفروع والاصول ، ومراجعة التقارير بشأنها .

نستطيع - اذا - ان نؤكد ان نظام الرقابة المالية الذي نشأ في العراق ، قد امتاز بالقدرة والكفاءة ، على وفق الاهداف المتوخاة التي ارتأى المسؤولون تحقيقها . ومن هذا المنطلق ، اختيرت عناصره من بين المتميزين في الامور

الكتابية والحسابية . وتشير المصادر ضمن احداث القرن السادس الهجري وما بعدها ، الى وظائف مالية للتفتيش والرقابة والتدقيق : فضلا عن هيئات الرقابة المعروفة بالزام . ومن هذه الوظائف ، الناظر الذي يشارك الوزير في مراقبة الامور المالية الموكلة الى الدواوين .

٧ - نظام الحسبة والمحاسب :

تأتي اهمية نظام الحسبة على اسواق المدن من عدة جوانب : فهي تعكس جملة قضايا اقتصادية ، ومالية ، ودينية ، واجتماعية ذات صلة وثيقة بحياة المجتمع .

وعلى الرغم من أن قواعد الشرع واضحة ومعروفة لدى غالبية المتعاملين بالامور الاقتصادية والمالية ، لكن حب المال ، ونشاط الحركة التجارية في المدن ، اديا دورا سيئا في سلوك بعض اهل السوق . فكان لزاما ان تنظم الامور الاقتصادية والمالية في اسواق المدن . بأقلية وقوانين ضابطة . ولم يترك التعامل بها على وفق هوى النفس ، ومصالح التجار ، واهل السوق . بل نظمت تحت رقابة الدولة ، أو ولاية الاقاليم ، واشرف عليها موظف مختص هو المحاسب ، يختار على وفق مواصفات معينة .

وقد اكدت آيات قرآنية شريفة على ضرورة ضبط الموازين والمكاييل . وعلى الامانة في الكيل والوزن : حفظا لمصالح المشترين من عامة الناس . قال تعالى : « ويل للمطففين ، الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، الا يظن اولئك انهم مبعوثون » . وقال في سورة آل عمران : « ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك . ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائما » . وقال « والسما رفعها ووضع الميزان ، الا تطفوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » . وقال : « واوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين » .

ومادامت الآيات القرآنية أكدت ذلك فقد انبرى العلماء والفقهاء لوضع ادق الشروط التي تفي بتلك المتطلبات . وكان ائمة الصدر الاول يباشرون بأنفسهم مراقبة الاسواق لعموم صلاحها ، وجزيل ثوابها . ومنذ تلك الفترة المبكرة وضعت القواعد الاساسية لما ينبغي ان يكون عليه نظام الحسبة .

ويبدو أن الدولة الاموية كانت تشدد رقابتها على اسواق المدن منذ البداية ، وتتابع سير التعامل التجاري فيها . فالمدن التي مصرت بالعراق كالبصرة والكوفة ، وواسط ، اصبحت مركزا لإدارة العراق والاقاليم الشرقية من الدولة . ومن المؤكد ان عددا كبيرا من التجار ورجال الاعمال والصيارفة والصناع واصحاب الحرف وفدوا من مناطق متعددة الى هذه المدن واستوطنوها منذ السنوات الاولى لتأسيسها ، مما ادى الى ازدهار الحياة الاقتصادية والمالية في كل منها .

وفي مثل هذه الحالة ، من المحتمل ان تقوم مشاكل وملابسات اثناء سير المعاملات التجارية والصناعية التي تتعلق بحياة ابناء الشعب المعاشية . فلكي تمنع الدولة حصول الغش ، والتدليس ، والتزييف والتطيف ، والاحتكار من قبل بعض الباعة ، كان لابد لها ان تعالج هذه الظواهر ، فأوجدت نظام الحسبة لمراقبة هؤلاء ومنعهم من القيام بالاعمال المضرة بمصلحة الجماعة .

وقد أشار (وكيع ، اخبار القضاة ٢/١٩٦) الى ان الامام علي بن ابي طالب كان قد تفقد أسواق الكوفة ابان خلافته ، وحث التجار على الا يظلموا الناس ولا يمشوهم ، ولا يدلسوا عليهم . وذكر المدائني ان الجعد النمري كان على سوق البصرة ابان ولاية زياد بن ابيه عليها ، وان لديه معاونين واعوانا يساعدونه في مهمته هذه . ولدينا روايات تاريخية تشير الى ان المهدي بن عبدالرحمن كان محتسبا في مدينة واسط خلال ولاية عمر بن هبيرة الفزاري . وخلفه في هذه الوظيفة اياس بن معاوية الذي كان يتولى الكتابة

بين يديه (ابان بن الوليد بن عبيدالله) * وأن الاخير كان لديه سجل خاص
يسجل فيه اسماء اصحاب الحرف والاصناف * وان كلا منهما كان مسؤولا
عن مراقبة الاوزان والمكاييل والمقاييس ، والصيارفة ، والقصايين واهل
الحرف ، ليحول دون وقوع الغش او التدليس في المبيعات *

وخلال العصر العباسي ، شددت الدولة رقابتها على اسواق المدن ،
وتابعت سير التعامل التجاري والمالي فيها * فقد كان للخليفة المنصور
موظفون يزودونه بكل ما كان يجري في اسواق المدن عامة ، واسواق العاصمة
خاصة * فأورد (الطبري ٦٥٣/٧ والخطيب البغدادي ٧٩/١) الى انه في
سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م كان ابو زكريا يحيى بن عبدالله محتسبا على اسواق
بغداد * وكان الخليفة يختار لهذه المهمة من اتصف بالورع والتقوى ، والعلم
والمعرفة ، على ان يكون رجلا مسلما ، بالغا ، قادرا ، حرا ، عدلا ، ذا رأي
وصرامة وعلم بالمنكرات الظاهرة ، عفيفا ورعا فطنا ، لا يميل ولا يرثي ،
مواظبا على سنة الله ورسوله (ص) ومن شيمته الرفق ولين القول *

ويجب على المحتسب معرفة وحدات الوزن والكيل والاذرع المستعملة
في الاسواق ، ويتحقق من صحتها * واذا استراب بموازين أهل السوق
ومكاييلهم يجوز له ان يختبرها ويعايرها * وله أن يأمر اصحاب الموازين
بمسحها وتنظيفها من الادهان والاساخ بين الفينة والاخرى *

وكان نظام الحسبة قد تبلور بشكل واضح منذ زمن الخليفة محمد
المهدي ، حينما انتظمت احوال مدن العراق ، وماترتب على ذلك من توسع
الاسواق وتخصصها ، وازدهار التجارة ، وظهور النقود الزائفة * وعندئذ
برز صاحب السوق وصار يتقاضى راتبا معيناً من المال * وصرنا نعرض على
نصوص فيما بعد ، تبين مقدار عناية المحتسب ومعاونيه بمراقبة اهل السوق
مراقبة دقيقة ، ومد يد العون لكل من يطلبها من عامة الناس *

ومن اجل ضبط نظام الحسبة كان الخليفة هارون الرشيد لا يكتفي بما يعهد به الى المحتسب والاعوان التابعين له ، بل راقب اسواق بغداد بنفسه ليطمئن على ان الامور تسير على وفق المصلحة العامة . وفي مثل هذه الحالة كان الخليفة يتزيا بزي التجار ليتفقد اسواق العاصمة ، كما اكد على محتسب بغداد بضرورة مراقبة الاسواق والاشراف على الموازين والمكاييل ، ومراعاة ائمان الحاجيات ، منعا للغش ، أو ابتزاز اموال الناس . ويروي (الماوردي ص ٢٤١) ، ان الحكومة كانت تضع على الاسواق حراسا في الليل منعا للسرقات . وكان الخليفة المعتضد بالله قد اطلق يد محتسب بغداد وقال له : « اذهب فقد اطلقت يدك ، غير ما احببت ان تغيره من المنكر » . ولما رأى الخليفة ان المحتسب وأعوائه لا يؤدون واجباتهم بصورة مرضية انبهم لتقاعسهم هذا .

وكانت الدولة تعير اهتماما كبيرا لنظام الحسبة ، باعتباره يمثل واجهة من واجهات الحكومة التي هي على اتصال مباشر بالناس . وموظفو هذا النظام مسؤولون عن اقرار الحق ، ومكافحة الجشع والتطفيف والتدليس . لذا اعدت الحكومة لهذا النظام جهازا كبيرا بلغت نفقاته اربعمائة وثلاثين الفا وأربعمائة وتسعة وثلاثين دينار . وأن متولي الحسبة صار يتقاضى مائتي دينار شهريا .

ولم تقتصر مهمات نظام الحسبة على مراقبة المقاييس والأوزان ، بل امتدت الى مراقبة المعاملات المالية المتداولة في الاسواق . ذلك أن المسؤولين كانوا قد حذروا الصيارفة من مغبة التماذي في اخذ الربا الفاحش ، وكانوا يلزمونهم على ان يخففوا من غلوائهم في هذا المجال .

١ - تطور وظيفة المحتسب :

بمرور الزمن تبلور نظام الحسبة ، وحينئذ برزت وظيفة المشرف على الاسواق تدريجيا ، حتى صار يدعي المحتسب ، ووظيفته سميت « الحسبة » .

وهي لم تكن منصبا قضائيا بالمعنى الدقيق لنظر المظالم أو القضاء العادي ،
والنا منصب ديني خلقي اساسه « الأمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، والنهي
عن المنكر اذا ظهر فعله » . حيث ورد في (سورة آل عمران ، آية ١٠٤)
« ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ،
ويؤمنون بالله » ولأجل ان تضمن الدولة هذا الغرض ، كانت تعهد بوظيفة
الحسبة الى الناس اقوياء من سراة القوم . ففي سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م ولي
هارون بن ابراهيم الهاشمي الحسبة ، فأمر أهل بغداد أن يتعاملوا بنوع معين
من الفلوس فامثلوا لأمره .

وصار منصب المحتسب في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)
من المناصب المهمة في الدولة العباسية . وكان محتسب بغداد من جملة
اصحاب المخاطبات المعروفة ، وتعددت اختصاصاته حتى شملت الاشراف على
دار ضرب النقود وأثبت اسم الخليفة على ما يضرب من الدنانير والدراهم .
ورأى المحتسب ان من واجبه مراقبة موظفي الدولة المتقاعسين عن اداء
عملهم . وفي سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م استفتى الخليفة القاهر بالله محتسب
بغداد في أمر الصائبة .

وتعدت مهمات نظام الحسبة المعنى الديني والخلقي في الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، الى واجبات عملية مادية تتفق مع مصالح سكان المدن .
وبذا امتدت مهمات هذا النظام الى الامور الاجتماعية والاقتصادية لسكان
المدن . وتركزت هذه المهمات في الاسواق خاصة . وصار المسؤولون عن
هذا النظام يتفقدون احوال اهل السوق وحرفهم ومتاجرهم ، ومجتمع
اسواقهم ومعاملاتهم ، فيعيرون موازينهم ومكاييلهم ليتأكدوا من صحتها .
وبموجب نظام الحسبة الزم الباعة أن يتخذوا الارطال والأواقي من الحديد ،
وأن تختتم بختم الدولة ، ويجدد النظر فيها بعد كل حين . ومنع اتخاذ
العيارات من الحجارة لانها اذا قرع بعضها ببعض نقصت . ومن هنا يتبين

أن نظام الحسبة استهدف منع الغش في الصناعة والاتاج ، ومنع الحيلة والتدليس والبخس في الكيل والمعاملات ، كما أصبح المحتسب مسؤولا عن تنظيم جلوس الباعة في اسواقهم ودكاكينهم بحيث جعل لأهل كل صناعة منهم سوقا يختص بهم . واصبح من حقه ان يرى في العرف الجاري بين اهل السوق اساسا يستطيع الرجوع اليه . فيروي (وكيع ٣٥١/٢ و ٣٧٢/٢) أن قوما من الغزاليين في الكوفة اختصموا الى شريح ، فقالوا سنتنا بيننا كذا وكذا . فأفتى بينهم على وفق العرف السائد بينهم في اسواقهم .

وليس لدينا ما يشير الى وجود اضطهاد مباشر لأرباب الحرف ، أو التدخل في اسعار منتجاتهم ، أو تحديد مقدار اتاجهم .

وأجاز (الماوردي ص ٢٤١) للمحتسب أن يسعر على الناس المواد الاساسية التي تشكل قوت الشعب ، وباستطاعته أن يمنع بيع الحنطة الى تاجر محتكر ، لأن في ذلك ضررا للمسلمين . وله ان يدون في دفتره اسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ، فأن الحاجة تدعو الى معرفتهم . وله ان يراقب الجزارين ، والرواسين ، والطباخين ، والشوائين ، والصاغة ، والصباغين ، والحاكة والخياطين ، والصيارفة ، فأن كان هناك من رابى أو خالف الشريعة فيما يخص امور الصرف عزره وطرده من السوق . وله الحق في مراقبة الصيادلة الذين قد يلحق بالناس منهم ضرر بليغ . ومن حقه ان يمتحن الطبيب البيطري ليجيز له ممارسة مهنته . وعليه أن يأخذ على اطباء الأبدان عهدا الا يعطوا احدا دواء مضرا ، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الاجنة ، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل ، وله ان يمتحنهم ايضا .

واعطت الدولة للمحتسب سلطة تنفيذية ، فأصبح باستطاعته ايقاع عقوبة « التعزير » بالمتلاعبين من الباعة والكيالين . وله ان يستعين في تنفيذه بالاعوان . فمنه الردع ، والتوبيخ بالقول ، أو الضرب بالسوط . واجاز

نظام الحسبة للمحتسب ان يرى في العرف الجاري بين اهل السوق اساسا
يستطيع الرجوع اليه ، ذلك أن من صفات المحتسب ان يكون : « من اهل
الاجتهاد العرفي دون الشرعي » .

ب - تعيين عرفاء على الاسواق :

لما توسعت المدن ، وتعددت اسواقها ، ونشطت التجارة فيها ، اصبحت
من الصعوبة ان يحيط المحتسب بأعمال اهل السوق . وعندئذ جاز له ان
يستعين بأناس يساعدونه في اداء مهمته . فجعل على كل صناعة عريفا من
صالح اهلها ، خيرا بصناعتهم ، بصيرا بغشهم وتدليسهم ، مشهورا بالثقة
والامانة ، يكون مشرفا على احوالهم وتعاملهم مع زبائنهم ، ويطلع المحتسب
باخبارهم ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على كل صناعة
بصالح من اهلها » .

اهم المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٧ .
- ٣ - ابن الاخوة - معالم القرية في احكام الحسبة ، كمبرج ١٩٣٧ .
- ٤ - ابن تيمية - الحسبة في الاسلام ، دمشق ١٣١٨ هـ .
- ٥ - ابن الجوزي - المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر آباد الدكن ١٣٥٧ هـ .
- ٦ - ابن حوقل - صورة الارض ، لندن ١٩٣٩ .
- ٧ - ابن خرداذبة - المسالك والممالك ، بغداد (بلا) .
- ٨ - ابن خلدون - المقدمة ، القاهرة ١٩٦٥ .
- ٩ - ابن سعد - الطبقات الكبير ، لندن ١٣٢٢ هـ .
- ١٠ - ابو شجاع - ذيل تجارب الامم ، مصر ١٩١٦ .
- ١١ - ابو يوسف - الخراج ، بيروت ١٩٧٩ .
- ١٢ - البخاري - الجامع الصحيح ، ليدن ١٨٦٤ .
- ١٣ - بخشل - تاريخ واسط ، بغداد ١٩٦٧ .
- ١٤ - البلاذري - فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ١٥ - التنوخي - الفرغ بعد الشدة ، مصر ١٩٠٣ .
- ١٦ - الجاحظ - البخل ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ١٧ - الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ .
- ١٨ - الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، القاهرة ١٩٣١ .
- ١٩ - السرخسي - كتاب المبسوط ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .
- ٢٠ - الشيرزي - نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، القاهرة ١٩٤٦ .

- ٢١- الصابي - الوزراء ، بيروت ١٩٠٤ .
- رسوم دار الخلافة ١٩٦٤ .
- ٢٢- الطبري - تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ٢٣- العلي - خطط البصرة ومنطقتها ، بغداد ١٩٨٦ .
- ٢٤- الفزالي - احياء علوم الدين ، مصر ١٣٠٩ هـ .
- ٢٥- قدامة - الخراج وصناعة الكتابة ، بغداد ١٩٨١ .
- ٢٦- الماوردي - الاحكام السلطانية ، بيروت ١٩٧٨ .
- ٢٧- المسعودي - التنبيه والاشراف ، بيروت ١٩٦٥ .
- ٢٩- مسلم - الجامع الصحيح ، مصر ١٣٣٢ هـ .
- ٣٠- وكيع - اخبار القضاة ، القاهرة ١٩٥٠ .

الفصل السابع

الحياة اليومية في المدينة العراقية

الدكتور بدري محمد فهد

كلية الاداب / جامعة بغداد

الحياة اليومية في المدن :

كانت المدن العراقية تموج بالحركة فكل يسعى الى رزقه وعمله منذ الصباح الباكر وحتى غروب الشمس يتخلل اوقات الاستراحة والصلاة خلال النهار ، اما اذا غابت الشمس وعاد كل انسان الى داره هناك يخلد الانسان الى الراحة ، فأن كان له هوى معين في امر من الامور انصرف اليه مثل القراءة او الغناء او سماع وعظ ، او حضور ذكر او غيرها من المناسبات الحاصلة مفرحة كانت او محزنة كالولائم والاعراس والمآتم .

اما في اوقات العطل والاعياد المختلفة فكان الناس ينصرفون فيها الى مشاغلهم ليلا او نهارا ويمارسون وسائل تسليتهم المختلفة . وكانت تلك الوسائل التي تملأ فراغهم تنحصر فيما يلي :

١ - المجالس الخاصة :

وهي مجالس الاحاديث التي تجري بين الاصدقاء والاهل والاقربان واهل المهنة الواحدة ، وتكون مادة حديثهم اما عن امور عامة مما يشغل الناس او خاصة تعود الى مهنتهم فيتكلمون في همومها ومشاكلها فكان العامة يتكلمون عن صنائعهم فالحائك عن الثياب التي قطعها ونوعيتها ، وشكلها وما سيقوم به في غده ، والحجام عن الذين حجهم ومقدار ما كسب منهم ثم يصف من كان بخيلا من زبائنه ، ومن كان كريما . والمكاري يتكلم عن الكراء ومثلهم الخياط والدلال وكذلك الامر بالنسبة لذوي المهن الاخرى كالعطارين والصرافين والبزازين وغيرهم (١) .

وكانت لفئات المجتمع الاخرى كالادباء والعلماء همومها ومشاكلها ومن ثم احاديثها الخاصة بها التي ملأت بطون الكتب من مذكرات ومفاخرات ومناظرات دونها الادباء واوردها المؤرخون في التراجم او غيرها .

وكانت تلك المناظرات تحدث في الدور والمساجد ، وفي قصور الخلفاء والامراء ، وتدور حول الموضوعات المختلفة كالادب والفقه والنحو والصرف والتي تؤدي الى افادة المستمع لما يجري فيها من عرض البراهين والادلة وايراد الامثال . وكان المنشط لامثال تلك المناظرات ازدهار الشغف العلمي . وحج الظهور والتفوق على الخصوم بين ذوي الاختصاص الواحد وطمعا في نيل جوائز الخلفاء والامراء . ورغبة في الوصول الى الحق . وفي مثل هذه المناظرات ظهر الخلاف الشديد في المذاهب الفقهية بين انصار الرأي وانصار الحديث .

وقد حكت لنا كتب الفقه وطبقات الفقهاء مناظرات كثيرة بين اصحاب مالك واصحاب ابي حنيفة وبين الفقهاء والمحدثين . وبين الشافعي ومحمد بن الحسن الى كثير من امثال ذلك .

كما حكت لنا كتب النحو مناظرات بين العلماء في النحو والصرف واللغة كالفصل الذي عقده السيوطيون في كتاب الاشباه والنظائر في (المناظرات والمجالسات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات) . وقد استغرق الجزء الثالث كله (٢) . وكالكتاب الخاص في مجالس العلماء لكاتب ابن حنابة (٣) .

اما مجالس الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة التي يحضرها العلماء والادباء فهي شبيهة بمجالس الادباء والعلماء من حيث المناظرات وسماع الروايات والاحبار الغريبة والشاذة والاشاد الشعر . ولعل اشهر خليفة كانت مجالسه عامرة بالمناظرات هو الخليفة المأمون الذي كان واسع الثقافة ويجيد المناظرة في جميع العلوم .

ولقد حذى الولاة والامراء حذو الخلفاء والوزراء في جذب اهل
الادب والفن الى مجالسهم واغراق الاموال عليهم ليملاوا عليهم فراغهم
وليشيدوا باسمائهم ويخلدوها في بطون الكتب والدواوين . فقد ورد عن
والي الموصل مالك بن طوق انه يكرم الشعراء الذين يحضرون مجالسه ،
وممن حضر تلك المجالس من الشعراء مخلص بن بكار الموصلية وله في والي
الموصل هذا قصيدة مدح^(٤) ومن الشعراء المشهورين دعبل الخزاعي^(٥) .

اما مجالس الحمدانيين في الموصل فأمرها مشهور معروف في كتب
الادب والتاريخ .

اما في الحلة بعد ان استقرت الامارة الزيدية ، فقد كان لاميرها مجلس
عام قصده الشعراء المشهورين مثل مهيار الديلمي ، وابن الهبارية صاحب
كتاب (الصادح والباغم) وهو ارجوزة الفها للامير صدقة الزيدي . ومنهم
الشاعر الايوردي الذي خصهم بقصائد مدح وغير هؤلاء الذين نالوا جوائز
من الامير الزيدي هذا فضلا عن شعراء الحلة نفسها ، الذين ساهموا في
تنشيط مجالس هؤلاء الامراء .

ومن المرجح ان يكون للقصص الشعبي مكان في هذه المجالس وانها
كانت منتشرة في المجتمع البغدادي منذ عهد مبكر حيث كان الكتاب العرب
قد الفوا الكتب في الاسمار والقصص واخبار المندرين والمضحكين
وما ترجموه من القصص من اللغات الاجنبية .

ب - مجالس الفناء :

وهذه المجالس وجدت منذ تأسيس الامصار ، واشتهر جملة من
المغنين والمغنيات في الكوفة والبصرة ثم في بغداد بعد ذلك .

فقد وفد الى الكوفة منذ تأسيسها حنين الحيري من الحيرة وكان
يحضر مجالس الوالي بشر بن مروان^(٦) .

وكان في الكوفة منزل ابن رامين وكان له جوار مغنيات اشتهرت منهن
سلامة الزرقاء وسعدة ورييحة وممن الم بداره لسماع الغناء يحيى بن زياد.
الحارثي ، ومحمد بن الاشعث الزهري المغني ، ومطيع بن اياس * وكانوا
يغدون المال وينشدون اشعار الغزل * فمما قاله محمد بن الاشعث في
احدى الجواري وهي سلامة الزرقاء ما يأتي :

أمسي لسلامة الزرقاء في كبدي صدع مقيم طوال الدهر والابد
لا يستطيع صناع القوم يشعبه وكيف يشعب صدع الحب في كبدي
وفي جواري ابن رامين قال الشاعر اسماعيل بن عمار :
هل من شفاء لقلب لج محزوني صبا وحب الى رثم ابن رامين
الى ربيعة ان الله فضلها بحسناها وسماع ذي افانين
ومنها (٧) :

يا رب ان ابن رامين له بقر تحينا وليس لنا غير البراذين
وكذلك كانت دار بربر في الكوفة تحوي قيانا وكن يختلفن الى دار
الشاعر مطيع بن اياس ورفقته (٨) * .

اما في البصرة فلم تختلف عن الكوفة فقد استقر العرب بها وقصدها
الغرباء للتجارة والسكن وطلب العمل فظهر منها الغناء واشتهر جملة من
المغنين والجواري المغنيات ، فقد كان لابي النظر عمر بن عبد الملك جوار
ينغنين ويخرجن الى اهل البصرة (٩) * .

وممن سكن البصرة من المغنين مالك بن ابي السمع الذي قدم على
الوالي العباسي سليمان بن علي فاحسن الوالي وفادته (١٠) * . ثم انقطع
لسليمان بن علي * ومن المرجح ان يكون مالك هذا هو مؤسس المدرسة
البصرية في الغناء التي اشتهر اصحابها اوائل العصر العباسي * ولم نجد
فيهم سوى مغن واحد يسمى عجاجة (١١) * . ولكن الشهرة تجمعت حول

المغنيات امثال عاتكة بنت شهدة التي عملت المغني العروف مخارق^(١٢) .
وسلامة الزرقاء^(١٣) التي اشتراها جعفر ابن سليمان بـ ٨٠٠٠ درهم . اما
بقية المغنيات الهجينات فكن يتلقين العلم في البصرة قبل ارسالهن الى بغداد .
وكان تعليمهن يشمل الخط والنحو والشعر والغناء مما يكسب القيان جاذبية
تجذب بها قلوب الرجال .

كان الوسط العقلي في البصرة خير معين على تكوين هؤلاء القيان .
اللواتي اجبرن على اعادة الغناء فضلا عن بعض المعرفة في النحو واللغة .
تعصمن من اللحن والرتانة . ففي البصرة ربيت بذل مغنية جعفر بن موسى .
الهادي والامين^(١٤) . وفيها نشأت عريب^(١٥) التي امتد مجدها من خلافة
المأمون حتى خلافة المتوكل . وفيها نشأت ميثم الهاشمية التي نضمت الشعر
الغزلي وناقشت شعراء الديوان^(١٦) .

ولم تخل مدينة واسط من مجالس الطرب . فقد سكنت المدينة عناصر
اعجمية ، وزاد المال لدى بعضهم فكانت هناك مجالس شراب ولهو .
ومجنون^(١٧) .

كما كان الولاة والامراء يجلبون الى واسط من يرغبون في سماعهم .
كما فعل امير الامراء ابو الحسين بحكم اذ طلب ثلاث جوار مغنيات احدهما
فرحة البيضاء ، واخرى يقال لها رباب صفراء وثالثة كانت لام الخليفة
الراضي ، فحلين له . ثم ان هذا الامير اشترى جارية اخرى كانت لبنت ابن
حمدو النديم بثلاثة الاف دينار^(١٨) .

اما بغداد فانها جذبت اليها ارباب الصنائع والمهن واهل الفن حيث
اصبحت عاصمة الدولة العباسية وقلبها النابض بالحياة والمال والجاه .
وهكذا تحول اليها الغناء واتاها المغنون من كل صوب ولم يكن الخلفاء
يخلون عليهم بل هالوا عليهم المال كالمهدي والهادي والرشيد والمأمون .

والى الرشيد يرجع الفضل في ظهور كتاب الاغاني لابي الفرج حيث كان الرشيد قد طلب ان يختار له احسن الاصوات (اي احسن الاييات المغناة) فتألفت لجنة من ابراهيم بن اسحاق الموصلي ، واسماعيل بن جامع ، وفليح بن ابي العوراء فاختاروا له ما اراد ، وقد جمع ابو الفرج تلك الاصوات وشرحها واتسع في اخبار شعرائها ومغنيها ومن عنيت له فكان كتاب الاغاني المشهور .

ومن احب الغناء الامين ، والمأمون وكان الاخير قد اشترى الشاعرة المغنية عريب ب ١٠٠٠٠٠ درهم ، واشتراها المعتصم بنفس الثمن بعد وفاته . وكان الواثق اشد كلفا بالغناء لانه يعرف الضرب على الالة (١٩) .

ولما بنيت سامراء واتخذها الخلفاء مقرا لحكمهم ، اصبحت قصورهم وقصور وزرائهم ، وقادتهم تحوي مجالس الندماء واهل الفن ، فكانت تحفل بالمغنين امثال اسحاق الموصلي ، ومخارق . وجملة من الجواري وقد اشتهر بعض الخلفاء بميلهم الى سماع الشعر والغناء ، او الاجادة على عزف بعض الالات الموسيقية .

فكان الواثق اديبا يجيد تلحين الغناء ، والمتوكل يعرض على مجالس الشعراء والمغنين (٢٠) . وكان المنتصر قبل استخلافه يحسن الغناء ، ويقول الشعر (٢١) . اما المعتز فكان شغوفا بالطرب والغناء (٢٢) . وكذلك كان المعتمد على الله (٢٣) .

وكانت للغناء اصول استقرت منذ العصر العباسي الاول ، واصبح للموسيقى بشكلها الرياضي النظري او بشكلها النغمي التطبيقي وكتبوا اخبار المغنين والمغنيات .

واصبح من مشهوري المغنين في العصر العباسي ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق ، وابن جامع ، وابراهيم بن المهدي ، ويحيى المكي ومنصور

الخرشي ، ومحمد بن الحارث بن بسخفر ، ومخارق ، وعلوية ومن المغنيات ، سارية ، وريق ، وصدوف (٢٤) .

ولم ينقطع الغناء في العصور التالية انما لم يقيض له مؤرخ او اديب كابي الفرج يجمع اخبار الغناء والمغنين . فقد ورد في اوائل القرن الرابع الهجري سنة ٣٠٦ هـ / ٨١٩ م انه حصيت المغنيات فبلغن ٤٦٠ مغنية من الجواري في جانبي بغداد ، و ١٠ من الحرائر و ٧٥ من الصبيان وكان هذا الاحصاء لمن اشتهر بالغناء ، اما من كان يغني خفية فلم يعرف عدده . فضلا عن كان يغني في المدن الاخرى (٢٥) .

ج - مجالس القصاص :

يبدو ان اسم القاص اختلط باسم الواعظ في اوائل العصر الاسلامي ثم حصل التمايز في العهود التالية ، فقد اورد الجاحظ اسماء قصاص : كانوا يعظون في المساجد مثل صالح المري العابد (٢٦) ، وموسى بن سيار الاسواري الذي وصفه بانه كان من اعاجيب الدنيا (٢٧) . وابي كعب الذي كان يقص في مسجد عتاب (٢٨) . والذي يعنينا هو القاص الشعبي الذي يسرد على مسامع الناس القصص لغرض التسلية وملء الفراغ .

وكان القاص يجلس في الطرقات ، وفي المقابر والجوامع والاسواق يذكر للناس شيئا من الايات والاحاديث واخبار السلف ثم يعرج على ذكر الحكايات . كان كل ما يذكره من حفظه سواء كان واقفا او جالسا على كرسي ، والقاص يختلف عن الواعظ في كونه يهتم بسرد القصص الماضية وتقديم الشروح لها بينما كان هم الواعظ شرح الاعتقاد الاسلامي الصحيح وتخويف الناس عاقبة الابتعاد عن تعاليم الله ، وجذب الناس الى الايمان وشرح ما يهم الناس في حياتهم كما اسلفنا .

ان مجالس القصص كانت تراثا شعبيا عريقا ورثه العراقيون عن اسلافهم عرب الجزيرة ، ونتيجة اقبال الجمهور على القصص وحضور مجالسه دفع ذلك الوراقين ابتداء من القرن الثالث الى كتابة القصص فاشتهر منهم ابن دلائ (احمد بن محمد) واخر عرف بابن العطار فضلا عما كتبه الادباء والاختاريون من كتب الخرافات والاسمار والاحاديث واخبار العشاق والفرسان كما مرت الاشارة الى حصول الترجمة عن الامم الاخرى •

لم يكن حضور مجالس القصص مقصورا على الرجال فقط بل قد حضرت النساء ايضا وكان الحضور يجلسون للسماع طويلا اما الطرق التي كان يستعملها القصاص لجلب انتباه المستمعين فكانت متنوعة منها انشادهم الاشعار الغزلية في العشق او اظهارهم التواجد والتخاشع او اتيانهم حركات تنسجم وقراءتهم الملحنة التي تشبه الغناء وقد يصفقون بايديهم او يعملون ايقاعهم بارجلهم • وقد ينشدون اشعار النواح على الموتى وما يجري لهم من البلاء او يذكرون الغربة ومن مات غريبا ولما كانت النساء ارق عاطفة من الرجال لذلك كن اسرع تأثرا بهذه الطرق الباردة فيشرعن في البكاء والعيول وعند ذلك يستبشر القصاص خيرا بهذه البادرة لانها تجلب انتباه الناس اليهم وتزيد في عدد مستمعيهم لذا كان وجود القصاص رغم كون مجالسهم ملهاة للجمهور خطرا على الدين والثقافة بصورة عامة وذلك لان مستواهم الثقافي لم يكن جيدا فهو لا يرقى الى مستوى الوعاظ الفقهاء او المحدثين لذا وردت عنهم احاديث مكذوبة وتفسيرات مضحكة لايات القرآن او الحديث النبوي لهذا كانت الحكومة والعلماء ينظرون اليهم نظرة تغاير نظرة العامة • ففي سنة ٢٧٩هـ نرى انه لا يقعد على الطريق ولا في المسجد قاص ولا منجم ولا زاجر •

واستحلف الوراقون ان لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة لان تلك الكتب اعتبرت مثيرة للفتن (٢٩) • وقد تكرر هذا المنع سنة ٢٨٤هـ (٣٠)

وفي سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م منع القصاص من الكلام ايضا اذ اعتبرهم مثيرين للفتن ايضا^(٣١) ، اما موقف العلماء من القصاص فقد كان فيه انكار لاقوالهم واعمالهم وادى ذلك الى الاحتكاك بهم وكانت العامة تقف الى جانب القصاص في امثال تلك المواقف وذلك لان العوام جبال يرون في كلام القاص وضوحا يجري على حسب ميولهم وغرائزهم ويرضي طموحهم بأسلوب بسيط يكون هزله اكثر من جدده .

ومن الذين حاربوا القصاص الدار قطني علي بن عمر (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م) واحمد بن المظفر (ت ٤٤١هـ/١٠٢٩م) ويحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) واحمد ابن حنبل (ت ٢٤١هـ) من حفظة الحديث والمتصوف المكي كما نظر اليهم بعض المؤرخين نظرة غير محترمة فوصفهم السعدي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) بانهم يروون الاكاذيب ووصفهم المقدسي (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م) بانهم يروون الاعاجيب والترهات والباطيل وان قصصهم ما هي الا تراوير . وقال عنهم البيروني (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) بانهم لا يرجعون الى تحصيل . واما الخطيب البغدادي ، والمؤرخ ابن الجوزي (٥٩٧هـ/١٢٠٠م) فانه كان واقفا لهم بالمرصاد يرد عليهم ويفند اقوالهم ويفضح اكاذيبهم . وقد صرح بذلك في عدة مواضع من كتبه كما في (الموضوعات) وفي (تلبس ابليس) و اخبار و (اخبار الحمقى) ثم يكتفهم بذلك فخصص للحديث عنهم كتاب (القصاص والمذكرين)^(٣٢) .

مجالس الوعظ :

كانت مجالس الوعظ مدارس شعبية اخذت على عاتقها تثقيف الناس خلال العصور الاسلامية ، وكانت هذه المجالس تعكس حرية التدريس فقد كان مسموحا لاي فرد أن يحضر مجالس الوعظ ، وأن يسأل عما يجول بخاطرهم من الاسئلة التي تتعلق بالدين او المسائل اليومية التي لها مساس بالشرع .

وكانت الحكومة تراقب الوعاظ فاذا ما عرفت عن بعضهم انه يسوء القول او يشتط في احكامه مما يؤدي الى حدوث فتنة مذهبية ارسلت اليه ثم احضرت الفقهاء ليناقشوه في اقواله ونتيجة لهذه المناقشة قد يحكم الخليفة على ذلك الواعظ بمنعه من الوعظ او طرده من العراق اذا كان وافدا عليه .

ان مجالس الوعظ لا بد انها قد افادت كثيرا في حفظ بعض التراث العربي الاسلامي من مثل وقيم خلقية نتيجة لتكرار سردها والتاكيد عليها باشكال مختلفة .

ان هذه المجالس كانت تعقد في المساجد والمدارس الا انها عقدت ايضا في المقابر كمقبرة احمد بن حنبل في مواسم معينة في السنة . او في مقبرة معروف الكرخي او في المحال . وكذلك عقدت في رباطات الصوفية (٣٣) .

وسائل التسلية :

وهي ممارسه امور تملي فراغ الانسان وتشغله في حياته مثل تربية الحمام ، والديكة ، والخيول ، وكانت هذه الهوايات موجودة منذ صدر الاسلام ، ولم تكن النظرة اليها من قبل الفقهاء محترمة لانهم يشعرون ان فيها اضاعة وقت في غير جدوى . الا ان تلك الاشطة لم تنقطع واستمرت ممارستها طوال عصور الخلافة . فترية الحمام لشكله الجميل ، وقوة طيرانه هواية مارسها الناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية ، مارسها الصغار والكبار ، الاشراف والصعاليك .

وفي ذلك يقول الجاحظ (وهي شيء يتخذ ما بين الحجام الى الملك الهمام) .

وكان للحمام سوق في الجانب الشرقي من بغداد يتردد اليه اهل هذه الهواية للبيع والشراء ويبدو انهم من الكثرة بحيث وصفوا ذات يوم انهم قد اجتمعوا يركب بعضهم بعضا .

ويبدو ان مدن العراق الاخرى لم تكن تخلو من هذه الهواية. فالجاذب قدم لنا معلومات عن اختلاف اهل البصرة عن اهل بغداد في تفضيل جنس على جنس او نوع على الاخر (٣٤) .

اما الفروسية وتربية الخيل والاعتناء بها فكانت هواية عربية قديمة. وكانت تستهوي الخلفاء والامراء والوزراء والقادة كما استهوت الشباب لما فيها من الوان الشجاعة . فكان الفارس يتدرب على السلاح كالضرب بالسيف والرمح او الرمي عن القسي بالنبل او البندق .

وفضلا عن استعمالهم السلاح فانهم كانوا يخرجون الى الصيد واسلحتهم في ذلك متنوعة بحسب الحيوانات التي يريدون صيدها وقد افاضت كتب التاريخ والادب ولا سيما دواوين الشعر بوصف حلبات الخيل التي يجري السباق فيها . او الخروج الى الصيد واصطحاب الفهود او الكلاب لذلك .

ان براعة الشباب في استعمال السلاح ادت الى جعلهم مستعدين دائما للدفاع عن ثغور البلاد العربية الاسلامية . وعن بغداد في اوقات الازمات السياسية كما حدث عام ١٩٧ هـ / ٨١٢ م عند محاصرة جيش المأمون لبغداد ، وعام ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م عند حصار بغداد لاجبار الخليفة المستعين على الاعتزال ، وعام ٤٥٠ هـ عند حدوث عصيان البساسيري. للخليفة القائم بامر الله ، وعام ٥٢٠ هـ / ١١٢٣ م ، و٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م . و٥٢٢ هـ / ١١٥٧ م في فضالهم لجيش السلاجقة وابعادهم عن العراق (٣٥) .

والى جانب ما تقدم كانت هناك هوايات اخرى اولع بها بعض الناس. ولقد اطلق على فئات من الشباب ساهمت في الدفاع عن بغداد في تلك الازمات باسم العيارين والشطار والذين استمر وجودهم حتى استخلف الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢ هـ / ١١٧٩-١٢٢٥ م) وعند ذلك ظلمهم

تحت اسم الفتوة وجعل لها طقوسا خاصة ومراسيم لا بد من اداؤها لمن اراد الدخول في فتوته . مثل مهارشة الديكة ، والسمان (او السمانى) والكباش والقبع ، وتربية الصقور والشواهين للصيد^(٣٦) .

وكان للصبيان في كل عهود الدولة العباسية لعبهم التي تملأ فراغهم وتشعرهم بالتسلية مثل اللعب بالجوز^(٣٧)

الاقواف (الاحباس) والخدمات المجانية الاقواف :

أن الخدمات الحكومية لم تكن لها او لبعضها صفة الدوام في كثير من الاحيان مما اضطر المدينة الى الاعتماد على نفسها في سد حاجاتها . ومن هنا ظهر لها مورد مالي اخر ادى دورا هاما في اقتصادها الا وهو نظام الوئف او الحبوس ، وهو نظام اسلامي مازال حيا ، وهو الاراضي او المؤسسات التي تكون ملكا لشخص حر التصرف في ماله ثم يتنازل عن حقه في عائدها او دخلها ويجعل هذا الدخل وقفا محبسا وبصفة دائمة على جهات البر والاحسان وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية كالمساجد والخوانك (الخانقاه) والطواحين والحمامات ، والبيمارستانات^(٣٨) . ويرى تلك الاموال الموقوفة (المحبسة) صدقة جارية فانها من هذا المنطلق نهضت برسالة ضخمة في رعاية المؤسسات الاجتماعية والخيرية وادامة عملها فكان عمل الاوقاف تأمين الرعاية الاجتماعية في المدن^(٣٩) . لاطعام المعدمين ورعاية المرضى في البيمارستانات ، ولقد اوكلت الاوقاف الى الثقات المشهورين بعد التهم وحسن سلوكهم الاجتماعي كما عهدت الى القضاة .

الصدقات :

وكانت الصدقات على نوعين بعضها توزع بشكل دائم واخرى بشكل مؤقت مما يقدمه الخلفاء والسلاطين في الدولة الاسلامية الى الفقراء والمحتاجين من مال او كساء او طعام وخاصة في اوقات الازمات الاقتصادية .

لقد كان الكرم وقرى الضيف من شيم العرب منذ اقدم عصورهم وقد اكدها الاسلام - إلا - اذا كان فيها اسراف من قبيل المباهاة - لهذا التفت ولاية الامور في الدولة الى أمر الصدقات للفقراء او الغرباء منذ بداية الاسلام حتى اصبحت اقامة الدعوات والمآدب عادة معروفة لبعض الولاة التي حفلت بالوان الطعام فمن هؤلاء زياد بن ابيه حيث كان يطعم السابلة والفقراء وذوي الحاجات فكان يغذي ويعشي عامة الناس كل يوم عدا الجمعة فكان يعيش ولا يغذي وكان لا يرد عن طعامه احد^(٤٠) .

اما ابنه عبيدالله بن زياد فكان يقدم طعامه لخاصته وحرسه ولم يكن له طعام للعامة^(٤١) .

وكان الحجاج يطعم في كل يوم الف رجل على مائدته وعلى كل واحدة منها ثريد وجداء مشوية ، وسمك . وكان يجلس الى كل مائدة منها عشرة رجال وكان له ساقيان يطوفان بين الموائد احدهما يسقي الماء والعسل والاخر يسقي اللبن^(٤٢) .

وقد سار بعض سراة الكوفة على نهج ولائهم في اطعام الناس فظهرت جماعة يتبارون في عمل الولاة فكان منهم من ارسل الجفان ملأى بالطعام في احياء القبائل وعلى افواه السكك والدروب لاطعام الناس وكانت هذه الولاة تكثر في شهر رمضان^(٤٣) .

وجاء عن احد ولاة الموصل في عام ١٤٤ هـ انه كان يقدم الغداء مجاناً في وقت معلوم فيدخل داره من يريد الطعام . وكان ممن دخل في زمرة الداخلين واكل دون أن يعرفه احد (ابراهيم بن عبدالله بن حسن بن علي بن ابي طالب) هاربا من ابي جعفر المنصور^(٤٤) .

اما الولاة واخراج الطعام للفقراء والغرباء في المناسبات فكان يتم في المناسبات الدينية كحلول شهر رمضان ، وشهر رجب والعيد

لقدورد ان الخليفة المهدي قدم الموصل وكان معه ابنه الرشيد ونزل في قصر أخيه جعفر الذي بناه في الموصل فاتته البشارة ان ولده موسى قد رزق بولد وهو (جعفر بن موسى) فأمر الخليفة المهدي بعض اخواله من حمير ان يخرج الى الناس ويشرهم ويقدم اليهم الاخصبة (وهي طعام من تمر وسمن)^(٤٥) .

وجاء في اخبار سنة ١٦٧ هـ ان الخليفة المهدي امر بتوسيع جامع الموصل وذلك عند زيارته لها ، ومن اجل تنفيذ هذا الامر هدم موضع المطابخ التي كان للناس فيها في شهر رمضان^(٤٦) .

استمرت الصدقات خلال العهد العباسي تخرج من دار الخلافة وتعطى للفقراء ، جاء في اخبار سنة ٦٤٠ هـ ان الخليفة المستنصر امر باخراج ٦٠٠٠٠ دينار لتوزع على ارباب الحاجات^(٤٧) .

اما الصدقات المستديمة مثل صدقات شهر رجب فكانت توزع عند حلول هذا الشهر من كل عام^(٤٨) . ولم تكن هذه الصدقات توزع داخل بغداد العاصمة فقط بل كانت ترسل الى اماكن اخرى من العراق^(٤٩) . كما ارسلت احيانا الى المجاورين في الحرمين . فقد جاء عن الخليفة الناصر لدين الله انه كان يرسل في كل سنة ٤٠٠٠ دينار للصدقة ، و ٢٥٠٠ ذراع قماش من القطن لتكفين من يموت من الفقراء ، فضلا عما كان يرسله لترميم المساجد والابنية والمرافق ذات النفع العام وشراء ما تحتاج اليه المرافق من قناديل وسيرج^(٥٠) ومشمع ، وند^(٥١) ، وغالية^(٥٢) ، وعود لاجل التبخير ، ولاسيما في المسجد النبوي الشريف^(٥٣) .

وقد تخرج الصدقات من مخزن دار الخلافة عند وفاة احد كبار رجال الدولة كما حدث عند وفاة الوزير نصير الدين احمد بن محمد الناقص البغدادي ، حيث اخرج ٩٠ راسا من البقر و ١٥٠٠٠ رطلا من الخبز و ١٥٠ قوصرة من التمر^(٥٤) وذلك سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م^(٥٥)

وقد شاهد الرحالة ابن بطوطة في اثناء زيارته لبغداد ما كان يخرج من طعام للفقراء من مشهد ابي حنيفة^(٥٦) .

دور الضيافة :

اتبعه الولاة منذ تأسيس الامصار الى ضرورة ايجاد محل للغرباء او المسافرين المارين بالعراق او بعض مدته ، فاوجدوا دور الضيافة فمن ذلك ما حصل في خلافة عمر بن الخطاب حيث اتخذت دار عبدالمالك بن عمير بالملطاط في موضع ما بين الكوفة والحيرة للضيفان ، ينزلها من يرد من الافاق^(٥٧) .

ولم ينس خلفاء بني العباس امر دور الضيافة ، لذلك انشأوا (ديوان الطبق) اواخر الدولة العباسية ليعنى بامر ضياع موقوفة على ضيافة الدولة العباسية للفقراء في ايام الحج وشهر رمضان^(٥٨) .

اما كيف اشتق اسم هذا الديوان فيوضحه الخفاجي عند شرحه لكلمة (الطبق)^(٥٩) ، اذ يقول (اهل بغداد يسمون السماط طبقا) ثم استشهد بيت للشاعر الحيص بيص (ت ٥٧٤ هـ / ١٩٧٨ م)^(٦٠) .

في كل بيت خوان من مكارمه يميزهم وهو يدعوهم الى الطبق

اما هذه الضياع الموقوفة فقد كانت محيطة بنهر دجلة الذي كان موجودا منذ صدر الاسلام وانه يتفرع من ضفة دجلة اليمنى وقد ازدهرت على ضفافه عدة مدن وقرى مثل دجيل ، مسكن ، حزي ، العلي ، الحضير ، عكبرا الا ان تحول مجرى دجلة الى جهة الشرق تاركا هذه القرى والمدن الى غربه على مسافة بعيدة عنه . دفع الخليفة المستنصر بالله الى تحويل صدر نهر دجيل (اي بدايته) شمالا وتوسيعه وفتح عدة فروع من ضفته اليسرى لارواء الاراضي والقرى التي تركها دجلة من دون ارواء لذلك يسمى (دجيل المستنصري) وواقعه على دور الضيافة وما زالت القنطرة

التي كانت عليه قائمة تحمل تاريخ بنائها وهو سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م ،
وتسمى قنطرة دجيل ، ويقع دجيل المستنصري في شمال بغداد على بعد
عشرة فراسخ (٦١) .

فكانت مهمة ديوان الطباق الاشراف على دور الضيافة الموجودة في
جانبى بغداد والتي توزع فيها الاطعمة على الفقراء في المناسبتين المذكورتين ،
وان هذه الدور كانت تزداد حسب رغبة الخليفة فقد زيدت داران عام
٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م احدهما بدار الخلافة لاولاد الخلفاء المقيمين في دار
الشجرة ، والاخرى بجربة ابن جردة للفقراء الهاشميين (٦٢) .

وممن وردنا اسمه انه تولى النظر في هذا الديوان اسماعيل بن علي بن
الحسين ابو محمد الفقيه غلام ابن المنى وقد ذمت سيرته فعزل وحبس ثم
خمل ذكره حتى مات سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م (٦٣) وجاء في سنة ٦٤٢ هـ /
١٢٤٤ م انه صرف ابن محمد بن غزالة من نظارة الطباق ورتب عوضه
مجد الدين علي بن امسينا الذي وصف بمعرفته الكتابة والحساب وانه
عندما رتب مشرفا بديوان الطباق خلع عليه بدار الوزير مؤيد الدين (٦٤)
وهذا يظهر انه رتب ناظرا ثم جعل مشرفا بعد ذلك ، ثم عزل في جمادى
الاولى من سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م ورتب بعده عز الدين محمد بن الحسين
البادرائي المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م (٦٥) . وفي سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م رد
النظر على ديوان الطباق الى صدر الديوان ابي المظفر علي بن النيار وهذا
يظهر انه كان متوليا النظر من قبل ، الا انه لم يرد في أي فترة كان ذلك ،
وجاء في تنمة الخبر عنه انه رد اليه النظر لكي يحل محله متوليه نجم الدين
محمد بن طراح الذي لم تذكر سنة ولايته . وجاء عن ابن النيار ايضا انه
بعد ان استقر في ديوانه عزل مشرفه ولم يذكر السبب ان كان من قبيل
الثقة بابن النيار كناظر لهذا الديوان وانه ليس هناك حاجة لوجود مشرف
عليه ، ام لسبب اخر ما زال مجهولا ؟ والمهم انه اكتفى بوجود كاتب ونائبي

النظر والاشراف فضلا: عن ناظر هذا الديوان • وفي هذا الخبر يتضح لنا عدد موظفي هذا الديوان فأن له ناظرا للديوان وهو رئيسه ثم مساعدين ينوبان عنه احدهما للنظر والاخر للاشراف ، ثم كاتبان • ومع هذا فما زال الغموض يحيط بعمل هؤلاء واختصاص كل منهم ثم العلاقة ما بينهم وبين الرئيس • وجاء عن ابن النيار هذا انه استطاع ان يعمر ضياع هذا الديوان ويزيد في حاصله بعد ان اضطرب حال عقاره وضياعه وقل حاصله •

ان واردات هذا الديوان لم تكن تخرج طعاما من دور الضيافة فقط بل كانت تخرج بشكل نقود عينية تعطى للمحتاجين ، جاء في سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م انه برز امر من الخليفة بان يعطي من مال الطبق ثمانية الاف دينار فتسلم الى الوزير وتفرق كالآتي : الف دينار لفقراء العباسيين ، والف دينار للفقراء المقيمين على تربة الامام احمد بن حنبل وقبر الشيخ معروف الكرخي ، والف دينار لفقراء الطالبين ، والف دينار لفقراء مشهد الحسين ، والف دينار للشرفاء المقيمين بدار الشجرة في ضمن دار الخلافة والقان للفقراء المجاورين في مشهد علي بن ابي طالب من العلويين ، والف دينار لفقراء الجانب الغربي (٦٦) •

وقد استمرت دور الضيافة تؤدي عملها حتى اخر العهد العباسي فقد جاء في سنة ٦٤٥ هـ ان دور الضيافة فتحت في جانبي بغداد واعطيت الاطعمة لافطار الفقراء ، وفرق الدقيق والغنم والنقود على جميع المدارس والربط ، والمشاهد والزوايا (٦٧) • وفي عزة غرة شهر رمضان سنة ٦٤٨ هـ فتحت دور الضيافة على العادة في جانبي بغداد وفرقت الوظيفة الرضائية من الغنم

والدقيق والنقود على المدارس والربط^(٦٨) . ثم في سنة ٦٥٢ هـ فرقت
الوظيفة الرضائية وفتحت دور الضيافة على هذه العادة الجارية^(٦٩) .

البيمارستانات (المستشفيات) :

بنيت البيمارستانات في العصر العباسي لتأوي المرضى وتقديم لهم
العلاج المجاني وتتعاطف مع المعجزة والمجانين . وكان اول بيمارستان بني في
بغداد هو الذي بناه الرشيد والذي تولى رئاسته الطبيب ماسويه وجعل
الاشراف عليه لطبيب الخليفة الخاص جبرائيل بن بختيشوع وبقيت بغداد ليس
فيها الا هذا البيمارستان حتى حكم الخليفة المعتضد المتوفى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠٢م
حين اسس مولاه وقائد جيش بدر الحماي بيمارستانا باسمه في محلة المخرم .
وتوالى ظهور البيمارستانات بعد القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي
وقبل ان ينتهي القرن الرابع الهجري وصل عدد البيمارستانات ببغداد
ما يزيد على الستة بيمارستانات كما وصل عدد الاطباء ما يزيد على ٦٨٠
طبيبا ممن يشتغل في البيمارستانات او خارجه . ولم يكن لهذا العدد من
البيمارستانات او الاطباء ظير في اية مدينة في العالم قبل حلول القرن
التاسع عشر الميلادي^(٧٠) .

وقد انتشر بناء البيمارستانات في المدن العراقية الاخرى فكان هناك
بيمارستان في واسط^(٧١) وفي اربل^(٧٢) ولكي يطلع الخلفاء على اعمال الاطباء
وصلتهم بالمرضى ، واخلاصهم للصناعة وصدق ممارستهم فيها نصبوا عليهم
(رئيسا) هو في الغالب من اطباء الخليفة المتقدمين في المهنة وممن يحسن

ممارستها • ورئاسة الاطباء تنظيم انضباطي مهني كان معمولا به عند اليونانيين حتى العهود البيزنطية •

كما نصب الخلفاء العباسيون محتسبا على الاطباء ويبدو ان هذه الوظيفة كانت تخص الجانب الانساني والديني من صناعة الطب •

اما وظيفة رئاسة الاطباء فهي امتحان الاطباء ، وليس المحتسب لمعرفة معلوماتهم الطبية ، ليمنع من يفشل في هذا الامتحان من ممارسة المهنة (٧٣) •

حفلات اصحاب الدور وسكان المدن : -

كان للناس خلال العصر العباسي ما يشغل اوقات فراغهم من حفلات تبهج نفوسهم • وكانت تلك الحفلات على نوعين ، نوع مما يقام في البيوت ويكون خاصا بعائلة من العوائل منها حفلات الاعراس التي يشغل بها اهل واهل العريس وتزين الدار، وتعد الاطعمة والاشربة ، والنثار ؛ وهو ما ينثر على الرؤوس من حلوى او قطع تقود معدنية (٧٤) •

وحفلات الختان مما يشغل الاهل ويكون فيها طعام وشراب ونثار وقد يصاحب ذلك الموسيقى •

والختمة حيث كانوا يحتفلون بختمة الاحداث للقرآن المجيد ، فيلبسون احسن ثيابهم ويزينون دورهم ، ويضعون فيها مجامر الفضة ، ويوقدون فيها القناديل او الشموع ، ويدعون اليها بعض علماء الدين لحضور امثال هذه الحفلات ، كما يدعون اهل المحلة من نساء ورجال (٧٥) •

والى جانب الاحتفال بختمات الاحداث كانوا يحتفلون بسماع الاحداث للحديث النبوي الشريف واحتفالهم بذلك كاحتفالهم بالختمات او يدعو والد الحدث اصدقاءه الى وليمة يعملها لهذه الغاية (٧٦) •

اما حفلات المدن فكانت متنوعة بتنوع المناسبات والاحداث المفرحة التي يساهم فيها اوسع عدد ممكن من الناس وهي على انواع منها ما هو من قبيل النزهة كالمخرج الى المتنزهات خارج المدن من المروج والبساتين حيث الخضرة والمياه الجارية والزهور البرية . وقد حفلت كتب الادباء باخبار امثال هذه المتنزهات مثل كتاب الديارات للشابشتي ، ودواوين الشعراء .

ومن المناسبات العامة التي احتفل بها ، المناسبات الدينية مثل الاحتفال بليلة المولد النبوي في شهر ربيع الثاني كالذي كان يجري في مدينة اربل (اربيل) . حيث يستمتع فيه الناس بكل انواع الاستمتاع الديني البريء من مأكول ومشرب وملبس وترويح عن النفس بالاستمتاع الى الموسيقى والاغاني ومشاهدة الصور المتحركة (خيال الظل) الى جانب الاستمتاع الديني حيث تعقد حلقات للاستماع الى سيرة النبي (ص) وحلقات القراءة يرتلون آي الذكر الحكيم وحلقات الوعظ ، وحلقات الذكر حيث يقوم الذاكرون بطريقتهم الصوفية في حلقات يذكرون الله مع انشاد المنشدين ، والحنان الزامرين وضاربي الدفوف .

وقد انتشرت اخبار عظمة احتفال اربل في البلاد المجاورة فكان المسلمون يفتدون اليها للاستمتاع بهذا الاحتفال كالفقراء والادباء والشعراء والتجار .

وكان حاكم المدينة مظفر الدين كوكجوري يشترك مع الناس في جميع مظاهر الاحتفال الديني والدينية في بساطة ودون تكلف .

ولقد قدم لنا ابن خلكان وصفا للاحتفال بالمولد يتبين منه روعة الاحتفال وعظمته قال ابن خلكان (ان الاستعداد للاحتفال يبدأ من شهر المحرم في كل سنة حيث يصدر مظفر الدين امره بالبده بنصب قبته الخاصة ،

ثم يأخذ الامراء والاعيان في اقامة قبابهم على نفقته تمتد على طول الطريق من باب قلعة المدينة حتى باب الخانقاه المجاورة للميدان) •

وتصنع القباب من الخشب ، وهي قباب ضخمة عالية ، حيث تحتوي كل قبة على اربع او خمس طبقات ويستمر نصبها حتى اوائل شهر صفر حتى اذا انتهوا من نصبها يبدأون بتزيينها بالاقمشة الفاخرة ذات الالوان الجميلة المختلفة حتى اذا انتهوا من ذلك تبدأ فرق الملاهي تحتل اماكنها فسي القباب ، فتتخذ كل فرقة مجلسها في طبقة من طبقات القبة ، فتشغل فرقة المغنين احدى الطبقات وتشغل طبقة اخرى فرقة اصحاب (خيال الظل) ، وتشغل طبقة ثالثة فرقة الموسيقيين ، وتشغل رابعة فرقة الملاحين أي ان كل طبقة من طبقات القبة تشغل فرقة تختلف عن غيرها حتى تشمل القبة كل انواع الملاهي فيكون للناس فرص كثيرة لمشاهدة اكثر من فرقة لنوع واحد من الملاهي في كل قبة •

وما ان تستقر كل فرقة في طبقتها من القبة حتى يبدأ الناس بالاستمتاع بالاحتفال ، فيغص المكان بالمتفرجين من اهل اربل وغيرها ممن وفد من البلاد المجاورة لها •

وكان مظفرالدين يشارك الناس افراحهم ويختلط بهم ، فكان ينزل كل يوم بعد صلاة العصر الى مكان الاحتفال وينتقل بين القباب ويقف عند كل قبة ، فيسمع الغناء والموسيقى ، ويشاهد ارباب الخيال وما يمرضون من الصور والمشاهد ، ويظل ينتقل من قبة الى اخرى حتى يأتي عليها كلها ، وذلك ارضاء للامراء والاعيان اصحاب القباب وترضية لمن فيها من ارباب الملاهي ... فاذا انتهى من القباب اتجه الى الخانقاه حيث يكون المتصوفة مستعدون لاقامة الذكر فيشترك معهم في حلقاتهم ويتواجد ويرقص ويتمايل معهم • ويظل في الخانقاه حتى يؤدي صلاة الصبح ، ثم يخرج الى ما قبل

الظهر ثم يعود الى القلعة • وكان يسير على هذا البرنامج كل يوم الى ان
تحين ليلة المولد •

ويستمر الناس في الفرحة والاستمتاع بالاحتفال منذ شهر صفر الى
ما قبل ليلة المولد يومين ، وعندئذ تجمع الابل والابقار والاغنام المعدة
للذبح لاطعام الناس ، وهي اعداد ضخمة ثم تخرج من حظائرهما الى الميدان
لذبحها في استعراض كبير حيث تزفها الطبول والموسيقى والاغاني ويستمر
الذبح والطهو طيلة اليومين حتى اذا كانت ليلة المولد صلى مظفر الدين صلاة
المغرب في القلعة ثم نزل في موكب كبير الى الخانقاه يحيط به حملة الشموع
من امام ومن وراء ، ويتوسط حملة الشموع بغلان او اربعة بغال على ظهر
كل بغل شمعة ضخمة من شموع المواكب مربوطة على ظهر البغل ومن
ورائها رجل يسندھا حتى يصل الموكب فيمكث فيها ليشارك في حلقات
الذكر ، ثم يعود بعد ذلك الى القلعة •

فاذا كان صبيحة يوم المولد انزلت الخلع (هدايا من الملابس) على
ايدي رجال الصوفية يسرون في صف طويل حتى يصلوا الى الخانقاه ،
حيث يكون الاعيان والرؤساء مجتمعين وحيث يكون قد هيئ موضع
لمظفر الدين وكرسي للواعظ •

ويستعرض الجيش على نعمات الموسيقى طوال النهار واثناء
الاستعراض يوزع مظفر الدين هداياه على الاعيان ، وذوي المكانة من
الضيوف وعلى الفقهاء والمحدثين والادباء والوعاظ والقراء • وفي هذه الاثناء
يعد سباطان احدهما لاهل اربل والوافدين اليها • واخر في الخانقاه لمن
عند مظفر الدين من ذوي المكانة •

ويستمر الامر كذلك الى ما بعد صلاة العصر ثم يبقى مظفر الدين في
الخانقاه حيث تقام حلقات الذكر حتى الصباح وبشروق الشمس تنتهي
الاحتفالات •

وممن زار اربل في موسم الاحتفال بليلة المولد النبوي الرحالة
المغربي ابن رطية فآلف كتاب (التنوير في المولد السراج المنير) (٧٧)

أما حلول شهر رمضان فكان الاحتفال به يجري على الصعيدين
الرسمي والشعبي فكانت الحكومة عند حلوله تبادو الى توزيع الصدقات
على الفقراء والمحتاجين وتعني باضاءة المساجد ليلا بالمصابيح ، ويحيي الناس
لياليه بصلاة التراويح ، او بعقد المجالس الخاصة للسمر والحديث ، فإذا
قارب الشهر من الانتهاء اخرجت الانعام من دار الخلافة الى الفقراء ،
واستعداد الناس لاستقبال عيد الفطر (٧٨) .

أما عيد الفطر فيكون في اليوم الاول من شهر شوال ، وتبدأ رسوم
هذا العيد بمراقبة هلال شوال ، ثم الشهادة لدى القضاة عند رؤيته ومن ثم
يتم ايصال الخبر الى الخليفة الذي يصدر امره بأذان العيد (٧٩)

وفي صبيحة اليوم الاول للعيد يخرج الناس بملابسهم الجديدة الى
المساجد لاداء فريضة صلاة العيد ، وكان الخلفاء يخرجون في مواكبهم
المهيبة . وكان الناس يققون على جانبي الشارع للفرجة .

وكانت العادة ان يخرج استعراض عسكري في بغداد اليوم الاول
من العيد ، وفي هذا الاستعراض يظهر الجند بملابسهم الفاخرة ، وقد
ركبوا اجود الخيول ويكون الناس واقفين على جانبي الطريق للفرجة ،
وكانت بغداد تزين بالاقمشة الحريرية ذات الالوان الزاهية يصاحب ذلك
الضرب بالابواق والطبول (٨٠) .

واذا اهل شهر ذي القعدة بدأت احتفالات جديدة بحلول موسم
الحج وذلك ان الحجاج يتوافدون في هذا الشهر في واسط والبصرة
والكوفة وفي المناطق التي تقع شرق العراق فيجتمعون في الجباب الغربي
من بغداد ويضربون الخيم هناك . وتقيم لهم الحكومة مواضع خاصة لشرب

الماء كما انها تقدم لهم الاطعمة وقد يبلغ عدد الحجاج المجتمعين ببغداد عدة الاف قبل سفرهم الى الديار المقدسة . وقد قدر عددهم ابن الجوزي في سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م بـ ٢٠٠٠٠٠ حاج (٨١) .

وفي خلال هذه الفترة والى ان يحين موعد رحيلهم ترى الشوارع زاخرة بالعامّة على اختلاف اعمارهم ، واجناسهم خارجين من دورهم للفرج على مواكب الحجاج القادمة من بقاع مختلفة وقد لبسوا ازياء مختلفة الالوان والاشكال فيكون في هذا الموسم منظر يدعو الى الانشراح والبهجة (٨٢) .

وكانت الحكومة العباسية تنظم مسيرة الحاج بموكب رسمي له رئيس (امير الحج) ويتقدمه حامل العلم ، وبعده ضارب الطبل ثم جند السفر وعندما يخرج الموكب يكون في توديعه كبار رجال الدولة ومن خلفهم سكان بغداد (٨٣) .

وعند حلول شهر ذي الحجة احتفلوا في اليوم العاشر منه بعيد الاضحى وخرج الناس مبكرين الى المساجد لاداء فريضة صلاة العيد ثم يخرجون بعدها لينشغلوا بنحر الاضاحي ، وكان الصنائع ينشطون في هذه المناسبة لصنع اللعب على اشكال مختلفة لبيعها على (٨٤) .

اما الاحتفالات غير الدينية التي كانت تعم فيها الفرحة فكانت مختلفة كثيرة العدد منها حدوث امور سياسية تتعلق بالخليفة كعودة القائم بامر الله من مدينة الحديثة عام ٤٥١ هـ / ١٥٠٩ م الى مقر حكمة ببغداد بعد أن قضى على البساسيري احد العصاة الذين شقوا عصا الطاعة . فلما وصل الخليفة كان وصوله مناسبة مفرحة ، حيث احتفلت الحكومة بذلك فضربت الطبول والبوقات وحملت المشاعل ليلا فخرج الناس رجالا ونساء للفرحة وكان بعضهم يرقص وبعضهم يعني وآخرون يضربون بالدفوف (٨٥) .

وقد يعلن الاحتفال عند شفاء الخليفة او ولي عهده من مرض السمل
باحدهما كما حصل عام ٤٥٨هـ / ١٠٥٩ م ، وفي عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م (٨٦) .

وكانت الانتصارات العسكرية على البيزنطيين كما حدث عام
٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م عند حصول معركة ملازكرات المشهورة مناسبة احتفل بها
رسميا وشعبيا (٨٧) وكما حصل في انتصار عام ٤٧٩ هـ ١٠٦٨ م (٨٨) .

اما الانتصارات التي حققها الخليفة ضد تحدي السلاجقة
فكانت بمثابة انتصارات وطنية اثارت مشاعر الحماس لدى الناس فاحتفل بتلك
المناسبات كما حصل عام ٥٤٧ هـ / ١٠٥٢ م (٨٩) وعام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م التي
كان الاحتفال بها عظيما حيث اظهر العامة انواع اللعب والمضحكات فمن
جملة من برز في هذا الاحتفال جماعة وصفوا بالعظامية فضلا عن القرع
والصبيان وكانوا قد اتخذوا زرديات من بعض الغنم وسلاحا من القصب
واخرجوا طبالا وبوقا ونصبوا خشبا وصلوا جماعة تحت اباطهم وهم
يلعبون ويضحكون (٩٠) .

وتجديد بناء الاسوار حول بغداد او بعض اجزاء سورها كما حصل
عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م عندما بني سور حول حريم دار الخلافة في الجانب
الشرقي ففي هذه المناسبة خرجت العامة لتساهم في بناء هذا السور وهي
تحمل الاعلام والابواق وتضرب الطبول ومعهم انواع الملاحى من الحكايات
والخيالات وهي الادوات المستعملة في التمثيل والاضحاك . وفي غمرة هذه
المناسبة عمل اهل محلة باب المراتب فيلا من البواري المقيرة وتحتة قوم
يسيرون به ، ثم عملوا زرافة ايضا . وضع اهل محلة قصر عيسى سميرية
(سفينة) كبيرة وقد جلس فيها الملاحون يجذفون ، وهي تسير والعوام
يشيعونها بالاهازيج الشعبية وعمل اهل محلة سوق يحيى ناعورا ساروا به
خلال الشوارع وهو يدور بشكل يشبه الناعور المستعمل في ارواء المزارع .
وعمل اهل محلة سوق المدرسة قلعة من الخشب تسير على عجل ، وفيها

غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب ، واخرج قوم بثرا على عجل وفيها حائك ينسج وكذلك عمل السقلاطونيون (صانعو نسيج من الحرير والذهب) .

اما الخبازون فقد جاءوا بثنور يسحبونه وهو يسير خلفهم وكانوا خلال سيرهم يخبزون ويرمون خبزهم للناس المتفرجين على جانبي الطريق (٩١) .

ثم جدد بناء السور في عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م فأذن للناس في الخروج للفرجة والمشاركة في البناء فخرجوا على تلك القاعدة وكان اهل المحال يتناوبون فيما بينهم لبناء السور فكل محلة تعمل فيه لمدة اسبوع ، وفي خلال ذلك كان الضحك بالابواق والعزف بالجنك مستمرا (٩٢)

وكان زواج الخليفة من المناسبات المهمة ففيها يكثر النثار وتكثر الولائم حتى تعم عددا واسعا من الناس فمن امثلة ذلك زواج الخليفة المأمون عام ٢٠٩ هـ فقد نثر في هذا الزواج من المال ما لم ينثره ملك في زواجه قبل الاسلام او بعده ، حيث اصاب النثار مختلف فئات المجتمع كالهاشميين والقواد والكتاب ، وكان النثار على شكل بنادق (كرات صغيرة) مسك فيها رقاع باسماء ضياع وجوار واسماء ديار ودواب وغير ذلك . فاذا وقعت البندقية بيد الرجل فتحها فيجدها على قدر خطه وسعده . ثم نثر بعد ذلك الدنانير والدراهم ونوافج (اوعية) المسك على عامة الناس وبذلك اتفق على المأمون ما يحتاج لعرسه ، واتفق على جميع قواده ، حتى على المكاريين والحمالين والملاحين وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق (اي جندي نظامي) وغيره فلم يكن احد من الناس يشتري شيئا من عسكر المأمون مما يطعم ولا مما يعتلقه البهائم .

واورد المبرد انه كان عدد (الملاحين الذين تصرفوا في هذا العرس ينيفون على السبعين الف ، وكانت جراية السلطان عليهم) (٩٣) .

ولما اراد المأمون البناء بزوجته (أي الدخول) في مدينة فم الصلح جنوب بغداد ، وهو المكان الذي اعد لعرسه ، فرشت له حصير منسوج بالذهب لم يمسه احد من قبل ونثر عليه در ، فلما قدم المأمون الى الموضع ورأى ما اعد له وتفرج عليه ، امر ان يلتقطه من حضر من بنات العائلة العباسية (فمدت كل واحدة منهن يدها فاخذت درة وبقي باقي الدر يلوح على الحصير) فقال المأمون قاتل الله الشاعر الذي شبه الخمر والحبات الذي فوقها بقوله :

كأن صغرى وكبرى من أفاوقها حصباء در على ارض من الذهب
فكيف لو رأى هذا معاينة •

قيل بلغ ما نثر في هذا العرس الف حبة جوهر ، واشعل بين يدي المأمون شمعة عنبر وزنها مائة رطل (٩٤) •

وممن اتفق المال بهذه المناسبة في نساء بني العباس حمدونة بنت غضيض وهي ابنة الرشيد التي اتفقت ٢٥٠٠٠٠٠٠ درهم بينما اتفقت ام جعفر زبيدة (أم الامين) ما بين ٣٥٠٠٠٠٠٠ الى ٣٧٠٠٠٠٠٠ درهم (٩٥) • وهذه المبالغ تظهر كثرة ما تفقت من مال رغم ما يشوب الارقام من مبالغات • ولاشك ان تسرب هذه الاموال الى فئات المجتمع العراقي المختلفة يشيع الفرح في النفوس ويجعل خبر هذا العرس مادة لاحاديث الناس لاجيال متعاقبة •

ومن هذا النوع من الزواج الذائع الصيت زواج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه حاكم مصر الطولوني عام ٢٨١ هـ ، وقد اصدقها الخليفة مبلغا قدره ١٠٠٠٠٠٠ درهم • اما والد العروس فقد جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف • ومن المحتمل ان يكون للخيال دور في هذا التضخيم اذ قيل انه دخل في جملة جهازها الف هارون من ذهب ودكة اربع

قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهرة لا يعرف لها قيمة وعلى طول الطريق من مصر الى بغداد بنى لها قصرا مفروشا به جميع ما تحتاج اليه على رأس كل منزلة تنزل فيها حتى لا تشعر بالوحشة خلال الطريق من مصر الى بغداد ولكي يلازمها شعورها أنها في قصر ايها .

وقد ادى هذا الزواج الى الوفاق المرجو . وكانت مناسبتة اشاعة الفرحة وأتاحة الفرصة للناس للفرجة طوال الطريق الممتد من القطائع عاصمة مصر الطولونية حتى بغداد (٩٦) .

ومن هذا الزواج ايضا زواج الخليفة العباسي الطائع لله من (شاه زنان) بنت عز الدولة عام ٣٦٤ هـ على صداق مقداره ١٠٠٠٠٠ دينار (٩٧) . وزواج الخليفة نفسه من ابنة عضد الدولة عام ٣٧٠ هـ ، وفي كلا الزواجين حملت الاموال والثياب والاولاد والفرش الكثير (٩٨) ، ولا شك ان موكب الجهاز كان عظيما يتناسب ومكانة العريس .

وكذلك الامر بالنسبة لزواج القادر بالله من سكيته بنت بهاء الدولة على صداق مبلغه ١٠٠٠٠٠ دينار (٩٩) . وزواج القائم بأمر الله من خديجة بنت اخي السلطان السلجوقي طغرل بك على صداق قدره ١٠٠٠٠٠ دينار ، وقد حضر الاملاك من المشهورين قاضي القضاة ابي عبدالله الدماغي ، واقضى القضاة ابي الحسن الماوردي ، رئيس الرؤساء ابي القاسم ابن المسلمة وهو الذي تولى خطبة النكاح . وتولى عن الخليفة جلب العروس الى دار الخلافة ، فآكرمها الخليفة اذ طرح عليها مزجية (جبة) منظومة بالذهب ، وتاجا مرصعا بالجواهر ، واعطاها من غدا مائة ثوب ديباج وقضبا ذهبيا ، وطاسة من ذهب قد ثبت فيها الياقوت والفيروزج وافرد لها من اقلام دجلة ١٢٠٠٠ دينار (١٠٠) .

وزواج الخليفة المقتدي سنة ٤٨٠ هـ من خاتون ابنة السلطان ملك شاه ، ومما ورد عن الجهاز انه نقل على ١٣٠ جملا وقد سار امامها من يضرب

بالابواق والطبول ونحو ثلاثة الاف فارس . وكان اهل بغداد ينثرون على الجهاز عند مروره بشوارعها . ثم نقل بقية الجهاز على ٧٤ بغلا ، وكان على ستة منها الخزائنة ، وهي اثنا عشر صندوقا من فضة ، وبين يديها ثلاثة وثلاثون فرسا ، والخدم والامراء بين يدي ذلك . ثم بعد ايام ركب الوزير ابو شجاع الى زوجة السلطان (ام العروس) طالبا (باداء الوديعة الى الدار العزيزة) اي دار الخلافة فحملت العروس في محفة مرصعة بالجواهر وقد احاط بمحفتها مئتا جارية من خواصها بالمرائب العجيبة فوصلت الى الخليفة فقدمت اليه تلك الليلة . فأولم الخليفة بهذه المناسبة للعسكر في بغداد ، وليمة استعمل فيها ٤٠٠٠٠ من سكر^(١٠١) ، وكانت بغداد قد علقت الزينة على الجدران . فكانت مناسبة لا شك قد ادخلت الفرحة والبهجة في عاصمة الخلافة . فكيف بباقي الاطعمة ٠٩٩

وزواج الخليفة المستظهر سنة ٥٠٤ هـ من خاتون ابنة السلطان ملك شاه لا يقل عظمة وهيبة عن زواج من تقدمه من الخلفاء فقد نقل الجهاز على ١٦٢ جملا و ٢٧ بغلا تحف بها الخيل . وزينت بغداد وغلقت الاسواق ونصبت القباب فشاغل الناس بالفرح^(١٠٢) .

ومن هذه المناسبات التي احتفل بها ختان اولاد الخليفة كما حصل عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م حيث ختن اولاده ، واولاد اخته فكانوا اثني عشر ولدا ، فعلقت الزينة ونصبت انواع من القباب وعليها الجواهر والثياب والديباج وقد كتب عليها اسم الخليفة ، وقد لبس الناس احتفاء بهذه المناسبة اغلى ثيابهم وتجميلوا بالحلى والجواهر طوال ايام الاحتفال التي استمرت سبعة ايام^(١٠٣) .

كانت دوافع هذه الاحتفالات مختلفة بعضها شعور بالفرح ومشاركة وجدانية لبقية افراد المجتمع ، وبعضها شعور وطني تمثل بانتصارات الدولة العباسية ضد خصومها ، وشعور اسلامي عند الانتصار على البيزنطيين اعداء الدولة الاسلامية التقليدية .

الهوامش

- (١) بدري محمد فهد : العامة : ٢١٦ .
- (٢) السيوطي : الاشباه والنظائر ٣ : ١٥ فما بعدها .
- (٣) انظر احمد امين : ضحى الاسلام ٢ : ٥٥ .
- (٤) الازدي : ٨٤ ، ٣٣٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣ ، ٣٧٥ ، ٤٢٣ .
- (٥) ن.م. : ٣٩٧ .
- (٦) الاصفهاني : الاغاني ٢ : ٣٤٩ ط دار الكتب .
- (٧) ن.م. : ١١ : ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ط دار الكتب .
- (٨) الاصفهاني ١٣ : ٣١١ ط دار الكتب .
- (٩) ن.م. : ٢٠ : ٧٤ ط ساسي .
- (١٠) ن.م. : ٤ : ١٦٨ - ١٧٥ .
- (١١) ن.م. : ٤ : ١٧٤ .
- (١٢) ن.م. : ٦ : ٥٦ - ٥٨ .
- (١٣) ن.م. : ٢٠ : ٢٢٠ - ٣٤٩ .
- (١٤) ن.م. : ١٧ : ٣٢ .
- (١٥) ن.م. : ١٥ : ١٤٤ - ١٤٦ .
- (١٦) شارل بلات : الجاحظ : ٣٥ - ٣٥٣ .
- (١٧) المعاضدي : واسط في العصر العباسي : ١٨٣ .
- (١٨) بان الزبير : الدخائر والتحف : ١٨٩ - ١٩١ .
- (١٩) الاصفهاني ١٣ : ٣٥ ط دار الكتب ، ج ١٨ : ١٨٢ ط ساسي وانظر شوقي ضيف : ٦٠ .
- (٢٠) النويري : نهاية الارب ٤ : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٣٠٢ .
- (٢١) النويري : ٤ : ٢٠٣ .
- (٢٢) النويري : ٤ : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
- (٢٣) المسعودي : المروج : ٤ : ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ .
- (٢٤) بدري محمد فهد : الخليفة المغني : ٣٦ ، ٣٧ .
- (٢٥) بدري محمد فهد : العامة ببغداد من القرن الخامس الهجري .
- (٢٦) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ٩٣ ، ١١٩ .
- (٢٧) ن.م. : ١ : ٣٦٨ .
- (٢٨) الجاحظ : الحيوان ٣ : ٢٥ .
- (٢٩) ابن الجوزي ج ٥ ق ٢ ص ١٢٢ .
- (٣٠) ن.م. : ١٧١٧ .
- (٣١) ابن الجوزي ج ٧ : ٨٧ .
- (٣٢) بدري محمد فهد : العامة : ٢٣٦ .
- (٣٣) بدري محمد فهد ، العامة : ٢٢٣ .

- (٣٤) الجاحظ : الحيوان ٣ : ٢٢٣ .
- (٣٥) بدري محمد فهد : العامة : ٢٤٢ فما بعدها .
- (٣٦) الجاحظ : الحيوان ١ : ١١٨ ، ٢ : ١٦٣ ، ٣٦٦ ، ٥ : ٤٥٨ .
- (٣٧) الجاحظ : الحيوان ٢ : ٢٩٢ .
- (٣٨) العبادي : من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية - عالم الفكر ص ١٣١ .
- (٣٩) عاشور : الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية - عالم الفكر ص ١٠٩ .
- (٤٠) البلاذري : انساب ج ٤ ق ٢ ص ٨٦ .
- (٤١) ن. م. ج ٤ ق ٢ ص ٨٦ .
- (٤٢) المبرد : الكامل في اللغة والادب ١ : ٣٢٦ .
- (٤٣) الجاحظ : البيان ٣ : ٢٢١ ، المبرد : الكامل ١ : ٢٦٤ ، الزبيدي : ٦٥ .
- (٤٤) الازدي : ١٨٠ .
- (٤٥) الازدي : ٢٤٣ .
- (٤٦) ن. م. : ٢٤٨ .
- (٤٧) الاشرف الرسولي : ٥٠٦ .
- (٤٨) ن. م. : ٥٣٦ .
- (٤٩) ابن البخار : التاريخ المجدد : ورقة ١٠ .
- (٥٠) الشيرج : اصله السيرج : وهو دهن السمسم ، الخفاجي : شفاء القليل : ١٥٠ .
- (٥١) الند : العود المطري بالمسك والعنبر والبان - الخفاجي : ٢٦٦ .
- (٥٢) الغالية : نوع من العطور استعملها العرب منذ الفترة السابقة للإسلام - الخفاجي : ١٩٤ ، ١٩٥ .
- (٥٣) القلقشندي : صبح الاعش ٤ : ٣٠٤ .
- (٥٤) القوصرة : وعاء من خوص النخيل لحفظ التمر ونقله بها - الجوهري : الصحاح ٢ : ٧٩٣ .
- (٥٥) الاشرف الرسولي : ٥٢٨ .
- (٥٦) ابن بطوطة : الرحلة : ٢٢٣ .
- (٥٧) البلاذري : فتوح : ٢٧٧ .
- (٥٨) الذهبي : المختصر المحتاج اليه : هامش ج ١ ص ٢٤٤ ، ابن بطوطة : ج ٤ ق ١ ص ٣٠٦ .
- (٥٩) الخفاجي : شفاء القليل : ١٧٧ .
- (٦٠) الامير شهاب الدين ابو الفوارس سعد بن محمد التميمي الشاعر المشهور انظر ترجمته عند العماد الكاتب في الجريدة : القسم العراقي ج ١ ص ٢ .

- (٦١) ابن عبدالحق : مرآة الاطلاع : ٩٥٣ ، احمد سوسة : ري سامراء ١ :
٢٢١ - ٢٢٤ ، ٢ : ٤٩٢ ، فما بعدها .
- (٦٢) مجهول : الحوادث : ٤٤ .
- (٦٣) ابن الفوطي : ج ١ ق ١ ص ٣٠٦ ، الذهبي : المختصر ١ : ٢٤٤ ، ابن
رجب : ذيل طبقات الحنابلة ٢ : ٦٦ .
- (٦٤) ابن الفوطي : ج ٤ ق ١ ص ٣٠٦ .
- (٦٥) ن. م. : ج ٥ كتاب الميم : ١٩٢ .
- (٦٦) الاشرف الرسولي : ٤٧٠ .
- (٦٧) ن. م. : ٥٥٤ .
- (٦٨) الاشرف الرسولي : ٥٧٨ .
- (٦٩) ن. م. : ٦٠٣ .
- (٧٠) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ١ : ٢٢٢ ، القطي : اخبار الحكماء : ١٩١ .
- (٧١) ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ .
- (٧٢) ابن المتوفي : تاريخ اربل ١ : ٢٤١ .
- (٧٣) د . كمال السامرائي : ١ : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .
- (٧٤) بدري محمد فهد : العامة : ٢٥٧ .
- (٧٥) ابن الجوزي : تلبيس : ١١٠ ، ٣٨٢ .
- (٧٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١١ : ٣٠٢ ، ج ١٤ : ٢٩٢ .
- (٧٧) ابن خلكان ٤ : ١١٧ - ١١٩ ، وانظر عبدالقادر احمد طليمات : ٢٠٣ .
- (٧٨) الكازروني : مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية : ٢٥ د١ .
- (٧٩) ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ١٧١ .
- (٨٠) بدري محمد فهد : العامة : ١٩٢ ، ١٩٣ .
- (٨١) ابن الجوزي ٧ : ٢٧٦ .
- (٨٢) الكازروني : ٢٤ .
- (٨٣) بدري محمد فهد : العامة : ١٩٥ .
- (٨٤) الغزالي : احياء ٢ : ٦٧ .
- (٨٥) ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ٢١١ .
- (٨٦) ابن الجوزي ٨ : ٢٤٠ ، وابن الاثير ١١ : ١٠٢ .
- (٨٧) ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ٢٦٤ .
- (٨٨) ن. م. ٩ : ٢٨ .
- (٨٩) ن. م. ١٠ : ١٤٨ .
- (٩٠) ن. م. ٨ : ١٤٠ .
- (٩١) ابن الجوزي : ٩ : ٨٥ ، مناقب بغداد : ١٧ .
- (٩٢) ابن الجوزي : ٩ : ٢٤٥ ، مناقب بغداد : ١٧ .

- (٩٣) المبرد : الكامل ١ : ٣٠٩ .
- (٩٤) المسعودي : مروج ٣ : ٤٤٣ ، الشوبشي : شرح المقامات ٤ : ٣٤ ، ٣٤١ .
- (٩٥) طيفور : بغداد : ١١٣ - ١١٦ ، الطيري : تاريخه ٨ : ٦٠٧ - ٦٠٨ .
- (٩٦) ابن تغري بدوي : النجوم الزاهرة ٣ : ٥٢ ، ٥٣ ، عاشور : مصر في العصور الوسطى : ١٠٤ .
- (٩٧) ابن الجوزي ٧ : ٧٦ .
- (٩٨) ن.م : ١٠٥ .
- (٩٩) ن.م : ١٧٢ .
- (١٠٠) ن.م ٨ : ١٦٩ .
- (١٠١) ابن الجوزي ٩ : ٣٦ ، ٣٧ .
- (١٠٢) ن.م ٢٠ .
- (١٠٣) ن.م ٢٠ .

المصادر القديمة والمراجع الحديثة

- ابن الاثير : عز الدين ابو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري
(٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) .
- ١ - الكامل في التاريخ - دار صادر ، دار بيروت (١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م) .
د . احمد سوسة
- ٢ - ري سامراء في عهد الخلافة العباسية - مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٨ .
احمد امين
- ٣ - ضحى الاسلام - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ .
ادم مئزر (ت ١٣٣٦ هـ / ١٩١٧ م) .
- ٤ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة د . محمد
عبد الهادي ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م .
- الازدي : ابو زكريا يزيد بن محمد (ت ١٣٣٤ هـ / ١٩٤٥ م) .
- ٥ - تاريخ الموصل - تحقيق الدكتور علي حبيبة ، القاهرة (١٣٨٧ هـ /
١٩٦٧ م) .
- الاشرف الرسولي : الملك الفساني (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) .
- ٦ - المسجد المسبوك - تحقيق شاكر محمود عبد المنعم - دار البيان بغداد
(١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م) .
- ابن ابي اصيبعة : موفق الدين احمد بن قاسم الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ /
١٢٧٠ م) .
- ٧ - عيون الابناء في طبقات الاطباء
الاصفهاني : ابو الفرج علي بن الحسين الاموري (ت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .
- ٨ - الاغانى - ط دار الكتب ، وط ساسي .
يحشل : اسلم بن سهل الرزاز الواسطي (٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م) .
- ٩ - تاريخ واسط - تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد :
(١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .
- بدرى محمد فهد
- ١٠ - تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير - مطبعة الارشاد : بغداد ١٩٧٢ م .
- ١١ - العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري - مطبعة الارشاد ، بغداد
(١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .
- ١٢ - الخليفة المغني ابراهيم بن المهدي - مطبعة الارشاد ، بغداد
(١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م) .
- ابن بطوطة : ابو عبدالله محمد بن محمد الطنجي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .
- ١٣ - الرحلة (او تحفة النظار في غرائب الامصار ومعجائب الاسفار) - بيروت ،
البكري : ابو عبير عبدالله بن عبدالعزيز الاندلسي (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) .

- ١٤- معجم ما استعجم - تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة (١٣٦٤ هـ / ١٣٦٨ م) .
- البلاذري : احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) .
- ١٥- انساب الاشراف - مطبعة الجامعة ١٩٣٨ .
- ١٦- فتوح البلدان - باعثناء رضوان محمد رضوان ، القاهرة (١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م) .
- بلبع : الدكتور محمد توفيق .
- ١٧- المسجد والحياة الدينية الاسلامية - مجلة عالم الفكر - مج ١١ / العدد الاول ١٩٨٠ .
- ابن تغلدي بروي : جمال الدين ابو المحاسن يوسف الانابكي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) .
- ١٨- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - دار الكتب ، القاهرة (١٣٤٨ / ١٣٧٥ هـ) .
- الثعالبي : ابو منصور عبدالملك بن محمد النيسابوري (ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م) .
- ١٩- يتيمة الدهر - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - القاهرة (١٩٥٦ - ١٩٥٨ م) .
- الجاحظ : ابو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م) .
- ٢٠- البيان والتبيين - تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف (١٩٦٠ - ١٩٦١ م) .
- ٢١- الحيوان - تحقيق عبدالسلام هارون - مطبعة مصطفى البابي (١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م) .
- ابن جبير : محمد بن احمد الاندلسي (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) .
- ٢٢- رحلة ابن جبير - دار التراث ، بيروت (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) .
- الجواليقي : ابو منصور موهوب بن احمد (ت ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م) .
- ٢٣- العرب من الكلام الاعجمي - تحقيق احمد محمد شاعر ، القاهرة (١٣٦١ هـ) .
- ٢٤- تلبيس ابليس - صححه محمد منير الدمشقي ، القاهرة .
- ٢٥- المنتظم في تاريخ الملوك والامم - حيدر اباد الدكن (١٣٥٧ هـ / ١٣٥٩ هـ) .
- ٢٦- مناقب بغداد (وهو مشكوك بنسبته لابن الجوزي) - تحقيق محمد بهجة الاثري - مطبعة دار السلام - بغداد ١٣٤٢ هـ .
- الحسيني : مجد ابو الفيض المتوفى .
- ٢٧- جمهرة الاولياء واعلام اهل التصرف - مؤسسة الحلبي ، القاهرة ١٩٦٧ .
- ابن حوقل : محمد بن علي النصيبي (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) .

- ٢٨- صورة الارض - مطبعة فؤاد بيان - بيروت .
- ابن خرداذبة : ابو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م) .
- ٢٩- المسالك والممالك - باعثناء ام.جي.ديغويه - لندن ١٠٣٩ هـ .
- الخطيب البغدادي : احمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) .
- ٣٠- تاريخ بغداد او مدينة السلام - تصحيح محمد حامد الفقي ، القاهرة (١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م) .
- الخفاجي : احمد بن محمد المصري (ت ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م) .
- ٣١- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل - مطبعة السعادة القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) .
- تاريخه : ط بيروت
- ابن خلكان : احمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
- ٣٣- وفيات الاعيان - تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر .
- ابن الدبيشي : محمد بن سعيد (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) .
- ٣٤- ذيل تاريخ مدينة السلام ببغداد - ج ١ تحقيق د . بشار عواد ، بغداد ١٩٧٤ .
- ابن دريد : محمد بن الحسن الازدي البصري (ت ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م) .
- ٣٥- الاشتقاق - تحقيق عبدالسلام هارون - مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٨ .
- الذهبي : شمس الدين محمد بن احمد (ت ٧٨٨ هـ / ١١٤٧ م) .
- ٣٦- المختصر المحتاج اليه - تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، ج ١ سنة ١٩٥١ ، ج ٢ سنة ١٩٦٣ .
- ابن الزبير : القاضي الرشيد احمد بن الرشيد (اتقرن الخامس الهجري) .
- ٣٧- الدخائر والتحف - تحقيق الدكتور محمد حيدرالله - الكويت ١٩٥٩ .
- الزبيدي : الدكتور
- ٣٨- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة - المطبعة العالمية ١٩٧٠ .
- ابن السامي : تاج الدين علي بن انجب البغدادي (ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ - ١٢٧٦ م) .
- ٣٩- المختصر في اخبار الخلفاء (منسوب لابن السامي) .
- السامرائي : الدكتور يونس احمد .
- ٤٠- سامراء في ادب القرن الثالث الهجري - مطبعة الارشاد ببغداد ١٩٦٨ .
- السامرائي : الدكتور كمال
- ٤١- مختصر تاريخ الطب العربي - وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٨٤ .
- ابن السامي : محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) .
- ٤٢- الطبقات الكبيرة - باعثناء ادوارد سخو ، برلين ١٣١٢ - ١٣٤٧ هـ / ١٩١٧ - ١٩٤٠ م .
- سهراب (ابن سراجيون) .

- ٤٣- مجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة - باعتناء هان فون مزيك
(١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م) .
الدكتور سعد زغلول عبدالحميد .
- ٤٤- الحياة الدينية في المدينة العربية - مجلة عالم الفكر ، العدد الاول ،
مجلد ١١ سنة ١٩٨٠ م .
الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور .
- ٤٥- الحياة الاجتماعية في المدن الاسلامية - مجلة عالم الفكر ، مجلد ١١
العدد الاول سنة ١٩٨٠ م .
سليمان صايغ
- ٤٦- مصر في العصور الوسطى (بالاشتراك مع عبدالرحمن الرافعي) القاهرة/
١٩٧٠ م .
- ٤٧- تاريخ الوصل - ج ١ المطبعة السلفية ١٩٢٣ ، ج ٢ المطبعة الكاثوليكية
١٩٢٨ ، ج ٣ مطبعة الكريم ١٩٥٦ م .
السهروردي : عمر بن محمد التيمي (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) .
- ٤٨- عوارف المعارف - دار الكتاب - بيروت ١٩٦٦ م .
السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .
- ٤٩- الاشباه والنظائر -
شارل بلات
- ٥٠- الجاحظ - ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني ، دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦١ م .
الشريشي : ابو العباس احمد بن عبدالمؤمن (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٢ م) .
- ٥١- شرح المقامات - تحقيق ابو الفضل ابراهيم - مطبعة المدني ١٩٧٣ م .
الدكتور شكري فيصل
- ٥٢- المجتمعات الاسلامية الاولى - دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٦ م .
الدكتور شوقي ضيف
- ٥٣- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول - دار المعارف بمصر .
الدكتور طاهر مظفر العميد
- ٥٤- العمارة العباسية في سامراء - منشورات وزارة الاعلام ١٩٧٦ .
الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) .
- ٥٥- تاريخ - تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم - دار المعارف بمصر
١٩٦٠ - ١٩٦٩ م .
- طيفور : ابو الفضل احمد بن طاهر الكاتب (ت ١٢٨٠ هـ / ١٨٩٣ م) .
- ٥٦- بغداد - صححه محمد زاهد الكوثري (١٣٦٨ هـ / ١٩٦٨ م) .
العبادي : الدكتور احمد مختار

- ٥٧- من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدرسة الاسلامية - مجلة عالم الفكر
مجلد ١ ، العدد الاول سنة ١٩٨٠ .
ابن عبد البر : يوسف بن عبدالله (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) .
- ٥٨- الاستيعاب في معرفة الاصحاب - تحقيق علي محمد البجاوي - مطبعة
نهضة مصر ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .
عبد الجبار ناجي
- ٥٩- الامارة الزيدية - دار الطباعة المدنية ، بغداد ١٩٧٠ .
ابن عبد الحق : صفي الدين (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) .
- ٦٠- مرصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع - تحقيق البجاوي ،
القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٥٥ م .
عماد الدين عبدالسلام
- ٦١- مدارس بغداد في العصر العباسي - مطبعة دار البصري - بغداد
١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
المعبود : الدكتور عبدالكريم
- ٦٢- الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة الى سقوط بغداد .
العماد الكلاب : محمد بن محمد الاصفهاني (ت ٥٩٧ هـ / ١٠٢١ م) .
- ٦٣- الخريدة - تحقيق محمد بهجة الاثري - ١٩٥٥ - ١٩٧٣ م .
العمرى : ياسين بن خيرالله (ت ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م) .
- منية الادباء في تاريخ الموصل الحداث - تحقيق سعيد الديرهجي -
الموصل ١٣٧٤ هـ .
- الغزالي : ابو حامد محمد بن محمد (٥٠٥ هـ / ١١١١ م) .
- احياء علوم الدين - مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م .
ابن الفوطي : ابو الفضل عبدالرزاق بن احمد (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م) .
- ٦٦- تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب - ج ٤ تحقيق الدكتور مصطفى
جواد .
- ابن الفقيه الهمداني : احمد بن محمد (ت ٢٨٩ هـ / ١٩٠٢ م) .
- ٦٧- بغداد مدينة السلام - تحقيق الدكتور صالح احمد العلي - وزارة
الاعلام ١٩٧٧ م .
- مختصر كتاب البلدان - باعثناء ام جي ديفويه ، مطبعة ربريل
١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م .
القرغولي : جهادية
- ٦٩- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في سامراء - مطبعة دار البصري
بغداد ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- القرويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) .

- ٧٠- اثار البلاد واخبار العباد - دار صادر ، دار بيروت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .
القفطي : جمال الدين علي بن يوسف الشيباني (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) .
- ٧١- تاريخ الحكماء - باعتناء جوليس ليبيرت ، ليبزك ١٩٠٣ م .
القلقشدي : ابو العباس احمد (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) .
صبح الامش في صناعة الانشا - المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ م .
- الكازودني : ظهير الدين ابو الحسن علي بن محمد (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م) .
- ٧٢- مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية - تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد ١٩٦٢ م .
المبرد : ابو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م) .
- ٧٤- الكامل - تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم والسيد شحاته - مطبعة نهضة مصر مجهول (ينسب لابن قتيبة) .
- ٧٥- الامامة والسياسة - مكتبة ومطبعة البابي الحلبي (١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م) .
مجهول : (ينسب خطأ لابن الفوطي) .
- ٧٦- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة - تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١ هـ .
محمد بلو : ابن عثمان بن فودي
- اتفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور - القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م) .
- الشيخ عبدالقادر الجيلاني - دائرة المعارف للبستاني .
ابن المستوفي : المبارك بن احمد الاربلي (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) .
- ٧٩- تاريخ اربل - تحقيق سامي بن السيد خماس الصقار - منشورات وزارة الاعلام - ١٩٨٠ م .
المسعودي : علي ابن ابي الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) .
- ٨٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ - دار الاندلس ١٩٦٥-١٩٦٦ م .
المعاضدي : الدكتور عبدالقادر
- ٨١- واسط في العصر الاموي - دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٦ م .
- ٨٢- واسط في العصر العباسي - منشورات وزارة الاعلام ١٩٨٣ .
ابن المعتز : عبدالله بن محمد المعتز (ت ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) .
- ٨٣- شعر ابن المعتز - تحقيق الدكتور يونس احمد السامرائي ١٩٧٧ - ١٩٧٨ م .
المقدسي : مظهر بن طاهر (ت بعد ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م) .

- ٨٤- احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم - باعثناء ام جي ديفويه - لندن ١٩٠٦ .
- المقدسي : مظهر بن طاهر (ت بعد عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م) .
- ٨٥- البدء والتاريخ - طبعة مكتبة المثنى المصورة عن طبعة برطرندي في مدينة سالون ١٨٩٩ - ١٩١٦ م .
- ناجي معروف
- ٨٦- علماء النظاميات ومدارس المشرق - مطبعة الارشاد ، بغداد ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- ابن النجار : محب الدين محمد بن محمود البغدادي (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) .
- ٨٧- التاريخ المجدد لمدينة السلام - مخطوطة مصورة برقم ٥٧٥ مكتبة الدراسات العليا ونسخة اخرى مصورة برقم ١٢٧ في مكتبة المجمع العلمي .
- نصر بن مزاحم : المنقري (ت ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) .
- ٨٨- وقعة صفين - تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة المدني ١٣٨٢ هـ .
- ابو نؤاس : الحسن بن هانئ (ت ١٩٨ هـ / ٨١٤ م) .
- ٨٩- ديوانه : ط بتحقيق بهجة عبدالغفور ، بغداد ، وط اخرى .
- النويري : شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .
- ٩٠- نهاية الارب في فنون الادب - دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤٩ ... ١٣٦٩ هـ / ١٩٢٩-١٩٤٩ م .
- وكيع : محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م) .
- ٩١- اخبار القضاة - صحة عبدالعزيز مصطفى المراغي - القاهرة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م .
- ياقوت الحموي : شهاب الدين ابو عبدالله البغدادي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) .
- ٩٢- معجم البلدان - ط اوربا .
- اليقوي : احمد بن ابي يعقوب واضح الكاتب (ت ٢٨٤ هـ / ٨٧٩ م) .
- ٩٣- البلدان - المطبعة الحيدرية - النجف ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م .
- ٩٤- تاريخه - المطبعة الحيدرية - النجف ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

الفصل الثامن

مدن القلاع

الدكتور علاء موسى كاظم نورس
استاذ مساعد في تاريخ العرب
الحديث

شهد العراق عبر حقب التاريخ ، تطورات سياسية عديدة كان لها تأثيرها في تحديد جوانب مهمة من نشاطاته وبخاصة في مجال العمارة العسكرية التي ازداد الاهتمام بها بازدياد احتياج العراق لمستلزمات الدفاع عنه ولعل القلاع القائمة فيه تمثل جانبا مهما من تلك العمارة .

ولقد اسهمت تلك القلاع في نشأة العديد من المدن حيث اتسعت وظائفها سياسيا واقتصاديا وغدت تمثل مراكز حضارية مهمة .

وخلال العصور المتأخرة اتسمت المدينة العراقية بكثرة تحصيناتها وأسوارها ويمكن ملاحظة ما كتبه بهذا الخصوص الرحالة الاجانب الذين زاروا العراق في فترات مختلفة من العصر العثماني وظل احتدام حدة الصراع مع الدولة الصفوية والاسر التي تعاقبت على السلطة في ايران (الافشارية والزندية والقاجارية) حتى تحول العراق الى ميدان صراع بين العثمانيين والفرس ، قد برز الوظيفة العسكرية التي كانت عليها المدينة العراقية .

وفي بحثنا هذا سنتناول بعضا من مدن القلاع في شمالي العراق حيث افردت المنطقة المذكورة الى حد كبير بنشوء قلاع غدت بعد حين مدنا كبيرة .
ومن بين أبرز تلك المدن ، مدينة أربيل التي اشتهرت بكونها واحدة من مدن القلاع العراقية القديمة ، وقد تميزت عبر حقب التاريخ بأهمية سوقية كبيرة بحكم خصائصها العسكرية والتي تعزى الى كونها قلعة حصينة شيدت بالدرجة الأولى لأغراض دفاعية ، إضافة الى عقد المواصلات التي تتفرع منها وتشكل هي نقطة الارتكاز فيها . ولذا حرصت الدول التي تأسست في العراق على ان تتخذ منها مركزا رئيسا لنشاطها الحربي والاقتصادي معا .

ولقد جاء ذكر مدينة أربيل في الكتابات المسمارية لأول مرة من زمن الملك السومري شولكي (٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق م) ، ثاني ملوك سلالة اور الثالثة حيث ارخت احدى سنوات حكمه بحملة عسكرية جهزها ضد هذه المدينة التي كتب اسمها بهيئة « اوريليم » .

وفي زمن الاشوريين عرفت المدينة باسم « أربلا » واكتسبت أهمية خاصة لسببين : الاول كونها قلعة عسكرية حصينة ونقطة اندلاق عبر ممر رايات الذي كان يؤدي الى جنوب بحيرة اورمية واقليم اذربيجان .

والسبب الثاني هو لكونها مركزا دينيا مهما لعبادة الهة عشتار ، حيث كان معبدها المعروف باسم (أي - كشان - كلاما) ومعناه « بيت سيده البلاد » ، يضم مجموعة من الكهنة والكاهنات الذين وصلت اليها منهم مجموعة من الاقوال الالهية التي أوحى بها اليهم آلهة الحرب عشتار ، وتظهر من خلالها المكانة السامية التي كانت تحتلها هذه الالهة في أربيل ، والدور الذي كانت تمارسه في تحقيق النصر للاشوريين على الاعداء . وكان معبد هذه الالهة أيضا مركزا لاستطلاع الفأل عن طريق فحص اكباد الضحايا من الاغنام

والماشية . هذا وقد ابتدع الكتبة الاشوريون طريقة جديدة في كتابة اسم مدينة اربيل عندما شطر اسمها الى مقطعين هما : أربا وايلوا ، فصارت تكتب بهيئة « أربا - ايلو » - ذات الالهة الاربعة .

لقد كانت اربيل بحكم ما اشرنا اليه ، من المراكز الاشورية المهمة ، وتعد قاعدتهم السوقية الرئيسية ، وفي عهود الممالك الاشورية ، اتخذت عاصمة الملك الحاكم ، وحظيت باهتمام خاص من قبل معظم ملوك الدولة الاشورية وقد اثنى فيها سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق م) مشروع ري خاص ، ووجدت بعض الاثار في قلعتها منها لوح مكتوب لاشور بانيبال ، وتمثال برنزي مكتوب يذكر الالهة عشتار والملك الاشوري اشور دان الثالث (٧٧٢ - ٧٥٤ ق م) .

وتعاقبت على اربيل ، القوى الغازية التي شهدها العراق عبر حقبة التاريخ ، واتخذت منها مركزا رئيسا للامتداد في شمالي العراق ، وهذا ما حفلت به العصور القديمة ايام الكوتيين والميتانيين والاخمينيين والفريثيين والرومان والساسانيين ، كما شهدته عصور الغزاة المتأخرة .

ولقد غدت اربيل في تلك العصور ، ميدان صراع لا يهدأ بين قوى طامعة عديدة ، ودارت فيها الكثير من المعارك الفاصلة . ولعل من ابرزها في التاريخ القديم ، تلك الموقعة التي قررت مصير الدولة الاخمينية ودارت بين اخر ملوك الفرس الاخمينيين دارا الثالث وبين الاسكندر المقدوني في عام ٣٣١ ق م وسميت بمعركة اربيل .

وخلال فترة الاحتلال الفريثي للعراق (١٤١ ق م - ٢٢٤ م) غدت اربيل مركزا لامارة مستقلة عرفت بامارة (حدياب) ضمن الدولة الفريثية ، أمتد نفوذها في بعض الاوقات الى الفرات غربا ونصيبين شمالا .

واستمرت اربيل تعاني من الغزاة حتى شهدت ازدهارا كبيرا في العهود العربية الاسلامية ، ثم توالى عليها الاقوام الغازية مرة أخرى منذ الغزو

المغولي للعراق وطوال العصور المتأخرة • وكانت خلال فترة السيطرة العثمانية تحكم مباشرة من قبل والي بغداد الذي يعين لها حاكما ، وان كان حكمها يتأرجح باستمرار بين البابائيين والعثمانيين •

ان اشارات عديدة قد وردت في كتب البلدانين العرب والرحالة الاجانب عن وصف اربيل كاحدى مدن القلاع في العراق ، حيث يذكر ياقوت الحموي أنها (قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الارض وبقلعتها خندق عميق وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية وجامع للصلاة) • ويقول صاحب مرصد الاطلاع « انها مدينة كبيرة ذات قلعة حصينة » • وفي سنة ١٧٦٦ زارها الرحالة الالماني كارستن نيبور فكتب يقول : « بلغنا أربيل وهذه المدينة هي اربيل بلا شك ، التي اشتهرت في المعركة التاريخية الحاسمة التي وقعت بين الاسكندر الكبير ودارا • وقد كانت امارة اسلامية عاشت سنين كثيرة ، وكان امراؤها الذين حكموا بالوراثة يتصفون ببأس شديد ، فوسعوا رقعة امارتهم وجعلوها تشمل مناطق واسعة امتدت الى داخل بلاد فارس حتى مدينة تبريز • وكانت المدينة آنذاك كبيرة جدا ولها قلعة مشيدة على تل مرتفع • اما اليوم فلم يبق منها شيء ما عدا القلعة ولكن حتى هذه ليست مسورة وانما اقيمت عليها البيوت ولاسيما حول حافة التل بصورة متماسكة فلا يستطيع أحد أن ينفذ خلالها الى داخل المدينة الا من داخل باب المدينة الحالي » ثم يقول : « أما في التل الواقع في اسفل القلعة حيث كانت تقع عليه مدينة أربيل الكبيرة فتوجد بضعة بيوت فقيرة • هذا وليس في اربيل آثار شاخصة ما خلا بقايا جامع كبير يقع بعيدا عن القلعة وسط الحقول وهو من آثار السلطان المظفر^(١) • • » كما زار اربيل الرحالة الانكليزي جيمس كننغهام وذلك سنة ١٨١٦ وقد وصفها قائلا : « كانت هذه اكبر مدينة شهدناها منذ غادرنا الموصل ، وقد ذكر لنا أن عدد نفوسها يتجاوز العشرة الاف والمنظر الرئيس هو وجود القلعة الكبيرة فيها والتي تقع على

ربوة في الوسط ، وتبدو من بعيد أشبه بقلعتي ميسا وحلب في سوريا ، وهي توازي كل منهما في الضخامة • والتل الذي تقوم عليه القلعة مربع الشكل يرتفع على سفح منحدر وهو وان كان واسعا الا انه بلا شك من صنع البشر أو ان سطحه الخارجي على الأقل ، قد رصف بالحجر ولو ان القاعدة الداخلية من البناء قد تكون تلا طبيعيا ، وفي داخل سور القلعة المبنية بالآجر يوجد الكثير من منازل السكن ولو ان الجزء الاعظم من المدينة ينتشر حول القلعة » • وقدم وصفا لمدينة اربيل وقلعتها القنصل البريطاني كلوديوس جيمس ريج الذي زارها سنة ١٨٢٠ ، حيث يقول : « وكانت بقايا السور والخندق ظاهرة ، ويبدو ان المدينة كانت فيما مضى جد واسعة وربما كانت بسعة بغداد الحالية • وتقع (اربيل) عند سفح الطنف الاصطناعي ، وعلى الجانب الجنوبي منه خاصة • ويقع قسم من المدينة فوق الطنف ويسمى هذا بالقلعة • • كان تخميني لارتفاع الطنف الاصطناعي الذي تعلوه قلعة (اربيل) ، مائة وخمسين قدما ، وقطره اربعمائة ياردة ، ولا أشك انه كان فيما مضى اكثر ارتفاعا ويحتمل ان قاراقلا (Caracalla) (الامبراطور الروماني الذي غزا اربيل بعد عودته من حملته على طيسفون في عام ٢١٦ م) قد هدم ذروته » •

ولقد كانت القلعة مسورة في العصور العربية الاسلامية حيث كانت مركزا للسكنى وحصنا للدفاع عن المدينة التي بنيت فوق التل وعليها الابراج • وبقيت طيلة الحقب اللاحقة تمارس دورها كحصن قوي للدفاع ، واخر ذكر لها كان عند احتلال نادر شاه لاربيل سنة ١٧٣٢ بعد مقاومة باسلة ، وكذلك عند غزوته الثانية لها سنة ١٧٤٣ حيث حاصرها مدة ستين يوما • وحين زارها نيبور سنة ١٧٦٦ لم ير شيئا من استحکامات القلعة ولا حتى سور المدينة •

وتشير الدراسات الاثرية الى ان قلعة اربيل التي تعد اثرا طوبوغرافيا بارزا في المدينة ، ترتفع الى علو ٢٥ مترا وتشغل مساحة قدرها ١١٠ الاف متر مربع ، وانه ما يزال لوجودها تأثير على شكل ونمو المدينة نفسها التي تحيط بهذا الاثر القائم في قلبها .

ومن مدن القلاع الاخرى ، مدينة كركوك التي تشير بعض المصادر الى انشائها من قبل الاشوريين وانها كانت أحد مراكزهم المهمة . وخلال السيطرة السلوقية على العراق ، نالت اهتماما خاصا حيث أقام لها سلوقس سورا فخما جعل له ٦٥ برجاً وبابين . ويرد ذكرها في المصادر الارامية بصورة « كرخا - د - بيت سلوخ » اي مدينة السلوقيين وبصورة « كرخ سلوخ » بالمعنى نفسه . كما ان البلدانيين والمؤرخين العرب لم يذكروا أسم كركوك ولا كرخ سلوخ ، وانما اشاروا اليها باسم (كرخيني وكرخيتي) ، حيث يذكر ياقوت الحموي الذي رآها في القرن السابع للهجرة ، وسمّاها في معجمه (كرخيني) بكسر الخاء المعجمة ثم ياء ساكنة ونون وياء مماله : هي قلعة في وطاء من الارض ، حسنة حصينة بين داقوق واربيلا رأيتها ، وهي على تل عال ولها ربض صغير . كما وردت بصورة (كرخيتي) في الحوادث الجامعة لابن الفوطي .

ولقد كانت مدينة كركوك محصورة في القلعة تقريبا الى مطلع القرن الثامن عشر للميلاد ، حيث بدأ السكان من بعد ذلك يشيدون البيوت في السهل خارج بدن القلعة . وفي سنة ١٧٦٦ زارها الرحالة كارستن نيبور فكتب عنها يقول : « تقع كركوك في سهل جميل كثير الخيرات ولكنه قليل العمران . ولم يبق الا الشيء القليل من المدينة الاصلية الواقعة على سفح التل ذي الانحدار الشديد ، أما التل نفسه فانه مزدحم بالسكنى ويحيط به من الاعلى سور من الطين وفيه حامية من النيجرية ويدعى القلعة . . وبيوت هذه القلعة بلا استثناء في منتهى الرداءة ، وفي القلعة ثلاثة مساجد ولها

مناثر . وان كركوك مقر باشوية من درجة طوغيتين ولكن الباشا لا يقيم في المدينة وانما قبالتها في الجانب الثاني من النهر ومنطقة نفوذه صغيرة جدا » .

ويذكر الرحالة بكنغهام الذي زارها سنة ١٨١٦ ، ان مدينة كركوك « تتألف من ثلاثة اقسام متميزة كل قسم منها له مساحة كبيرة وفي القسم الرئيس من هذه الاقسام يقوم تل مرتفع فوق سفح منحدر أشبه بتل أربيل الذي سبق وصفه وعلى هذا التل تقوم مدينة محصنة اكثر منها قلعة تضم داخل اسوارها عددا كبيرا من المنازل ومناثر ثلاثة مساجد ترى اعلى ارتفاعا من بقية المباني الاخرى وان عدد سكان هذا القسم يتراوح بين خمسة الاف وستة الاف نسمة والقسم الثاني من المدينة، لاهميته كموقع للدفاع - فانه اوسع واكثر سكانا من بقية الاقسام . يمتد في السهل المحيط - بالقلعة - كما يسمون ذلك التل المرتفع - وتوجد فيه الخانات الرئيسية ، والمقاهي ، والاسواق وما سواها ويبلغ سكان هذا القسم حوالي عشرة الاف نسمة . اما القسم الثالث فيقع على مسافة نصف ميل من القسمين السابقين . وهذا القسم اصغر الاقسام في المدينة ويبوتة متناثرة ولذلك لا يزيد عدد سكانه عن الف نسمة وبهذا يصبح مجموع سكان كركوك لا يزيد عن خمسة عشر الف . ان الاقسام الثلاثة كبيرة الى درجة تدعو الى الاعتقاد بانها ربما كانت احدى الحواضر في العصور المتأخرة ، وان اسمها قد أطلق في العصور القديمة على المنطقة كلها . وان كركوك ما تزال تعد اكبر مدينة في السهل الواقعة شرقي دجلة في حين نرى من الناحية الاخرى ان مظهر قلعتها الواقعة على تل مرتفع يحملنا على الاعتقاد بانها كانت على الدوام مقرا عسكريا للرومان اثناء حكمهم هنا . وتخضع المدينة لسلطة باشا بغداد ، وحاكمها من اتباعه المباشرين ويرتبط به عدد من الجند الذين يؤلفون الحرس الخاص لحمايته » .

وتذكر الدراسات الاثرية على ان مدينة كركوك القديمة والمعروفة باسم القلعة ، تقوم فوق مستوطن اثري قديم ورد اسمه في الالواح

المستخرجة منه باسم « اربخا » الذي حرف حديثا الى عرافة . وكان عدد هذه اللوح المكتشفة في تل القلعة (٥١) لوحا ويرتقي تاريخها الى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد . وقد عثر عليها في سفح التل سنة ١٩٢٣ ، ولعل اقدم ذكر لاسم اربخا يرتقي الى عهد حمورابي ، وجاء في المصادر الاشورية أنها مركز لعبادة الالهة « ادد » . والمعروف ان كركوك تقع في اقليم قديم نشأت فيه عدة مراكز من عهود حضارة وادي الرافدين .

ومن مدن القلاع الاخرى ، مدينة العمادية التي تعد من القلاع المهمة في العراق ، ويرتقي تاريخها كما تشير الدراسات الاثرية الى العصور القديمة ، حيث ورد ذكرها باسم « آمات » اي العمادية في الكتابات الاشورية ، واقدم اشارة لها كانت في سجلات اخبار الملك الاشوري شمش ادد الخامس (٨٢٣ - ٨١٠ ق م) ، وذلك كاحدى المدن التي خضعت لحكم اسرته . كما يتردد ذكرها في كتابات الملك الاشوري ادد نيراري الثالث (٨٠٥ - ٧٨٢ ق م) وكتابات العصر البابلي الحديث . وفي المدينة بقايا اثرية مهمة تعود الى عصور مختلفة ، وتبرز القلعة التي غدت مدينة فاعلة في مسار الاحداث منذ نشأتها ، كأحد المراكز المهمة في شمالي العراق . وحرص الكثير من الحكام على ان تكون جزءا من ممتلكاتهم لما لها من خصائص دفاعية تجعلها ذات قيمة سوقية عالية .

وقد وصفها ياقوت الحموي في معجمه قائلا : « العمادية قلعة حصينة مكيئة عظيمة في شمال الموصل ومن أعمالها . » ، كما جاء عنها في المصادر البلدانية الاخرى ، انها قائمة فوق مرتفع منيع ، وهي محكمة ووضعا يساعد على المراقبة والاعتصام . وقد جددتها في سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الاتابكية في الموصل ، واتخذ منها قاعدة لعملياته العسكرية في المنطقة .

وغدت منذ سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) عاصمة للامارة البهيدناية حتى سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) ، حيث انتهى استقلال الامارة على اثر الاحتلال العثماني لجميع المناطق التي تشكل حدود ممتلكاتها ، وصارت تابعة الى ولاية الموصل وكانت الدولة العثمانية تسعى على الدوام للتخلص من الامارات المستقلة وغرض حكمها المباشر .

وكان الرحالة كارستن نيبور قد زار العمادية سنة ١٧٦٦ ، ووصفها بانها « قلعة حصينة تقع على جبل شديد الانحدار ، صعب المسالك لا يمكن الاستيلاء عليها . تبعد عن الموصل مسيرة ثمانى عشر ساعة . ويدعى الرجل الذي يحكمها اليوم بهرام^(٢) وهو من اسرة بلديناو^(٣) التي تحكمها منذ زمن خلفاء بني العباس . والمفروض في هذا الحاكم ان يكون مستقلا في منطقته ولكنه يدفع الجزية ويقدم الهدايا للباشوات المجاورين له ليحافظ بها على قراه الواقعة في السهل من التخريب والدمار » .

وتصف الدراسات الاثرية قلعة العمادية وابوابها ، فتذكر انه ما يزال باقيا من ابوابها : بابان احدهما الباب الغربي ويعرف باسم باب الموصل وقد تهدم معظمه ولم يبق منه الا كتابة على احدى احجاره . وباب الزيبار وهو الباب الشرقي الذي يطل على الوادي وينتهي بقبة متداعية تتصل بمنحدر جبلي على هيئة سلم مرصوف بالحصى ويرقى تاريخه الى زمن قلعة العمادية، ويشاهد عند الباب على جانب هذا المنحدر اربعة صور منحوتة تمثل اشخاصا اصغر من الحجم الطبيعي لعلها تمثل بعض الملوك الفريين الذين كانوا قد احتلوا هذه المنطقة عند غزوهم للعراق (١٤١ ق م - ٢٢٤ م) .

والى جانب ما اشرنا اليه من مدن القلاع الرئيسة ، فإن في العراق مدن قلاع أخرى عديدة ما تزال بعض اثارها شاخصة ، وهي في انتشارها تعد احدى الظواهر التي تميزت بها حقبة التاريخ المتعاقبة .

الهوامش

- (١) المراد به هو مظفر الدين كوكبرى الاتابكي
- (٢) بهرام باشا الكبير تولى الحكم سنة ١٧١٤ ولغاية ١٧٦٨ .
- (٣) المراد « بهدينان » .

مصادر الفصل

- اسماعيل ، زهير بلال ، اربيل في ادوارها التاريخية ، النجف ١٩٧١ .
- باقر ، طه وفواد سفر ، المرشد الى موطن الاثار والحضارة ، الرحلة منشور في المجلد الثالث ، العدد الاول من مجلة المجمع العلمي الكردي ، بغداد ١٩٧٥ .
- باقر ، طه وفواد سفر ، المرشد الى موطن الاثار والحضارة ، لرحلة الثالثة والرابعة والخامسة ، بغداد ١٩٦٥ و ١٩٦٦ .
- بكنفهام ، جمس ، رحلتي الى العراق ، ترجمة سليم طه التكريتي ، ج١ ، بغداد ١٩٦٨ .
- الحسني ، عبدالرزاق ، العراق قديما وحديثا ، صيدا ١٩٥٨ .
- الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ .
- ريج ، كلوديوس جيمس ، رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ ، ج١ ، نقلها الى العربية بها الدين نوري ، بغداد ١٩٥١ .
- زكي محمد امين ، تاريخ السليمانية وانحائها ، ترجمه عن الكردية محمد جميل بندي الروزياني ، بغداد ١٩٥١ .
- زكي محمد امين ، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، بغداد ١٩٦١ .
- شيرزاد ، شميرين ، تطوير قلعة اربيل ، ترجمة غير منشورة للقسام الثالث من اطروحتها في الهندسة المعمارية ، ١٩٧٩ .
- عمر ، محفوظ محمد ، امارة بهدينان العباسية ، الموصل ١٩٦٩ .
- فريزر ، جيمس بيلي ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، ترجمة جعفر الخياط ، بغداد ١٩٦٤ .
- لسترنيج ، كي ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٥٤ .

- لونكريك ، ستيفن هيمسلي ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط٤ ، بغداد ١٩٦٨ .
- المنشئء البغدادي ، محمد بن احمد الحسيني ، رحلة المنشئء البغدادي ترجمها عن الفارسية عباس العزاوي ، بغداد ١٩٤٨ .
- نيبور ، كارستن ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة عن الالمانية محمود الامين ، بغداد ١٩٦٥ .
- هاملتون ، آي ، ام ، طريق في كردستان ترجمة جرجيس فتح الله ، بغداد ١٩٧٣ .

الفصل التاسع

الخدمات العامة في المدن العراقية (الحقبة الحديثة)

**الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف
كلية التربية – جامعة بغداد**

اتسمت فكرة الحكم في دول العصور الوسطى حتى التي استمرت منها الى العصر الحديث ، ببساطتها المتناهية ، فمهمة الدولة تنحصر ، في نظر القائمين عليها ، في ثلاثة امور رئيسة لا تتعدها ، اولها : الحفاظ على حدود الدولة من الاخطار الخارجية وقمع ما يؤدي الى تغيير نظم الحكم فيها ، وثانيها : الاهتمام بجمع الضرائب من السكان لانفاقها على الادارة والجيش ، وثالثها : حل المشاكل المختلفة بين الناس ، وبينما تستدعي المهمة الاولى قيام مؤسسة عسكرية قوية ، وتتطلب المهمة الثانية انشاء نظام ضريبي ومؤسسة مالية تتولى تنفيذه ، وتستلزم الثالثة تاسيس نظام قضائي فعال ، تبقى الخدمات العامة الاخرى ، صحية واجتماعية وبلدية وثقافية (والاخيرة تخرج عن نطاق هذا الفصل) خارج نطاق اهتمامات الدولة وانشطتها العامة .

وفي الواقع فإن المجتمع الاسلامي ، في عهود ازدهاره ، كان يرى في توفير تلك الخدمات جزءا من واجباته الدينية - الاجتماعية ، بوصفها تدخل في نطاق ما أوجبه الله تعالى من العناية بالمسلمين ، الا ان تلك الخدمات لم تكن تنشأ بمبادرة رسمية من الدولة ، وانما يقوم بها « اهل الخير » من ابناء المجتمع الموسرين ، وبضمنهم رجال الحكم احيانا ، بصفاتهم الشخصية فحسب والحفاظ على ديمومتها لم يكن من واجبات مؤسسات الدولة ، وانما كان يقع على عاتق الجهود الخاصة للمؤسسين ، فالاتفاق على المستشفيات والجسور والطرق ووسائل توصيل مياه الشرب لم يكن يجري من خزانة الدولة ، وانما من واردات ما اوقفه المؤسسون انفسهم من اوقاف خيرية ، ويتبع ذلك ان يتولى اولئك المؤسسون ومن يختارونهم من المتولين بعدهم ، ادارة تلك الخدمات والاشراف على اعمالها ، بموجب «الحجج الوقفية» التي بأيديهم، والتي اعطيت من الاهمية ما جعل « نص الواقف كنص الشارع » ، وهو ما يفسر لنا لِمَ لم نسمع بوجود دواوين (او وزارات باصطلاح هذه الايام) تتولى العناية بشؤون المدارس ، على كثرتها في المدن الاسلامية ، او تعنى برعاية المستشفيات على تعددها وتنوع تخصصاتها ، او تهتم بتعبيد الطرق ونضيب الجسور والعناية بها ، والاشراف الوحيد الذي تتولاه الدولة ، كان عن طريق القضاء ، اذ بوسع القاضي ، بحسب صلاحياته الدينية والاجتماعية ، ان يحاسب متولي الاوقاف ان هم اساءوا التصرف بما تحت ايديهم من موارد مالية ، او انهم لم ينفقوا تلك الموارد في اوجهها التي نص عليها الواقف الاصلي ، وقد يصل الامر الى عزله ، وتعيين غيره ، ولكن ذلك لا يصل الى حد التدخل في شؤون المؤسسة التي ينفق عليها بأي وجه من الوجوه الاخرى .

وكان هذا الوضع يجعل شؤون الخدمات العامة في المدن ، على عاتق المجتمع كله ، لا على عاتق الدولة ، ويفرض نوعا من الاستغلال الحقيقي لهذه الخدمات ، وقد اثبت هذا الاستغلال قدرا من الفائدة عندما حافظ

على ديمومة المؤسسات الخدمية بعيدا عن آثار الاختلال السياسي الذي اصاب الدولة العربية الاسلامية بسبب تسلل العناصر الاجنبية اليها ، وضعف الشعور الرسمي بالمسؤولية تجاه توفير الخدمات للرعية، الا ان ذلك الوضع ، اثبت جدواه تماما ، حينما تعرضت المؤسسات الرسمية نفسها الى السقوط امام غزوات القوى الاجنبية ، فسقوط الخلافة العباسية في العراق ، ابان القرن السابع للهجرة ، انتهى عهد الدولة المستقلة فيه ، وانغيت كل مؤسساتها ، او وقعت تحت هيمنة المحتلين ، وبذلك امسى الشعب محكوما من قبل الاجانب ، الا ان فعالياته الثقافية والاجتماعية والبلدية ظلت بعيدة - في معظمها - عن تدخلهم المباشر . وهكذا فان انهيار الدولة ومؤسساتها لم يؤد - بالضرورة - الى انهيار الخدمات العامة ، وذلك لضعف ارتباطها بها ، او استقلالها عنها ، واكتفائها بمصادرهما المالية الخاصة . صحيح ان مستوى اداء تلك الخدمات قد تأثر تأثراً بالغاً بظروف القطر العامة ، الا ان ذلك التأثير لم يكن بسبب تدخل السلطة المباشر في شؤونها ، وانما يعزى الى قيام تلك السلطة بالاستيلاء على الاوقاف ، وهي مصدر الاثاق عليها ، او اهمال المؤسسة القضائية العناية بشؤون متولي الاوقاف نظرا لتردي الوضع العام ، وانعدام الامن ، وتعاقب حوادث اجتياح المدن .

وكان حرص الواقفين على اختيار افضل العناصر لتولي العناية بما الشأوه من مؤسسة خدمية ذات تقع عام ، وتشديدهم في شروط اختيار المتولين من بعدهم ، وتأكيدهم على عدم التعرض بشيء الى ما اثبتوه في وقيياتهم ، يدل على مقدار المسؤولية التي كان يشعر بها المجتمع في الحفاظ على ديمومة الخدمات التي تقدمها تلك المؤسسات المهمة . ومن المؤسف ان معظم الوقفيات المحررة في الحقبة التي تلت احتلال المغول الايلخانيين مدن العراق ، حتى احتلال العثمانيين اياها ، قد ضاعت اصولها ، ولم يدون تفاصيلها احد من المؤرخين ، لقلتهم وثررة ما كتبوه اصلا . لذا امسى

عسيرا ان نحدد طبيعة الخدمات الموجودة في مدن ذلك العصر ومستواها •
وثمة مؤسسات وردت اسماءها عرضاً في تضاعيف هذا الخبر او ذلك ،
لكننا لانعلم طبيعتها ودورها ، مثل « عمارة الايكجية » و « عمارة السلطان
احمد » وغيرهما • على ان معلوماتنا عن مؤسسات الحقب التالية اكثر وفرة
بسبب توفر نصوص وقياتها من جهة ، وعناية اكثر من مؤرخ باخبارها ،
وبخاصة ما الشئ منها في اواخر العصر العثماني •

وسنحاول ، فيما يأتي ، ان نستعرض اهم ما كانت توفره المدينة العراقية
من خدمات ضرورية ، صحية ، واجتماعية ، وبلدية •

الخدمات الصحية العامة :

حينما احتل المغول مدن العراق ، كان عدد غير قليل من المستشفيات
العامة التي وردت اخبارها في مصادر القرن الثالث والرابع للهجرة ، قد اندثر ،
او انقطعت اخباره ، فلم نعد نسمع بمستشفيات الرشيد وبدر وابن الجراح
وام المقتدر والمقتدري وابن الفرات والامير بجكم وغيرها مما كانت تحفل به
بغداد في تلك القرون ، كما غابت عنا انباء مستشفيات مهمة كانت قد شيدت
في مدن اخرى ، كواسط والبصرة ، وفي الواقع فان بعض المستشفيات القليلة
بقيت تؤدي الخدمات الصحية حتى نهاية عهد الدولة العباسية ، اهمها المستشفى
العضدي في الجانب الغربي من بغداد ، والمشييد سنة ٣٧٢ هـ ، والمستشفى
المجاهدي في الموصل ، المشيد سنة ٥٧٢ هـ ، ويعود سبب استعصاء هذه
المستشفيات على الفناء الى كثرة ما وقف عليها من اوقاف ، والتي كانت تدر
عليها اموالا طائلة تكفي لاعادة مرضاها ودفع رواتب اطبائها والعاملين فيها
من المرضى والفراشين والطباخين والصيادلانيين والبوابين والحراس ، فضلا
عن الادوية والاغذية وما يتصل بذلك ، يضاف الى هذا اهتمام الحكام
والامراء والموسرين برعاية شؤونها وتفقد احوالها ومنع المتجاوزين من التجاوز
على مالها من لوقاف • وعلى الرغم من الاضطراب الكبير الذي ران على

البلاد في اثناء فترة الاحتلال المغولي، فان تلك المؤسسات استمرت تقدم خدماتها الى الناس مدة قرن كامل بعد العصر العباسي ، مستقلة عن سلطة الاحتلال بما لها من موارد خاصة بها .

لم نعد نسمع بمستشفيات اخرى تقام في مدن العراق الا نادرا ، ويمكن القول بان بناء مستشفى في مدينة ما امسى يعد دليلا على الاهمية الكبيرة للمدينة ، ومحاولة من حاكمها تقليد آثار الماضين من رجالها ، ففي الحلة انشأ احد حكام بغداد، وهو مجد الدين بن اسماعيل الكتبي (ت ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م) مستشفى، وفي بغداد انشأ الوالي امين الدين مرجان مستشفى (دار الشفاء) سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦٢م وتؤكد وقفية مرجان هذا على قوة التقاليد الخاصة باستقلال الخدمات الصحية في المدينة العراقية عن سلطاتها ، فالمستشفى يستمد امواله من الاوقاف العديدة التي وقفها الوالي عليه ، وتشمل قرى زراعية وبساتين عديدة من اعمال بغداد ، وخانات ودكاكين في بغداد ذاتها « وقفا صحيحا شرعيا مؤبدا مخلدا محرما .. لا يندرس بمرور الاعصار ، ولا ينطمس بمرور الادوار » (١) وتأكيذا على مبدأ ابعاد هذه المؤسسة عن تدخل السلطة ابعادا كاملا فقد نص الواقف على « ان لا يؤجر من متغلب ومتعزز وجندي ، ومن يخاف عائلته » (٢) فهذا النص يشير الى نوع الخطر الذي كانت تتعرض له مؤسسات تلك العهود ، والاشارة الى عذم ايجار الوقف الى جندي فيها تلميح الى الحكومات العسكرية الاجنبية التي كانت تتوالى على احتلال العراق آنذاك ، وقد حاول الواقف توفير اقصى حد من ضمانات لادارة مؤسسته الصحية ، والمرتبطة اصلا بالمدرسة الكبيرة التي انشأها ، فأشار الى اهم الوظائف في هذه المؤسسة ، وهي وظائف : أ - المتولي ، ب - المستوفي ح - المشرف ، وبينما يتولى (المتولي) المسؤولية المباشرة عن ادارة الشؤون الداخلية للمؤسسة ، من توفير الاطباء والادوية والادوات وغير ذلك ، يقوم (المستوفي) بجمع الاموال التي خصصها الواقف للاتفاق عليها

وتوفيرها في مواعيدها ، اما (المشرف) فهو المفتش المالي ، ويخضع الجميع الى ادارة (الوالي) الذي يعد رئيس المؤسسة ، ولا يخضع الى اي اشراف او سيطرة اخرى ، باستثناء قاضي القضاة ، بل ان الوقفية ، امعانا في تأكيدها على استقلال المؤسسة ، جعلت من القاضي المذكور (معاونا) لا مشرفا ، كما حدث في الوقفيات المتأخرة .

ولا نعلم الى اي عصر استمر اداء هذه المستشفى لخدماتها الصحية العامة لسكان بغداد ، الا اننا نرجح انها توقفت اثر تخريب تيمور لك المدينة في نهاية القرن الثامن الهجري ، ويمكننا ان نحمل هذا الطاغية مسؤولية تخريب واندثار مستشفيات اخرى في العراق ، ابرزها المستشفى المجاهدي في الموصل ، وهو الذي لبث قائما يؤدي خدماته الى اهل المدينة نحو ثلاثة قرون .

وبانقضاء عهد المؤسسات الصحية ذوات الاوقاف ، اصبحت المدينة العراقية ، منذ القرن التاسع للهجرة (١٥ م) خلوا من اية خدمات صحية عامة ، ومن ناحية اخرى ، ادى توالي الغزاة وتعاقبهم على احتلال المدينة العراقية ، الى ان تصبح هذه المدن عزلاء تماما امام أي مرض وافد ، او وباء داهم ، ولذا تعرضت المدينة في العراق في خلال القرون الاربعة الاخيرة الى انواع من الاوبئة ، كالطاعون والكوليرا والملاريا والتيفوئيد سنوات ١٦٨٩ و ١٧١٩ و ١٧٤٧ و ١٧٧٣ و ١٧٧٤ و ١٧٧٦ و ١٧٨٠ و ١٧٩٠ و ١٨٠١ و ١٨٢٧ و ١٨٣٠ و ١٨٦٥ و ١٨٧٣ و ١٨٧٤ و ١٨٧٥ و ١٨٧٦ و ١٨٧٧ و ١٨٨٩ و ١٩٠١ و ١٩٠٢ وغيرها ، ومع تكرار وفود الاوبئة ، والخسائر البشرية والاقتصادية الناجمة عن ذلك ، فان الخدمات الصحية بقيت بعيدة عن اهتمام السلطات العثمانية وعنايتها ، فلم نسمع عن اي اشراف رسمي على شؤون الاطباء ، ونوع العلاج المقدم للمرضى ، ولم تكن ثمة رقابة واضحة على سوق الادوية والمشتغلين بها ، بيد ان ظهور الحكومات المحلية

التي تمتعت بنوع من الاستقلال العملي ضمن الاطار العثماني ، كان ايذانا بوجود شيء من الاشراف الرسمي على هذا المجال ، من ذلك ان سلطات ولاية الموصل ، في عهد اسرة الجليليين العربية ، ولت طبيا موصليا نابها ، رئاسة الاطباء في المدينة ، ولكن تعوزنا المعلومات عما اذا كانت هذه (الرئاسة) تعني وجود مؤسسة خاصة بها تتولى الاشراف على شؤون الاطباء والمتطبين ، ومن المؤكد ان طلبة عديدين كانوا يتلقون الطب على يد هذا الطبيب ، ولكننا لا نعلم طبيعة الاماكن التي يتلقى فيها اولئك الطلبة علم استاذهم ، ومن المرجح انهم كانوا يقصدون داره ، حيث يتولى فحص مرضاه (الذين يحتمل انهم يبيتون فيها) او انهم يصحبونه في اثناء عيادته بيوت المرضى انفسهم ، ورغم الخطوة الكبيرة التي نالها هذا الطبيب لدى المدينة ، فان فكرة انشاء مؤسسة عامة تقدم الخدمات الصحية للسكان لم تكن تدور في اذهان اهل ذلك العصر .

وتشير المعلومات المتوافرة الى الظروف الصحية السيئة التي كانت تعيشها المدن العراقية آنذاك ، فالازقة ضيقة ، ويكاد لا ينفذ اليها ضوء الشمس والاسواق المسقوفة تحول دون تقاذ أشعة الشمس ، مما يؤدي الى تعفن المواد وفسادها ، كما ان عدم وجود نوافذ للبيوت في الطوابق السفلى المظلة على الطريق يزيد من صعوبة تهويتها ، ومن ناحية اخرى ، فان اكتضاض الاجزاء المسكونة من المدن بالدور يجعل من النادر وجود حدائق تقوم بدورها في تلطيف بيئتها وتنقيتها . كما كانت ازقة المدينة تعج بالحيوانات ، من خيل وبغال وجمال وابقار وحمير ، تأوي الى اصطبالات شيدت بجوار دور اصحابها ، او داخلها ، او الى الخانات العامة المشيدة قرب الاسواق لايواء الحيوانات القادمة من القرى والمحلة بصنوف الغلال والمنتجات الزراعية . وكان من المألوف ان تجمع القمامة في كل محلة لتكون وقودا للحمامات فيها ، ومن ثم تكون مباءة للذباب وغير ذلك من الحشرات الضارة .

ولم تعرف المدن العراقية انشاء المستشفيات الحديثة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وكان اول مستشفى حديث هو الذي شيد في الموصل سنة ١٨٤٤ بامر من واليها محمد باشا اينجه بيرقدار^(٣) ، وبما ان انشاء هذا المستشفى سبق قيام اول ادارة صحية في تاريخ العراق - وهو ما سنبحث فيه فيما يلي من هذا البحث - ، فان معلوماتنا عن ادارته ومسؤولية حكومة الولاية عن ادامته غير كافية حتى الان ، وليس ثمة ما يشير الى الجهة الرسمية التي كانت تتولى الاثاق عليه ، او التي تشرف على شؤونه المختلفة .

الطرق

ان العناية بالطرق لم تكن من واجبات الدولة ايضا ، فلم تكن ثمة سلطة مختصة بالطرق ، من حيث تعبيدها او صيانتها مثلا ، كما لم تكن ثمة جهة رسمية مسؤولة عن تخطيط الطرق والمحافظة على حريتها ، ومع ذلك فان الناظر الى الخرائط والمخططات التي وضعها الرحالون والسياح لمدينة العراق ، وبخاصة بغداد والموصل والبصرة ، يجد ان اقل التغيير كان يحدث في طرق تلك المدن ، بل يمكن القول ان معظم طرق بغداد الشرقية التي وجدت في اوائل القرن العشرين لم تكن - في اسمها واتجاهاتها - الا طرقها منذ اواخر العصر العباسي ، وان تغيرت اسمائها . ولا تختلف خرائط نيور وجونز والخوجة عن بعضها الا قليلا^(٤) ، رغم كثرة الطرق والازقة والأسواق وتعقد اتجاهاتها ، مما يبعث في النفس التساؤل عن عوامل ثبات هذه الطرق ، مدة تزيد على السبعمئة سنة ، دونما تغيير تقريبا . وفي الواقع ، فان في وسعنا ان نعزو هذه الظاهرة الى قوة التقليد بالدرجة الاولى ، فلقد حافظ المجتمع على نمط حياته ، وعلى طرق تنقله ثابتة مستقرة ، ومع انه لم تكن ثمة سلطة تتولى ذلك ، الا انه كان في وسع الناس الشكوى لدى قاضي المدينة دائما اذا ما لاحظوا ان احدهم قد

تجاوز على حرمة الطريق ، ويكون للقاضي حينذاك الحق في ازالة التجاوز على اساس انه يمس حقوق عابري السبيل ، ومن ثم فانه يقع ضمن صلاحياته الدينية الصرف ، ولم يكن من الممكن اغلاق طريق ، او توسيعه ، الا بعد استحصال موافقة القاضي ، وبصفة عامة ، فان موافقة الاخير لم تكن تحصل الا نادرا ، اما الاتفاق على مشاريع الطرق فيكون من خزانة الولاية ، وبأمر من الوالي ، وللقاضي ان يصدر اعلاما شرعيا يعرض فيه مطالب الناس على الوالي ، والخاصة بتلك المشاريع ، وتصور احدى الوقفيات الصادرة سنة ١٢٤٣ هـ / مراحل تعمير طرق في بغداد وتوسيعه ، ففي عام ١٢٤١ هـ / « جاء جماعة من العلماء الى القاضي ببغداد يومئذ محمد راشد افندي بن فخرالدين فاخبروه بان طريق الجسر النافذ الى الجانب الشرقي من البلد الممتد من مسناة الجسر الى القهوة الشهيرة بقهوة زبور فيه ضيق على المجتازين بسبه يحصل ازدحام ومشقة للمارين ، خصوصا من ضعف منهم كالصبيان والشيوخ والزمنين ، وسبب ذلك انه جادة واحدة ليس لها ثمانية ، ويقابله من طرف الجسر الاخر الغربي ثلاث طرق متحاذية متباينة فطلبوا منه ان يعرض هذا الحال لحضرة الوزير . . داود . . ويرجو منه ان يفتح بابا للجسر اخر ويجعل الباب طريقا عاما يسلك منه الصغير والكبير فيكون في ذلك تيسير للسالكين وان يفتح الباب من مكان في حذاء الجسر هدمت عمارته وهو الآن خراب ليس فيه منفعة دنيوية ولا مصلحة أخروية ومع ذلك فهو مأوى المفسدين والزناة والفسقة ، وبعد الالاحاح على القاضي اجابهم معتذرا بانه لقرب عهده لم يميز امور البلد الخيرية عن الشرية ، وفي اليوم الثاني جاءه اعيان العلماء باجمعهم ، وبينهم مفتي الحنفية محمد اسعد افندي ومفتي الشافعية عبيدالله افندي والسيد محمود افندي نقيب الاشراف فالتمسوا منه ان يعرض الحال على الوزير . . فذهبوا جميعا الى المكان لرؤيته ومشاهدة الازدحام وما فيه من الاذى ، ومن ثم تحققت له المنفعة فعرض حينئذ الحالة على حضرة الوزير ، فلما اطلع الوزير

على اعلام حاكم الشرع الشريف وعلم ان في ذلك مصلحة شرع في عمارة الباب والطريق العام»^(٥) ويتضح من هذا النص صعوبة احداث تغيير في طريق عام ، رغم ظهور فائدة هذا التغيير ، ولاشك في ان مبلغ الصعوبة يكون اشد حينما لا يتعلق التغيير بفائدة عامة ، او لا يكون مقرونا برغبة فئة واسعة من سكة المدينة .

ومن الثابت بحسب اوصاف الرحالين ، ان معظم الطرق في المدن العراقية في القرون الاخيرة لم تكن جيدة ، مما كان يسبب الضيق للسكان ، وعرقلة لحركة انتقال الناس والبضائع وبخاصة في فصل الشتاء حيث يتساقط المطر فيجبل تلك الازقة الى طبقات من الوحل يعلو بعضها بعضها ، وبرك من الماء يترامى بين جدران الدور المتقاربة . ومع ذلك ، فان هذا الواقع السيئ للطرق لم يدفع سلطات المدن الى العناية بها . برصنها بقطع الآجر او الحجر ، او بتنظيم شبكة صرف لمياه الامطار ، او تلك التي تتدفق من البيوت احيانا . وقد وصف كاتب معاصر حالة الطرق في بغداد ، في آخر العصر العثماني ، بانها « موحلة بالشتاء بدون استثناء ، وتتجمع المياه في بعض الاماكن ، وليس لها مخرج كالاسواق وبعض الميادين ، مثل العوينة وسوق العطاير وخان اللاوند وغيرها كثير ، فينتظر هناك حاملون يحملون الناس على ظهورهم من جانب الى آخر ، وهم يستعدون لمثل هذه القضية لانها تدر عليهم ربحا غير قليل في ذلك اليوم او اكثر من ذلك اليوم»^(٦) .

ومما يزيد الطين بلة ، تلك المياه المتدفقة من « مزاريب » البيوت ، والتي تتجمع عادة في وسط الطريق لتعيق حركة السابلة فيه ، وقد شاع في المدن العراقية الكبيرة ، في اواخر القرن التاسع عشر ، ان يحفر صاحب كل بيت « بالوعة » تحت مزاريب بيته ، وتأمر البلدية بتنظيفها عند موسم الامطار ، وكان معظم من يقوم بتنظيفها ، لما يفعل ذلك تدينا بحسبانه من اعمال الخير والبر .

ولم يكن ببغداد ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، غير طريق واحد
معبد ، رصف بقطع من الصخر ، وبالحصى الكبار ، يبدأ من باب الجسر
الوحيد للمدينة تقريبا ، وينتهي عند سوق باب الاغا ، وقد اشتهر بـ « عقد
الصخر » نسبة الى رصفه بها ، ولا يعلم ، على وجه التحديد ، تاريخ تعبيد
هذا الطريق الوحيد ، ومن المؤكد انه كان معبدا في اواخر القرن الثامن
عشر^(٧) . على ان القرن التاسع عشر شهد تعبيد طرق اخرى ، هي شارع القشلة ،
المحاذي لسراي الحكومة ، وقسم من سوق السرجية ، وهو قريب من
السراي ايضا^(٨) . مما يشير الى انها عبت بامر من بعض ولاة بغداد .

الجسور

ان وقوع معظم المدن العراقية الكبيرة على حوافي الانهار الرئيسية ،
وبخاصة دجلة والفرات ، جعل من واجب السلطات فيها توفير جسور صالحة
لانتقال الناس ونقل بضائعهم وغلاتهم من هذا الجانب الى ذاك . ولقد اشار
السياح والرحالون ، ابان القرون المتأخرة ، الى العديد من هذه الجسور ،
ووصفوها وصفا تفصيليا ، ولاحظوا ان اقامتها على زوارق وشدها من طرفي
النهر بالحبال والسلاسل ، لا يكفي ، في احيان كثيرة لان تثبت في وجه سرعة
تيار النهر وارتفاع منسوبه ، مما يؤدي الى انقطاعها ، بين حين واخر ، وهو
امر كان يستلزم من تلك السلطات عناية مستمرة وثققات كبيرة نسبيا ،
وجهدا جسيما ، تشمل صنع السلاسل ، والزوارق ، واستبدال التالف منها ،
وملاحقة زوارقه في حالة انقطاعه ، واعادة نصبه بسرعة . ومع ان مثل هذا
العمل كان يستدعي الاشراف اليومي على شؤونه ، الا انه ليست ثمة معلومات
واضحة عن الجهة المسؤولة في المدينة العراقية عن تلك الشؤون ، ومن الراجح ان
الذي يأمر بنقل جسر من مكان الى اخر ، او بنصبه ، هو والي المدينة ، وفي
الغالب فان مواقع الجسور تكون قرب دور الحكم (القلاع الداخلية ، او
السرايات فيما بعد) كما في بغداد ، والموصل ، حيث يسهل على سلطة المدينة

حمايتها والاشراف عليها . ومن المحتمل ان تكون نفقات الجسر اكبر مما
تستطيع سلطة المدينة توفيره ، وعند ذاك ، يجوز للوالي ان يجتهد في توفير
المال اللازم ومن أي وجه ، بوصف المشروع من مشاريع النفع العام للمدينة .
كلها ، فعندما اراد والي الموصل سنة ١١٣٣ هـ / ١٧٢٠ م ، بناء قناطر ثابتة في
الجانب الشرقي من دجلة تصل بين الجسر والبر في موسم الفيضان . فانح
اهل الموصل بما عزم عليه ، وبّين لهم ان الامر يحتاج الى مبلغ من المال . وان
خزينة الموصل لا تتحمل صرف مثل هذا المبلغ ، فاشار عليه اعيان المدينة ان
يضع ضريبة على ارباب الحرف وتبنى القناطر بما يجمع من هذه الضريبة ،
ولكنه فضل ان يكلف ثلاثة من اثرياء المدينة وضامني ضرائبها بتقاسم المبلغ
المطلوب فيما بينهم ، فبنى كل من اولئك الثلاثة قسما من القناطر « فاستراح
الناس من التعب » وتكرر اتفاق الثلاثة على الجسر ، عندما تخربت القناطر
بفعل المياة فبنوا مسناة في محلها ، وكان الولاة قد عجزوا عن تعميمها . ومن
المحتمل ان يقوم الوالي بالعمل وحده والاتفاق عليه من خزانة الولاية اذ ما توفر
المال اللازم لذلك، وفي هذه الحالة، يستطيع سد المبلغ عن طريق فرض ضريبة محدودة .
على سالكي الجسر، كما فعل احد الولاة في الموصل سنة ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م عندما
« وضع على كل خيال يمر على جسر الموصل غرشا الى الميرة » وان استطاع ،
اسقط المبلغ المنفق ، من جملة ما تدفعه الولاية الى الخزانة العامة في القسطنطينية
باعتباره قد أُنفق على مشروع له تعلق بصالح الدولة العام . وليس بعيد أن
يقوم وال بتعمير مسناة الجسر ، او اصلاحها ، على نفقته الخاصة ، بوصف ذلك
من اعمال الخير والبر ، كما فعل احمد باشا بن حسن باشا والي بغداد حينما عسر
مسناة جسر المدينة « من كيسه الخاص » على ان ذلك كله لم يدخل ضمن اطار
ما كان يتولاه الوقف الاسلامي ، اذ ليست ثمة وقفية مخصصة للاتفاق على
جسر او قنطرة في مدن العراق في ذلك العصر .

وبعد تأسيس البلديات في المدن العراقية وما رافقها من توسع في عمران تلك المدن ، ازداد اهتمام السلطة بالجسور والقناطر بوصفها من المستلزمات الضرورية لتحسين طرق المواصلات بين المدن ، ففي سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م انشأ والي بغداد مصطفى عاصم جسرا من عوامات خشبية على معبر (قرارة) ولم يكن جسر هناك من قبل ، وفي سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م انشئ جسر اخر على نهر الخر غربي بغداد ، وساعد وجود مدرسة الصنائع في بغداد ، وما تخرجه من صناع ماهرين ، على تحسين مستوى تلك الجسور ، فعندما كثر انقطاع جسر بغداد وتفرق عواماته ، امر والي بغداد نامق بإنشاء جسر من احدث طراز يومذاك وقامت بعمله مدرسة الصنائع ، وزود الجسر اول مرة بمقاهي عصرية . « فكان ابهى منظر على نهر دجلة » (٩) .

مياه الشرب

شكل أمر توفير مياه الشرب لسكان المدن العراقية ، منذ اواخر العصر العباسي حتى اواسط القرن التاسع عشر ، مشكلة حقيقية لسلطات المدن ولسكانها على حد سواء ، وذلك لان استمرار توفر هذه المياه كان يعتمد - بصفة اساسية - على استقرار مجاري الانهار التي تقع على شواطئها ، او قريبا منها تلك المدن . ولما لم يكن ثبات المجاري المذكورة يحصل الا بجهود فائقة ، ومنتظمة تبذل من سلطة مركزية قوية ومسؤولة ، فان حقبة الغزاة ، بما تمثله من تجزؤ للسلطة ، وخضوعها لعوامل التخلف ، شهدت تدنيا ملحوظا في ادامة تلك الانهار ، مما ادى الى جفاف العديد من شبكات الري القديمة ، وارتفاع عتق مجاريها لتسبب الطمي المستمر ، واهمال كرها ، كما انه ادى من ناحية اخرى - الى تحويل بعض الانهار - حتى الرئيسة منها مجاريها غير مرة ، وفي فترات مختلفة ، الامر الذي تسبب في حرمان مدن عراقية بكاملها من مياه الشرب الضرورية ، وخلق مشكلة حقيقية لسكانها .

ومن اهم المدن التي اندثرت في اوائل العصر العثماني نتيجة لما تقدم من عوامل ، مدينة « واسط » الشهيرة ذات التراث الزاهر في القرون الوسطى، وذلك حين ادى اهمال شؤون الري الى ابتعاد مجرى دجلة عن المدينة ، وتحوله الى مجراه الشرقي المنحدر الى بلد « القرنة » ، فعم الخراب سائر المدينة وما ان حل القرن السابع عشر حتى كانت هذه المدينة تقوم وحدها وسط البرية ، ولم تمض الا سنوات ، حتى هجرت برمتها * وللسبب نفسه ، اضطر اغلب سكان مدينة النجف الى الجلاء عن مدينتهم ، حتى لم يتبق من دور المدينة في القرن السادس عشر الا عشر ما كانت عليه من قبل * وكانت اسعار مياه الشرب باهظة ، حيث يضطر السكان الى نقل تلك المياه من نهر الفرات عند بلدة الكوفة - ومثل هذا الحال ينطبق على مدن « الرماحية » و « الحسكة » وغيرها من المدن والنواحي الاخرى *

ولم تؤد مشكلة توفير مياه الشرب الى اندثار المدن الثانوية فحسب، وانما الى انكماش المساحات المسكونة من المدن الكبيرة نفسها ، وهي العملية التي بدأت بعض ملامحها تظهر منذ اواخر العصر العباسي، ففي بغداد انحصر السكن داخل اسوار الجانب الشرقي على ما استقرت عليه في اواخر القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) ثم استمرت عملية الانكماش السكاني ، كمظهر من مظاهر الانكماش الحضاري العام ، فخلت اماكن وسيعة داخل الاسوار نفسها ، كانت قد وصفت بانها محلات مكتظة شبيهة بالمدن المستقلة * وتحولت محلات مثل باب الازج وباب المراتب والبصلية وقطيعة المعجم والريان وغيرها، الى صحراء قاحلة لا نبت فيها ولا ماء ، وكانت الانهار التي وصفناها فيما سبق ، قد اهملت تدريجيا ، حتى اندثرت تماما في خلال القرنين الثامن والتاسع (١٤ و ١٥ م) ففقدت بغداد بذلك ما كان يحيط بها من نبات وخضرة، وبخاصة في الاقسام المحصورة بين سورها الشرقي والمناطق السكنية ، وهي الاقسام التي كان يسقيها نهر بين الاخذ من الخالص بفروعه العديدة في العصور السابقة ، مما ادى الى ازدياد تجمع السكان في المحلات القريبة من

دجلة، والى ان تتخذ مشكلة نقل مياه الشرب - من ثم - شكلا اخر يقوم على اساس التغير الجديد .

ومن الجدير بالملاحظة اننا لم نعد نسمع في هذا العصر ما يشير الى انشاء قنوات محكمة تحت الارض توصل مياه الشرب الى السقايات العامة ، بل اننا لا نعلم المدة التي استمرت فيها هذه المشاريع قائمة بمهمتها، فقد انطوت اخبار المشاريع المذكورة بانقضاء صفحة العصر العباسي نفسه . وأقرب الى الاحتمال ان بغداد اكتفت في الفترة السابقة على العصر العثماني ، بما يحمله اليها السقاؤون من مياه دجلة في « قريهم » ، ولا شك انه كانت هناك سقايات عامة موزعة في ارجاء المدينة يملؤها السقاؤون لتبقى في خدمة السكان بقية اليوم . بيد ان معلوماتنا لا تكفي لتصور مدى نجاح هذه السقايات في سد حاجة اولئك السكان من مياه الشرب فضلا عن توفير مياه الاستعمال ومن الراجح ان تكون الابار قد اتخذت موردا للنوع الاخير من المياه .

ولقد شهدت بغداد، منذ استقرار الحكم العثماني فيها في بدايات القرن الحادي عشر للهجرة (١٧م) ، تطورا ملموسا في تصميم مشاريع دائمة لنقل مياه الشرب ، تعتمد على انشاء قنوات محكمة ، مرفوعة على عقود عالية مبنية بالآجر والنورة واخلاطها، ويرفع الماء اليها بواسطة الدواليب، فتجري المياه في القنوات المطلية بطبقة من القار ، مجتازة بذلك الدروب والمحال ، بانحدار محسوب حتى تصل الى المواضع المهمة ، او الاكثر ازدحاما في السكك ، فتتفرع منها في قنوات اخرى لتصب في السقايات المشيدة هناك ، بينما تملأ القناة الرئيسية الفائض من الماء الى مناطق بعيدة نسبيا لتغذي بعض السقايات في تلك النواحي، وليفني ما يتبقى في الاراضي القاحلة حوالها وهذا النوع من مشاريع

مياه الشرب يذكرنا بمشروع قنوات الساج الذي اقامه المنصور لمدينة مدنته بالمياه من نهر دجلة ، الا ان المشاريع العثمانية تميزت بثباتها ودوام عملها ، وهي في الواقع لم تكن الا تقليدا لامثالها من المشاريع التي انشأها العثمانيون في بعض المدن الكبيرة ، متأثرين بعمارة القنوات البيزنطية العالية التي كانت تزود مدن الاناضول بالماء منذ عهود اديمة

بيد ان استخدام هذا النوع من السقايات ، لم يقض على النوع الآخر الذي يعتمد على انشاء احواض كبيرة ، او حباب تملأ بالماء كل يوم بواسطة سقائين لهم اجر معلوم . فقد ميز الفقهاء العثمانيون بين هذين النوعين ، فاعتبروا النوع الاول من المشاريع الخيرية العامة ، الموقوفة لنفع الجميع بلا ادنى تمييز ، ويظهر انهم اعتبروا حكمها كحكم العيون الطبيعية الاسماء « چشمة » . اما النوع الآخر ، فانهم سمحوا بوضع بعض الشروط عليه ، كتخصيص مائة للفقراء بالدرجة الاولى^(١٠) ، وترتيب قيم مسؤول عن ادارته ، يأخذ راتبه من غلة الوقت ، وما الى ذلك من امور

ويذكر الرحالة محمد ظلي المعروف بأوليا جلبي الذي قدم بغداد سنة ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م وسنة ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥ م انه كان فيها نحو مائة سقاية يسميها « سبيل » ومائتي « چشمة » من النوع الذي يملؤه السقاؤون بقربهم من النهر^(١١) هذا في حين اعتبر الآقشهري^(١٢) السبيل (او السبيل خانة) ما يملأ بالقرب بالاجرة ، « والچشمة » عيون الماء النضاجة ، ويقرب منها ما تحمله القنوات من مياه دافقة متصلة تصب في سقايات عامة .

ويستفاد مما ذكره اولياجلبي ايضا ، ان صعوبات جمة كانت تكتنف عمل السقائين في نقل المياه من النهر ، الى درجة ان حاجة المدينة لم تكن تسدها الا مياه الآبار التي يقدرها بـ (٦٠٠٠) بئر . ونحن نعتقد بان وجه الصعوبة التي اشار اليها اوليا جلبي هو ان شواطئ بغداد في عهده كانت مغلقة في وجه السقائين الا من مكان واحد فحسب ، قرب الميدان ، اشار اليه

هو ، اما سائر الشواطئ فكانت مسورة بسور عال ليس له من باب سوى باب الجسر . وقد وردت صورة هذا السور في صورة بغداد التي رسمها نصوح السلاحى المطراقي سنة ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م ، وخارطة بغداد من عمل تافرييه سنة ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م^(١٣) ، ومنها يظهر انه لم تكن لبغداد مشاريع على دجلة ، ولعل هذا هو ما دفع حكام المدينة الاوائل الى مد القنوات على عقود الاجر لتزود سقاياتها الداخلية . ويؤكد هذا القول ان دواليب هذه القنوات لم تكن تأخذ مياهها من دجلة راسا ، وانما من آبار عميقة حفرت خصيصا بها . ويدل بئر قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وهو آخر ما بقي من هذه الآبار ، على ان مواقع الآبار كانت بعيدة عن دجلة بمسافة كافية لاقامة الاسوار والحصون . واذ بقيت هذه الاسوار قائمة الى نهاية القرن الثاني عشر على اقل تقدير ، فان بإمكاننا ان نتصور بقاء مشكلة ايجاد موارد كافية لمياه الشرب ، عدا الآبار ، حتى ذلك التاريخ ، حتى ان عددا من السياح الذين أقاموا ببغداد او مروا بها ، نوهوا بهذه المشكلة ، ووصفوا متاعب البغداديين في الحصول على ماء الشرب . فاشار الرحالة الايطالي الاب فنشنسو (Vincenzo) الذي زار بغداد سنة ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م الى ان الماء الذي يباع ببغداد ، يأتي ملوثا بالقار - وان كان لا ضرر في هذا التلوث - ووصف طريقة جلبه الى المدينة ، بأنه كان ينقل على ظهور الثيران والجياد ، في قرب كبيرة من الجلد^(١٤) . والمعروف ان جلب الماء الى المنازل بالقرب المدبوغة لا يؤدي الى ما لاحظته من تلوث الماء بالقار ، فالظاهر ان الماء الذي شربه كان من مياه السقايات العامة التي تبطن مجاريها واحواضها بطبقة كثيفة من القار لحفظها من الضياع ، وليس من مياه القرب المحمولة على الطريقة التي وصفها . ولم يتنبه سائح آخر هو البريطاني جاكسون في رحلته الى بغداد سنة ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م الى وجود قنوات عامة لنقل الماء في المدينة ، وانما اشار الى كثيرا من الفقراء كانوا يستخدمون لنقل الماء من النهر في ظروف من

الجلد يحملها بعضهم على ظهورهم ، بينما يحملها بعضهم الآخر على الحسير والبغال^(١٥) . ومثل ذلك ما وصفه الرحالة البريطاني بكنكهام (Buckingham) عند قدومه الى بغداد سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٦ م حيث ذكر ان المدينة تزود بسياه الشرب من نهر دجلة في قرب من جلود المعز تنقل على ظهور الدواب وتصل باب منزل كل عائلة ، اذ ان وسائل نقل الماء ، والصهاريج والاحواض غير معروفة فيها^(١٦) .

ونظرا لما كان يكتنف عملية نقل مياه الشرب من صعوبات ، وما يكلفه شراءها من مال ، فقد نالت شؤون السقايات العامة ببغداد اهتمام الولاة وارباب الدولة والاعيان واهل الخير ، وشارك عدد من السيدات المحسنات باثشاء جيلة من السقايات المهمة . ووقف الجميع عليها الوقوف الدارة بموجب وفقيات وحجج شرعية رسمية ، وثبت بعضهم عدد العاملين على خدمة السقاية ، وحدد رواتبهم بدقة . وصار للسقائين الذين ينقلون الماء الى السقاية رواتب معلومة . واحتاط بعض الواقفين فحدد عدد «قرب» الماء التي يحصلها السقاء كل يوم ، فنص والي بغداد داود باشا على ان تكون عشر قرب يوميا ، لقاء راتب قدره ٣٦٠ قرشا ، وجعلت السيدة نازدة خاتون لسقايتها ١٨٠٠ قرش رائج (٤٥٠ قرشا صاغا) بينما حدد نقيب الاشراف سليمان القادري راتب من يقوم بخدمة سقايته بـ ٤٥ قرشا صاغا كل شهر .

ومثلما اهتم اولئك الموسرون بالانفاق على هذه المشاريع الحيوية . فقد تفنن المهندسون والنقاشون في تصميم عماراتها ، وتزيينها بالواح الرخام المنقوش والقاشاني الملون وبشبابيك النحاس الفاخر ، وسجلت على معظم السقايات ، بخطوط بدیعة ، آيات قرآنية ، واييات شعرية تؤرخ انشاءها ، وتذكر اسم صاحبها احيانا ، وزاد آخرون بان اقاموا حولها حدائق صغيرة ، وزرعوا فيها اشجارا تظلل الشارين .

فكان من نتائج هذا الاهتمام أن زاد عدد السقايات العامة التي يسلوها السقاؤون بسرعة منذ مطلع القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) الى الحد الذي اصبح انشاؤها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية في المدينة ، وامتدت خدماتها لتشمل محلات عديدة من بغداد (١٧) .

الحدائق العامة :

كان من جملة ما افتقدته المدينة العراقية في عصورها الحديثة ، الحدائق العامة والمتنزهات ، التي طالما عوضت عنها ، في خلال العصور السابقة ، حدائق الخلفاء والبساتين المتقنة مما انشأه الامراء وارباب السلطان ، فلقد اندثرت بسرعة دار الخلافة العباسية ببغداد ، بما كانت تضمه في جنباتها من جنائن بالغة الروعة والترتيب ، وتخربت متنزهات اخرى في ارجاء مختلفة من بغداد ومدن عراقية غيرها . وبدت هذه المدن ، كما تصورها كتابات السباح والرحالين ، وخرائطهم كثيبة المظهر ، تكتظ اجزاء منها بالبيوت الضيقة ، بينما تخلو الاجزاء الاخرى من اي مظهر من مظاهر العمران ، وتحيط بها غالبا المقابر الواسعة . وفي الواقع ، فان هذه الاراضي الخالية ، والمقابر ، آمنت لفسها متنزهات عامة لاهل مدن ذلك العصر ، يتنزهون فيها جماعات ، فيما عرف بـ « الكسلات » وقد خصصوا لكل زيارة لهذه المشاهد والمراقد اياما مخصوصة ، تقام فيها المهرجانات ومعالم الافراح ، مثل مشهد الامام ابي حنيفة ، ومشهد الامام موسى الكاظم ، وقبر مريم في الكرادة الغربية من بغداد، والسيد ادريس في الكرادة الشرقية، ومرقد الشيخ معروف ببغداد، وبعض تلك النزهات او الكسلات ما يدوم نهارا واحدا ، ومنها ما يزيد على ذلك (١٧) .

واقدم حديقة عامة انشئت ببغداد في هذه القرون المتأخرة، مما وصلت اليها اخبارها ، حديقة كبيرة غناء ، انشاها والي بغداد حسين باشا سنة ١٠٨٤ هـ/ ١٦٧٣م قرب مرقد الشيخ عمر السهروردي في اقصى بغداد الشرقية (١٨)، وجعل

عندها سقاية لشرب الماء ، وتسقى الحديقة من قناة مرفوعة على عقود تأخذ مياهها من نهر دجلة « فصار الجامع والتربة متنزها للخاص والعام » وقد بقيت هذه الحديقة عامرة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، بسبب انها كانت جزءاً من اوقاف الوالي المذكور على جامع السهروردي ، وكان متولوا الوقف يتعهدونها بالعناية جيلا بعد جيل .

وكان انشاء البلديات في مدن العراق ، وبخاصة في الرئيسة منها ، ايذانا بانشاء عدد من الحدائق العامة والاتفاق عليها وادامتها ، ففي بغداد مثلاً ، اقيم متنزه ضخيم في بستان كان لاحد الولاة على شاطئ دجلة الشرقي ، عرف (بالمجيدية) واعتنى به اعتناء تاماً ، حتى اصبح متنزها لاهل بغداد يتمتعون بنسيمه وازهاره ومنظره الحسن . ثم اعقبه سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م متنزه آخر اُنشئ وسط « الميدان » وزود بحوض يحتوي على نافورة تقذف الماء بشكل جميل^(١٩) وتحيط به المقاهي الممتدة على جانبي الطريق . على ان فكرة انشاء الحدائق العامة في المدن الاخرى لم تجد انتشارها الا بعد انقضاء العهد العثماني وتأسيس الحكم الوطني فيه .

التنظيمات البلدية المبكرة

لبثت ادارة المدينة العراقية ، المتضمنة مراقبة الاسواق والموازين والمكايل وادامة المؤسسات ذات النفع العام من اختصاص جماعة العلماء ، وبإشراف قاضي المدينة . وكان نواب الاخير يتولون مسك سجلات مدنها ، التي يقيد فيها الذكور ويتم تسجيل التحركات والانتقالات وما الى ذلك . ولم تعرف هذه المدينة ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، اي شكل من اشكال التنظيمات البلدية الحديثة ، وعلى الرغم من المرسوم الصادر سنة ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م باقامة « مختارين » في احياء المدن ، تناط بهم معظم تلك المسؤوليات^(٢٠) ، الا ان تطبيق هذا المرسوم لم يجر في العراق حتى انتهاء حكم المماليك (سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م) وقد وجد تطبيقه فعلاً سنة ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م ، ففي هذا التاريخ

جرى انتخاب المختارين للمحلات في مدن العراق ، فصار لكل محلة امام ومضاران اول وثاني ، ولكن اللوائح الخاصة بانتخابهم لم تصدر الا سنة ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م . وقد تضمن قانون الولايات الصادر عام ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٨ م انشاء مجالس بلدية في مدن الولايات ، يتراوح عدد اعضاء كل مجلس منها بين ٦ و ١٢ عضوا ، ويرتبط بهذه المجالس موظفون دائمون ، منهم مهندس مدني . ومهندس معماري ، وحدد اختصاص المجلس بانه يتولى بوجه عام ما يتعلق بالنظافة والترقية العامة ، وبنوع اخص : صيانة الطرق والشوارع والبالوعات والارصفة ومصابيح الشوارع وكنس الشوارع ورشها وتوسيعها وتقويسها وتوفير الماء والغاز والتفتيش على المباني المتهدمة وذات الخطر على الناس والامر بازالتها والتفتيش على المواد الغذائية ومراقبتها والرقابة على الاسعار ، والمكاييل والموازين والمحلات العامة وما الى ذلك (٢١) .

وتنفيذا للقانون ، قسمت المدن العراقية الى دوائر بلدية بحسب مساحتها فكانت بغداد تنقسم الى ثلاث بلديات ، تختص الاولى بالنصف الشمالي من الجانب الشرقي ، والثانية بالنصف الجنوبي منها ، والثالثة بجانب الكرخ جميعه . اما المدن الرئيسة الاخرى ، فقد اصبح لكل منها بلدية واحدة (٢٢) .

ولقد اعتبرت مجموعة القوانين واللائحة الخاصة بالولايات ، الصادرة سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٨ م الخدمات الصحية في المدن جزءا من اعمال البلديات فيها . وداخلة في اختصاصاتها ، لذا ان اول ادارة صحية في العراق كانت تابعة لبلديات مدنه الرئيسة ، وبخاصة بغداد ، وتعرف هذه الادارة بـ (طبابة البلدية) وكانت تشرف على مراقبة المطاعم العامة والمقاهي والقصاين والبقالين والخبازين من الوجهة الصحية ، ومراقبة تنظيف الاماكن الموبوءة بالالوساخ خشية انتشار الاوبئة والامراض السارية وتعقيم مياه الشرب وايجاد عربات يدوية صغيرة لنقل النفايات الى المزابل التي تكون عادة بعيدة عن المدينة ، وكان لطبابة البلدية

صيدلية ومستوصف لمعالجة الفقراء وتوزيع العقاقير التي يحتاجون اليها
مجانا .

ورغم تواضع هذه المؤسسة ، الا ان انشاءها كان بشيرا بتحسين ملحوظ
للاحوال الصحية للمدينة العراقية بوجه عام ، فقد ايطت بها تدريجيا مهمة
ادارة المستشفيات العامة التي ستقام فيما بعد ، والاشراف على المستشفيات
والصيدليات الخاصة ايضا . وكان اول مستشفى تناط شؤونه بها ، هو
(مستشفى الغرباء) الذي انشاءه والي بغداد مدحت باشا في جانب الكرخ سنة
١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م من تبرعات سكان المدينة وهباتهم ، وبلغ عدد اسرته (٥٠)
سريرا (٢٣) ، يليه في العام نفسه (المستشفى العسكري) في الجانب الشرقي ، عند
مدرسة الصنائع ، وبلغ عدد اسرته (١٨٠) سريرا .

وشهدت نهايات القرن التاسع عشر اهتماما متزايدا في توفير الخدمات
الصحية ، ففي سنة ١٩٠٠ شيد ببغداد مستشفى جديد ، زود بالآلات الجراحية
من اوربا ، وقسم الى شعب مختلفة ، أهمها الامراض الباطنية والجراحية
والعيون . وفي التاريخ نفسه ، شيدت ادارة بلدية الموصل ، مستشفى حديثا
عند باب سنجار ، احد ابوابها القديمة ، ثم تلاه مستشفى اخر في مدينة
البصرة .

وفي سنة ١٩٠٥ تم فصل الخدمات الصحية عن شؤن البلديات ، حين
شكلت (رئاسة للصحة) تألفت من طبيب البلدية ومفتش صحي وكاتب ، وبعد
ثلاث سنين ، استحدث منصب مدير صحة الولاية ، واستمر الوضع على هذا
الحال حتى ١٩١٤ اذ تأسست مصلحة الصحة العامة بعد الاحتلال البريطاني (٢٤) .

وتتألف البلدية من رئيس ومعاونه ، ومن مجلس يتألف من ستة اعضاء ،
ومدة العضوية فيه سنتان ، وعند انتهاء هذه المدة يجري انتخاب ثلاثة منهم
بصورة دوزية ، وعضوية المجلس فخرية بلا راتب ، ويجمع المجلس مرتين
في الاسبوع برئاسة رئيس البلدية او من ينوب عنه ، وله ان يدعو المجلس الى الانعقاد

عند اقتضاء الحال ، ومن واجبات المجلس وضع الميزانية العامة للبلدية وتقديمها الى مجلس ادارة الولاية للمصادقة عليها ، ومن اختصاصاته وضع الضرائب على بعض المهن والغاؤها عند الاقتضاء ، وأحالة الرسوم العائدة للبلدية على ملتزميها وأحالة المشاريع العمرانية على المتعهدين ، ومن واجباته ايضا تقرير فتح الشوارع والاشراف على تبليطها واستملاك الدور والعربات التي تمر بها ، وسائر مانص عليه القانون .

وتتألف البلدية من شعب متخصصة ، اهمها شعبة الهندسة ويدير شؤونها مهندس يعاونه في اداء واجباته معمار مختص وعدد من الموظفين والكتبة وواجبات هذه الشعبة تطبيق قانون الابنية داخل المدينة وضواحيها ومنح اجازات البناء ومراقبة الابنية الايلة للانهدام وتنظيم الخرائط والمخططات للشوارع المنوي فتحها وغير ذلك . وطبابة البلدية ويدير شؤونها طبيب يعاونه في اداء واجباته جراح وصيدلي وملقح للجدرى ومولدة اضافة الى شعب للمحاسبة والتفتيش وللتحرير (٢٥) .

وعلى الرغم من ادخال النظم البلدية هذه ، فان كثيرا من التقاليد السابقة للحياة المدنية لم يجد سبيلا للتغيير ، ولبثت قوة هذه التقاليد الراسخة هي التي توجه سكان المدينة في معاملاتهم وتحدد مواقعهم من الخدمات البلدية بوجه عام ، ويفهم مما ذكره كاتب معاصر ، مقدار الفجوة الحاصلة بين النظم البلدية الحديثة، وتقاليد المدينة الاسلامية القديمة، فيقول «واذا اراد أحد انشاء بناية او اجراء ترميم فبعد اخذ الرخصة من البلدية ورسمها غرش صاغ واحد يأتي احد جواوئش (مراقبي) البلدية عند المباشرة ببناء جبهة الدار يأمرهم بالرجوع لتوسيع الطريق سواء أوسعاً كان الطريق أم ضيقاً ، وبعد ذهابه يعملون ما يريدون .. » .

المصادر

بكنكهام :

- رحلتي الى العراق . ترجمة سليم طه التكريتي (بغداد ١٩٦٨)
جواد ، مصطفى ، وسوسة ، أحمد :
دليل خارطة بغداد الفصل (بغداد ١٩٥٨)
جواد ، مصطفى ، ومعروف ، ناجي وآخرون .
بغداد . كتاب اصدرته جمعية المهندسين العراقية . (بغداد ١٩٦٩)
الحسني ، عبدالرزاق :
العراق قديما وحديثا (صيدا - لبنان ١٩٥٨)
الحنفي ، جلال :
الصناعات والحرف البغدادية ، بغداد ١٩٦٦
الدروبي ، ابراهيم :
البغداديون اخبارهم ومجالسهم (بغداد ١٩٥٨)
رؤوف ، عماد عبدالسلام :
الموصل في العهد العثماني ، فترة الحكم المحلي (النجف ١٩٧٥)
تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد ، مجلة المورد ، المجلد ٨
العدد ٤ (بغداد ١٩٧٩)
الحسبة والمحتسب في الاسلام . بيروت ١٩٦٣
سالنامه بغداد ١٢٩٨ هـ مطبعة الولاية - بغداد
سالنامه البصرة ١٣٠٩ هـ مطبعة الولاية - البصرة
سالنامه ولاية الموصل ١٣٠٨ هـ مطبعة الولاية - الموصل
سركيس ، يعقوب :
مباحث عراقية ، جزآن - بغداد ١٩٤٨ و ١٩٥٣
سليمان فائق :
السهروردي ، محمد صالح :
لب الالباب . جزآن ، بغداد ١٣٥١

- الشيخلي ، محمد رؤوف :
مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها . جزآن . البصرة ١٩٧٢
الصائغ ، سليمان :
تاريخ ، الموصل ، جزآن القاهرة ١٩٢٨ وبيروت ١٩٤٠
العزاوي ، عباس :
تاريخ العراق بين احتلالين . الاجزاء ٤ - ٨ بغداد ١٩٥٣ - ١٩٥٦
العلاف ، عبدالكريم
بغداد القديمة ، بغداد ١٩٦٠
العمري ، سعاد : بغداد كما وصفها السواح الاجانب بغداد ١٩٥٤ .
العمري ، ياسين :
منية الادباء في تاريخ الموصل الحداث ، تحقيق سعيد الديوهجي ، الموصل
١٩٥٣
العمري ، ياسين :
فرائب الابر ، نشره محمد صديق الجليلي الموصل ١٩٤٠
العمري ، ياسين :
غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ، بغداد ١٩٦٧
العمري ، ياسين :
زبدة الاثار الجلية في الحوادث الارضية ، تحقيق عماد عبدالسلام
رؤوف ، النجف ١٩٧٤
مصطفى جواد وناجي معروف وآخرون :
بغداد ، اصداره جمعية المهندسين العراقيين ، بغداد ١٩٦٥
نوار ، عبدالعزيز :
تاريخ العراق الحديث ، القاهرة ١٩٦٨ ،
دائرة المعارف الاسلامية ، مواد متعددة ،

الهوامش

- (١) نص الوقفية في :
- (٢) عباس المزاي : تاريخ العراق بين احتلالين ٢ (بغداد ١٩٣٦) ص ٨٩ .
عماد عبدالسلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني ، فترة الحكم المحلي (النجف ١٩٧٥) ص ٤٠٠ .
- (٣) سليمان الصائغ : تاريخ الموصل (القاهرة ١٩٢٣) ٣١٣/١ .
- (٤) تنظر هذه الخرائط في اطلس بغداد للدكتور احمد سوسة (بغداد ١٩٥٢) .
- (٥) المزاي : المصدر السابق ١٠٦/٢ .
- (٦) محمد رؤوف الشخيلي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها (البصرة ١٩٧٢) ٨٥/١ .
- (٧) عبدالرحمن السويدي : تاريخ حوادث بغداد والبصرة ، تحقيق الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف (بغداد ، ١٩٧٨) ص ٩٣ و ١٠٠ .
- (٨) الشخيلي ٨٤/١ .
- (٩) ياسين العمري : الدر المكنون ص ٥٨٠ (مخطوط) .
- (١٠) محمد بن ولي الازميري : رسالة في شؤون السقايات ووقفها (مخطوط) الورقة ٨ .
- (١١) اوليا جلبي سياحتنامه سي (استانبول ١٣١٤) ٤٢٠/٤ .
- (١٢) الازميري : المصدر السابق .
- (١٣) اطلس بغداد ص ١٢ و ١٣ .
- (١٤) رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد العدد ٣ المجلد ٥ (بغداد ١٩٧٦) ص ٧٧ .
- (١٥) مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٦٧٦ ترجمة سليم طه التكريتي ص ٧٥
- (١٦) بكنكهام : رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي (بغداد ١٩٦٨) ٢٠٦/١ .
- (١٧) التفاصيل في بحثنا المعنون « تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد » المنشور في مجلة المورد ، العدد ٤ ، المجلد ٨ (بغداد ١٩٧٩) ص ١٦٥-١٩٦
- (١٧) ابراهيم الدروبي : البغداديون (بغداد ١٩٥٨) .
- (١٨) مجموعة من وقيات بغداد (مخطوطة) .
- (١٩) رسمها السيد رشيد الخوجة في خارطة بغداد التي وضعها سنة ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٨ م (انظر احمد سوسة : اطلس بغداد ص ١٦) .
- (٢٠) دائرة المعارف الاسلامية، الترجمة العربية الجديدة ٥٦٠/٧ (مادة بلدية)

- (٢١) انظر عبدالعزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ٣٦٤ (القاهرة ١٩٦٨) .
- (٢٢) الشبخلي : المصدر السابق ٨٤ .
- (٢٣) المزوي : المصدر السابق ١٩٩/٧ .
- (٢٤) انظر عبدالحميد العلوجي : تاريخ الطب العراقي (بغداد ١٩٦٧) ص ١٥١ - ١٥٧ وإبراهيم خليل احمد : تاريخ الخدمات الصحية في العراق في القرون الاخيرة (بحث مطبوع على الالة الكاتبة القي في الندوة القطرية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب ببغداد) .
- (٢٥) ينظر قانون البلديات وتعديلاته ، في مجموعة القوانين العثمانية المسماة (دستور) ترتيب ثاني (استانبول ١٣٣٠) ٤١٩/٣ وعن هيكل بلدات العراق ، مجموعة سالتنامات بغداد والموصل والبصرة .

الفصل العاشر

المدن العراقية كمراكز للنشاط الاقتصادي

في العهود المتأخرة ١٥٣٤ - ١٩١٤

الدكتور طارق نافع الحمداني الدكتورة صباح ابراهيم الشيعلي
جامعة بغداد / كلية التربية جامعة بغداد / كلية الاداب

مواقع المدن العراقية وتطورها

اختلفت الاغراض او الوظائف التي اُسِّت من اجلها المدن العراقية الرئيسية كبغداد والموصل والبصرة • فبينما اُنشئت المدينة الاخيرة لاغراض حرية ، فقد اتخذت الموصل الطابع نفسه ، على حين ضمنت بغداد لتكون حاضرة الدولة العربية العباسية ، فضلا عن كونها ذات أهمية تجارية • وتغيرت بمرور الزمن الاصول الوظيفية لهذه المدن ، أو انها لم تعد تحقق الوظيفة الاصلية التي بنيت من أجلها • فالبصرة - كما قلنا - من مدن العرب الحربية لا علاقة لها بمضي الوقت بالوظيفة الحربية في شيء ، وبدلا من ذلك فان المدينة أخذت تنمو وتتسع كمدينة تجارية - حتى منذ عهدها الاولى • واذا ما كان بالامكان تحقيق غرض واحد من بناء المدينة العربية في العصور الاسلامية المبكرة ، فان مثل هذا الغرض لم يعد

مسكنا في العصور الحديثة ، اذ حلت محلها المدن متعددة الوظائف^(١) ، وهذا ما نجده واضحا بالنسبة للمدن العراقية . فقد تلازمت عوامل عديدة اقتصادية واجتماعية وعسكرية في نموها وتطورها ، حيث سنركز في هذا المجال على الجانب الاول منها .

ويبدو انه قد طرأ بعض التغير على مواقع المدن العراقية من اجل ان تتماشى مع الوظائف الجديدة التي اخذت تمارسها . فقد احتلت مدينة البصرة خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي موقعا جديدا يغير موقعها السابق ، وهذا الموضع الذي تحتله البصرة الحديثة يقع على نهايات نهر العشار في موقع يتوسط مدينة البصرة القديمة وشط العرب^(٢) . أن الموقع الجديد جعل بالامكان تنظيم عملية نقل البضاعة من شط العرب الى مدينة البصرة وبالعكس ، ذلك لان القناة التي حفرت انذاك تنفرع من شط العرب وتمتد الى قلب المدينة ، وابتعد من ذلك . وعندما تحدث عملية المد وتمتلئ القناة بالمياه يمكن ان تسير فيها السفن الكبيرة من ذات المائة والخمسين طنا حتى تصل الى وسط المدينة بعد سحبها على الاكتاف لفترة من الزمن حتى ايصالها الى قلب المدينة حيث تفرغ حمولتها . اما السفن الصغيرة والابلام فيمكن دخولها عن طريق القناة الى قلب المدينة دون أن تتأثر حركتها بعملية المد والجزر^(٣) . وهكذا أصبحت مدينة البصرة ، وبحكم موقعها المهم هذا ، تتمتع باهمية تجارية كبيرة اذ ترد البضائع اليها من مختلف البلاد : من جزيرة العرب ومن فارس وتركيا ، ومن الهند بصورة خاصة ، اذ تصل اليها السفن محملة بمختلف منسوجات الهند^(٤) .

وحدث تغير مماثل في مدينة الموصل ، وذلك من اجل تأدية وظيفة تجارية أفضل . اذ بينما كان مركز النشاط الاقتصادي للمدينة يقع في

منطقة الجامع الكبير المركزي في الفترة التالية لسقوط بغداد ، فقد انتقل هذا المركز الى الجنوب الشرقي باتجاه نهر دجلة ابان القرن الثامن عشر . ويمكن ان يعزى مثل هذا التطور الى سببين رئيسيين: اولهما ان تشييد القلعة على طول نهر دجلة قد شجع على تطور المنطقة التجارية تحت القلعة ، وثانيهما ان وجود منطقة العبور على نهر دجلة بواسطة جسر مؤقت او ثابت ، ربما شجع على تعيين منطقة الاسواق والخانات بصورة متصلة بحركة النشاط التجاري^(٥) .

اما مدينة بغداد ، فقد اختلفت نظرة العثمانيين اليها . وهي نظرة تركز على تصور ان هذه المدينة ليست الا حصنا عسكريا مهمته الرئيسية حفظ الاراضي التابعة للسلطان ، ومركزا لجمع الضرائب من تلك الاراضي وارسالها الى السلطة المركزية في القسطنطينية، بينما كان الغرض الرئيس لهذه المدينة هو ان تكون مركز النشاط السياسي والاقتصادي للدولة العربية . ومع ذلك فقد استمرت بغداد في توسعها وتطورها الاقتصادي الى ان أصبحت من المراكز التجارية المرموقة في هذا العهد . ويمكن ان نرى هذه الميزة حتى في خلال القرن السادس عشر في العراق ، إذ يشير الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف الذي زار بغداد في سنة ١٥٧٣ الى أن « في هذه المدينة مستودعات كبيرة للسلع ، نتيجة موقعها الملائم ، يتم جلبها بطريق البر والبحر من انحاء الدنيا العديدة ، ولا سيما الاناضول وسوريا وارمينيا واسطنبول وحلب ودمشق وغيرها ، كيما يتم نقل هذه السلع ثانية الى الهند وفارس وغيرها »^(٦) .

النشاطات الاقتصادية في المدن العراقية والعوامل المؤثرة فيها

وصلت المدن العراقية قمة ازدهارها الاقتصادي ابان العصر العباسي ، ولكن هذا الازدهار سرعان ما اصابه التدهور والاضطراب بفعل الغزو المغولي للعراق ، حيث دمرت التجارة والصناعة التي وجدت في البلاد خلال القرون

الخمسة السابقة • واكتملت صورة هذا التدمير للعراق بالغزو التيموري في
اواخر القرن الرابع عشر الميلادي واولئل القرن الخامس عشر ، حيث فقدت
فيه البلاد كثيرا من الايدي العاملة الماهرة في الصناعة التي تم نقلها الى
سمرقند عاصمة تيمورلنك •

ولم يتخلص العراق من آثار الغزوات المغولية الا لفترة طويلة من
الزمن ، وعندها اصبح موضع صراع طويل بين الفرس والأتراك ، وكان
من أكثر التكتبات التي حلت ببغداد ومعالمها الاقتصادية هي فتنة بكر صوباشي
الشهيرة عام ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٢ م ، التي تمكن فيها الفرس من الاستيلاء على
بغداد ، فتعرضت البلاد فيها لكثير من التدمير والتخريب • يقول في ذلك
أحد الرحالة الفرنسيين الذي زار بغداد عام ١٦٢٨ « أن هذه المدينة كبيرة
جدا ، ولكنها قد تهدمت بسبب الحصارات الأخيرة » (٧) •

وعانت الحياة الاقتصادية في بغداد كثيرا من الحصار الذي فرضه علي
باشا عام ١٨٣١ ، والمعارك التي دارت بين قواته وقوات داود باشا ، والتي
كان من نتيجتها ان استبيحت المدينة لأعمال السلب والنهب • يحدثنا في ذلك
الرحالة الانكليزي فريزر الذي زارها بعد ثلاثة اعوام من ذلك بقوله :

« وكانت الاسواق تنم عن أكثر امارات العنف ايلاما واثارة
للحزن • فقد سقطت السقوف المحروقة واختلط رمادها بالحبوب
والعطاريات والرقى والقرع وسائر الخضراوات ... اي جميع الاشياء
غير الثمينة التي لا تستحق الاخذ • وديس حطام ما اتلف خلال
النهب بالاقدام • أما الحجر والدكاكين فقد كانت مفتوحة خاوية ،
وقد خلعت ابوابها وشبابيكها ، ومن حسن حظ المدينة أن القسم
الاعظم من هذه مبني بالطين والاجر ، ولو لم يكن الامر كذلك لالت
النار التي أضرمتها الجنون الطائش على كل شيء » (٨) •

. وهكذا تركت الحروب والحصارات اثرها السيء على الناحية الاقتصادية عامة ، وأدت الى فتور حركة التجارة بصورة خاصة . على أن هذه الحالة قد نجمت ايضا بسبب الحكم السيء لكثير من الحكام الاتراك والماليك في العراق، ومنها ما جاء نتيجة لاسباب خارج سيطرة السلطة الحاكمة وهي الكوارث الطبيعية التي حدثت انذاك .

فالحكام الاتراك ، وكما اشرنا ، كانوا ينظرون الى المدينة العراقية على انها مركز لجمع الضريبة ، ولهذا سلبت ثروات ضخمة من المدن العراقية على شكل ضرائب مختلفة ، اذ سادت الحواجز الكمركية بين المناطق المختلفة، وكانت الرسوم تجبى من المواطنين حتى عند الجسور والعبارات^(٩) . وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار احد الرحالة الاوربيين عند زيارته للموصل عام ١٦٦٤ حيث قال :

« رأيت طرقا عديدة من دون سكان ، وابواب الحوانيت مغلقة . وعلمت أن التجار وأهل الصنائع تركوا اعمالهم وهربوا الى كردستان تخلصا من دفع الضرائب الباهظة . . اذا لم يبق لهم ما يقدمونه للضريبة العثمانية الجشعة »^(١٠) .

وعلى أية حال ، فان الضرائب العالية قد حطمت الاقتصاد العراقي . اذ لم يرصد من هذه الضرائب التي تجبى من العراق الا جزء ضئيل منها للاغراض التي لها علاقة بالاقتصاد العراقي ، ويخصص القسم الاكبر للاتفاق على الجهاز الاداري وفي المجالات التي تحددها السلطة الحاكمة العثمانية . وعلى ذلك لم تعد الضرائب التي تجبى من العراق ذات فائدة على البلاد .

تأثرت الصناعة في المدن العراقية بالسياسة المتبعة انذاك . فبعد استعادة العراق للسلطة العثمانية^(١١) المباشرة عام ١٨٣١ ، اتخذ العثمانيون سياسات عديدة حدثت من توسيع الصناعة وتمركزها في مناطق معينة . من ذلك أنهم اشتروا بعض المصانع والادوات الاحتياطية الضرورية من اوربا ، ولكن هذه

المصانع وجدت طريقها الى القسطنطينية ، وبعض المدن العثمانية الاخرى ، لا الى المدن العراقية^(١٢) وفي الوقت نفسه ، فان السلطات الحكومية كانت تفرض بعض القيود الصعبة على تأسيس المعامل في المدن العراقية ، كاشتراطها على اولئك الذين يرومون تأسيس معامل جديدة ان يقدموا طلبا للحصول على ترخيص منها^(١٣) ، ولم يكن هذا الامر سهلاً على المواطنين لما فيه من اجراءات كثيرة معقدة ومكلفة .

اتبع بعض الحكام في العراق اساليب قسرية كانت ذات مردود سلبي على التجارة والمعاملات التجارية . اذ انهم كانوا يقترضون الاموال من التجار ، دون ان تعاد الاموال المأخوذة في اي وقت من الاوقات ، او ربما تعود بمشقة النفس^(١٤) . ففي بغداد احتاج الوالي علي رضا باشا (١٨٣١ - ١٨٤٢) الى المال ، فقرر الحصول عليه من التجار . ولم يمتلك احدهم ما فرض عليه من حصة ، فاضطر الى بيع ما يملكه من عقار وامتنعة لتسديد المبلغ ، الذي سجل دينا على خزانة الحكومة . ولكن هذا التاجر - كما يقول سليمان فائق - لم يحصل على امواله الا بعد عدة سنوات^(١٥) .

والاكثر من ذلك ان بعض الحكام في البصرة كانوا يفرضون الغرامات على التجار عندما يحتاجون الى المال ، بل كانوا احيانا يقتلون التجار الاغنياء للاستيلاء على اموالهم . من ذلك ما حدث لاحد التجار الاغنياء في اثناء حكم علي اغا متسلم البصرة ، الذي اقترض علي اغا مبلغا من المال ، ومع ذلك فقد صدر حكم الاعدام على هذا التاجر ، ووفد فيه فعلا وصودرت امواله^(١٦) . وقد أدت مثل هذه الممارسات وممارسة اخرى مماثلة قام بها عزيز اغا متسلم البصرة ما بين ١٢٤٠ - ١٢٤٧ هـ / ١٨٢٤ - ١٨٣١ م ، الى هجرة تجار البصرة الى المناطق المجاورة ، وتدهور التجارة ومجمل النشاطات الاقتصادية الاخرى^(١٧) .

اما الكوارث الطبيعية من أوبئة وفيضانات ومجاعات ، فقد كانت هي الاخرى ذات اثر واضح على النشاطات الاقتصادية للمدن العراقية ، ذلك لانها كانت تقضي في كثير من الاحيان - على ما يبينه الانسان لمدة طويلة من الزمن . وتاريخ العراق في هذا العهد مملوء بمثل هذه الكوارث ، ولكن سأشير هنا الى فيضان وطاعون عام ١٨٣١ ، لما لهما من أثر بيّن على الاقتصاد العراقي الذي تدهور بشكل لم يكن معروفا - على حد قول لوتسكي - حتى بالنسبة لسكان هذا البلد^(١٨) . اذ انزلا ضربة قاصمة بقواه الانتاجية ، واغلقت الدور وختل الحوانيت والمصانع واصيبت التجارة بكساد خطير . ولم يكن في وسع العراق أن يسترجع قواه الا بعد مرور ما يربو على عشرين عاما من اثار الطاعون^(١٩) .

وبسبب هذه الكوارث المتشابكة ، تناقص عدد السكان في بغداد من مائة وخمسين الفا الى عشرين الفا لاغير ، وادى الطاعون الى القراض عائلات حرفية ماهرة ، ولعل الاستشهاد بما ذكره فريزر عن اثار هذه الواقعة يعطينا انطبعا واضحا عنها ، اذ يقول :

« ومن بين خطوط الاسواق الطويلة [في بغداد] أصاب الخراب العام عددا غير يسير منها ، وقد مرت مدة طويلة قبل عودة الاسواق التي بقيت مهدمة الى الامتلاء ، والدكاكين الى فتح ابوابها من جديد بمقدار يعتد به . فان معظم التجار ، وجميع الصناع وارباب الحرف تقريبا ، قد أتى عليهم الموت وأزالهم من الوجود . وانك في هذا اليوم [اي عام ١٨٣٤] لو اردت ان تحصل على بعض الحاجات المصنوعة ، التي كانت تشتهر بصناعتها هذه البلاد يقال لك « آه » أن ذلك لا يمكن الحصول عليه الان لان جميع من كانوا مختصين بصنعه قد ماتوا ، ولذلك إنمحت من هنا صناعات معروفة بأكملها »^(٢٠)

حركة النشاط الاقتصادي في المدن العراقية

على الرغم من ان الحكام العثمانيين والمماليك في المدن العراقية ، لم يولوا النشاطات الاقتصادية - بوجه عام - اهتماما كافيا ، الا انهم لم يعدموا في توجيه بعض العناية بها . اذ شرع بعض هؤلاء الحكام ببناء الاسواق والخانات ، واهتم بعضهم بتشجيع الصناعة والتجارة ، او بتسيير السفن البخارية في أنهار العراق ، او حماية الطرق والقوافل التجارية . وقد ساهمت هذه الخدمات - الى حد ما - في ايجاد نوع من التوازن بين حالة الاهمال والركود الذي أصاب الحياة الاقتصادية في المدن العراقية ، والحالة التي تهدف الى تطويرها بالشكل الذي تدر فيه قدرا من المنفعة الاقتصادية على هذه البلاد .

ولعل من اقدم المرافق الاقتصادية التي شيدت في الفترة التي تشير اليها الاسواق التي بناها والي بغداد جغال زاده باشا عام ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م (٢١) ، واستمر قائما حتى عام ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م كما نسب الى الوالي حسن باشا ، بناؤه لاحد الاسواق في جانب الكرخ عام ١٠١٠ هـ / ١٦٠١ م ، والذي ظل يحمل اسمه ردحا من الزمن (٢٢) . وشيد حسين باشا السلحدار سوقا عاما جديدة قبالة المدرسة المستنصرية عام ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٣ م (٢٣) ، فعرفت المدينة نشاطا تجاريا ملحوظا ، وتجاوزت الاضرار التي خلفتها الحروب التركية - الايرانية التي دارت رحاها في العراق (٢٤) .

وفي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت بغداد مدينة لسليمان باشا الكبير (١٧٨٧ - ١٨٠٢ م) ، ببناء سوق السراجين (٢٥) . وعرف عن داود باشا (١٨١٧ - ١٨٣١ م) تشييده لمجموعة من الاسواق تمتد لمسافة غير يسيرة ، وهي مبنية بناء جيدا بالجص والاجر المفخور ، ذات أطواق عالية (٢٦) ، وقد اعانت هذه المرافق على ازدهار التجارة في مدينة بغداد .

وبالإضافة الى بناء الاسواق فقد شهدت المدن العراقية ، اقامة الكثير من الخانات اللازمة لنزول التجار وخزن بضائعهم او اعادة الاهتمام بها ، فمنها ما كان على الطرق الخارجية كخان بني سعد (ما بين مدينتي بغداد وبعقوبة) الذي بناه والي بغداد عمر باشا سنة ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م ، والخان الذي شيده والي بغداد حسن باشا (١٧٠٤ - ١٧٣٣ م) ما بين النجف الاشرف وكربلاء عام ١١٢٩ هـ / ١٧١٧ م^(٢٧) . ومنها ما كان داخل بغداد حيث جدد الوالي الاخير خانات بغداد لراحة التجار والمسافرين^(٢٨) .

وبعد فترة وجيزة من احتلال العثمانيين للعراق في النصف الاول من القرن السادس عشر ، أصدروا عددا من القانونات المتعلقة بالولايات العراقية الثلاث بغداد والموصل والبصرة . وكانت هذه القانونات قد عالجت معظم جوانب الحياة الاقتصادية ، بخاصة الضرائب المفروضة على التجارة الداخلية والخارجية (الرسوم الكمركية) والمواد المصنوعة في هذه الولايات . ويبدو بان احكام تلك القانونات قد بقيت سارية المفعول ، لان العثمانيين لم يصدروا غيرها ما يخص العراق في الفترات التالية .

فرضت الضرائب على كل ما يتعلق بالسلع والمنتجات التجارية والصناعية التي تجلب الى الاسواق في المدن العراقية ، ولكن هذه الضرائب قد تختلف في نسبتها وفي مسمياتها من مدينة لاخرى ، فمثلا ضريبة الباج تفرض في الموصل على السلع المارة بهذه المدينة دون أن تباع في أسواقها في حين انها تعني في البصرة الضريبة المفروضة على السلع المباعة في أسواق هذه المدينة^(٢٩) . اما بالنسبة لضريبة التمغا فيبدو انها كانت متشابهة اذ انها تفرض على جميع البضائع القطنية والصوفية التي تصنع او تطرز محليا^(٣٠) .

وبالنسبة للضرائب الكمركية فقد كان في بغداد ثلاثة مراكز للكمرك يستوفي كل منها الرسوم المقررة ، وكان أحدها في جانب الكرخ للقادمين من

سوريا والمركزان الآخران للقادمين من سائر الجهات^(٣١) . وكان هناك ايضا كمرك في الموصل واخر في البصرة .

أما بالنسبة للضرائب والرسوم المفروضة على البضائع التي يجلبها الاوربيون ، بخاصة تجار انكلترا وفرنسا ، فقد نظمت بموجب تعريفات ومعاهدات خاصة كانت السلطات في بغداد والبصرة تحترمها ، وهي بمقدار ٣٪ عن كل بضاعة يجلبونها من الهند ، وتنقل الى مناطق اخرى بشكل تجارة ترانزيت ، في حين كان على التجار غير الاوربيين أن يدفعوا ٧٪ رسوما كمركية^(٣٢) .

كانت الضرائب التجارية تجبى عادة على غرار الضرائب الاخرى في الدولة العثمانية بطريقة الالتزام الى اشخاص معينين ، كما حدث في بغداد عام ١٦٣٩ حيث عهد كمرك بغداد الى شخص أرمني يدعى سفر لمدة ثلاث سنوات^(٣٣) . وظل هذا النظام قائما دون الغاء حتى القرن التاسع عشر ، ولم يكن مقصورا على بغداد وانما طبق الامر نفسه بالنسبة للمدن العراقية الاخرى ، حيث كانت الكمارك في بغداد والبصرة تعطى بالضمان ويدفع التجار الى الضامن ٥٪ عن قيسة الاحوال تقديرا واذا وقع الخلاف بينهما ينتخب اثنان من الخيرين بالاسعار يحكمان بينهما^(٣٤) . ولم يتوفر في نظام الالتزام (او الضمان) اي وجه من أوجه العدالة ، ذلك لانه كان يسيطر عليه من يدفع أعلى الاسعار للدولة من المزايدين . وكان اولئك بطبيعة الحال يعملون لجر اكبر المنافع لانفسهم بصرف النظر عما يلحقه ذلك من اثار على الافراد وعواقب وخيمة على الدولة^(٣٥) .

لم يجر تنظيم الرسوم الكمركية في العراق الا على أيام مدحت باشا (١٨٦٩ - ١٨٧٢) ، حيث ألغى هذا الوالي عددا من الضرائب القديمة التي تشكل عقبة في سبيل التنامي الاقتصادي ، ومنها الضرائب الكمركية

التي فرضت بموجبه ضريبة ثابتة على تجارة الترانسيت مقدارها ١٪ من قيمة البضاعة^(٣٦) .

حظيت التجارة والصناعة في المدن العراقية بنوع من التشجيع خلال الفترة التي تقوم بدراستها . ففي مجال التجارة انعكس هذا التشجيع في مظاهر منها التساهل الكبير الذي أظهره الممالك تجاه التجار الاجانب والوطنيين ، بحيث سكن عدد كبير من التجار الارمن واليهود في بغداد لممارسة الاعمال التجارية مع تركيا والهند^(٣٧) . ومنها أيضا الثقة التي أراد الممالك ان يوجدها بينهم وبين التجار ، وقد عبر بكنفهم عن هذا الامر بقوله :

« لقد كان تأثير هذا الاجراء والاعتدال الذي أبدته الحكومة مما كان يحس به في كل مكان ، انه زاد من النشاط في الميدان التجاري وحاز على رضى جميع العاملين به . ومثل هذه الثقة في حكام المدن التركية (والمقصود بغداد) لم يكن اعتيادياً بصفة عامة »^(٣٨) .

واتخذ تشجيع التجارة صورة اكثر انتظاما في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . ففي عام ١٨٧٨ ، حث والي بغداد قدري باشا متصرفي السناجق التابعة لولاية بغداد ، على تحري الوسائل الكفيلة بتقدم التجارة في سناجقهم، ورفع تقارير بها الى الحكومة المحلية في ولاية بغداد^(٣٩) .

ادى نمو التجارة الخارجية والترانسيت الى ضرورة تطوير وسائل النقل، وعندئذ اعطيت أهمية خاصة لاستخدام البواخر في العراق . فقد اوصى محمد رشيد رضا باشا الذي جاء الى ولاية بغداد سنة ١٨٥٣ بشراء عدد من السفن البخارية من أوروبا ، لاستخدامها من اجل النقل التجاري بين بغداد والبصرة^(٤٠) ، واستورد من اجل ادامتها بعض المعدات الخاصة . واستمر فامق باشا في ولايته الثانية (١٨٦١ - ١٨٦٨) على النهج نفسه وأوصى بدوره المصانع البلجيكية لصنع عدد من السفن البخارية لتشغيلها في نهر

دجلة ، وفي عهده وصلت الباخرتان (بغداد) و (البصرة) الى بغداد وباشرتا العمل في حوالي عام ١٨٦١ (٤١) .

اولى مدحت باشا تسيير البواخر في انهار العراق اهتماماً اكبر من غيره ، حيث وسع الملاحة البخارية واشترى باخرتين حديثتين ليرتفع عدد البواخر في عهده الى ثمان وشكل شركة نهريّة خاصة للإشراف على أمورها ، عرفت باسم « شركة العمان العثماني » . كما قام بتنظيم خطوط ملاحيّة بحريّة بين البصرة من جهة واستنبول ولندن من جهة أخرى (٤٢) . وتوات « شركة العمان العثماني » عمليّة نقل البضائع بين بغداد والبصرة ، وقد أجرت عام ١٨٧٣ تخفيضاً في اجور شحن البضائع من أجل تنشيط التجارة في العراق (٤٣) .

سعى كثير من الولاة للمحافظة على سلامة القوافل التجاريّة البريّة والنهريّة . الا أن الفضل الاكبر في ضبطها وسلامتها قد ارتبط باسم سليمان باشا ابو ليلة (١٧٤٨ - ١٧٦١) وداود باشا . ففي زمن الاول كان لا يمكن لاي قافلة او واسطة نقل بالسفر من الحلة الى البصرة دون حراسة قويّة ، بسبب التهديد الذي تتعرض له التجارة من حالات التعرض والنهب . وبسبب انعدام الامن أيضاً فإن كثيرا من التجار السوريين والأتراك كانوا يسافرون الى أصفهان لشراء البضائع التي كانت ترد من الهند . ولكن بفضل الاجراءات الكثيرة التي اتخذها سليمان باشا ، فقد أصبح باستطاعة المرء - كما يقول ينبور - « أن يسافر لوحده بغير حاجة الى رفقة او حراسة سواء اكان السفر في دجلة أم في الفرات ام في البر ، ولا يجسر أحد على نهبه وسلبه . . . كما وتحولت التجارة من اصفهان الى هذه البلاد عن طريق البصرة وبغداد . . . بفضل الأمان » (٤٤) واتخذ داود باشا اجراءات مماثلة لحماية القوافل التجاريّة ، وكان لتوفر حالة الامن في عهده ، أن نشطت حركة التجارة كثيرا (٤٥) .

اتخذت اجراءات الحماية صورا مختلفة * فبالنسبة للطرق البرية فقد وضع بعض الجنود في الخانات الموجودة على الطرق الخارجية من أجل حمايتها ، اذ يشير تكسيرا في معرض حديثه عن الخانات الموجودة ما بين كربلاء وبغداد عام ١٦٠٤ ، الى أنه وجد في « خان الحصوة - في مفرق الحلة - كربلاء على الطريق العام الى الحلة - عشرة الى اثني عشر جنديا للمحافظة على الأمن في الطريق »^(٤٦) وعرف عن مدحت باشا انه أقام الحصون ومراكز الحراسة في كثير من مدن الفرات والنقاط المهمة على هذا الطريق ، كديار بكر ، والقائم ، وعنه ، وهيت والفلوجة^(٤٧) .

وفضلا عن ذلك ، فمن المعروف بأنه قد جرت الاستفادة من قبائل العقيل التي استوطنت جانب الكرخ في بغداد ، من أجل ان تقوم بعملية حراسة الطرق والمسالك التجارية ، وقيادة القوافل الذاهبة من بغداد الى دمشق^(٤٨) .

أما بالنسبة للطرق النهرية فقد انيطت حمايتها بعدد من السفن المعدة لهذا الغرض * يقول في ذلك جو تايلر « كان للحكومة في تلك المنطقة - اي القرنة - اسطول من السفن تضعه هناك للمحافظة على التجارة النهرية »^(٤٩) .

أما فيما يخص الاهتمام بالصناعة فقد جاء متأخرا قياسا بالتجارة * وكان الوالي داود باشا قد ادخل مصنعا لصناعة الاقمشة على الطراز الجديد ، واستدعى الفنيين الاوربيين لهذا الغرض^(٥٠) .

جرت عدة محاولات في العصور المتأخرة في العراق من وقت الى آخر لجعل الصناعة تناسب الى حد ما المستوى العصري * وكان الوالي نامق باشا اول من أدخل معملاً حديثاً يدار ميكانيكياً عام ١٨٦٤ ، استخدم فيه الصوف المغزول محلياً لصنع الالبسة العسكرية^(٥١) للتطور الصناعي في العراق ففي اول خطاب ألقاه بمناسبة تعيينه والياً على العراق في ١٨٦٩ أكد مدحت باشا على ضرورة الاهتمام ويقرن اسم مدحت باشا بسحاولاته الجادة

بالصناعة الحديثة^(٥٢) . وفي العدد الاول من الجريدة التي اصدرها باسم « الزوراء » تحدث عن « السفر في البحار » و « حركة طرق الحديد في الاقطار بواسطة البخار » وعن « المعامل » وغير ذلك من التسهيلات النافعة و « الصنائع المتنوعة »^(٥٣) . وتتمثل جهود مدحت باشا في تطوير الصناعة بتوسيع معمل النسيج المعروف في بغداد باسم « العبخانة » الذي اسسه سلفه نامق باشا ، وخصص الاموال لجلب ماكينة حديثة له تبلغ من القوة ٧٠ حصانا ، لتزايد الطلب على الاقمشة العسكرية ، التي كان ينتجها المعمل^(٥٤) وفي مجال الصناعة ايضا أنشأ مدحت باشا مدرسة الصناعة (الصنائع) ، التي كان يعلم فيها بعض الصنائع كالحياسة والسكافة والخياطة^(٥٥) ، واستمرت هذه المدرسة بتعليم الطلبة وتدريبهم للعمل في المعامل التي انشئت فيما بعد .

اولت السلطات المحلية في بغداد الصناعة قدرا من الاهتمام من أجل تشجيعها وتطويرها . من ذلك القرار الذي اتخذته الحكومة المحلية ببغداد عام ١٨٧٣ ، بالتقليل من استيراد المصنوعات الاجنبية ، والسماح للمعمل التابع (لشركة العمان العثمانية) باتاج الأثاث المعدنية ، بعد أن كانت ترفض قبل تلك السنة السماح للشركة باتاجها^(٥٦) . كما اهتم والي بغداد ، نامق باشا الصغير ١٨٩٩ ، بالحد من اعتماد صناعة النسيج - التي كانت تقوم بها مدرسة الصناعة ببغداد ، وغيرها من الصناعات الاخرى ، على الغزل المستورد من الخارج ، وسعى الى تأسيس معمل للغزل في المدرسة ، وحث على استيراد ماكينة أخرى للغزل لحساب المدرسة^(٥٧) .

ومن مظاهر ذلك الاهتمام أن تلك السلطات لم تكن تطالب أرباب الصناعة - عند تأسيسهم محلات صناعية - ان يقدموا اية شهادات ، او ان تشترط عليهم شروطا معينة ، كما لم تكن تفرض عليهم ضرائب كبيرة ، باستثناء تلك التي كانت تفرضها على مصنوعاتهم في حالة تصديرها الى الخارج وكانت زهيدة^(٥٨) .

على أن الاهتمام بالصناعة ، لم يكن مقتصرًا على السلطات الحكومية فحسب ، وإنما تعداه الى المواطنين أيضا • اذ عمد بعضهم لاسيما في بغداد والبصرة ، الى ادخال الآلات الحديثة في الصناعة ، والى تأسيس معامل حديثة • فعلى سبيل المثال ، تقدم اثنان من كبار تجار بغداد بطلب الى الحكومة المحلية في بغداد سنة ١٩٠٧ ، لمنحهما اجازة بتأسيس معمل للدقيق والخبز والمعكرونة ، وقد وافق مجلس ادارة ولاية بغداد على منحهما الاجازة^(٥٩) ، كما أسس عدد من المواطنين شركة نسيج صغيرة في بغداد سنة ١٩٠٨ ، وكانت تعتمد في انتاجها على الانوال اليدوية الاوربية المستوردة^(٦٠) • وشرع احد المواطنين بتأسيس شركة مساهمة لصناعة الجوارب والفانيلات في بغداد في سنة ١٩٠٨ •

أما مواطنو البصرة ، فقد أظهروا اهتماما بتأسيس معامل جديدة ، وبادخال الآلات الحديثة في الصناعة بالبصرة • فقد أدخل احد المواطنين في سنة ١٨٨٧ معملين في البصرة أحدهما للثلج والآخر لطحن الحبوب • وعدد المعمل الاخير ، الذي كان يشتغل بالبخار ، بمثابة اول معمل بخاري أسس بالبصرة^(٦١) •

كذلك استورد احد مواطني البصرة ماكينة بخارية لكبس عرق السوس في سنة ١٨٩٢ ، بعد أن كان قد استورد قبل تلك السنة ماكينة يدوية للغرض نفسه • واستورد مواطن اخر من البصرة عام ١٨٩٥ محركاً قوته ٢٥ حصانا ، ونصب عليه هباشة لتقشير الرز وتنظيفه ، وركب عليه مطحنة للحنطة • واسس الشيخ عبدالواحد باش أعيان - احد أبناء الأسر البارزة في البصرة معملين بالبصرة في سنة ١٩٠٩ ، أحدهما لحلج القطن وتنظيفه من البذور ، والاخر لاستخراج زيت الخروع^(٦٢) •

المدن العراقية كمراكز تجارية

على الرغم من أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر قد ادى الى ركود التجارة في الشرق الى حد ما ، وقلل من حجم تجارة المرور (الترانسيت) دون شك ، فقد بقي ثمة تبادل نشيط في المنتجات المحلية . بيد أن تجارة المرور قد استعادت نشاطها في فترات لاحقة ، ومع عودة هذه التجارة فقد بدأت المدن العراقية تمارس وظيفتها التجارية كمركز لتجارة المرور ، فضلا عن وظيفتها التجارية المحلية .

على ان الوظيفة التجارية في هذا البحث لا تعني العلاقات التجارية التي تربط المدينة بالعالم الخارجي وانما الفعاليات التجارية الداخلية التي توفرها المدينة لخدمة سكانها ، وذلك بتهيئة السلع والبضائع المنتجة محليا والمستوردة على حد سواء . وفي هذا المجال ، كما أشرنا سابقا ، فإن تطور الوظيفة التجارية للمدن العراقية ، قد نتج اما بسبب بعض الجهود التي تبنت خلال العهد العثماني في العراق ، او بسبب حالات عفوية جاءت نتيجة للنشاط التجاري الذي مرت به هذه المدن^(٦٣) . وعلى هذا فان التأكيد سيقوم على دراسة الوظائف التجارية للمدن العراقية باعتبارها مركزا للنشاط التجاري الخارجي والداخلي ، المتمثل بالاسواق والمرافق الوظيفية الاخرى .

هناك حقيقتان لا بد من ادراكهما منذ البداية اولاهما : أن بغداد كانت مركز تجارة الترانسيت الحقيقي على اساس أنها نقطة تجميع وتوزيع هذه التجارة والتجارة الخارجية ، وثانيتهما ، ان تجارة الترانسيت كانت مقصورة الى حد بعيد بين الخليج العربي والمناطق الغربية في ايران^(٦٤) . وعلى هذا الاساس نلاحظ ان سلع تجارة الواردات لمدينة بغداد أما انها كانت بضائع مرور فقط الى الاقطار المجاورة ، او انها المركز الرئيس لتوزيع تجارة الاستيراد الخارجية .

فبالنسبة لكون بغداد « مركزاً لتجارة المرور » فقد اكتسبت هذه الشهرة منذ القرن السادس عشر ، ونعتها الرحالة الاوربيون بهذه الصفة ، وحافظت على هذه السمعة خلال القرن السابع عشر^(٦٥) . ولم يقتصر الامر على بغداد ، بل كانت البصرة والموصل مراكز مماثلة لتجارة الترانسيت ، لفترة امتدت حتى افتتاح قناة السويس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقد وفرت هذه التجارة للمدن العراقية الكثير من اليرادات^(٦٦) .

ونقل جزء هام من التجارة الخارجية الايرانية بطريق الترانسيت عبر بغداد والبصرة ، وساعدت عملية تنظيم الضرائب الداخلية في العراق عام ١٨٦١ على تطور هذه التجارة الى درجة كبيرة^(٦٧) . وتألفت تجارة الترانسيت من السلع التي كانت تستوردها ايران عن طريق العراق ، ومن تلك التي كانت تصدرها عن طريقه ، واشتملت سلع الاخيرة على السجاد والافيون والتبناك والصمغ ومواد الدباغة والشال والجلود .

وعلى الرغم مما ادى اليه فتح قناة السويس من تقليص في حجم تجارة الترانسيت بين العراق وايران ، وجعلها تقتصر فقط على تجهيز المناطق الشمالية الغربية من ايران لاسيما كرمنشاه ، على أثر تطور بعض الموانئ الايرانية في الخليج العربي ، بعد ان كانت ايران تتجهز قبل فتح تلك القناة ، بمعظم احتياجاتها من السلع الاوربية عن طريق التجار في بغداد^(٦٨) . الا أن ذلك لم يحل دون بقاء تلك التجارة مزدهرة بعض الشيء كما يستدل ذلك من أن قيمتها كانت تبلغ في اواخر القرن التاسع عشر حوالي ٥٠٠.٠٠٠ باون^(٦٩) .

اما بالنسبة لتوزيع التجارة الخارجية فقد كانت المدن العراقية الثلاث بغداد والبصرة والموصل مركزاً رئيساً لهذه التجارة ، بينما اقتصرت اهمية المدن العراقية الاخرى على توزيع السلع ، التي كانت بغداد والبصرة تحصل عليها .

تتألف تجارة بغداد الخارجية في الغالب من البضائع الهندية التي تجلب اليها من الهند والبنغال ، والبضائع الاوربية وغيرها ، وكانت ممثلة بالسكر والحريز والملابس الناعمة والخشنة وغيرها ، التي يتم توزيعها في شمال العراق وسوريا واسيا الصغرى^(٧٠) . كما يتم توزيعها الى بعقوبة - مركز محافظة ديالى - وكربلاء والنجف والعمارة حيث تحصل على السلع المستوردة مقابل ايصال منتوجاتها الزراعية الى بغداد^(٧١) .

لقد زاد حجم التجارة الخارجية لبغداد في العقود الاولى من القرن التاسع عشر ، يستدل على ذلك من ازدياد عدد السفن التي كانت تنقل هذه التجارة . ويعلل بكنغهام الذي زار بغداد عام ١٨١٦ ، هذا الامر الى « التساهل الكبير الذي اظهرته الحكومة الحالية في مطالبيها »^(٧٢) . وفي الوقت الذي توسعت فيه المتاجرة بالسلع الهندية ، فقد تدنت التجارة مع ايران بشكل ملموس . ويعود ذلك لان الايرانيين بدأوا يجدون لانفسهم الطرق الخاصة بهذه التجارة ، مما حرم العاملين بالتجارة الخارجية في بغداد من مورد كبير كانوا يجنونه من جراء مرور هذه التجار بأيديهم^(٧٣) . ومع ذلك يجب ان ننوه بان العراق ظل يعيد تصدير قسم من وارداته الى ايران ، وقد بلغت نسبة السلع التي اعاد العراق تصديرها الى ايران في ستينات القرن التاسع عشر ما يقرب ثلث وارداته ، وانخفضت تلك النسبة الى اقل من ذلك في سنة ١٩١٣^(٧٤) . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان حوالي ربع مستوردات بغداد لوحدها كان يعاد تصديره الى ايران للفترة ما بين ١٨٨٨ - ١٨٩٥ ، ما عدا التجارة الترانسيتية في الموصل والبصرة^(٧٥) .

اما بالنسبة للبصرة ، فقد كانت مركزا تجاريا رئيسا لما يجلب الى العراق من منتجات وسلع مختلفة عن طريق الخليج العربي بواسطة سفن مختلف الدول ، وكانت تقوم بتصدير هذه المنتجات والسلع التي ترد اليها الى بغداد عن طريق دجلة أو بواسطة القوافل ، ومن هناك اي من بغداد ،

توزع هذه السلع والمنتجات • يقول الرحالة ينجھولت الذي زار البصرة في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٦٦ عن التجارة الخارجية : « والبصرة ترسل الى بغداد بجميع البضائع التي تردھا من الخليج على وجه التقريب ومن ثم توزع على العراق العربي والموصل وانحاء ايران الغربية والشمالية • ويرد من الهند عن طريق البصرة السكر والقهوة والصمغ والبهارات والانسجة القطنية والاشخاب الفاخرة • أما البضائع الاوربية فاهمها الاقمشة القطنية والحرائر » (٧٦) •

وشذت الموصل عن هذه القاعدة ، اي انها لم تكن تعتمد على بغداد في الحصول على منتجاتها التجارية الرئيسية ، ولكنها كانت تحصل عليها بصورة مباشرة من اوربا او عن طريق حلب ، وذلك قبل افتتاح قناة السويس • وتولت الموصل توزيع تلك الواردات على شمال العراق وايران والجزيرة وديار بكر • وبعد عام ١٨٦٩ • وجد تجار الموصل انه من الافضل لهم الحصول على تجهيزاتهم القليلة عن طريق بغداد ، وليس عن طريق حلب • ولذلك اخذت تجارة الموصل مع بغداد ، بالازدياد منذ اوائل القرن انحالي ، على حساب تجارتها مع حلب ، مما رفع من مكانة بغداد التجارية ، وجعلها مركزاً لتجارة العراق الخارجية باسره (٧٧) •

ولما كانت بغداد والبصرة مركز التجارة القادمة من الهند والخليج العربي ، فقد ورد اليها التجار من مناطق عديدة من الشرق • يقول تكسيراً في ذلك : « وقد كان التجار يترددون على بغداد من الهند وايران ومعهم بضائع وسلع وافرة عن طريق البصرة والنهر والبر وكانوا يترددون كذلك من ديار بكر وحلب ودمشق وطرابلس وسائر البلاد مع انواع المنتجات » (٧٨) •

ولم تقل البصرة شأنًا عن بغداد في هذا المجال ، اذ كان تجار مختلف مدن آسيا الصغرى مثل القسطنطينية وديار بكر ونصيبين وغيرها يأتون سنوياً للمتاجرة مع هذه المدينة ، وهم يحملون منتجات هذه المناطق من

البضائع التي تحتاج اليها أسواق الهند ، وهم يأتون بها الى البصرة في نفس الوقت الذي تأتي فيه السفن الاوربية وغيرها ، حيث يقومون ببيع ما جلبوه من منتجات في البصرة وشراء ما جلبته تلك السفن من البضائع التي تحتاج اليها اسواق الاناضول . وقد اشار تافرينيه^(٧٩) اثناء زيارته البصرة سنة ١٦٥٢ الى كثرة تجار القسطنطينية وازمير وغيرها في هذه المدينة وبانهم يشترون البضائع والسلع التي ترد من الهند مثل الفلفل والقهوة والسكر والقماش الابيض ، في حين ان المواد التي يجلبونها معهم من الاناضول تتكون من القنب والصابون والاقمشة والجلود التركية .

وكان هناك الكثير من التجار الاوريين في البصرة وبغداد ، حيث يقومون ببيع البضائع التي يستوردونها من سورات في الهند والاقمشة التي تصنع في البنغال وبعض الاقمشة الانكليزية الصنع ، وكان ابرز اصناف التجار الاوريين هم من الانكليز والفرنسيين والايطاليين . لقد كان للتجار الانكليز في البصرة خلال القرن الثامن عشر مقيمة دائمة تابعة لشركة الهند الشرقية ، في حين كان لهم في بغداد وكيل لادارة وتصريف بضائع الشركة المذكورة . ويبدو ان الارباح التي كانت تجنيها الشركة ابان القرن المذكور لم تكن عالية ، وربما كان وجودها لاغراض سياسية ، يقول تايلر في ذلك :

« أن الارباح التي تجنى من هذه التجارة (اي الاستيراد) لا تفي بالمصاريف الكبيرة التي تنفق على المقيمة وما تتطلبها من خدمات ، ولكن وجود المقيمة ضروري للإبقاء على العلاقات مع الجزيرة وتنظيم الاتصالات والرحلات البرية مع المستعمرات الانكليزية في الهند »^(٨٠) .

وكان للتجار الفرنسيين ممثل في البصرة ، وهو يمارس اعماله التجارية . أما التجار الايطاليون في البصرة فقد كانوا يزاولون تجارة لا بأس بها مع البندقية عن طريق حلب ، وكان لهم ممثل في بغداد لتمشية معاملاتهم

التجارية وشراء البضائع والمواد الخام من أنحاء القطر . كما يزاول التجار من أهالي البصرة تجارة واسعة في البن مع اليمن^(٨١) .

في الوقت الذي أدت فيه المدن العراقية وظيفتها كسركز لتجارة المرور وتوزيع التجارة الخارجية ، فانها كانت تقوم بتوفير السلع والمنتجات الداخلية ، وتصدير الفائض عن الحاجة المحلية الى الاسواق الخارجية . على أن التباين والاختلاف بين الانتاج الريفي البسيط المرتكز على الزراعة ، وانتاج المدينة القائم ، على الصناعة والتجارة ، قد أوجد الحاجة لقيام حركة تجارة واسعة في المنتجات المحلية ، خصوصا بوجود فائض في هذه المنتجات ، وضرورة مبادلتها بالنتاج الطرف الاخر .

تألفت معظم المواد التجارية المحلية من المنتجات الزراعية والحيوانية المصنعة وغير المصنعة ، سواء تلك التي تجري بين المدينة والمناطق التابعة لها ، او بين مدينة واخرى . فبغداد مثلا كانت تحصل على كثير من المنتجات الزراعية والحيوانية كالقمح والشعير والحبوب وجلود الاغنام والماعز من سواها وقراها^(٨٢) . كما اتسعت بشكل ملحوظ عمليات تبادل المنتجات الزراعية والصناعية بين المدن المختلفة ، فكانت الموصل تباع الفحم لبغداد والبصرة ، بينما تخصصت العمارة ببيع الرز ، ومناطق ديارى وعانة ببيع القطن ، والمناطق الشمالية في العراق بالتبغ^(٨٣) .

لما كانت المناطق المحيطة ببغداد والبصرة تتمتع بخصب طبيعي ، لذلك فقد اشتهرت بزراعة النخيل والرز والحبوب ، وكثير من منتوجات هذه المناطق كانت تصدر الى الخارج^(٨٤) . ومع اشتهاار البصرة بالتمور فقد كانت كميات كبيرة منه تصل اليها من بغداد لتصدير كميات منها عن طريق نهر الكارون الى المقاطعات الفارسية ، كما يصدر قسم اخر منها عن طريق شط العرب الى الهند^(٨٥) .

وتتميز البصرة عن بغداد بكونها ميناء العراق البحري ، لذا ان كثيرا من منتوجاتها كالتنمر والقمح والشعير والذرة البيضاء والارز والصوف ، كانت تصدر الى الخارج^(٨٦) . كما اشتهرت أسواق البصرة بالخيول التي كانت تأتيها من مختلف المناطق كالديوانية والحلة ، وكانت تجدها رواجاً في موانئ الخليج العربي وأسواق بومبي في الهند . وقد استمرت البصرة محتفظة بمركزها التجاري فيما يخص تجارة الخيول ، وذلك حيلة النصف الاول من القرن التاسع عشر ، حتى أصدرت الدولة العثمانية في منتصف القرن المذكور قراراً منعت بموجبه تصدير الخيول العربية الأصيلة من البصرة للأسباب التالية :

١ - الحفاظ على تلك الانواع من الانقراض نتيجة لامتناع اسواق الهند لها في كل عام .

٢ - تزويد الجيش المقيم في العراق بما يحتاج اليه من الخيول^(٨٧) .

وفي الموصل حركة تجارية داخلية واسعة النطاق ، اذ يرد اليها من المناطق الجبلية في العراق البندق واللوز والجوز والاصواف ، الذي تقوم بتصديره الى بغداد وحلب^(٨٨) . ومع أن الحنطة والشعير كانا متوافرين بكثرة في الموصل ، الا أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر ، لم تكن هناك تجارة واسعة للحبوب بين الموصل وأوروبا ، لان النقل التجاري بين الموصل وبغداد يتم بواسطة الاكلاك^(٨٩) . واشتهرت الموصل باقمشتها القطنية ، حيث كان يجري نقلها الى سائر الجهات في العراق^(٩٠) .

تمت التجارة الداخلية على أيدي التجار الوطنيين ، الذين عرفوا بالنشاط والحيوية^(٩١) . ففي الوقت الذي مارسوا فيه نقل المتاجر بين المدن العراقية المختلفة ، فقد كانوا يقومون بتصدير المنتجات المحلية الى الخارج . ولكن يبدو ان هؤلاء كانوا يقومون باحتكار التجارة مما كان يؤدي الى رفع أثمانها . يقول في ذلك احد المعاصرين المهتمين من القرن

التاسع عشر : « وقد حصرت تجارة بعضهم بهذه الايام المتاخرة في الحنطة والشعير والدخن والارز والسمن والذرة والهرطمان والماش والعنبر والحمص والفول حتى ارتفعت اثمانها وضيق على الفقراء . فعمت الفاقة أغلب الاهالي لان تجارها - اي بغداد - لم يكتفوا بان يشتروها من الخارج ويبيعوها بايديهم بل أصروا على حكرها وبيعها باثمان فاحشة » (٩٢) . وبالنسبة لتصدير المنتجات المحلية المهمة الى الخارج ، كالاصواف والجلود ، فإنهم كانوا يتحينون الفرص لشرائها بأسعار زهيدة وبيعها في الخارج باثمان مرتفعة ، كما حصل عام ١٩٠٣ - ١٩٠٤ حيث جمع التجار في بغداد والموصل مادة الصوف ، لارتفاع سعر هذه المادة في انكلترا وأمريكا (٩٣) .

الاسواق

في البداية يجب التنويه الى أن عملية التبادل التجاري الذي تمارسه المدن بعد ان تتم على النطاقين الخارجي والداخلي ، تنتقل السلع والبضائع الى الاسواق حيث المخازن الكبيرة والحوائث (الدكاكين) والخانات . وعن طريق هذه المرافق تبدأ عملية توزيع السلع والبضائع بصورة مباشرة الى المواطنين ، عن طريق عملية البيع والشراء ، وهو ما يعكس لنا الصورة الحيّة المتفاعلة في هذا المرفق الاقتصادي المهم للمدن العراقية .

وعلى أساس الأهمية الاقتصادية للأسواق فقد روعيت اعتبارات كثيرة عند بناء المدن العربية ، ومن بينها المدن العراقية ، من أجل تقديم خدماتها الوظيفية بشكل افضل . ومن تلك الاعتبارات بناء الاسواق في المداخل الرئيسة للمدن ، باعتبارها مراكز لتجمع التجار وأهل الريف والوافدين من الاقطار البعيدة للتزود بما تنتجه المدن الرئيسة أو ما يصل اليها من البضائع والسلع . وفي بغداد ، المدينة العربية الانشاء ، فان خريطتها ذات الخطوط المتوازية والعمودية تبدو واضحة تماما في منطقة الاسواق الرئيسة والخانات .

اذ ان هذه المنطقة كانت مفتوحة باتجاه المنطقة الخارجية للمدينة من خلال عدد من المحاور الرئيسة التي كان يجري عبرها نقل الاشخاص والبضائع^(٩٤) .

كما فرضت طبيعة المناخ السائد في المدن العريية نمطا معيناً من الاسواق ، غالبا ما تكون مسقفة للوقاية من الامطار وأشعة الشمس والرياح العاتية^(٩٥) . ولقد لوحظ عند بناء الاسواق وملحقاتها كالكانات والقيسيات، معالجة أمور أساسية كتوفير الضياء الكافي باقل حرارة ممكنة وضمان حركة الهواء داخل هذه الاسواق ، وكذلك توفير حرية الحركة للمشاة ولوسائط النقل المستعملة فيها^(٩٦) .

واذا ما رجعنا الى روايات الرحالة الاوربيين الذين زاروا بغداد ، والمدن العراقية الاخرى ، في الفترة موضوع البحث نجد أن أوصافهم تنطبق الى حد بعيد الى ما أشرنا اليه من خصائص المدينة العريية ، بخاصة وجود الاسواق المرتفعة المغطاة بالسقوف المعقودة بالآجر ، والمجهزة بالفتحات الكافية للاضاءة^(٩٧) . غير أن اسواقا اخرى ، كما يشير بكنغهام ولستيد ، كانت مسقفة باخشاب منبسطة تمتد في الوسط من جانب الى آخر وذلك لتدعيم السقف المصنوع من القش والاوراق الجافة او اغصان الاشجار والحشائش ، او القماش الخشن المشدود بحبال متعارضة^(٩٨) .

وهناك اعتبار يتعلق بتنظيم الاسواق والمحلات التجارية في المدن العراقية بشكل حلقات متتابعة ، وفقا لاهميتها الاجتماعية والاقتصادية ، اذ ان اكثر المراكز او المحلات أهمية غالبا ما تكون مجاورة أو محاذية للجامع الرئيس في مركز المدينة وعلى هذا الاساس فان المحلات المتخصصة ببيع التوابل والقهوة والملابس الثمينة والصناعات الجلدية الغالية والروائح العطرية تكون اقرب الى المركز . أما السلع الاستهلاكية والكماليات الاخرى ذات التقييم الواطئ فكانت توجد في الازقة السوقية الخلفية لمواضع السلع الاولى . أما الوحدات الانتاجية (أصحاب الحرف) فغالبا ما كانت

تقع في مكان منزوع بعيداً عن المحلات التجارية التي يكثر فيها الازدحام^(١٩٩) . أما النشاطات الاقتصادية الأخرى التي هي أقل أهمية ومختلفة عنها ، كتلك التي تتطلب اتصالاً وثيقاً مع عالم الريف ، أو تتطلب أماكن واسعة ومفتوحة ، أو تسبب ازعاجاً كبيراً للمواطنين المجاورين ، فقد جرت العادة على دفعهم الى ضواحي المدينة . أن ادراج هذه النشاطات الأخيرة كان أمراً ثابتاً من مدينة الى أخرى بحيث كانت بالصورة الآتية : اسواق الفواكه والخضر ، أسواق الحبوب ، اسواق الماشية ، الجزارين ، الدباغين ، الخبازين وما شابه ذلك^(١٠٠) .

ووفقاً لمبدأ ترتيب المحلات حسب أهميتها الاقتصادية ، نجد هناك الاسواق المتخصصة في بغداد والمدن الأخرى . حيث أن كل سوق من الاسواق أو ان جزءاً منها كان يختص بتجارة معينة ، وهذا ما يتيح المجال للمشتري ان يتفحص ويقارن بين البضائع المتشابهة في أكثر من محل تجاري . فمثلاً كان في بغداد سوق الصياغ وسوق التمارين (الشورجة) وسوق الصفارين وسوق القز وسوق البزازين وسوق الكبابجية وسوق الخياطين وسوق الاسكجية وسوق اليمنجية وسوق التوتونجية (باعة التبغ) وسوق السريجية (باعة الاسرة) ، وكلها موزعة حوالي الميدان والسراي وتمتد جنوباً حتى وسط المدينة^(١٠١) .

كما كانت هناك أسواق متخصصة في الموصل كسوق اليمنجية وسوق العطارين ، وسوق باب الجسر وسوق الصفارين وسوق الملاحين (قرب باب الطوب) وسوق العلوة (قرب الجامع المنسوب له) ، كما أن هناك سوقاً عند مبدان القلعة الداخلية - كما هو الحال في بغداد - يعرف بسوق الميدان ، وغير ذلك^(١٠٢) ولا تختلف البصرة عن المدن العراقية الأخرى من حيث أسواقها المتخصصة إذ يشير خورشيد افندي « الى أن هناك سوقاً في البصرة

يضم أصناف مختلفة من اصحاب الحرف اليدوية والبقالين وباعة الاسماك والصاغة والحدادين واخرين غيرهم «(١٣)» .

ولعل من الضروري الاشارة هنا ، بان عددا من التغيرات في موقع الاسواق قد حدثت في العصور المتأخرة ، وهذه التغيرات مهمة جدا ، لأنها تشير الى اضمحلال النشاطات التجارية القديمة وظهور أخرى جديدة . ولعل ذلك يعود الى ظهور انواع جديدة من الاتاج والتجارة (القهوة) والتبغ وانواع التجارة المستمدة منها) واضمحلال بعض النشاطات القديمة «(١٤)» .

واضافة الى هذه الاسواق كانت هناك فصح او ساحات مكشوفة في بغداد تباع فيها بعض من انواع السلع ، وقد سميت باسمائها مثل « سوق الغزل » و « سوق الموسلين » و « سوق الحنطة » وغيرها . ولعل من اهم هذه الاسواق والتي كانت اكبرها وازهاها السوق القريبة من الباب الشمالية الغربية في بغداد - غير ان اي سوق من هذه الاسواق - كما يقول فريزر « لا يمكن أن تمت بصلة الى اي روثق او بهاء » «(١٥)» ويبدو ان هذه الميادين او الساحات المفتوحة كانت منتشرة في سائر المدن العراقية الاخرى وتختص كل واحدة منها بتجارة معينة .

اما بالنسبة للحوانيت (الدكاكين) الموجودة في داخل اسواق بغداد ، فانها مرصوفة على جانبي الشارع ويواجه بعضها بعضا ، وهي مؤلفة من غرف صغيرة لا تزيد مساحة الواحد منها على ثمانية اقدام ، وفيها يجلس التجار ويسطون بضائعهم «(١٦)» .

قدر أوليا جلبي حوانيت بغداد في منتصف القرن السابع عشر بالفي حانوت «(١٧)» ، وقدرها الرحالة الاوربيون في نهاية القرن الثامن عشر باضعاف مضاعفة «(١٨)» . ولكن كما أشرنا سابقا ، فان حوادث الفيضان التي تعرضت لها بغداد عام ١٨٣١ قد ائت على كثير من أسواقها ومحلاتها ،

مما يدل على تناقص عدد حوانيت بغداد انذاك . يقول فريزر في ذلك « أما الدكاكين نفسها فهي دكاكين رثة ، غير مرممة في كثير من الحالات ، وكثير منها فارغ غير مشغل »^(١٠٩) . اما في نهاية القرن التاسع عشر ، فقد أصبح في بغداد ، التي يعد نفوسها حينذاك بـ (٢٠٠) ألف نسمة ، حوالي (٤) الاف حانوت . اما في البصرة ، التي كان عدد نفوسها (٦٠) ألف نسمة فقد كان فيها ما بين ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ حانوت^(١١٠) .

كانت أسواق بغداد ، والمدن الاخرى ، مكتظة بالناس دائماً ، ومليئة دكاكينها بالسلع المختلفة ، حتى لقد تطرف جيمس فيلكس جونز عند وصفه لأسواق بغداد عام ١٨٥٣ بقوله : « ولا تعني الاسواق سوى أماكن تجمع الرجال والبضائع »^(١١١) . ولا يخفى ان أسواق بغداد في تلك الايام كانت هي الشوارع العامة لوسائل النقل أيضا ، وهذا مما يولد حالة الازدحام فيها . والاكثر أهمية من ذلك أن الاسواق في بغداد قد وفرت لزبائنها كل شيء ، بحيث يخرج المرء فيها وهو مقرر البال بسبب تنوع البضائع المعروضة^(١١٢) .

لقد كانت الملابس والاقمشة المستوردة من سورات في الهند ، والسراويل المجلوبة من كشمير ، والانسجة المصنوعة محليا من اكثر البضائع المتوافرة في أسواق بغداد ، ويلقى اللون الاحمر بمختلف أطيافه ودرجاته ، والالوان الزاهية الاخرى رواجا هناك^(١١٣) . وفضلا عن ذلك فهناك أيضا الاصباغ والزينات التطريزية ، والسيوف الصقيلة ، والبنادق الملمعة التي تطلق باشعال عود الثقاب ، والاحذية ذات الالوان البراقة ، والعطور ، بخاصة ماء الورد ، متوافرة كثيرا ، وتعمل كلها على رسم صورة حية مبهجة للشخص^(١١٤) .

أما بالنسبة للموصل فقد كانت اسواقها هي الاخرى تنص على الدوام باصناف عديدة من السلع والبضائع ، كالاصباغ والاقمشة القطنية ، ولكن

يظهر أنه منذ الربع الثالث من القرن التاسع عشر ، وبسبب تدهور الصناعات المحلية كما سنرى ، أخذت الصناعات الأوروبية ، وخاصة الانكليزية ، تغزو أسواق هذه المدينة (١١٥) . وكذلك ينطبق الحال بالنسبة للبصرة التي تتوافر في أسواقها البضائع توفرا حسنا ، ولكن بسبب انعدام البضائع المنتجة محليا فقد كانت البضائع المستوردة تتألف من الاقمشة والسكر والادوية والساعات ، فضلا عن بعض المنتجات العربية المستوردة مثل عمائم مسقط ، وعباءات الحسا وهي عبارة عن طرحات صوفية بدون اكمام (١١٦) .

التنظيمات الاقتصادية في السوق : الاسعار ، المحتسب ، الصيرفة

من الملاحظ ان الاسعار في أسواق المدن العراقية لم تكن محددة، بل انها تختلف من مدينة الى أخرى ، وكانت أسعار كثير من المواد الاساسية تخضع لمسألة التعامل في البيع والشراء . ولعل ما يعيننا هنا من أخذ صورة عامة عن طبيعة الاسعار في المدن المختلفة ، هو الاشارة الى ما ذكره الرحالة البريطاني جاكسون الذي زار كلا من البصرة وبغداد والموصل عام ١٧٩٧ ، وقارن بين أسعار المواد المختلفة في هذه المدن حيث يقول :

« وتوجد في بغداد سوق واسعة مزودة بمختلف انواع البضائع ولكن الاسعار فيها اعلى من أسواق البصرة بصورة عامة » (١١٧) . اما بالنسبة للموصل فقال : « كان السوق فيها واسعا ومزودا تزويدا حسنا بالسلع . وكانت أسعار معظم المواد المعروضة للبيع ، ماعدا الملابس ، معتدلة تماما » (١١٨) .

على ان يخص الاسعار الموجودة في أسواق الموصل وأسعارها قد وردت على لسان الرحالة فنشنسو الذي مر بالعراق في القرن السابع عشر حيث قال :

« وقد مرت اكثر من مرة بأسواق المدينة (أي الموصل) ، فأخذني العجب من الاسعار البخسة التي تطلب لمختلف البضائع .

فالشاة الواحدة تباع بأربع شاهيات (نوع من العملة التي انتشرت في العراق زمن (العثمانيين) • والحمل الكبير من الفواكه بدرهم واحد اي باقجة (نقد فضي استعمل في العراق في العهد العثماني) واحدة لا غير ••• أما الخيول فحدث ولا حرج ، فهي من مختلف الاجناس » (١١٩) •

وبسبب الاختلاف في الأسعار فقد وجد نظام الحسبة (الاحتساب في الفترة العثمانية) في الأسواق ، من أجل مراقبة الاسعار والاوزان والمقاييس المستعملة وجودة السلعة ، وقد عثد بهذه المهمة الى « المحتسب » • وكانت العادة أن يجري تعيين محتسب لكل مدينة من المدن التي يوجد بها قاضٍ - الذي يكون المحتسب مسؤولاً امامه بشكل مباشر - من أجل أن يراقب القوانين الخاصة بالاسواق رقابة دقيقة ومن جملتها نظام الاسعار (١٢٠) •

وهناك بعض الاشارات الى أن المحتسبين في بغداد في مطلع القرن السابع عشر كانوا يقومون بواجباتهم خير قيام ، وهذا ماذهب اليه الرحالة تكسيرا الذي زار المدينة في عام ١٦٠٤ ، وقال عن المحتسب :

« أن الاسواق كان لها (بلوك باشي) - ويقصد المحتسب - خاص يتولى حماية البائعين والشارين معا ، ويمنع حصول الاعتداء أو الغش • وقد كان يعمل أيضا على حل المنازعات بالحسنى أو بالقوة كما تقتضيه الظروف والاحوال • وحينما يعجز عن ذلك كان يأخذ المتخاصمين الى القاضي ••• ولم ير خلال الشهرين اللذين أقام فيهما ببغداد اي تخاصم بين الناس في الأسواق او الاعتداء عليهم » (١٢١) •

بيد أنه بعد فترة ليست طويلة طبق نظام الالتزام في الاحتساب ببغداد • اذ أصبح على ملتزم الاحتساب ان يدفع مبلغا معيناً من المال « كبذل التزام » ، وبعد حصوله على مصادقة القاضي ، وحاكم المنطقة يمنح الملتزم وثيقة « شرطنامة » ، تخوله حق ممارسة صلاحيات ومهام المحتسب • وكانت

الرسوم التي يتسلمها المحتسب والمسماة برسوم الاحتساب تفرض على كل السلع المباعة في الاسواق .

على ان هذا النظام - شأنه في ذلك شأن نظم تحصيل الدولة الاخرى - قد لحقه كثير من الجور والظلم . لذلك فقد جرى التأكيد في تعريفه الاحتساب الصادرة عنها عام ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م ، على ضرورة التزام ضامني الاحتساب بالرسوم المفروضة قانونا وعدم الجور على الناس والباعة في الاسواق . اذ جاء فيها « لقد شوهد رأي العين ان ضامني الاحتساب في بغداد يجورون على عباد الله ويعتدون عليهم بأخذهم لأكثر من الرسوم المنصوص عليها قانونا » (١٣٣) . وهكذا نلاحظ أن اسلوب الالتزام في الاحتساب ، الذي كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بأحدى المرافق الحيوية في المدن الا وهي الاسواق قد اضر بهذه المؤسسة في العهود المتأخرة ، ذلك لان منح الاشخاص لمنصب الاحتساب قد أصبح مستندا الى اعتبارات مالية صرف لا أخلاقية .

ولعل من الانظمة المالية التي ارتبط وجودها بوجود الاسواق ، نظام الصيرفة ، الذي وجد اصلا لتسهيل عملية المعاملات التجارية داخل المدن وخارجها . وقد ارتبطت مهنة الصيرفة وبيع السفائح (الكمبيالات المالية) في العراق باليهود ، وبدرجة أقل بالمسيحيين (١٣٣) .

ومن خلال القيام بهذه المهمة ، استخدم الصيارفة اليهود مختلف الاساليب والحيل من أجل تحقيق أرباح عالية ، والتحكم بأسعار البيع والشراء . من ذلك ما يذكره لنا خورشيد افندي عن قيام صيارفة بغداد عام ١٨٥١ بمبادلة النقود الاجنبية بالشاهي - عملة عثمانية تعادل الواحدة منها اربعين بارة او قرشا وهو يساوي ثمان بيزات - وعادة تكون بسعر أقل من سعرها الاعتيادي بنسبة ٥ - ٨/١ ، وبعدها يبيع الصيارفة هذه النقود الاجنبية بما يعادل قيمتها من البضائع وفي بعض الاحيان يستبدل

يها الذهب • لقد ظهرت الحاجة لمثل هذا النوع من المبادلة ذلك لان التجار الاجانب القادمين لشراء التمور من البصرة لا يملكون غير النقود الاجنبية فعليهم تصريفها او تحويلها الى الشامي لكي يدفعوا لبائعي التمور عند عملية الشراء • وللتخفيف من وطأة هذه الحالة ، فقد ضربت الحكومة عملة جديدة هي المجيدي نسبة الى السلطان عبدالمجيد الذي حكم ما بين ١٨٣٩ - ١٨٦١ - لكي تساعد الناس في عملية البيع والشراء وتوجد الاستقرار النقدي ، حيث اصبح المجيدي الواحد معادلا للشامي ويساوي ٩٨ بيزة (١٢٤) •

ومارس الصرافون اليهود في بغداد أيضا عملية اقراض الفلاحين بفوائد مجحفة • ذلك لان العثمانيين كانوا يتقاضون ضريبة الارض مقدما من الفلاحين قبل نضوج المحصول ، فيضطر هؤلاء الى الاستدانة من الصرافين في المدن ، بشرط أن يسددوا لهم ذلك بعينات من الصوف او غيره فيقبلها الفلاحون بنصف السعر الذي تباع به في السوق تقريبا (١٢٥) •

لقد ضعف عمل الصرافين اليهود كثيرا في أواخر القرن التاسع عشر بسبب افتتاح فروع « البنك العثماني » في كل من بغداد والبصرة والموصل في عام ١٨٩٣ ، في اعقاب اتفاقية عقدت في تلك السنة مع البنك الايراني - الذي كان قد أسس له فروعاً في العراق منذ سنة ١٨٩٠ - تم بموجبها ، انتهاء اعمال فروع البنك الايراني في العراق ، وحلول فروع البنك العثماني محلها (١٢٦) • وجدير بالذكر ان هذه البنوك لا ترتبط بالعثمانيين او بالاييرانيين بشيء رغم اسمائها ، اذ انها كانت في الاصل بنوكاً اجنبية تعمل في هذه البلاد •

وعلى أية حال ، فقد ادت فروع « البنك العثماني » في العراق خدمة كبيرة لرجال الاعمال المحليين بتسهيل معاملاتهم التجارية ، بعد ان كانت مثل هذه الخدمات محصورة بيد الصيارفة اليهود الذين استغلوا فرصة عدم وجود منافسة لهم فاتفقوا فيما بينهم واخذوا يفرضون ضرائب عالية

على الاشخاص الذين يلجأون الى مساعدتهم المالية ، بخاصة مصدري
الخامات المحليين ، مما قلل من نسبة الفائدة التي يحصلون عليها (١٢٧) .

الخانات

عند الحديث عن الاسواق ، فلا بد من التطرق الى الخانات أيضا باعتبار
أن وظيفتها تكمل وظيفة الاسواق . لقد صمم كل جزء من الخان لكي
يؤدي وظيفة معينة لها علاقة بتسهيل مهمة التجارة ومن يقوم بها . اذ تمارس
عملية الخزن وتبادل البضائع وايواء التجار المسافرين وحيواناتهم ، وكل
ما من شأنه ان يخدم هذه الاغراض .

لقد كانت هناك ثلاثة أنواع من الخانات لخدمة الاغراض التجارية :

١ - الخانات الواقعة في مركز المدينة ضمن منطقة الاسواق .

٢ - الخانات الموجودة في أرباض المدينة .

٣ - الخانات المقامة على طرق القوافل التجارية .

فبالنسبة لخانات النوع الاول ، الكبير منها والصغير ، فقد تركزت
بالقرب من منطقة الاسواق ، وان مقدار هذا التركيز يعطي المرء فرصة
تقدير الدور الذي تؤديه التجارة في المدينة (١٢٨) . وقد تعددت اختصاصات
هذه الخانات فكانت مكاناً للتجارة الداخلية والخارجية ، ومأوى للتجار
الغرباء والمسافرين ، ومخازن لبضائعهم وسلعهم .

ويصف تكسيرا الذي زار مدينة بغداد سنة ١٦٠٤ هذا النوع من
الخانات فيقول : « وقد كان يوجد في وسط المدينة على مسافة قريبة من
النهر سبع او ثماني اسواق طويلة تمتلئ ذكاكينها بالسلع المختلفة ،
والمنتجات المحلية ، بالإضافة الى الكثير من الخانات التي كان يشتغل بها
التجار بأعمالهم . وكانت كلها تسد في الليل وتقبل بسلاسل الحديد » (١٢٩)
ولعل من أمثال هذا النوع من الخانات أيضا ما ذكره أوليا چلبي عن خانات

بغداد ، حيث ذكر : خان چفال الكائن عند رأس السراجخانة ، وخان مراد باشا وخان ابراهيم عند رأس سوق الجند ، وخان خورمالي بالقرب من المحكمة الشرعية ، وخان البصري مقابل المحكمة وخانات الغرب وخان جامع الخلفاء (١٣٠) .

أما خانات النوع الثاني ، او الموجودة في أرباض مدينة بغداد ، فلم تختلف في مهامها عما كانت عليه داخل المدينة ، اللهم الا من حيث نوع الوظيفة وحجم الخدمات المقدمة وحجم الخان وطراز عمارته وموقعه ووسيلة النقل المستخدمة . وفي بغداد التي كان عدد خاناتها اثنين وعشرين خاناً - حسب تقدير نيور عام ١٧٦٥ ، فقد كان أربعة منها في ضواحي المدينة ، ويسكنها التجار (١٣١) .

ومن الجدير بالذكر هنا ، أننا لا نجد الا تقريراً عاماً لاعداد الخانات الموجودة في كل من الموصل والبصرة ، دون ذكر لمكان وقوعها او لنوع الخدمات الدقيقة التي تقدمها . فنيور نفسه يذكر عن خانات الموصل « ان فيها خمسة عشر خاناً او بيوتا عامة يأوي اليها الغرباء وبينها خمسة خانات صغيرة وردية . أما البقية فهي كبيرة وواسعة وقد بنيت خصيصاً لتوفير الراحة » (١٣٢)

أما النوع الثالث من الخانات ، او المقامة على طرق القوافل التجارية ، فقد ازدادت أهميتها إبان العهد العثماني في العراق نظراً لفقدان الامن على تلك الطرق من ناحية ، ولاستمرار حركة التجارة والحج عبر المدن العراقية من ناحية أخرى ، فكانت المأوى الأمين للقوافل والمسافرين . لقد تركّز هذا النوع من الخانات بشكل خاص على طريق النجف - باعتبار انه طريق تجاري وطريق الحجاج أيضاً ، حيث وجدت مجموعة كبيرة من الخانات المتصلة ما بين بغداد والنجف ، وكانت تبعد الواحدة عن الاخرى مسيرة ساعتين الى أربع ساعات . وقد اختلفت الاغراض التي انشأت من أجلها

هذه الخانات ، فقسم منها انشاء العثمانيون لحماية القوافل التجارية ، وشيد القسم الاخر أناس غايتهم الربح والكسب ، وقسم ثالث أنشأ خدمة للمسافرين ولابناء السبيل (١٣٣) .

على أن اهم الخانات على الطريق ما بين بغداد - كربلاء - النجف ، « حان الكهيا » في الجنوب من بغداد ، و « خان آزاد - احيانا يرد باسم أسد ، وسعد » ، الذي أنشئ ليتسع لنحو خمسمائة شخص . وخان الاسكندرية وهو يتسع لالف شخص ، وتتوافر فيه كل وسائل الراحة في ذلك العهد ، من حظائر للماشية ، او غرف للمسافرين ، ومسقفات مرتفعة واسطبلات للخيول ، واماكن للطبخ وبئر . وخان المحاويل الذي كان مشابها لخان الاسكندرية وهو اكبر منه تقريبا (١٣٤) .

لقد وضع التركيب الهندسي للخانات بشكل يؤدي الى تقديم أفضل الخدمات للمسافرين وبضائعهم وحيواناتهم . فهي تتألف من بناء واسع ذي مدخل واحد او عدة مداخل ، فيها ساحة وسطية (فضوة) غير مسقوفة ، يحيط بها بناء يتألف من طابقين ، يخدم الطابق الارضي وساحته كمرباط للحيوانات او اماكن لحفظ السلع والتجارات ، اما الطابق الثاني فيخدم لاغراض السكن ولمبيت التجار والزوار (١٣٥) .

المدن العراقية كمراكز صناعية

واقع الصناعة العراقية وتطورها

لم تتطور المدن العراقية بكونها مركزا واحدا من مراكز النشاط الاقتصادي ، وانما تطورت لكونها مركزا لنشاطات اقتصادية مختلفة . ولكن في الفترة التي نقوم بدراستها ، يبدو ان معظم المدن العراقية قد تحولت الى مراكز للمبادلات التجارية بالدرجة الاولى ، او بمعنى اخر تدهور وظيفتها الصناعية على حساب وظيفتها التجارية^(١٣) ، وعلى هذا الاساس يجب ان لا نتوقع وجود صناعات مزدهرة ، او حدوث تطورات هامة في مجال الصناعة .

بقيت الصناعة في المدن العراقية ، حتى في اثناء القرن التاسع عشر . اكثر النظم الاقتصادية محافظة على تنظيمها وطرائقها التقليدية في العمل وبلا شك ان واقع الصناعة في العراق قد ورث وضعاً متخلفاً في عهود السيطرة العثمانية حيث سادت خلال هذا العهد علاقات انتاجية متخلفة ، ولم تجر الا محاولات قليلة لجعل الصناعة العراقية تتناسب مع ما وصلت اليه الصناعة المتقدمة .

لم يشهد العراق ثورة صناعية او اي تقدم ملموس خلال العهود المتأخرة وان المعامل ومكائن الغزل والنسيج التي جلبها بعض الولاة العثمانيين لا يمكن اعتبارها بداية حركة صناعية واسعة في العراق ، لان معظمها قد جلبت لاغراض خاصة خدمة للجيش الموجود في العراق وقد

تعطل معظمها بعد فترة قصيرة كما اهمل بعضها الاخر ولما يعمل بعد * ولم يعد في العراق الا الصناعات اليدوية القائمة على سد متطلبات الزراعة أولا ، ولسد حاجة السكان من الضروريات ثانيا (١٣٧) *

لقد جاء في التقويم السنوي (السالنامة) لولاية بغداد سنة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ تحت عنوان الصناعة مايلي : « بالنسبة للحالة الحاضرة في العالم تعتبر الصناعة غير متقدمة ، فالتعدين مفقود تقريبا ويعتمد على ما يجلب من الخارج كالحديد والنحاس والبرنج والذهب والفضة ، اما الصناعة الرائجة فهي اعمال الحدادين والصفارين والصباعين والنجارين وصانعي الاحذية والسراجين والدباغين والخرفيين وصناعة المنسوجات من القطن والصوف والحريير » (١٣٨) *

ظلت معظم الصناعات العراقية صناعات قديمة ، ولم تتعد كونها بقايا للصناعات الحانوتية والبيئية التي سبق ان كانت مزدهرة في عهد الدولة العريية العباسية ، ولم تظهر الصناعات الحديثة في العراق ، الا في فترة متأخرة من القرن التاسع عشر وعلى نطاق ضيق * وقد كان أغلب الانتاج الصناعي في العراق في فترة بحثنا يعتمد على النظام الحرفي القديم ، والالات البسيطة جدا التي كانت تدار بالايدي أحيانا ، او بواسطة الحيوانات كالماشية والخيول في احيان أخرى ، وكان يقتصر بيع منتجات الصناعة المحلية هذه كليا تقريبا على الاستهلاك الداخلي (١٣٩) *

لم تكن الصناعات الحديثة تؤلف سوى نسبة ضئيلة من الانتاج المحلي ، نظرا لفضالة عدد منشأتها في العراق * فعلى سبيل المثال ، لم يكن في بغداد معامل تستخدم المكائن البخارية سوى معمل واحد للنسيج ، ومعمل واحد للثلج ، ومعمل واحد للطحين ، ومكبسين للصوف ، فاذا ما علمنا ان مدينة بغداد كانت مركزا صناعيا رئيسا للعراق كافة تبين لنا

مدى قلة استخدام الصناعة في العراق للالات الحديثة^(١٤٠) . اما البصرة فلم يكن فيها سوى مصنع واحد للثلج ، ومعمل طحين واحد^(١٤١) .

وتتحدث المعلومات المتعلقة بالتجارة الخارجية عن النمو المطرد لاستيراد البضائع الصناعية ، التي احتلت الاسواق الداخلية ، بخاصة الاقمشة والمنسوجات ، اما استيراد المكائن الحديثة فكان قليلا جدا خلال هذه الفترة ، خاصة بالنسبة للمؤسسات التي تنتج للسوق الداخلية . وليس عبثا ان يشير احد القناصل البريطانيين في العراق « أن ايصال ماكينة نسيج يدوية واحدة يعتبر حادثا يستحق الاهتمام البالغ في تلك الفترة »^(١٤٢) .

انواع الصناعات العراقية وتليتها للحاجة المحلية

كانت صناعة الغزل والنسيج ، بانواعها المختلفة ، تمثل اهم الصناعات القائمة في المدن العراقية ، ولكنها ظلت صناعة حرفية بالدرجة الاولى ، تعتمد في انتاجها على الات اليدوية البسيطة كالدوايب والجوم .

فمنذ بداية القرن السابع عشر ، حيث زار تكسيرا بغداد عام ١٦٠٤ ، كانت هناك صناعة واسعة للاقمشة ، معتمدة على عدد كبير من الانوال وهنا يقول : « ان البلاد تنتج الكثير من القطن والحرير ، وكانت هذه المنتجات تغزل كلها فتستخدم في الصناعة المحلية ببغداد ، التي كان يوجد فيها مايزيد على اربعة الاف نول لحياكة الاقمشة الصوفية والقطنية والحريرية ومنسوجات الكتان ، وجميع هذه الانوال كانت دائبة في شغلها وغير عاطلة عن العمل »^(١٤٣) . وقد ظلت صناعة النسيج القطني والحرير تحتفظ بنشاطها قبل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، بحيث قدر القنصل البريطاني العام في البصرة ، عدد العاملين في هذا المجال ببغداد عام ١٨٦٦ بـ (٣٥٠٠) حائك نول^(١٤٤) . وفضلا عن دور صناعة النسيج المشار اليها آتفا ، فقد وجد ببغداد معمل حديث للنسيج يعرف بالعبخانة - اي معمل الانسجة) ، وكان تحت اشراف السلطات العثمانية الحاكمة في العراق^(١٤٥) .

اشتمل اهم منتجات صناعة النسيج في بغداد على الشرشف والازارات، التي كانت تصنع من الحرير او القطن وتطرز بالخيوط الذهبية او الفضية ، والكوفيات (جمع كوفية وتستخدم للعمائم) الملونة بالالوان الزاهية التي تعد من اهم الصناعات البغدادية ، وهذه كانت تصنع من الحرير او القطن وتطرز بخيوط الذهب والفضة ، والعباءات - النسائية والرجالية - التي كانت تصنع من الصوف ، او الحرير وتطرز بخيوط الذهب أو الفضة (١٤٦) . وكذلك الازارات - وهي كالعباءة للنساء ، منسوجة من حرير ومزينة بخيوط الذهب ، او من حرير وقطن ، وربما من قطن فقط (١٤٧) . كما كان يتم انتاج انواع من الاقمشة ، كالقماش المعروف بـ (أغاباني) ، الذي كانت تصنع منه الاقمشة الصيفية الخفيفة وتطرز به العباءات (١٤٨) ، والقماش المسمى (اللنكات) وهو قماش قطني مخطط ، وكذلك قماش (الالجات) ، وهو نوع اخر من الاقمشة القطنية ، وقماش (القطني) وكان يصنع من الحرير والصوف (١٤٩) .

أما بالنسبة لمعمل العبخانة ، الذي يعرف احيانا (بالاعمال العسكرية) فقد كان يصنع فيه الجوخ والخام ، والملابس الحريرية ، والصوفية والقطنية وغير ذلك (١٥٠) .

اما بالنسبة لصناعة النسيج في الموصل فقد كانت تمارس على نطاق واسع في هذه المدينة ، وتختص بصناعة الاقمشة القطنية . وكان الرحالة ايفز الذي زار الموصل عام ١٧٥٨ قد اشاد بصناعة النسيج الموصلية (الموسلين) واثنى على جودة مصنوعات (١٥١) . كما اشار الرحالة نيبور عام ١٧٦٦ الى وجود « مصانع كثيرة للنسيج والحياكة وطباعة النقوش على المنسوجات » (١٥٢) . وتتمثل صناعة النسيج بالمنسوجات على اختلاف انواعها ، الحريرية والقطنية والصوفية ، والكوفيات والعباءات والخام والبسط ، والسجاد - سجاد الحرير الذي كان يطرز بالازهار وهو اكثر متانة

وجوده من المصنوعات الاوربية - على حد قول الرحالة البريطاني جاكسون (١٨٣) *

وفيما يتعلق بصناعة النسيج في البصرة فلم تكن على غرار بغداد والموصل ، اذ يقول خورشيد افندي في ذلك « لا ينتج في البصرة قماش يستحق الذكر اذ لا يوجد فيها الا عدد من الحاكة الذين ينسجون القماش القطني والصوفي » (١٨٤) *

ومن الصناعات الاكثر شيوعا في المدن العراقية الصناعات الجلدية ، وهي تقوم على المنتجات الجلدية ، وعلى صناعة دبغ الجلود * وهاتين الصناعتين هما من الصناعات الحرفية القديمة ، اما منتجاتها فقد تألفت من السروج والاحزمة والاحذية والنصول والبرادع (١٨٥) *

ومن الصناعات الاكثر رسوخا في مدينة بغداد وضواحيها صناعة دبغة الجلود ، اذ وجد فيها اضافة الى المعمل المعروف بـ (الدبخانة عدد كبير من محلات الدبغة ، لاسيما في منطقتي المعظم والكاظمية * وقدر لوريير عدد محلات الدبغة في المعظم في سنة ١٩٠٨ بـ (٤٠) معملا وضمن انتاجها بـ (٥٠٠٠) جلد اسبوعيا (١٨٦) * كما وجدت صناعات جلدية في كل من الموصل والبصرة ، وكانت تتألف من الاحزمة والاحذية على اختلاف أنواعها (١٨٧) *

اما الصناعات الانشائية ، المتمثلة بالطابوق والكاشي ، فقد بدأت الصناعة فيهما في سبعينات القرن التاسع عشر ، وغدت بغداد واحدة من اهم مراكز صناعتها * اذ بلغ عدد معامل الطابوق فيها في اواخر ثمانينات القرن المذكور (٢٥) معملا (١٨٨) *

اما بالنسبة للصناعات المعدنية والفخارية ، فقد كانت منتشرة في غالبية المدن العراقية * اذ ازدهرت بغداد بصناعة الاواني النحاسية ، وتألفت

تلك المصنوعات من الاواني التي تستخدم في اعداد القهوة كالفلايات واواني القهوة والاطباق النحاسية الكبيرة^(١٥٩) . كما كانت هذه الانواع من الصناعة منتشرة في الموصل ، حيث كانت تنتج فيها الاواني النحاسية المختلفة: كالقدور ، والصواني وأوعية الماء واواني القهوة ، اضافة الى الاواني البرونزية كالشمعدانات ، واكواب الماء والمواقد وغيرها^(١٦٠) .

وفيما يخص الصناعات الفخارية في العراق ، فقد كانت بغداد واحدة من المراكز التي ازدهرت فيها هذه الصناعة ، اذ ان عدد المعامل التي قامت بصناعة الفخاريات في مدينة بغداد (١٣) معسلا^(١٦١) . اما المراكز الاخرى التي وجدت فيها هذه الصناعة فهي مدينة البصرة . اما اهم المنتجات الفخارية فكانت تتألف من الجرار والاباريق والحباب^(١٦٢) .

وهناك بعض الصناعات الزجاجية التي تركزت في بغداد والبصرة ، اذ وجد معملان للزجاج في كل من بغداد والبصرة ، وقد اقتصرت بصناعة الادوات الزجاجية المختلفة والقناديل^(١٦٣) .

وعرفت صناعة الثلج في بغداد والبصرة منذ عام ١٨٨١ ، حيث تأسس معمل للثلج في كل منهما^(١٦٤) .

ومن الصناعات الاخرى التي اشتملت عليها الصناعات العراقية صناعة الصابون ، واشتهرت مدينة بغداد بهذه الصناعة اذ ضمت معسلا واحدا^(١٦٥) . ويوجد الى جانب الصناعات المذكورة صناعات اخرى اقل اهمية كصناعة الحلويات والدبس ، والحصر ، والسلال وغيرها .

ومن الملاحظ على الصناعة العراقية بصورة عامة انها كانت صناعة قديمة ويدوية يعود تأريخها الى العصر العباسي ، وان معظمها كان يزاول في الحوايت او في البيوت ، كما أن اثمان منتجاتها كانت مرتفعة بالقياس الى اثمان المنتجات المستوردة ، مما مكن الاخيرة من أن تجتذب جمهور

المستهلكين إليها ، وادى هذا بدوره الى كساد المصنوعات المحلية »
وانخفاض كمية التاجها (١٦٦) .

ظلت معظم الصناعات اليدوية في العراق حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وخاصة صناعة النسيج المحلية ، تضمن الجانب الاكبر من حاجة الاسواق المحلية . وعلى الرغم من ان بعض السلع ذات النوعية الخاصة كانت تستورد من أوروبا او من الاقطار المجاورة ، فان المنتجات اليدوية العراقية كانت تصدر الى بعض دول الشرق الاوسط ، وبخاصة ايران (١٦٧) .

ففي بغداد مثلا ، وجد اوليفيه الذي زار المدينة عام ١٨٠٠ أن العديد من انواع الاقمشة القطنية التي تلبي حاجات الطبقات الفقيرة حيث يقول : « أن هناك صناعة الاقمشة الحريرية والقطنية فقط والخاصة باستعمال العرب . بالاضافة الى القيام بانتاج الاقمشة القطنية النفيسة والمطبوعة باشكال مختلفة غير لماعة لاستعمال النساء والاولاد والناس المنسوين للطبقة الفقيرة . فضلا عن ذلك فهناك الصناعة القطنية وصناعة الزوالي والمخل للوسائد والدواوين وترسل الى مناطق مختلفة ، كالموصل وحلب والشام وبكميات كبيرة » (١٦٨) .

وعلى أية حال ، فان صناعة المنسوجات في بغداد ، قد سدت حاجة الاسواق المحلية كافة قبل تأثرها بحركة المنافسة مع السلع الاجنبية المستوردة في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، بل ان بعض هذه الصناعات ، كالكوفيات مثلا ، كانت قد امتازت بالجودة والمتانة . وهي على حد تعبير لوريمر - اكثر متانة من مثيلاتها التي تصنع في مانشستر (١٦٩) .

كان للموصل أيضا شهرة في صناعة المنسوجات المختلفة ، حيث كانت تؤمن احتياجات المدينة كافة ، ويصدر منها كل سنة مقدار كبير الى سائر الجهات ، الا ان انتشار المصنوعات الاوربية جعلها عاجزة عن منافستها ، فانحطت الصناعة فيها (١٧٠) .

اما بالنسبة للصناعات الجلدية فقد كانت حتى منتصف القرن التاسع عشر كافية لسد احتياجات السوق المحلية في داخل المدن الرئيسية وفي خارجها . ففي بغداد مثلا ، كانت تصنع الاحذية الجلدية الحمراء والصفراء التي يلبسها العرب وسكان بغداد من الطبقات المحافظة . كما يصنع البابوج ونوع اخر من الاحذية النسائية المسمى « المشط » ، وهو حذاء أصفر طويل قلبسه النساء المسلمات المسنات (١٧١) . لكن الذي يبدو ان المنتجات الجلدية لم تكن جيدة الصنع بوجه عام (١٧٢) .

ولما كانت الصناعات الانشائية (كالطابوق والكاشي) قد بدأت في وقت متأخر من القرن التاسع عشر ، لذلك فان انتاجها انذاك كان يعجز عن سد الحاجة المحلية (١٧٣) .

وبالنسبة للصناعات المعدنية والاولاني المنزلية ، فقد كان التاج بغداد والمدن الاخرى ، يسد الحاجة المحلية (١٧٤) . ولكن التدهور اصاب صناعة الاولاني النحاسية في العراق في اواخر القرن التاسع عشر ، نتيجة لمنافسة الاولاني المعدنية المطلية بالمينا التي كانت تستورد من النمسا (١٧٥) .

الصناعات العراقية والعوامل المؤثرة فيها

ظلت الصناعات العراقية ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، بعيدة عن المنافسة الاجنبية . ولكن منذ منتصف القرن المذكور ، بدأت المنتجات الوطنية تتأثر باستيراد مواد احسن وأرخص منها من اوربا لاسيما مصنوعات المكائن الحديثة (١٧٦) .

الا أنه منذ افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ فقد دخلت الصناعة العراقية مرحلة جديدة تميزت بتدهور الانتاج وانحلاله ، وذلك بسبب زيادة منافسة المنتجات المستوردة للمنتجات الوطنية ، مما جعل الصناعات اليدوية المحلية تتدهور باستمرار . لقد امتازت المنتجات الاجنبية المعتمدة على

المكائن بانخفاض أثمانها ، في حين كانت المنتوجات الوطنية تتميز بارتفاع أثمانها ، نظرا لان الاولى تعتمد على الانتاج الآلي الكبير فيا كانت الاخيرة تعتمد على الانتاج اليدوي المحدود ، بحيث لم يترك لها فرصة المنافسة (١٧٧) .

وتضافرت عوامل أخرى دون قيام صناعة حديثة في العراق منها : قلة رؤوس الاموال المستخدمة ، فعلى الرغم من الارباح الكبيرة التي كان قد حصل عليها العراق من تجارته الخارجية ، الا أن هذه الارباح لم تستثمر في الصناعة ، أذ انها تركت بأيدي أصحاب الاراضي وكبار التجار . وفي حين عزف أصحاب الاراضي عن استثمار أموالهم في الصناعة لعدم اكترائهم بها ، فقد استثمر كبار التجار أرباحهم ثانية في التجارة ، فيما لم تكن أرباح صغار التجار تكفي لتأسيس صناعة حديثة (١٧٨) كما أن كثيرا من معامل اعداد الصادرات ، وهي أول المؤسسات الصناعية الآلية التي قامت في العراق في نهاية القرن التاسع عشر ، واستخدمت فيها الاجهزة الميكانيكية بنطاق واسع ، قد انشأت لتلائم السوق العالمي بدلا من ملاءمتها للسوق المحلي الضيق (١٧٩) . اما استيراد المكائن والخامات نصف المصنوعة ، التي يحتاج اليها الحرفيون لانتاج البضائع التي يكثر الطلب عليها محليا ، خاصة منها الغزل والاصباغ (النيل) ، فقد كانت قليلة جدا خلال هذه الفترة (١٨٠) .

ولعل من أبرز الامثلة التي نسوقها في هذا المجال على تأثر المصنوعات المحلية بالمصنوعات الآلية الرخيصة المستوردة هي صناعة النسيج . فمع انها كانت قد نجحت في البداية في مجابهة منافسة المنتوجات الاجنبية ، التي كان عليها أن تدفع تكاليف النقل ، وتتغلب على استمرارية واعتياد المستهلكين الذين كانوا قد تطبعوا على استهلاك المنتجات المحلية ، وخاصة بالنسبة للبضائع الحريرية ذات النوعية العالية ، الا أنها عجزت في النهاية عن منافسة المصنوعات الاجنبية . فعلى سبيل المثال ، ارتفعت واردات بغداد من المنسوجات والملبوسات في العقد الاخير من القرن التاسع عشر الى مايزيد

على نصف مليون دينار ، بعد ان كانت استيراداتها في منتصف ستينيات القرن نفسه تبلغ (٩٤٠٠٠ ر) ديناراً (١٨١) . يقول كوتلوف في ذلك : « لقد عملت الصناعات الاوربية الرخيصة ، على قتل الانتاج المحلي للاقمشة بصورة تدريجية . حيث ازدادت وتأثر اضمحلالها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . بل ان ما اعتاد الناس على استعماله من الاقمشة المحلية الملونة ، استبدل به الاقمشة الاجنبية البيضاء ، وأصبحت المصنوعات المحلية ، اقل استعمالاً من الشيت الاجنبي الجاهز » (١٨٢)

وترتب على تدفق المنسوجات الاجنبية على العراق ونجاحها في منافسة صناعة النسيج المحلية ، أن انخفض عدد دور صناعة النسيج في العراق انخفاضاً شديداً . فعلى سبيل المثال ، اصبح عدد هذه الدور في مدينة بغداد في مطلع القرن العشرين بضعة مئات ، بعد أن كان عددها في منتصف القرن التاسع عشر يناهز (١٢٠٠٠ ر) دار (١٨٣) .

وتحت ضغط المنافسة الاجنبية ، كان على صناعة النسيج اليدوية ، أما ان تتطور وأما أن تتلاشى تدريجياً . لذلك فقد بذلت الجهود ، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي ، لاستيراد الانوال اليدوية الاوربية لتحل محل الانوال المحلية الصنع ، خاصة بالنسبة للمنسوجات الحريرية . وتكللت الجهود بالنجاح في سنة ١٩٠٨ ، عندما تشكلت شركة صغيرة ببغداد لتشجيع وتطوير صناعة النسيج ، عن طريق استخدام الانوال الاوربية . وعلى الرغم من أن الشركة قد عملت بصورة جيدة اذاك ، الا أن نجاحها في هذا المضمار كان محدوداً جداً (١٨٤) .

وهكذا فشلت الجهود الرامية الى الحد من منافسة المصنوعات الاجنبية حتى الحرب العالمية الاولى ، وكانت النتيجة أن فقدت الصناعات العراقية المختلفة مركزها السابق ، باستثناء بعض الفروع القليلة منها ، خاصة تلك

التي تلبي الحاجات الخاصة بالسوق المحلية ، لانتاج الملابس الشعبية والاولائي وغيرها ، فضلا عن الاعمال الحرفية الدقيقة (١٨٥) .

التنظيمات الحرفية ودورها في الحياة الاقتصادية للمدن

كانت التنظيمات الحرفية هي الميزة الاساسية للمدن العربية الاسلامية في العصور الوسطى ، ويبدو أن هذه الصفة ظلت ملازمة لها حتى في القرون التي أعقبت انهيار الدولة العربية العباسية ، ولا أدل على ذلك من أن معظم فروع الصناعة - رغم تدهورها الشديد - والتي كانت تنتظمها مثل هذه التنظيمات قد ظلت قائمة في العهود التالية مثلما كانت موجودة في العهود السابقة .

كانت التنظيمات الحرفية هي تنظيمات مهنية ، وفي الوقت الذي لا نجد فيه اي اشارة الى هذه التنظيمات في القرن السادس عشر في العراق ، فإنها تصبح أكثر وضوحا في القرن التالي حتى يمكن القول أن معظم السكان قد أصبحوا ينتظمون في مثل هذه التنظيمات (١٨٦) . وربما يمكن الوصول الى هذه النتيجة اعتمادا على مذكره ولستيد الذي زار بغداد عام ١٨٣٠ في ان « لكل فرد حرفته المخصصة له ، فاما ان يكون من البقالين أو التجار ، او موظفا لدى الحكومة . ولا يتمتع الفرد بأي احترام ان لم يكن لديه عمل يمارسه » (١٨٧) . ويعزز هذا الرأي ما أورده أوليا جلبي الذي زار بغداد في منتصف القرن السابع عشر ، وقال حينئذ « حرفهم جميعا - أي أهل بغداد - جيدة ولا سيما صناعة السروج واصحابها يتمتعون بشهرة واسعة وان الصاغة والخياطين والحدادين وصناع السيوف لهم صيت ذائع وشهرتهم في صناعتهم أكثر ذيوعا من أهل هذه الحرف في ديار بكر . وفي بغداد أهل الحرف والصناعات في سوق السلطان » (١٨٨) . وازدادت اهمية التنظيمات الحرفية في العراق ابان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، باعتبارها تنظيمات اقتصادية - اجتماعية ذات أسس اخلاقية خاصة ، تحمي أصحاب كل حرفة

من التعدي ، وتضمن مستوى مقبولا للحرفة ، وتحدد اسعار منتجاتها ، وتنظم العلاقة بين الدولة وأرباب الحرف .

كانت المهن التي يشملها هذا النمط من التنظيم هي أرباب الصنائع والحرف من مختلف الاصناف ، والتجار من مختلف الانواع . ويجري التأكيد في الوقت الحاضر على التمييز بين طوائف الصناع وطوائف التجار ، بيد انه من الصعوبة بمكان التمييز بينهما حتى القرن التاسع عشر ، ذلك لان اصحاب الحرف مثلا يقومون ببيع ما ينتجونه في الاسواق ، وهنا يصعب التفريق بين أصحاب الحرف والتجار (١٨٩) .

وعلى أية حال ، فان ما يهنا هنا هو التأكيد على الدور الاقتصادي الذي قامت به كل هذه التنظيمات الحرفية في المدن ، سلبا او ايجابا ، اكثر من التأكيد على نوعية التنظيمات الشكلية القائمة حول كيفية اختيار الاعضاء والمراسيم الخاصة بذلك .

كان رؤساء الحرف - او مشايخهم - قبل كل شيء ، هم الواسطة لتنظيم العلاقة بين أصحاب الحرف والحكومة ، وهي في الغالب علاقة خاصة بالضرائب . ولم يقتصر امرهم على توزيع حصص الضرائب على الاعضاء ، بل انهم كانوا ايضا مسؤولين عن دفعها . وكذلك كان عليهم ان يقوموا بحفظ النظام بين أعضاء الحرف ورعاية مصالحهم والفصل في الخلافات او الخصومات فيما بينهم وحيانا اصدار الاحكام لمعاقبة المذنبين منهم (١٩٠) .

ومن جهة اخرى ، كانت الرقابة اليومية على معاملات الحرفيين ، الى جانب جباية الضرائب والرسوم ، في أيدي مفتش خاص يدعى «المحتسب» ، وهو موكل من قبل قاض المدينة بتدقيق الموازين ومراقبة الاسعار . بيد أن السجلات التي تتعلق بالعراق تخلو من الاشارة الى هذا المنصب ، وان كانت تشير الى الضريبة التي تجبى من الاسواق باسم « ضريبة احتساب » او « رسوم اسواق » (١٩١) .

ولما كان الاحتساب بطريقة الالتزام موجوداً منذ القرن السادس عشر، فمعنى هذا ان اصحاب الحرف المختلفة التي كانت تشير اليهم الوثائق العائدة لتلك الفترة بصورة مفصلة ، كانوا يدفعون انواعاً من الضرائب الحرفية الى الملتزمين ، وتعرف هذه الضرائب بالتمغة او الطمغة^(١٩٢) ويبدو انه لنفس الاسباب المالية والادارية المتعلقة بسهولة جمع الضرائب وفقاً لنظام الالتزام ، انتظم أصحاب الحرف في الموصل في القرن الثامن عشر تحت رئاسة شيخ يعرف باسم « شيخ الاصناف السبعة » ، الذي كان له دفتر خاص يبين فيه اوجه الاتفاق واسبابها ، والاشراف على سير الامور المالية للاصناف باسمها^(١٩٣) .

وكان من بين الوظائف الاقتصادية الاساسية التي تمارسها التنظيمات الحرفية قيامها باقرار اسعار عادلة بالاتفاق مع الحكومة التي تضع في كثير من الاحيان حداً أعلى للأسعار ، وفضلاً عن المحافظة على أسرار الحرفة وانتقالها ، والتجانس في انماط السلع المنتجة^(١٩٤) . وكان لكل نوع من أرباب الحرف قانون خاص يعرف بـ (الدستور) ، يتعلق بالامور المالية الخاصة بالصنف وبخاصة ما يتعلق بتحديد أجور الصناع ، وتقدير كمية الانتاج ، والضرائب المفروضة على الصنف ، وتكشف سجلات ولاية البصرة خلال القرن السادس عشر عن وجود عدد كبير من « دساتير العمل » هذه ، فكان هناك دستور للقصابين والدباغين والعطارين ولدلالي الاقمشة والعقاقير ولصبಾಗಿ الغزول^(١٩٥) .

شهدت المدن العراقية في اواخر القرن التاسع عشر تطورات عديدة ، أدت الى ضهور التنظيمات الحرفية ، وتقلص تأثيرها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية عامة . ذلك أن ازدياد حركة استيراد المنتجات الاجنبية الرخيصة ، التي نافست المنتجات المحلية على نحو خطير ، مما تسبب في انخفاض عدد ورش النسيج في بغداد من (١٢) الف ورشة في منتصف القرن.

التاسع عشر الى بضع مئات فقط في مطلع القرن العشرين . ومثل هذا ما حدث في البصرة والموصل ، حيث اختفت تقريبا بعض انواع الصناعات التي كانت قد اشتهرت بهما هاتان المدينتان .

وعلى هذا الاساس فقد شهد اوائل القرن العشرين قيام بعض أرباب الحرف باضرابات عامة مطالبين بزيادة أجورهم . وقد وقع الاضراب الاول في أواخر عام ١٩١٢ ، عندما اجتمع دباغو الاعظمية في إحدى الردهات مطالبين - فيما يبدو - بزيادة في الاجور ، وقد عدلوا عن الاضراب بعد ان زيدت اجورهم . وحدث الاضراب الثاني في السنة التالية ، وقد ترك الدباغون أعمالهم هذه المرة وطالبوا برفع اجورهم بمقدار ٢٥٪ « فاضطر أصحاب المعامل الى تحقيق رغبتهم ، فعادوا الى أشغالهم » (١٩٦) .

واذا ما علمنا ان هذا الاضراب لم يكن موجها ضد السلطة او من يمثلها وانما ضد رئيس الصنف ، فان ذلك يدل على ان حالة من التفجر اخذت تعمل على تدمير ما تبقى من التنظيمات الحرفية التقليدية ، تاركة المجال امام تنظيمات جديدة ، اكثر تمثيلا لظروف المرحلة التالية وحاجاتها ، لتحل محلها في قيادة حركة العمل في العراق الحديث (١٩٧) .

الهوامش

- (١) الدكتور جمال حمدان ، المدينة العربية (القاهرة ، مطبعة الجبلاوي ، ١٩٦٤) ص ٧٠ .
- (٢) رجب بركات ، نهر العشار : أصل نشوء مدينة البصرة الحديثة ، مجلة الخليج العربي (البصرة) ، المجلد السابع عشر ، العدد ٣ - ٤ (١٩٨٥) ص ١١٢ .
- (٣) خورشيد أفندي ، ولاية البصرة في كتاب سياحة تامه حدود ، ترجمة الدكتور نوري عبدالبخيت السامرائي ، مركز دراسات الخليج العربي - السلسلة الخاصة ٥٣ (١٩٨١) ص ٩ ، انظر أيضا جون باتيست تافرينيه ، العراق في القرن السابع عشر ، نقله الى العربية وعلق حواشيه بشير فرنسيس وكوركيس عواد. (مطبعة المعارف ، بغداد، ١٩٤٤) ص ٨٤ .
- (٤) فنشنسو ، رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر (١٦٥٦ - ٥٨) ترجمها من الايطالية وعلق عليها الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثالث (١٩٧٦) ص ٨٤ .
- (٥) André Raymond, The Great Arab cities in the 16th - 18th Centuries, New York University Press, New York, 1984) p. 23.
- (٦) ليونهارت راوولف ، بغداد في سنة ١٥٧٣ ، ترجمة وتقديم وتعليق سليم طه التكريتي ، المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثاني (١٩٧٦) ص ٧٧ .
- (٧) بروفنس ، رحلة باسيفيك ده بروفنس الى العراق عام ١٦٢٨ ، ترجمة الدكتور يوسف حبي ، المورد ، المجلد الرابع عشر ، العدد الاول (١٩٨٥) ص ٥٣ .
- (٨) جيمس بيلي فريزر ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، نقلها الى العربية جمفر الخياط (مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٤) ص ٩٠-٩١ .
- (٩) ل.ن. كوتلوف ، ثورة العشرين ، ترجمة الدكتور عبدالواحد كرم ، دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٧١ (ص ٧٩ .

- (١٠) سبستيانى ، رحلات سبستيانى الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها عن الإيطالية وعلق عليها الاب اندكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد التاسع ، العدد الثالث (١٩٨٠) ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ .
- (١١) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٧٣ .
- (١٢) سليمان فائق ، تاريخ بغداد ، نقله الى العربية موسى كاظم نورى (مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٢) ص ١٧٦ .
- (١٣) الزوراء، السنة التاسعة والثلاثون، العدد ٧٥٦، ١٧ محرم، ١٣٢٥ هـ .
- (١٤) كارستن نيبور ، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة سنة ١٧٦٥ ، ترجمة سعاد هادي العمري (مطبعة دار المعرفة : بغداد . ١٩٥٥) ص ١٠٧ ، سعاد هادي العمري ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة (مطبعة دار المعرفة : بغداد ، ١٩٥٤) ص ٥٦ .
- (١٥) تاريخ بغداد ، ص ٣٣ - ٣٤ .
- (١٦) نيبور ، مشاهدات ، ص ١٩ - ٢٠ .
- (١٧) لقد اورد القاضي احمد نورالدين الانصاري : النصره في اخبار البصرة ، تحقيق الدكتور يوسف عزالدين (مطبعة الشعب ، بغداد ، ط ١ ١٩٧٦) ص ٣٥ - ٣٨ كثيرا من الحالات التي تشير الى هجرة تجار البصرة ، مسميا فيها اسماء ، هؤلاء التجار والمناطق التي توجهوا اليها .
- (١٨) لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني (دار التقدم ، موسكو ، د.ت) ص ١٦٩ .
- (١٩) المصدر نفسه .
- (٢٠) فريزر ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .
- (٢١) نظمي زاده مرتضى افندي ، كلشن خلفا ، نقله الى العربية موسى كاظم نورى (مطبعة الاداب ، للنسج الاشرف ، ١٩٧١) ص ٢١٠ .
- (٢٢) بيدرو تكسيرا ، مشاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٦٠٤ ، لخصها عن الانكليزية جعفر الخياط ، مجلة الاقلام . الجزء الرابع ، السنة الاولى (كانون الاول ، ١٩٦٤) ص ١٤١ .
- (٢٣) نظمي زاده ، المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .
- (٢٤) روبير مانتريان ، بغداد في اثار المستشرقين الفرنسيين ، ترجمة الدكتور اكرم فاضل ، المورد ، العدد الرابع ، المجلد الثامن (١٩٧٩) ص ٤٨٠ .

- (٢٥) مانتران ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٢ .
- (٢٦) فريزر ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .
- (٢٧) نظمي زادة ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ .
- (٢٨) المصدر نفسه .
- (٢٩) خليل علي مراد ، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٠٤٨-١١٦٤هـ / ١٦٣٨-١٧٥٠م ، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة بغداد ، كلية الاداب (١٩٧٥) ص ٤٢٣ .
- (٣٠) ج . ج لوريمر ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، طبع بمطابع علي بن علي ، الدوحة ، قطر ، د . ت ، ج ٣ ص ١٠٦٢ .
- (٣١) تكسيرا ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .
- (٣٢) نيبور ، مشاهدات ، ص ٤٥ ، لوريمر ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٠٥٣ .
- (٣٣) يعقوب سركيس ، مباحث عراقية ، (شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ، ١٩٥٥) ج ٢ ص ٢٣٢ .
- (٣٤) يوسف رزق الله غنيمه ، تجارة العراق قديما وحديثا (مطبعة العراق ، بغداد ، ١٩٢٢) ص ١١١ - ١٢ .
- (٣٥) جيمس فيلكس جونز ، بغداد في سنة ١٨٥٣ ، ترجمة عبدالوهاب الامين ، المورد ، المجلد الثالث ، العدد الثاني (١٩٧٤) ص ٦٩ .
- (٣٦) الدكتور مظفر حسين جميل ، سياسة العراق التجارية (مطبعة النهضة ، القاهرة ، ١٩٤٩) ص ١٦ .
- (٣٧) اوليفيه ، الرحالة الفرنسي اوليفيه يصف بغداد عام ١٧٩١ ، تقديم وترجمة د. يوسف حبي ، المورد ، المجلد الحادي عشر ، العدد الرابع (١٩٨٢) ص ٢٢ .
- (٣٨) جيمس بكنفهام ، رحلتي الى العراق ، ترجمة سليم طه التكريتي (مطبعة اسعد ، بغداد ، ١٩٦٨) ج ١ ص ٢٠٦ .
- (٣٩) الزوراء ، السنة التاسعة ، العدد ٧٥٦ ، ٢٤ ربيع الآخر ١٢٩٥ ، نقلا عن جاسم محمد حسن ، العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الاداب ، ١٩٧٥ ، ص ٢٩٢ .
- (٤٠) مانتران ، المصدر السابق ، ص ٤٨٣ .
- (٤١) عباس المزاري ، تاريخ العراق بين احتلالين ، (شركة التجازة والطباعة المحدودة بغداد ، ١٩٥٥) ج ٧ ص ١٣٦ ، ١٥٣ - ١٥٤ .

- (٤٣) نابليون المارديتي ، تنزه العباد في مدينة بغداد (المطبعة اللبنانية ، بيروت ، ١٨٨٧) ، ص ٣٤ ، لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ١٧٣ .
- (٤٣) الزوراء ، السنة الرابعة ، العدد ٣٣١ ، ١٩ محرم ١٢٩٠ ، نقلا عن حسن ، العراق في العهد الحميري ، ص ٢٩١ .
- (٤٤) كارستن نيبور ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة من الألمانية الدكتور محمود حسين الامين (شركة دار الجمهورية للنشر والطبع ، بغداد ، ١٩٦٥) ص ٥٨ .
- (٤٥) جيمس ريموند ولستيد ، رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داود باشا ، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي (مكتبة النهضة العربية ، بغداد ، ١٩٨٤) ص ٨٥ .
- (٤٦) تكسيرا ، المصدر السابق ، ص ١٤١ .
- (٤٧) الدكتور عبدالرزاق عباس حسين ، نشأة المدن العراقية وتطورها (مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٧) ص ٦٠ .
- (٤٨) كليمان هيوار ، خطط بغداد ، عربيه وعلق عليه ناجي معروف (مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦١) ص ٣٤ .
- (٤٩) رحلة جون تايلر الى العراق سنة ١٧٨٩ - ١٧٩٠ ، ترجمة وتعليق الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الحادي عشر - العدد الاول (١٩٨٢) ص ٤٠ .
- (٥٠) امين بن حسن الحلواني المدني ، خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق ١١٨٨ - ١٢٤٢ هـ ، مختصر مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود للشبيخ عثمان بن سند البصري (القاهرة ، ١٣٧١) ص ٢ .
- (٥١) كاثلين ام . لانكلي ، تصنيع العراق ، ترجمة الدكتور محمد حامد الطائي والدكتور خطاب العاني ، مكتبة دار المثنى ، بغداد ، ١٩٦٣ (ص ٤٦ ، حسن ، العراق في العهد الحميري ، ٢٩٢ .
- (٥٢) انظر نص الخطاب في جريدة الزوراء ، العدد الاول ، المؤرخة في ٥ ربيع الاول سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م ، نقلا عن العزاوي ، تاريخ العراق بين اختلايين ، ج ٧ ص ١٦٣ - ٤ .
- (٥٣) الدكتور كمال مظفر احمد ، الطبقة العابلة العراقية (دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١ ص ٢٥) .
- (٥٤) داود افندي صليوا ، بغداد ، مجلة المقتطف ، السنة الخامسة ، الجزء الاول (حزيران ، ١٩٨٠) ص ١٥٠ ، لانكلي ، المصدر السابق ،

ص ١٦ ، ٤٦ . ولكن يبدو أن هذه الماكينة لم تصل الى بغداد نظراً
لاندلاع نيران الحرب الفرنسية الالمانية في عام ١٨٧٠ . لانكلي ،
المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٥٥) صليوا ، المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٥٦) الزوراء ، السنة الرابعة ، العدد ٣٢٦ ، ٢ محرم ١٢٩٠ ، نقلا عن حسن ،
العراق في العهد الحميدي ، ص ٢٣٢ .

(٥٧) الزوراء ، السنة الحادية والثلاثون ، العدد ١٨٢٣ ، ١١ ربيع الاول
١٣١٧ ، نقلا عن حسن ، المصدر السابق ، ص ٣٢٣ .

(٥٨) ديولافوا ، رحلة مدام ديولافوا الى كلداء - العراق سنة ١٨٨١ ، نقلها
الى العربية عن الفارسية علي البصري (بغداد ، ١٩٥٨) ص ١١٨ .

(٥٩) الزوراء ، السنة التاسعة والثلاثون ، العدد ٢١١٧ ، ١٧ محرم ١٣٢٥ ،
نقلا عن حسن ، المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

(٦٠) لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٦١) حسن ، المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

(٦٢) المصدر نفسه .

Raymond, op. cit, p. 23, 26, 28. (٦٣)

(٦٤) لوريمر ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٩ .

(٦٥) الدكتور زكي صالح ، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤ (مطبعة العاني ،
بغداد ، ١٩٦٨) ، ص ٦٢ ، العمري ، بغداد كما وصفها السواح
الاجانب ، ص ١٣ .

(٦٦) سليمان فائق ، تاريخ بغداد ، ص ١٧٦ .

(٦٧) لويسكي ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٦٨) محمد سلمان حسن ، التطور الاقتصادي في العراق (المكتبة العصرية ،
بيروت ، ١٩٦٥) ص ٢١٧ - ١٨ .

W.B. Harris, from Batum to Baghdad (Edinburg and London, n.d.), p. 298. (٦٩)

(٧٠) ولستيد ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٧١) لوريمر ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٩٢ .

(٧٢) رحلتي الى العراق ، ج ١ ص ٢٠٤ .

- (٧٣) بكنغهام ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٠٧ .
- (٧٤) لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .
- (٧٥) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، ص ٤١٠ .
- (٧٦) ينجهولت ، كما اوردها مير بصري في : تجارة العراق قبل تسعين عاما ، جريدة البلاد ، العدد ٤٨٧٢ ، ٣١ كانون الثاني ، ١٩٥٧ .
- (٧٧) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، ص ٢٦٢ .
- (٧٨) تكسيرا ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ .
- (٧٩) رحلة تافرنبيه الى العراق في القرن السابع عشر ، ص ٩٨ .
- (٨٠) تايلر ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .
- (٨١) نيبور ، مشاهدات ، ص ٢٢ - ٢٣ ، ٤٥ .
- (٨٢) المارديني ، المصدر السابق ، ص ٣٤ .
- (٨٣) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٩١ .
- (٨٤) نيبور ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ص ٤٥ .
- (٨٥) خورشيد افندي ، المصدر السابق ، ص ٦ .
- (٨٦) الدكتور شرف الدين بن عارف ، احوال البصرة الاجتماعية والاقتصادية في اواخر القرن التاسع عشر ، نقله الى العربية حسين علي الداوقي ، مجلة الاخاء العدد ٤ - ٥ ، السنة الثامنة (اب - ايلول، ١٩٦٨) ص ١ .
- (٨٧) الدكتور حسين محمد القهواتي ، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩ - ١٩١٤ (مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٨٠) ص ٣٨٠ .
- (٨٨) نيبور ، رحلة ، ص ١١٤ .
- (٨٩) بادجر ، الموصل حسب رحلة بادجر ، تعريب الاب لويس ساكو ، مجلة بين النهرين ، السنة الثالثة ، العددان التاسع والعاشر (١٩٧٥) ص ٦٥ .
- (٩٠) دومنيكو لانزا ، الموصل في القرن الثامن عشر ، عربها عن النص الايطالي القس روفائيل بيدويد (المطبعة الشرقية الحديثة ، الموصل ، ط ٢ ، ١٩٥٣) ص ١٦ .
- (٩١) اوليا جلبي ، مقتطفات من مشاهدات اوليا جلبي في بغداد ترجمة حسين علي الداوقي ، الاخاء ، العدد ٥ - ٦ ، السنة ١٢ ، ايلول - تشرين الاول (١٩٧٢) ص ٥ .

- (٩٢) صليوا ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ .
- (٩٣) انستاس الكرمل ، حالة بغداد التجارية والزراعية للسنة المالية ١٩٠٣ - ١٩٠٤ ، مجلة المشرق ، السنة الثامنة ، العدد ٦ ، ١٥ اذار سنة (١٩٠٥) ص ٢٤٢ .
- Raymond, op. cit, p. 36. (٩٤)
- (٩٥) د. خالص الاشعب ، أصالة المدينة العربية ، افاق عربية ، السنة الثالثة ، العدد الاول (ايلول ، ١٩٧٧) ص ٣٥ .
- (٩٦) د. هاشم خضير الجنابي ، المدينة الاسلامية وخصائصها ، مجلة التربية والتعليم (جامعة الموصل) . العدد ٢ (١٩٨٠) ص ٣٣٠ .
- (٩٧) انظر على سبيل المثال اوليفيه ، المصدر السابق ، ص ١٩ ، بكنفهام ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٦١ ، جون اشرف ، مشاهدات جون اشرف في العراق ، ترجمة جعفر خياط ، مجلة سومر ، المجلد ٢١ ، العدد ١ - ٢ (١٩٦٥) ص ١٠٢ .
- (٩٨) بكنفهام ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٨ ، ولستيد ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .
- (٩٩) الجنابي ، المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .
- Raymond, op.cit, p. 13. (١٠٠)
- (١٠١) فريزر ، المصدر السابق ، ص ٧٧ حاشية المترجم ، د. عماد عبدالسلام رؤوف ، المدينة العراقية في كتاب حضارة العراق (بغداد ، ١٩٨٥) ج ١٠ ص ١٨٣ .
- (١٠٢) عماد ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
- (١٠٣) ولاية البصرة من كتاب سياحة نامة حدود ، ص ٥ .
- Raymond, op. cit, p. 12, 38. (١٠٤)
- (١٠٥) فريزر ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .
- (١٠٦) من وصف مفصل لدكاكين بغداد انظر ، اوليفيه ، المصدر السابق ، ص ١٩ ، ولستيد ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .
- (١٠٧) اوليا جلبي ، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بغداد ، الاخاء العدد ٦ ، السنة الثانية (تشرين الاول ، ١٩٦٨) ص ١ .

- (١٠٨) لقد قدر ايف دكاكين بغداد في عام ١٧٧٩ ب (١٢) ألف دكان ، وهو عدد قد لا يكون دقيقا ، انظر د. مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة، دليل خارطة بغداد (بغداد ، ١٩٥٨) ص ٢١١ .
- (١٠٩) رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، ص ٧٨ .
- (١١٠) لوريمر ، دليل الخليج ، ج ١ ص ٢٥٢ ، كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٩٣ الكسندر آدموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي (مطبعة جامعة البصرة ، ١٩٨٢) ص ٤٠ .
- (١١١) بغداد في ١٨٥٣ ، المورد ، العدد الاول ، الجزء الثالث (١٩٧٤) ص ٣٤ .
- (١١٢) اوليفيه ، المصدر السابق ، ص ١٩ .
- (١١٣) ولستيد، المصدر السابق ، ص ٧٩، فريزر، المصدر السابق ، ص ٨٧ .
- (١١٤) المصدران انفسهما .
- (١١٥) اشر ، المصدر السابق ، ص ٩٣ .
- (١١٦) جاكسون ، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧ ، تعريب سليم طه التكريتي (بغداد . د . ت) ص ٣٠ ، اداموف، المصدر السابق ، ص ٤٠ .
- (١١٧) جاكسون ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .
- (١١٨) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .
- (١١٩) رحلة الاب فنشنسو الى العراق ، ص ١٩٦ .
- (١٢٠) هاملتون جب - هارولد بوون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة الدكتور احمد عبدالرحيم مصطفى (دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧١) ج ٢ ص ١٢٩ .
- (١٢١) مشاهدات تكسيرا ، ص ١٤٤ .
- (١٢٢) سركيس ، المصدر السابق ، « مادة تعريفية الاحتساب في بغداد سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م » ، ق ٢ ص ٢٤٣ .
- (١٢٣) غنيمة ، المصدر السابق، ص ٧٤ ، بن عارف، المصدر السابق ، ص ٢ .
- (١٢٤) ولاية البصرة من كتاب سياحتنا مة حدود ، ص ٦ - ٧ .
- (١٢٥) اشر ، المصدر السابق ، ص ١١٤ - ١٥ .
- (١٢٦) غنيمة ، المصدر السابق ، ص ١١٠ - ١١١ .

- (١٢٧) اداموف ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .
- (١٢٨) Raymond, op.cit, p. 44.
- (١٢٩) مشاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٦٠٤ ، ص ١٤٤ .
- (١٣٠) مشاهدات اوليا جلبي ، ص ١ .
- (١٣١) رحلة ينبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ص ٤٤ .
- (١٣٢) المصدر نفسه ، ص ١١١ .
- (١٣٣) نيبور ، مشاهدات ، ص ١٠٧ ، بكنفهام ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٨ ، كيبوم لجان ، رحلة لجان الى العراق عام ١٨٦٦ ، ترجمها من الفرنسية وعلق عليها الآب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الثاني عشر ، العدد الثالث (١٩٨٣) ص ٦١ .
- (١٣٤) لمزيد من التفاصيل عن هذه الخانات انظر : بكنفهام ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٥ ، نيبور ، مشاهدات ، ص ١٠٧ .
- (١٣٥) هاشم خضير الجنابي ، التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة : دراسة في جغرافية المدن (مطابع مديرية دار الطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٩٨٢) ص ١٨ .
- (١٣٦) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .
- (١٣٧) فيصل محمد الازحيم ، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨ - ١٩١٤ ، (مطابع الجمهور ، الموصل ، ١٩٧٥) ص ١٧٣ - ٤ .
- (١٣٨) بغداد سالنامه سي ، ١٣٢٥ ، ص ١٩٧ .
- (١٣٩) اداموف ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، انظر ايضا
- Charles Issawi, The Economic history of the Middle East, 1800. 1914 (chicago, 1966), p. 181.
- (١٤٠) لوريمر ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٦٣ .
- (١٤١) لوريمر ، المصدر نفسه .
- (١٤٢) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .
- (١٤١) مشاهدات تكسيرا ، ص ١٤٥ .
- (١٤٣) مشاهدات تكسيرا ، ص ١٤٥ .
- (١٤٤) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ص ٢ ، لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

- (١٤٥) المارديني ، المصدر السابق ص ٣٥ - ٦ .
- (١٤٦) المارديني، المصدر نفسه، ص ٣٦، اشر، المصدر السابق، ص ١٠٢ .
- (١٤٧) المصدران السابقان انفسهما .
- (١٤٨) لوريمر - المصدر السابق - ج ٣ ص ٩٩٣ .
- (١٤٩) لوريمر ، المصدر نفسه ، المارديني ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .
- (١٥٠) المارديني ، المصدر نفسه ، صليوا ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ .
- (١٥١) Edward Ives, Avoyage From England to India in the years 1758-1759 (London, 1773) p. 324.
- (١٥٢) ينبور ، رحلة ، ص ١١٤ .
- (١٥٣) جاكسون ، مشاهدات بريطاني من العراق سنة ١٧٩٧ ، ص ١٠٥ .
- (١٥٤) ولاية البصرة من كتاب سياحتنا مه حدود ، ص ٦ .
- (١٥٥) المارديني ، المصدر السابق ، ص ٣٧
- S.H. Longrigg, Iraq 1900 to : 1950 (oxford University press, London, 1953), p. 28.
- (١٥٦) لوريمر ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٩٣ .
- (١٥٧) اداموف ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ .
- Longrigg, op. cit, pp. 27-8. (١٥٨)
- (١٥٩) لوريمر ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٩٤ .
- (١٦٠) موصل ولايتي سائتامة سي ، ١٣١٠ ، ص ١٣٥ ، نقلا عن حسن ، العراق في العهد الحميدي ، ص ٣٣٨ .
- (١٦١) لوريمر المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٢ .
- (١٦٢) صليوا، المصدر السابق، ص ١٥٠، المارديني، المصدر السابق، ص ٣٥ .
- (١٦٣) المارديني ، المصدر نفسه ، بن عارف ، المصدر السابق ، ص ٢ .
- (١٦٤) لوريمر ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٣ .
- (١٦٥) المصدر نفسه .
- (١٦٦) حسن ، العراق في العهد الحميدي ، ص ٣٤٧ .
- (١٦٧) حسين ، التطور الاقتصادي في انراق ، ص ٣٨١ ، لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

- (١٦٨) اوليفيه ، نقلا عن العمري ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب، ص ٣٨ .
- (١٦٩) لوريير ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٩٣ .
- (١٧٠) موصل ولايتي سالنامه سي ، ١٣٣٠/١٩١٢ ، ص ٨٩ ، لانزا ، المصدر السابق ، ص ١٦ .
- (١٧١) لوريير ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٩٤ .
- (١٧٢) Longrigg, op. cit, p. 28.
- (١٧٣) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، ص ٣٠٣ .
- (١٧٤) Longrigg, op. cit, p. 27.
- (١٧٥) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٨١ .
- (١٧٦) بادجر ، المصدر السابق ، ص ٦٥ .
- (١٧٧) اداموف ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ .
- (١٧٨) لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٣٥ - ٦ .
- (١٧٩) المصدر نفسه ، ص ٣٤ ، كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .
- (١٨٠) كوتلوف ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .
- (١٨١) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، ص ٢٨٢ .
- (١٨٢) ثورة العشرين ، ص ٨١ .
- (١٨٣) كوتلوف ، المصدر نفسه ، ص ٨١ .
- (١٨٤) لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .
- (١٨٥) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .
- (١٨٦) Gabriel Baer, The administrative, economic and Social Functions of Turkish Guids, Int. J. Middle East. Stud, I (1970), p. 29.
- (١٨٧) رحلتي الى بغداد ، ص ٩١ .
- (١٨٨) مقتطفات ، ص ٥ .
- (١٨٩) Baer, op. cit, p. 31.
- (١٩٠) جب وبون ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٤ ، انظر ايضا الدكتور محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ - ١٩١٤ ، مطبعة الانجلو المصرية ، القاهرة ، (د . ت) ص ١٤٩ .

(١٩١١) د. رفعت علي أبو الحاج ، الانتاج والتجارة والضرائب في ولاية البصرة خلال القرن السادس عشر طبقا ماجاء في قانون الولاية ، مجلة البحوث التاريخية الليبية ، السنة الخامسة ، العدد الثاني (يوليو ١٩٨٣) ٣٠٥ ، ٣٠٨ .

(١٩٢) أبو الحاج ، المصدر نفسه ، ص ٣٠٥ .

(١٩٣) أمين العمري ، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحلباء حقه ونشره سعيد الديوهجي (مطبعة الجمهورية ، الموصل ، ١٩٦٧) ج ١ ص ١٤٢ - ٣ ، انظر ايضا د. عماد عبدالسلام رؤوف ، الملامح الاجتماعية لنظام الاصناف في العراق ابان العهد العثماني ، المجلة التاريخية المغربية ، السنة الثانية عشر ، العدد ٣٩ - ٤٠ (ديسمبر ، ١٩٨٥) ، ص ٤٥٢ - ٤٥٥ .

(١٩٤) ز . ي . هرشلاغ ، مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، نقله الى العربية مصطفى الحسيني (دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٣) ص ٣٠ .

(١٩٥) عماد ، الملامح الاجتماعية ، ص ٤٥٣ ، أبو الحاج ، المصدر السابق ، ص ٣٠٧ .

(١٩٦) لغة العرب ، كانون الثاني ١٩١٤ ، ص ٣٩١ - ٢ ، نقلا عن كمال مظهر أحمد ، الطبقة العاملة العراقية ، ص ٣٤ .

(١٩٧) عماد ، الملامح الاجتماعية ، ص ٤٦٠ .

مصادر البحث

١ - المصادر العربية

- اداموف ، الكسندر ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي (مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٢) .
- أبو الحاج ، د. رفعت علي ، الانتاج والتجارة والضرائب في ولاية البصرة خلال القرن السادس عشر طبقا لما جاء في قانون الولاية ، مجلة البحوث التاريخية الليبية ، السنة الخامسة ، العدد الثاني (يوليو ، ١٩٨٣) .
- أحمد، كمال مظهر، الطبقة العاملة العراقية (دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١) .
- الأرحيم ، فيصل محمد ، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨ - ١٩١٤ (مطابع الجمهور ، الموصل ، ١٩٧٥) .
- أشر ، جون ، مشاهدات جون أشر في العراق ، ترجمة جعفر خياط ، مجلة سومر ، المجلد ٢١ ، العدد ١ - ٢ (١٩٦٥) .
- الاشعب د. خالص ، أصالة المدينة العربية ، افاق عربية ، السنة الثالثة ، العدد الاول (ايلول ١٩٧٧) .
- الانصاري ، القاضي أحمد نور الدين ، النصر في اخبار البصرة ، تحقيق الدكتور يوسف عز الدين (مطبعة الشعب ، بغداد ، ١٩٧٦) .
- أنيس ، محمد ، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ - ١٩١٤ (مطبعة الانجلو المصرية ، د.ت) .
- أوليا جلبي ، مشاهدات أوليا جلبي في بغداد ، ترجمة حسين علي الداوقلي ، الإخاء ، العدد ٥ - ٦ ، السنة ١٢ (أيلول - تشرين الاول ، ١٩٧٢) .
- أوليفيه ، الرحالة الفرنسي أوليفيه يصف بغداد عام ١٧٩١ ، تقديم وترجمة د. يوسف حبي ، المورد ، المجلد الحادي عشر ، العدد الرابع (١٩٨٢) .
- بن عارف ، الدكتور شرف الدين ، احوال البصرة الاجتماعية والاقتصادية في أواخر القرن التاسع عشر ، نقله الى العربية حسين علي الداوقلي ،

- بادجر - الموصل حسب رحلة بادجر ، تعريب الاب لويس ساكو ، مجلة بين النهرين ، السنة الثالثة ، العددان التاسع والعاشر ١٩٧٥ .
الاخاء ، العدد ٤ - ٥ ، السنة الثامنة (اب - ايلول ، ١٩٦٨) .
- بركات ، رجب ، نهر العشار : اصل نشوء مدينة البصرة الحديثة مجلة الخليج العربي (البصرة) . المجلد السابع عشر ، العدد ٣-٤ (١٩٨٥) .
بروفنس ، رحلة باسيفيك ده بروفنس الى العراق سنة ١٦٢٨ ، ترجمة الدكتور يوسف حبي ، المورد ، المجلد الرابع عشر ، العدد الاول (١٩٨٥) .
بكنفهام ، جمس ، رحلتي الى العراق ، ترجمة سليم طه التكريتي (مطبعة أسعد ، بغداد ، ١٩٦٨) . الجزء الاول .
- تايلر ، جون ، رحلة جون تايلر الى العراق سنة ١٧٨٩-١٧٩٠ ، ترجمة وتعليق الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الحادي عشر ، العدد الاول (١٩٨٢) .
- تكسيرا ، بيدرو ، مشاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٦٠٤ ، لخصها عن الانكليزية جعفر الخياط ، مجلة الاقلام ، الجزء الرابع ، السنة الاولى (كانون الاول ، ١٩٦٤) .
- جاكسون ، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧ ، تعريب سليم طه التكريتي (بغداد . د . ت) .
- جب ، هاملتون ، وبوون ، هارولد ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة الدكتور احمد عبدالرحيم مصطفى (دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧١) جزءان .
- جميل ، د. مظفر حسين ، سياسة العراق التجارية (مطبعة النهضة ، القاهرة ، ١٩٤٩) .
- الجنابي ، د. هاشم خضير ، التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة (مطابع مديرية دار الطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٩٨٢) .
- الجنابي ، د. هاشم خضير ، المدينة الاسلامية وخصائصها ، مجلة التربية والتعليم (جامعة الموصل) ، العدد ٢ (١٩٨٠) .
- جونز ، جيمس فيلكس ، بغداد في سنة ١٨٥٣ ، ترجمة عبدالوهاب الامين ، المورد المجلد الثالث ، العدد الثاني (١٩٧٤) .
- حسين ، الدكتور عبدالرزاق عباس ، نشأة المدن العراقية وتطورها (مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٦١) .
- حسن ، جاسم محمد ، العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ، بغداد ، ١٩٧٥ .

حسن ، محمد سليمان ، التطور الاقتصادي في العراق (المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٥) .

حمدان ، الدكتور جمال ، المدينة العربية (مطبعة الجبلاوي، القاهرة، ١٩٦٤) .
خورشيد افندي ، ولاية البصرة من كتاب سياحة نامة حدود ، ترجمة
الدكتور نوري عبدالبخيت السامرائي ، مركز دراسات الخليج
العربي ، البصرة ، السلسلة الخاصة (١٩٨١) .

مراوولف ، ليونهارت ، بغداد في سنة ١٥٧٣ ، ترجمة وتقديم وتعليق سليم
طه التكريتي ، المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثاني (١٩٧٦) .

درووف ، د. عماد عبدالسلام ، المدينة العراقية ، كتاب حضارة العراق
(بغداد ، ١٩٨٥) الجزء العاشر .

درووف ، د. عماد عبدالسلام ، الملامح الاجتماعية لنظام الاصناف في العراق
ابان العهد العثماني ، المجلة التاريخية المغربية ، السنة الثانية عشر ،
العدد ٣٩ - ٤٠ (ديسمبر ١٩٨٥) .

سبستيانى ، رحلات سبستيانى الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها
عن الايطالية وعلق عليها الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد
التاسع ، العدد الثالث (١٩٨٠) .

سركيس ، يعقوب ، مباحث عراقية (شركة التجارة والطباعة المحدودة ،
بغداد ، ١٩٥٥) ق ٢ .

صليوا ، داود افندي ، بغداد ، مجلة المقتطف ، السنة الخامسة ، العدد
الاول (حزيران ، ١٩٨٠) .

العزاوي ، عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين (شركة التجارة والطباعة
المحدودة ، بغداد ، ١٩٥٥) .

العمري ، امين ، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحذباء،
حققه ونشره سعيد الديوهجي (مطبعة الجمهورية ، الموصل ،
١٩٦٧) الجزء الاول .

العمري ، سعاد ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة
الاخيرة (مطبعة دار المعرفة ، بغداد ، ١٩٥٤) .

غنيمة ، يوسف رزق الله ، تجارة العراق قديما وحديثا (مطبعة العراق ،
بغداد ، ١٩٢٢) .

غائق ، سليمان ، تاريخ بغداد ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس (مطبعة
المعارف ، بغداد ، ١٩٦٢) .

- فريزر ، جيمس بيلي ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، نقلها الى العربية جعفر الخياط (مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٤) .
- فنشنسو ، رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها عن الايطالية وعلق عليها الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثالث (١٩٧٦) .
- القهبائي ، الدكتور حسين محمد ، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩ - ١٩١٤ ، (مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٨٠) .
- الكرملي ، انستاس ، حالة بغداد التجارية والزراعية للسنة المالية ١٩٠٣ - ١٩٠٤ ، مجلة المشرق ، السنة الثامنة ، العدد ٦ (اذار ١٩٠٥) .
- لانزا ، دومنيكو ، الموصل في القرن الثامن عشر ، عربها عن النص الايطالي القس روفائيل بيدويد (المطبعة الشرقية الحديثة ، الموصل ، ط ٢ ، ١٩٥٣) .
- لانكلي ، كاتلين ام ، تصنيع العراق ، ترجمة الدكتور محمد حامد الطائي والدكتور خطاب العاني ، مكتبة دار المثنى ، بغداد ، ١٩٦٣) .
- كوتلوف ، ل . ن . م ، ثورة العشرين ، ترجمة الدكتور اكرم فاضل (دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٧١) .
- لجان ، كيبوم ، رحلة لجان الى العراق عام ١٨٦٦ ، ترجمها عن الفرنسية وعلق عليها الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الثاني عشر ، العدد الثالث (١٩٨٣) .
- لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديثة ، ترجمة الدكتور عفيفة البستاني (دار التقدم ، موسكو ، د . ت) .
- لوريمر ، ج . ج ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، طبع بمطابع علي بن علي . (الدوحة ، قطر ، د . ت) .
- المارديني ، نابليون ، تنزه العباد في مدينة بغداد (المطبعة اللبنانية بيروت ١٨٨٧ ، المدني ، امين بن حسن الحلواني ، خمسة وخمسة عاما من تاريخ العراق ١١٨٨ - ١٢٤٢ هـ ، مختصر مطالع السمود بطيب اخبار الوالي داود للشيوخ عثمان بن سند البصري (القاهرة ، ١٣٧١) .
- مانتران ، روبر ، بغداد في اثار المستشرقين الفرنسيين ، ترجمة الدكتور اكرم فاضل ، المورد ، العدد الرابع ، المجلد الثامن (١٩٧٩) .
- مراد ، خليل علي ، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني . الثاني ١٠٤٨ - ١١٦٤ هـ / ١٦٣٨ - ١٧٥٠ م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ، بغداد ، ١٩٧٥ .

نظمي زادة مرتضى افندي ، كلشن خلفا ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس
(مطبعة الادب ، النجف الاشرف ، ١٩٧١) .

نيبور ، كارستن ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه عن
الامانية الدكتور محمود حسين الامين (شركة دار الجمهورية للطباعة
والنشر ، بغداد ، ١٩٦٥) .

نيبور ، كارستن ، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة سنة ١٧٦٥ ،
ترجمة سعاد هادي العمري (مطبعة دار المعرفة ، بغداد ، ١٩٥٥) .

هرشلاغ ، ز . ي ، مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط،
نقله الى العربية مصطفى الحسيني (دار الحقيقة، بيروت ، ١٩٧٣)

ولستيد ، جيمس ريموند ، رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داود باشا ،
ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي (مكتبة النهضة العربية ،
بغداد ، ١٩٨٤) .

Baer, Gabriel, The administrative, economic and Social functions of
Turkish Guilds, *Int. J. Middle East. Stud* 1 (1970).

Harris, W. B., From Batum to Baghdad (London, n.d.)
Issawi Charles, The economic history of the Middle East, 1800-
1914 (Chicago, 1966).

Ives, Edward, Avoyage from England to India in the years 1755-
1757, and 1958- 59 (London, 1773).

Longrigg, S.H., Iraq 1900 to 1950 (Oxford, Univ. Press, London,
1953) Raymond, André The Great Arab Cities in the 16th (18th
centuries, New York Univ. Press, NewYork, 1984).

المحتوى

٢٢- ٥

الفصل الاول

نمو المدن وتوزيعها في العراق
في العهود الاسلامية الزاهرة
الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي

٧٢-٢٣

الفصل الثاني

الامصار العربية في العراق
الكوفة والبصرة في العهود الاسلامية الاولى
الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي

١٠٠-٧٣

الفصل الثالث

المدن في العهود الاسلامية المذهرة
الدكتور عبدالقادر سلمان المعاضيدي
كلية التربية - قسم التاريخ / جامعة بغداد

١٣٦-١٠١

الفصل الرابع

دور الخلافة ومراكزها
الدكتور طاهر مظفر العميد
كلية الآداب - جامعة بغداد

١٦٢-١٣٧

الفصل الخامس

مدن القلاع الجبلية
الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي

٢٢٢-١٦٣

الفصل السادس

الحياة الاقتصادية ونظمها في المدن
في عهد الازدهار الاسلامي
الدكتور حمدان عبدالمجيد الكبيسي
كلية الآداب - جامعة بغداد

٢٧٨-٢٢٣

الفصل السابع

مدن القلاع
الدكتور علاء موسى كاظم نورس
استاذ مساعد في تاريخ العرب الحديث

٣٠٨-٢٧٩

الفصل الثامن

الخدمات العامة في المدن العراقية
(الحقبة الحديثة)
الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف
كلية التربية - جامعة بغداد

٣٧٥-٣٠٩

الفصل التاسع

المدن العراقية كمراكز للنشاط الاقتصادي
في العهود المتأخرة ١٥٣٤ - ١٩١٤
الدكتور طارق نافع الحمداني
جامعة بغداد / كلية التربية
الدكتورة صباح ابراهيم الشихلي
جامعة بغداد / كلية الآداب

